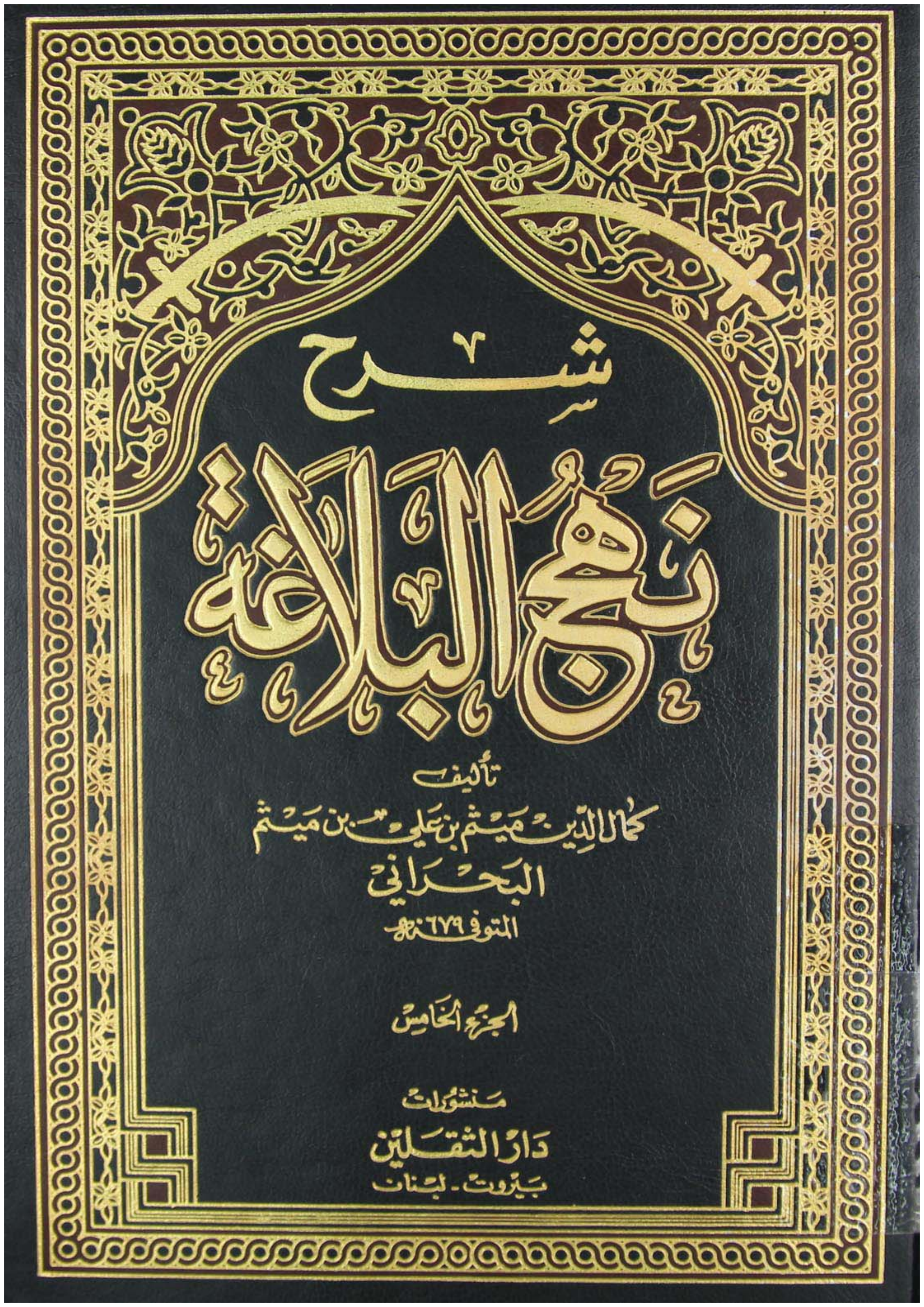
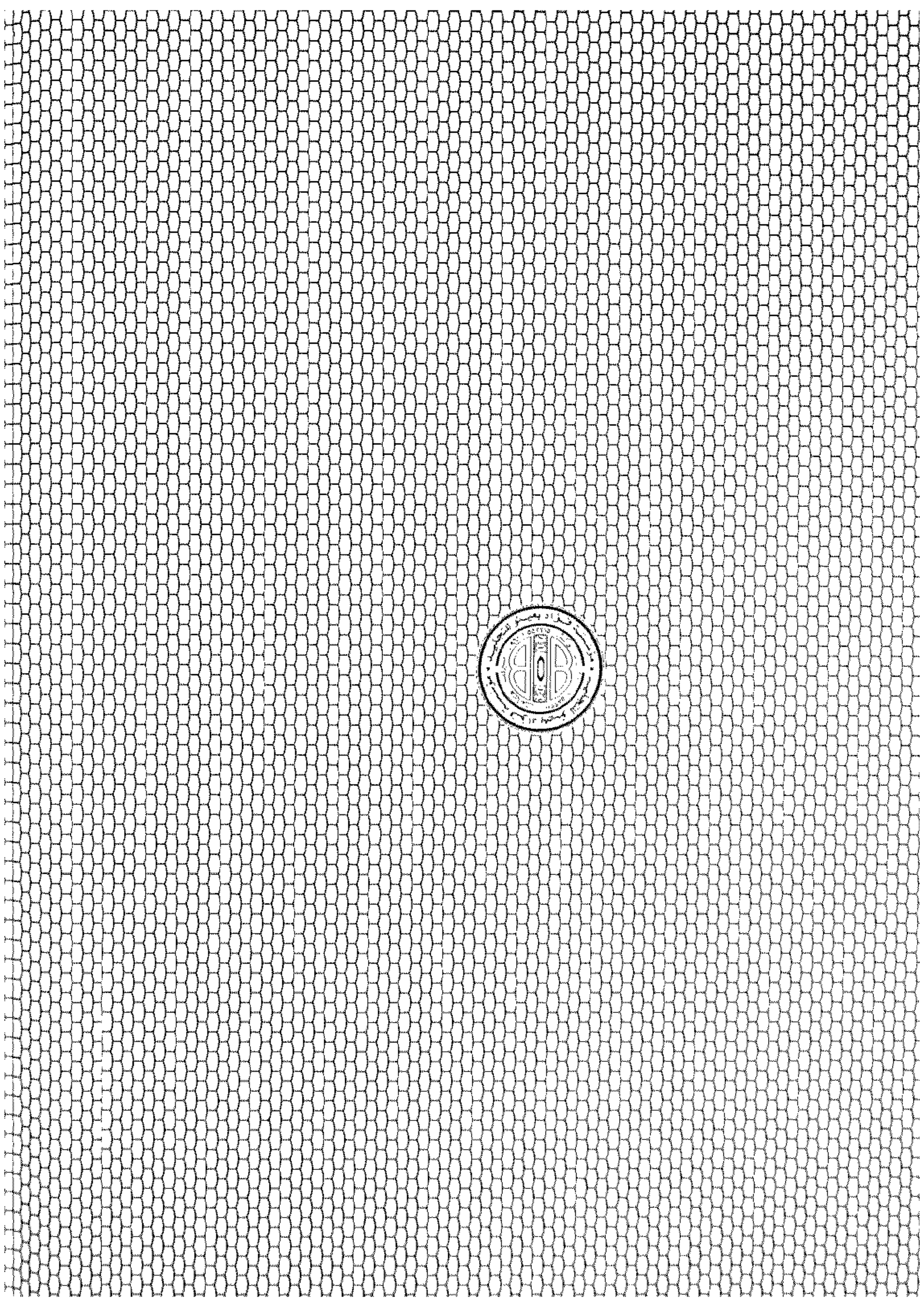
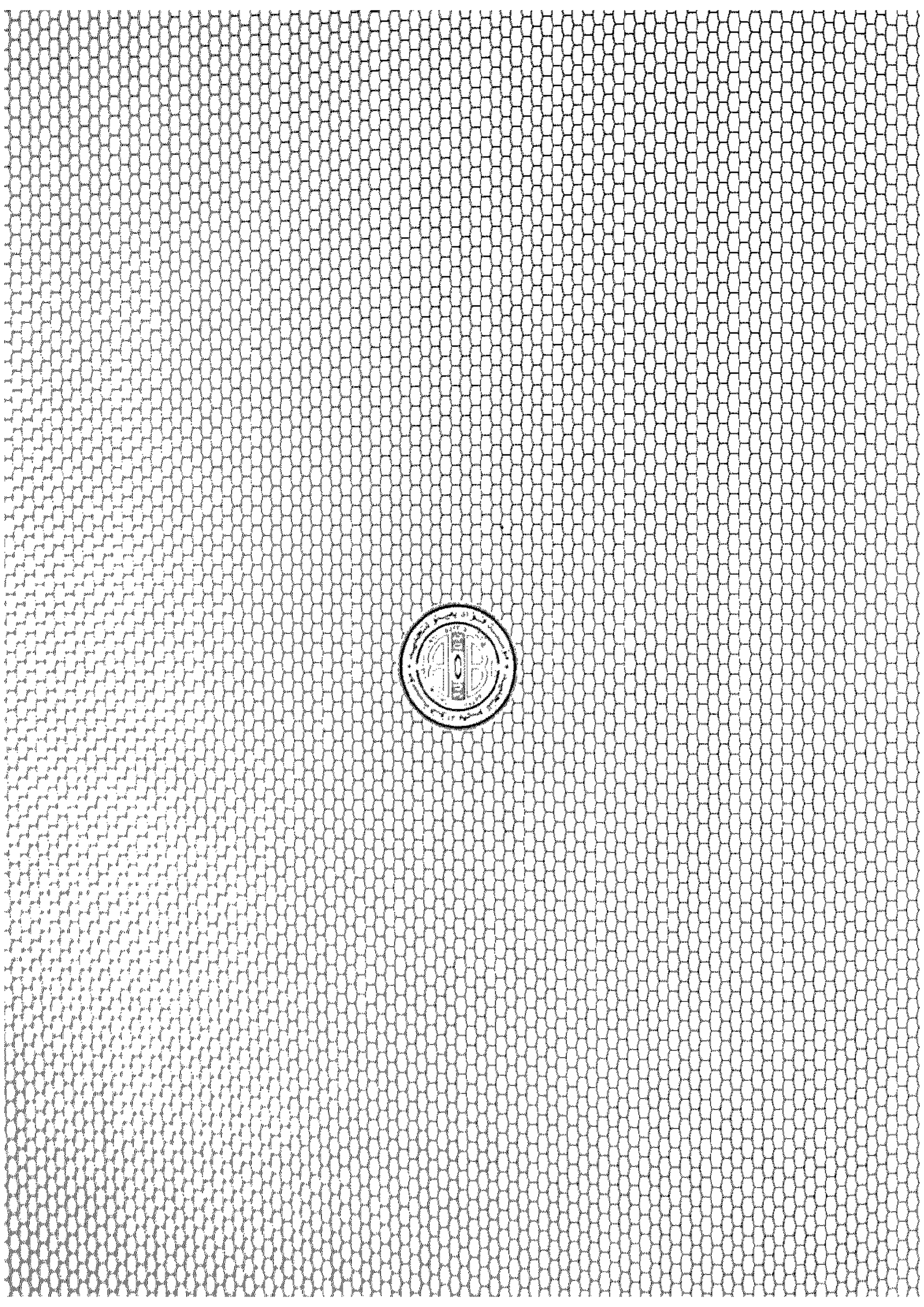


شرح
نهج البلاغة
تأليف
كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩هـ
الجزء الخامس
منشورات
دار الثقلين
بيروت - لبنان



www.haydarya.com





شرح
نهج البلاغة

تأليف

كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩ هـ

الجزء الخامس

دار الثقلين
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



دار الثقلين للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ص ، ب ٢٥/١٧٩ تلفاكس ٢٧١٦٣٠
DAR AL THAKALAIN Printing ,Publishing andDistribution BEIRUT-LEBANON P.O. BOX:179/25 -Telefax :271630

بســـم اللــه الرحمـن الرحيم

٣١ ـ ومن وصيــةٍ له (عليه السلام)

للحسن بن علي عليه السلام كتبها اليه بحاضرين منصرفاً من صفين :

أقـول : روى جعفر بن بـابـويـه القمي ـ رحمـه الله ـ أن هـذه الـوصية كتبهـا عليه السلام إلى ابنـه محمد ابن الحنفيـة ـ رضي الله عنـــه ـ وهي من أفصح الكلام وأبلغه وأشمله [أجمعه خ] لدقائق الحكمة العملية ولطائفهـا ، وأكمل عبارة يجذب بهـا إلى سبيل الله . وحـاضرين : اسم مـوضع بـالشام . وفيهـا فصول :

الفصل الأول : قوله :

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْـرِ ، الـذَّامِّ لِلدُّنْيَا ، السَّـاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَـوْتَى ، وَالظَّاعِنِ عَنْهَـا غداً ، إلى الْمَـوْلُـودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لاَ يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ، غَرَضِ الأَسْقَامِ ، وَرَهِينَةِ الأَيَّامِ ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ ، وَعَبْدِ الـدُّنْيَا ، وَتَـاجِرِ الْغُـرُورِ ، وَغَرِيمِ الْمَنَـايَا ، وَأَسِيـرِ الْمَـوْتِ ، وَحَلِيفِ الْهُمُـومِ ، وَقَـرِينِ الأَحْـزَانِ ، وَنُصْبِ الآفَـاتِ ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ .

أقول : الرهينة : ما يرهن . والرميـة : الهدف ، والتـاء لنقل الاسم من الـوصفية إلى الاسميـة الصرفـة . والحليف : المحـالف . والنصب : الشيء المنصوب .

وهذا الفصل كالعنوان للوصية ، وقد ذكر لنفسه أوصافاً سبعـة ، ولولـده

أربعة عشر في معرض الوعظ والتنفير عن الدنيا والركون إليها ، وضاعف الأوصاف لولده لأنه المقصود بالوصية والموعظة :

فالأول : من الفان ، واللفظ هنا مجاز تسمية له باسم غايته ، ووقف على المنقوص بحذف الياء لمراعاة القرينة الثانية ، وقد علمت جوازه .

الثاني : المقر للزمان : أي بالغلبة والقهر المعترف بالعجز في يد تصريفاته كأنه قدره خصماً ذا بأس يقرّ الأقران له.

الثالث : المدبر العمر، وذاك انه كان عليه السلام قد ذرّف على الستين .

الرابع : المستسلم للدهر ، وهو أبلغ من المقر للزمان .

الخامس : الذام للدنيا ، ولم يزل عليه السلام نافراً عنها ومنفراً بذكر معايبها .

السادس : الساكن مساكن الموتى ، وهو تنفير عن الركون إلى الدنيا والمقام بها بذكر كونها مساكن الموتى ، إذ من كان من مساكنهم يوشك أن يلحقه ما نزل بهم ، وتقرب في التنفر من قوله تعالى : ﴿ **وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم** ﴾(1) الآية .

السابع : الظاعن عنها غداً ، وهو تذكير بالمفارقة ، وغداً كناية عن وقتها ، ولفظ الظاعن مستعار له . وأما أوصاف المولود :

فالأول : المؤمّل ما لا يدرك ، وفيه تنفير عن طول الأمل . إذ كان ينسي الآخرة ، وجعل وجه التنفير تأميله ما لا يدرك ، وظاهر أن الإنسان ما دام في هذه الدار موجّه أمله نحو مطالبها كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم : يشيب ابن آدم ويشبّ فيه خصلتان : الحرص والأمل . وذلك يستلزم انقضاء مدته دون بلوغها .

الثاني : السالك سبيل من قد هلك، وسبيلهم سفرهم في الدنيا إلى الآخرة وقطعهم لمنازل الأعمار ، وأضافها إلى من هلك تذكيراً بالموت .

---

(1) ١٤ - ٤٧ .

الثالث : غرض الأسقام ، واستعار لفظ الغرض له باعتبار كونه مرمياً بسهام الأمراض كالغرض .

الرابع : رهينة الأيام ، واستعار له لفظ الرهينة باعتبار أن وجوده مربوط بالأوقات ، وداخل في حكمها كما يرتبط الرهن بيد مرتهنه .

الخامس : ورميّة المصائب ، وهو كقوله : غرض الأسقام .

السادس : وعبد الدنيا ، ولفظ العبد مستعار لأنَّ طالب الدنيا منقاد بطبعه إليها ، وعامل لها كما ينقاد العبد لسيده ويعمل له .

السابع : وتاجر الغرور : أي تجارته لها غرور وغفلة عن المكاسب الحقيقية الباقية ، ولفظ التاجر مستعار له باعتبار بذله لما له وأعماله في شر الدنيا على وهم أنها هي المطالب الحقة المربحة .

الثامن : وغريم المنايا ، ولفظ الغريم مستعار له باعتبار طلب الموت له كالمتقاضي بالرحيل كما يتقاضى الغريم .

التاسع : استعار له لفظ الأسير باعتبار انقياده للموت وعدم تمكينه من الخلاص .

العاشر : وحليف الهموم .

الحادي عشر : وقرين الأحزان ، واستعار لفظي الحليف والقرين له باعتبار . عدم انفكاكه عن الهموم والأحزان كما لا ينفك الحليف والقرين عن حليفه وقرينه .

الثاني عشر : ونصب الآفات ، كقوله : ورميّة المصائب .

الثالث عشر : وصريع الشهوات ، ولفظ الصريع مستعار له باعتبار كونه مغلوباً لشهوته مقهوراً لها كالقتيل .

الرابع عشر : وخليفة الأموات ، وفيه تنفير عن الدنيا بتذكير الموت لأن خليفة الأموات في معرض اللحوق بهم ، ونحوه قول بعض الحكماء : إن امرءاً ليس بينه وبين آدم إلّا أب ميت لمعرق النسب في الموت .

الفصل الثاني : قوله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي ـ دُونَ هُمُومِ النَّاسِ ـ هَمُّ نَفْسِي ، فَصَدَقَنِي رَأْيِي ، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي ، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لاَ يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ . وَصِدْقٍ لاَ يَشُوبُهُ كَذِبٌ ، وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي ، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي ، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي ، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ .

أقول : جمح الفرس : إذا غلب صاحبه فلم يملكه . ويزعني : يمنعني . والمحض : الخالص . وأفضى : أي انتهى . والشوب : المزج والخلط . وقابل في لفظه بين الإقبال والإدبار والآخرة والدنيا .

وقد أشرنا إلى معنى إدبار الدنيا وإقبال الآخرة في قوله : ألا وإن الدنيا قد أدبرت ، واستعار لفظ الجموح للدهر باعتبار عدم تمكنه من ضبطه في تغيّراته وتصريفاته الخارجة عن اختياره كالجموح من الخيل ، وما الأولى بمعنى الذي ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، وعلى المعنى الأول يكون من للتبيين ، وعلى الثاني لابتداء الغاية ، وما الثانية بمعنى الذي ومحلها الرفع بالابتداء ، وفيما تبيّنت خبره ، ومستظهراً حال ، ومدار الفصل على إعلامه إيّاه أنه في معرض الزوال عنه وأن ذلك الوقت هو وقت الاهتمام بحال نفسه وبحاله لينزّله منزلة نفسه وأنه شديد الاهتمام بحاله ليكون ذلك أدعى لقبول وصيته وهو كالتوطئة والتمهيد لها .

ثم أعلمه أن فيما تبيّن له عليه السلام من الأمور المذكورة قرب رحيله إلى الله وذلك هو الذي وزعه ومنعه عن ذكر ما سواه والاهتمام بما وراءه من المصالح المتعلقة بصلاح الخلق ونظام العالم . إذ كان ذلك هو وقت التضيق على الإنسان فيما هو أهمّ عليه من الاستكمال بالفضائل، والاستعداد للقاء الله

دون ما سبق من أوقات الشبيبة واستقبال العمر لاتساعها لصلاح حال الغير والاشتغال بالأمور المباحة ، غير أنه حين تبيّن له ذلك وتفرّد به هم نفسه دون غيرها ، ومن صدقه رأيه بكشفه له عما ينبغي أن يكون اشتغاله به من أمر نفسه ووجوب العمل لها فيما يهمّها ، وصرفه عن هواه فيما يخرج عنها . إذ كان أجود الآراء وأصدقها في الأمر عنده شدة الاهتمام به ، وصرح له خالص أمره وما ينبغي له ، وانتهى به إلى جد وصدق خالصين من شائبة اللعب والكذب . وجده عليه السلام بعضاً منه وهو كناية عن شدة اتصاله به وقربه منه ومحبته له كما قال الشاعر :

وإنّما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

بل وجده كله : أي عبارة عن كله . إذ كان هو الخليفة له والقائم مقامه ووارث علمه وفضائله ، ودلّ على شدة قربه منه وأنه بمنزلة نفسه بذكر الغايتين في قوله : حتى . إلى قوله : أتاني ، ووجه التشبيه بين ما يصيب ولده وبين ذلك الشيء وإن لم يصبه عليه السلام شدة تألمه به .

واعلم أن ذلك الوجدان وإن كان له طبعاً كما يحصل للوالد في أمر ولده لكنه مما لزم التفطن له في آخر العمر عند تذكير انقطاع الدنيا لما في طبعه من محبة بقاء الذكر الجميل والحرص على دوام الخير والآثار الصالحة في العالم ولذلك جعله لازماً لتفرّد همّ نفسه به وصدق رأيه في النصيحة.

وروي : محضُ . مرفوعاً على الفاعلية ومنصوباً بإسقاط حرف الجر ، والتقدير عن محض أمري ، ثم نبه على أن من لوازم وجدانه لما وجده من أمره أن عناه وأهمّه منه ما يهمّه من أمر نفسه فكتب إليه هذه الوصية لتكون له ظهراً ومستنداً يرجع إلى العمل بها في حالتي بقائه له وفنائه عنه . إذ كان ما اشتملت عليه هذه الوصية من الحكم والآداب ومكارم الأخلاق ، وتعريف سلوك الله مما راض به نفسه في مدة عمره اقتفاءً لأثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واقتداءً به فاقتضت عنايته به أن يحثه على العمل بها . وبالله التوفيق .

الفصل الثالث : قوله :

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَلُزُومِ أَمْرِهِ ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ ،

وَالاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ ، وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ ؟؟

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ ، وأمِتْهُ بالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِاليَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ المَوْتِ وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا ، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ ، وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ ، وَأَعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِم وَآثَارِهِمْ ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا ، وَعَمَّا انْتَقَلُوا ، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ ، فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ؛ فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ ، وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ ، وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ ، وَأَلْجِىءْ نَفْسَكَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى إِلهِكَ فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفٍ حَرِيزٍ ، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ ، وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ ، وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي ، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْهَا صَفْحاً ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحُقُّ تَعَلُّمُهُ .

أقول : الغمرات : الشدائد . والمثوى : محل الثواء والإقامة . وهذا حين افتتح ما يريد أن يوصي به .

واشتمل هذا الفصل من ذلك على أمور :

أحدها : تقوى الله ، وقد علمت حقيقتها فيما سلف ، ويشبه أن يكون المراد بها هنا الخوف منه تعالى .

الثاني : لزوم أمره وهو من لوازم تقواه .

الثالث : عمارة قلبه بذكره ، واستعار لفظ العمارة لتكميل قلبه بذكر الله ، وإكثاره منه لأنه روح العبادات، وكمال النفس كما أن العمارة كمال للدار وهو داخل في لزوم ذكره لقوله تعالى : ﴿ **واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾[1] .

الرابع : الاعتصام بحبله ، واستعار لفظ الحبل لما يوصل إليه من دينه فيكون التمسك به سبباً للنجاة كالحبل ، وأراد بالاعتصام الامتناع بالتمسك به من عذاب الله . ثم استفهم عن سبب أوثق منه استفهام إنكار وتعجّب من وثاقته ، ويدخل في لزوم أمره لقوله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً** ﴾[2] .

الخامس : أمره أن يحيي قلبه بالموعظة ، واستعار وصف الإحياء له باعتبار تكميله لنفسه بالعلم والاعتبار الحاصل عن الموعظة كما يكمل المرء بالحياة .

السادس : قوله : أمته بالزهادة ، والذي يميته هي النفس الأمارة بالسوء ، وإماتتها كسرها عن ميولها المخالفة لأداء العقل بترك الدنيا والإعراض عنها وتطويعها بذلك ، ويحتمل أن يريد به النفس العاقلة أيضاً ، وإماتتها قطعها عن متابعة هواها .

السابع : أن يقويه باليقين : أي من ضعف الجهل للصعود إلى أُفق علّيين والنهوض إلى مقام الأبرار ، ولما كان اليقين درجة اشتداد وقوة في العلم ناسب أن يجعله تقوية للقلب .

الثامن : وأن ينوره بالحكمة ، واستعار لفظ التنوير بالحكمة لتحمله لها باعتبار أن ذلك سبب هدايته لسبيل الله في ظلمات الجهل كحامل النار . وقد عرفت الحكمة وأقسامها .

التاسع : أن يذلله بذكر الموت ، وذلك لأن كثرة إخطاره بالبال يستلزم الخوف ويسكن القلب عن جماحه في ميدان الشهوات ، ويذلل من عزة الكبر وهزة العجب وحميّة الغضب .

---

(١) ١٢ - ٧.
(٢) ٣ - ٩٩.

العاشر : أن يقرّره بالفناء : أي يحمله على الإقرار به ويديم ذكره له ليتأكد علمه به .

الحادي عشر : أن يبصره فجائع الدنيا : أي يحمله على النظر بعين البصيرة والاعتبار برزايا الدنيا وآفاتها .

الثاني عشر : أن يحذره صولة الدهر وفحش تقلّب الليالي والأيام ، ولفظ الصولة مستعار له ملاحظة لشبهه بالسبع في أخذه وما يكون بسببه من الأذى .

الثالث عشر : أن يعرض عليه أخبار الماضين ، ويذكره ما أصابهم لينظر ما فعلوا وعما انتقلوا من الآثار العظيمة والملك الجسيم ، ويحصل من ذلك عبرة وقياساً لحاله بحالهم ، ويستقرب لحاقه بهم وصيرورته كأحدهم فيما صاروا إليه ، ووجه التشبيه قرب حاله من حال أحدهم . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا** ﴾[1] الآية .

الرابع عشر : أن يصلح مثواه ، وهو الدار الآخرة بلزوم الأعمال الصالحة ولا يبيع آخرته وما وعد فيها من الخيرات الباقية بما وجد في دنياه من اللذات الوهمية الفانية ، ولفظ البيع مستعار .

الخامس عشر : أن يترك القول فيما لا يعرفه . إذ القول بغير علم يستلزم رذيلتي الكذب والجهل ، ويلحق به الذم . ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لبعض أصحابه : كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس خرجت عهودهم وأماناتهم وصاروا هكذا : ـ وشبّك بين أصابعه ـ قال : فقلت : مرني يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : خذ ما تعرف ودع ما لا تعرف ، وعليك بحويضة نفسك . وكذلك قوله : والخطاب فيما لا تكلّف كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

السادس عشر : أن يمسك عن طريق إذا خاف ضلالته ، والمراد التوقف عند الشبهات وعدم التسرع إلى سلوك طريق يشك في تأديته إلى

---

(١) ٤٠ ـ ٨٢.

الحق فإنّ توقفه وتثبّته عند طلب الحق إلى أن يتضح له طريقه خير له من التعسف وركوب ما يخاف الضلال به من الطرق .

السابع عشر : أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فعلاً وقولاً ، ويباين من فعله بقدر إمكانه ، وهو من فروض الكفاية ، وعليهما مدار نظام العالم ، ولذلك كان القرآن الكريم والسنّة النبوية مشحونين بهما واستدرجه إلى ذلك بقوله : تكن من أهله . لأنهم أولياء الله الأبرار المرغوب في الكون منهم .

الثامن عشر : أن يجاهد في الله أعداء دينه الجهاد الحق ، وإضافة حق إلى جهاده إضافة الصفة إلى الموصوف لأن الصفة من باب الأهم .

التاسع عشر : أن لا يأخذه في الله لومة لائم ، وهو كناية عن نهيه عن التقصير في طاعة الله . إذ كان من لوازم المقصر استحقاق لوم اللائمين .

العشرون : أن يخوض الغمرات إلى الحق حيث كان ، ولفظ الخوض مستعار لمعاناة الشدائد والدخول فيها لطلبه الحق .

الحادي والعشرون : أن يتفقه في الدين ، ويتعلم الأحكام الشرعية ومبادئها .

الثاني والعشرون : أن يعوّد نفسه الصبر على المكروه . وقد علمت أن احتمال المكروه فضيلة تحت الشجاعة وهو من مكارم الأخلاق .

الثالث والعشرون : أن يلجىء نفسه في أُموره كلها إلى الله تعالى ، وهو أمر بالتوكل على الله والإنابة إليه في كل مرغوب أو مرهوب ، وقد علمت حقيقة التوكل وما يستلزمه ، واستدرجه إلى ذلك بقوله : فإنك تلجئها إلى كهف حريز ومانع عزيز ، واستعار لفظ الكهف له تعالى باعتبار أن من توكل عليه كفاه ومنعه مما يخاف كما يمنع الكهف من يلتجىء إليه .

الرابع والعشرون : أن يخلص في دعائه ومسألته لربه . إذ كان ذلك من شرائط الإجابة ، واستدرجه إلى الإخلاص بقوله : فإنّ بيده العطاء والحرمان ليشتد الانجذاب إليه والإعراض عن غيره . والفاءات الثلاث : فنعم ، وقوله : فإنّك. وقوله: فإن بيده . جواب الأوامر الثلاثة .

الخامس والعشرون : أن يكثر الاستخارة : أي الطلب إلى الله تعالى أن يخيّر له فيما يأتي ويذر .

السادس والعشرون : أن يتفهم وصيته ولا يعرض عنها ، وكنى عن الإعراض وترك العمل بها بالذهاب صفحاً ، وانتصب صفحاً على الحال : أي ولا تذهبنّ معرضاً ، واستدرجه للإقناع بها بقوله : فإنّ خير القول ما نفع ، والتقدير فإنّ وصيتي نافعة ، وما نفع فهو خير القول . فإذن وصيتي خير القول .

ثم نبّهه بقوله : واعلم . إلى قوله : تعلّمه . على أن من العلوم ما لا خير فيه لئلا يتشوّق إلى معرفته فيصدّه ذلك عن سلوك سبيل الله والعلم المؤدي إليه ، وتلك هي العلوم التي نهت الشريعة عن تعلمها كالسحر والكهانة والنجوم والنيرنجات ونحوها مما لا يكون سبيلاً إلى المقاصد الحقيقية التامة .

وتقدير الكلام : واعلم أن كل علم لا يحق تعلمه : أي لا يثبت في الشريعة تعلمه وجوباً ولا ندباً فهو علم لا ينتفع به في طريق الآخرة فلا خير فيه لأن الخير الحقيقي هو المنفعة الباقية عند الله فما لا منفعة فيه لا خير فيه، ولذلك استعاذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منه فقال : وأعوذ بك من علم لا ينفع . فينتج أن كل علم لا يحق تعلّمه فلا خير فيه . وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : قوله :

أيْ بُنَيَّ ؛ إنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً ، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً ؛ بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إلَيْكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ إلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي ، وَأَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نَقَصْتُ فِي جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِي إلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى، أَوْ فِتَنِ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ ، وَإنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ : مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ ؛ لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيتَ

مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ ، فَأتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأتِيهِ، وَآسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أظْلَمَ عَلَيْنا مِنْهُ .

أيْ بُنَيَّ ؛ إنِّي - وَإنْ لَمْ أكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي - فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أعْمَالِهِمْ . وَفَكَّرْتُ فِي أخْبَارِهِمْ ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ ، حَتَّى عُدْتُ كَأحَدِهِمْ ، بَلْ كَأنِّي بِمَا آنْتَهَى إلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أوَّلِهِمْ إلى آخِرِهِمْ ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أمْرٍ نَخِيلَهُ وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ ، وَرَأيْتُ - حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ ، وَأجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أدَبِكَ - أنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ ، وَمُقْتَبِلُ الدَّهْرِ ، ذُونِيَّةٍ سَلِيمَةٍ وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ ، وَأنْ أبْتَدِءَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ وَتَأوِيلِهِ ، وَشَرَائِعِ الإسْلاَمِ وَأحْكَامِهِ ، وَحَلاَلِهِ وَحَرَامِهِ ، [وَ] لاَ أُجَاوِزَ لَكَ إلى غَيْرِهِ ، ثُمَّ أشْفَقْتُ أنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا آخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي آلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أحَبَّ إلَيَّ مِنْ إسْلاَمِكَ إلى أمْرٍ لاَ آمَنُ عَلَيْكَ فِيهِ الْهَلَكَةَ ، وَرَجَوْتُ أنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ لِرُشْدِكَ ، وَأنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ ، فَعَهِدْتُ إلَيْكَ وَصِيَّتِي هٰذِهِ .

وَآعْلَمْ ، يَا بُنَيَّ ، أنَّ أحَبَّ مَا أنْتَ آخِذٌ بِهِ إلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي ، تَقْوَى اللهِ وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، وَالأخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ وَالصَّالِحُونَ مِنْ أهْلِ بَيْتِكَ ؛ فَإنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أنْ نَظَرُوا لأنْفُسِهِمْ كَمَا أنْتَ نَاظِرٌ ، وَفَكَّرُوا كَمَا أنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ الأخْذِ بِمَا عَرَفُوا وَالإمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا ، فَإنْ أبَتْ نَفْسُكَ أنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ ، لاَ بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ ، وَعُلُوِّ الْخُصُومِيَّاتِ وَآبْدَأْ - قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ - بِالاسْتِعَانَةِ بِإلٰهِكَ ، وَالرَّغْبَةِ إلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أوْ لَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ ؛ أوْ أسْلَمَتْكَ إلى ضَلاَلَةٍ ؛ فَإذَا أيْقَنْتَ أنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأيُكَ فَآجْتَمَعَ ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ

هَمّاً وَاحِداً ؛ فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ ؛ وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ ! وَالإِمْسَاكُ عَنْ ذٰلِكَ أَمْثَلُ .

فَتَفَهَّمْ ، يَا بُنَيَّ ، وَصِيَّتِي ؛ وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ ، وَالابْتِلاَءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لاَ نَعْلَمُ . فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ ، فَإِنَّكَ أَوَّلَ مَا خُلِقْتَ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ . وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

وَاعْلَمْ ، يَا بُنَيَّ ، أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَارْضَ بِهِ رَائِداً ، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً ، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً ، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ـ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ ـ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ .

أقول : الوهن : الضعف . والمبادرة : المسارعة والمسابقة . وأفضى : وصل . والبغية : الطلبة . والتوخّي : القصد . وأجمعت : صممت العزم . وأسلمته إلى كذا : خليت بينه وبينه . وأمثل : أقرب إلى الخير .

وفي هذا الفصل مقاصد :

الأول : أنه أشار إلى بعض العلل الحاملة له على هذه الوصية ، وهي كونه قد بلغ سناً عالياً وأخذ ازدياداً في الضعف ، وذلك أنه كان قد جاوز الستين فلزم من ذلك خوفه لأحد الخصال المذكورة فبادرها وسابقها إليه . وخصالاً مفعول به . وعدّ من تلك الخصال ثلاثاً :

الأولى : أن يعجل به أجله إلى الآخرة قبل أن يوصل إليه ما في نفسه من الحكمة .

الثانية : أن ينقص في رأيه ، وذلك أن القوى النفسانية تضعف عند علو السن لضعف الأرواح الحاملة لها فينقص بسبب ذلك تصرف العقل وتحصيله للآراء الصالحة .

الثالثة : أن يسبقه إليه بعض غلبات الهوى فإن الصبي إذا لم يؤخذ بالآداب في حداثته ولم ترض قواه لمطاوعة العقل وموافقته كان بصدد أن تميل به القوى الحيوانية إلى مشتهياتها ، وينجذب في قياد هواه إلى الاستعمال بها فيفتنه ويصرفه عن الوجهة الحقيقية وما ينبغي له فيكون حينئذ كالصعب النفور من الإبل ، ووجه التشبيه أنه يعسر حمله على الحق وجذبه إليه كما يعسر قود الجمل الصعب النفور وتصريفه بحسب المنفعة . ثم نبه على وجوب المبادرة إليه بالأدب ، وزرعه في قلبه بضمير صغراه قوله : وإنما قلب الحدث . إلى قوله : قبلته .

وأشار إلى وجه التشبيه بقوله : وما أُلقي فيها من شيء قبلته . وذلك أن قلب الحدث لما كان خالياً من الانتقاش بالعقائد وغيرها مع كونه قابلاً لما يلقى إليه من خير أو شر فينتقش به أشبه الأرض الخالية من النبات والزرع القابلة لما يلقى فيها من البذر ، وتقدير الكبرى : وكل قلب كان كذلك فيجب أن يسبق إليه ببذر الآداب وغرس الحكمة .

فلذلك بادره بالأدب قبل أن يقسو قلبه عن الانقياد للحق والاشتغال بالأمور الباطلة . ثم أشار إلى العلة الأُخرى من العلل الغائية لمبادرته بالأدب وهي أن يستقبل بجد رأيه وقوة فكره ما قد كفاه أهل التجارب بغيته من العلوم وعوفي فيه من علاج التجربة ومعاناتها فأتاه من ذلك العلم التجربي ما كان أهل التجربة يأتونه ويطلبونه ، واستبان له ما ربما أظلم عليهم منه ، وفرّق بين من يأتيه العلم صفواً ، ويلقى إليه بيناً واضحاً ، وقد كفى فيه مؤونة الاكتساب ، وبين من سعى إليه وشقى في تحصيله وخاض إليه غمرات الشكوك وظلمات الشبهات . وكل ذلك من الأمور المقنعة له في قبول الوصية

والعمل بما اشتملت عليه من الحكم والآداب لأن أهل التجارب إذا كانوا قد جدّوا في تحصيله مع ما وجدوا فيه من المشقة. فلإن يجد هو ويقبله خالصاً من الكلفة أولى .

المقصود الثاني : أشار إلى فضيلة نفسه واستكمالها بالعلوم . ثم إلى كونه في غاية العناية والشفقة عليه وإلى ما رآه أصلح في تعليمه إيّاه من العلوم غير متجاوز إلى غير ذلك ، وغايته من الجميع استدراجه لقبول قوله كما علمت من غرض الخطيب في ذكر فضيلته ، وما يستدرج به للانفعال مما يريد أن يقنع به من الآراء وغيرها . فنبه على فضيلته بقوله : أي بنيّ ، إلى قوله : مجهولة .

وقوله : وإن لم أكن.

في قوة جواب اعتراض مقدر كأن قائلاً قال له : فكيف حصلت العلوم عن تجارب الأمور مع حاجة التجربة إلى عمر طويل يشاهد فيه الإنسان تغيّرات الأمور وتقلبات الدهور ؟ فقال : إني وإن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي وشاهدت أحوالهم لكني نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم المأثورة وسرت في آثارهم سيراً محسوساً ومعقولاً حتى صرت كأحدهم في عيان أمورهم .

وقوله : فعرفت .

عطف على قوله : وسرت .

وقوله : ذلك .

إشارة إلى ما انتهى إليه من أمورهم . وكنى بالصفو عن الخير وبالكدر عن الشر : أي فعرفت خير أمورهم من شرها ونفعها من ضرّها ، واستخلصت لك من كل أمر جليله وهو خيره وما ينفع منه عند الله من العلوم والعبر النوافع ، وروي : نخيلته أي خلاصته . وقصدت لك جميله : أي الأمر الحسن منه دون قبيحه ، وصرفت عنك مجهوله : أي ما اشتبه عليك أمره والتبس الحق فيه .

وقوله : ورأيت حيث عناني . إلى آخره .

إشارة إلى كمال عنايته وشفقته عليه ووجوه اختياراته له ما هو أولى به من العلوم ، وأجمعت عطف على يعني ، وأن يكون في محل النصب على أنه مفعول أول لرأيت ، وتكون هنا تامة ، والواو في قوله : وأنت للحال ، وأن ابتدئك عطف على أن يكون ، والمفعول الثاني لرأيت محذوف تقديره أنفع وأصلح ، وتقدير الكلام : ورأيت حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق من أمر ولده من النظر في مصالحه والاهتمام بأحواله، وما صممت عزمي عليه من تأديبك أن يكون ذلك التأديب حال إقبال عمرك حال كونك ذا نيّة سليمة من الأمراض النفسانية والأخلاق الذميمة ، وكونك ذا نفس صافية من كدر الباطل ، وأن أبتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله وما يشتمل عليه من شرائع الإسلام: أي قوانينه وأحكامه وحلاله وحرامه ، وأقتصر بك على ذلك كما اقتصر عليه كثير من السلف .

وقوله : ثم أشفقت .

عطف على رأيت : أي كنت رأيت أن أقتصر بك على ذلك ولا أتجاوز بك إلى غيره من العلوم العقلية . ثم خفت أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من أهوائهم وآرائهم مثل ما التبس عليهم : أي التباساً مثل الالتباس عليهم فكان إحكام ذلك : أي ما اختلف الناس فيه على ما كرهت من شبهك له أحب إليّ من اسلامك إلى أمر لا آمن عليك فيه الهلكة في الدين ، وذلك الأمر هو ما اختلف الناس فيه من المسائل العقلية الإلهية التي يكثر التباس الحق فيها بالباطل، ويكتنفها الشبهات المغلطة التي هي مظنة الخطر والانحراف بها عن سبيل الحق إلى سبيل الهلاك ، وإحكام ذلك الأمر ببيان وجه البرهان فيه وكيفيّة الخلاص من شبهة الباطل ومزاجه .

وقوله : ورجوت أن يوفقك .

عطف على أشفقت ، والضمير المجرور بفي يعود إلى ما اختلف الناس فيه .

المقصود الثالث : الإشارة إلى بيان ما هو الأحب إليه أن يأخذ به من

وصيته ، والإرشاد إلى كيفية أخذه وما ينبغي أن يبدء قبل الشروع من الاستعانة بالله والرغبة إليه في التوفيق . إلى غير ذلك من الآداب التي يتم بها الاستعداد للبحث والتعلم . فمن الأحب إليه تقوى الله الذي هو الزاد المبلّغ إليه . ثم الاقتصار على ما افترضه الله عليه من النظر في ظواهر الأدلة دون التوغل في الفكر وخوض الشبهات مما لم يكلف به أخذاً بما مضى عليه الصالحون من أهل بيته كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة بن الحرث وغيرهم من بني هاشم .

وقوله : فإنهم إلى قوله : لم يكلّفوا .

ترغيب له في الأخذ بمأخذهم ، وتنفير له عن التوغل والتعمق بضمير صغراه ما ذكر، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فينبغي الاقتداء به في الأخذ بما عرف والإمساك عما لم يكلف .

وقوله : فإن أبت . إلى آخره .

بيان للكيفية التي ينبغي أن يكون عليها طلبة العلوم العقلية ، والتدقيق فيها إن أبت نفسه الاقتصار على ما افترضه الله عليه : أي فليكن طلبك لما أنت طالب له من ذلك على وجوه :

أحدها : التفهم للمقاصد ، والتعلم للحق ، والطلب له لا على وجه تعلم الشبهات والتورط فيها والمشاغبة بها فإن ذلك مما يصد عن تعلم الحق ويمنع من قبوله .

الثاني : أن يبدء قبل نظره في ذلك الطلب بالاستعانة بالله والرغبة إليه في توفيقه لإصابة طريق الحق والوصول إليه .

الثالث : أن يترك كل شائبة أولجته في شبهة كالعادات في نصرة المذاهب الباطلة بحسب اتباع الهوى والآراء التي يطلب بها الرئاسات فإن النفس إذا كانت فيها شائبة محبة لأمر جسماني لم يتضح لها طريق الحق. بل كانت إلى الانحراف في طرق الضلال والشبه المناسبة للمطالب الباطلة أقرب ، وتلك الطرق أعرف عندها لمكان تلك الشائبة . فينبغي للسالك أن يحذف عن نفسه كل شبهة تقود إلى ضلالة ، ولفظ الإسلام مستعار لإهماله وعدم جذبه عما يتورط فيه من الأمور المضلّة .

ثم قال : فإذا أيقنت . إلى آخره : أي فإذا أعددت نفسك للطلب والنظر بما ذكرت لك ، وتحققت أن قد صفا قلبك من كل شائبة تنافي النظر ، فخشع من خشية الله أن يؤاخذك بتركه ، وتم رأيك وعزمك عليه فاجتمع متفرقه حتى لا يبقى لك إلى تركه التفات ، وكان همك فيه هماً واحداً لا ينقسم إلى غيره . فانظر حينئذ فيما فسّرت لك ونبهتك عليه من المسائل العقلية الإلهية كما سيأتي ، وإن أنت لم يجتمع لك ما تحب من نفسك وفراغ نظرها وفكرها عن الشوائب المنافية للعلم وطلبه ونظرت . فاعلم أنك في خوضك وطلبك له إنما تخبط خبط عشواء وتتورط الظلماء ، وكل من كان كذلك فليس أهلاً لطلب الدين من أصوله . وحذف المضاف إلى العشواء وأقام المضاف إليه مقامه ، واستعار وصف الخبط له باعتبار أنه طالب للعلم من غير استكمال شرائط الطلب، وعلى غير وجهه فهو متعسّف سالك على غير طريق المطلوب كالناقة العشواء . وكذلك لفظ الظلماء للشبه باعتبار أن الذهن لا يهتدي فيها لطلب الحق كالماشي في الظلماء .

المقصود الرابع : أمره بتفهم وصيته . ونبهه على جملة من صفات الله وأفعاله التي قد يتوهم التضاد والتناهي في إسنادها إلى مبدأ واحد ، وأشار إلى أنها ليست بمتضادة ، وأن مبدأها واحد . فأما الصفات فهو أن القادر على الموت ومن له أن يميت فهو القادر على الحياة وله أن يحيي باعتبار أن أسباب الموت والحياة تنتهي اليه،وكذلك الخالق هو المميت فإن فاعل الخلق هو مقدّر الموت الذي ينتهي إليه أسبابهما ، وإلى هذين الاعتبارين الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ فيحيي ويميت باعتبار أنه الفاعل الأول لهما وباعتبار أنه الرب المطلق هو المالك الأول لهما ، وكذلك المفني هو المعيد والمبتلي هو المعافي باعتبار انتهاء أسباب الفناء والإعادة والابتلاء والمعافاة إليه .

وقد علمت أن كل هذه الأمور اعتبارات عقلية تلحق معقوليّة الواجب سبحانه بالقياس إلى مخلوقاته وآثاره كما استقصيناه في الخطبة الأولى ، وأما الأفعال فهو أنه تعالى لما خلق الدنيا لم يمكن خلقها واستقرار وجودها إلاّ على ما خلقها الله عليه من إفاضة ما يعد نعمة في حق بعض العبيد من مال

وصحة ونحوهما ، والابتلاء بما يعد بلاء من الفقر والمرض ونحوهما ، وإن كانت النعماء أيضاً ابتلاء كما قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾[1] . ثم لزوم الجزاء في المعاد لنفوس المبتلين والمنعم عليهم بحسب طاعتهم ومعصيتهم في النعمة والابتلاء ، وكذلك خلقه لها على ما شاء مما لا يعلم وجه الحكمة فيه ، واعلم أنه قد ثبت في أُصول الحكمة أن المقصود من العناية الإلهية بالذات . إنما هو الخير .

وأما الشرور الواقعة في الوجود فكائنة بالعرض من حيث إنه لا يمكن نزع الخير وتجريده عنها . ولما كان الخير أغلب في الوجود ، وكانت الشرور أموراً لازمة أقلية لم يمكن ترك الخير الكثير لأجلها لأن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير في الجود والحكمة ، وذلك معنى قوله عليه السلام : وإن الدنيا لم تكن لتستقر إلاّ على ما جعلها الله عليه مما عددناه مما يعلم كونه خيراً أو شراً أو لا يعلم حاله : أي لم يكن خلقها إلاّ على ما فيها من خير مراد بالذات وشر مراد بالعرض ، ولزوم الجزاء على السيئة وعقاب النفوس في المعاد عليها من الشرور اللازمة لما حصلت عليه من الهيئات البدنية والملكات الرديئة في الدنيا كما يعلم ذلك من موضعه .

وقوله : فإن أشكل . إلى آخره .

أي فإن أشكل عليك شيء من أسرار القدر ، وخفي عليك وجه الحكمة فيه فلا تتوهم خلوه عن حكمة بل احمله على جهالتك به فإنك أول ما خلقت جاهلاً ثم علمت كما قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾[2] الآية . ونصب أول على الظرف، وجاهلاً على الحال ، وروي أول مرفوعاً بالابتداء وجاهل بالرفع خبراً له .

ثم نبهه على أكثرية ما يسبق جهله به من الأمور ثم يدركه فيما بعد ليجعل ما لا يدرك وجه الحكمة فيه من ذلك القبيل . ثم أمره بالاعتصام بالله واللجأ إليه في أُموره ، وأن يجعل له تعبّده وإليه رغبته ومنه شفقته لأنه تعالى

---

(١) ٢١ - ٣٧.

(٢) ١٦ - ٨٠.

أحق موجود بذلك وأولاه بالأمور المذكورة .

المقصود الخامس : الإشارة إلى فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الأنبياء لزيادته عليهم في إيضاح الخبر عن الله تعالى ، وبيان المطالب الحقيقية التي اشتمل عليها الكتاب العزيز من أسرار التوحيد والقضاء والقدر وأمر المعاد فإن أحداً من الأنبياء السابقين عليهم السلام لم يفصح عن هذه الأمور كإفصاحه ، ولذلك كانت هداية هذه الأمة بتمام ما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم أتم وأكمل من هداية سائر الأمم السابقة عما جاءت به أنبياؤها وكانت عيون بصائرهم أبسط أنواراً وأكثر انتشاراً . وغاية ذكر فضيلته صلى الله عليه وآله وسلم هنا أن يرضى برأيه ودلالته على طريق النجاة في الآخرة ، واستعار له لفظ الرائد باعتبار أنه قد اختبر ما في الآخرة من الثواب المقيم والسعادة الباقية ، وبشّر به أمته كما يبشّر الرائد أهله بوجود الكلاء والماء بعد ارتياده .

ثم أردف ذلك ببيان أنه لم يزل ناصحاً له وأنه لم يبلغ نظره لنفسه وإن اجتهد في ذلك مبلغ نظره له ليتأكد الإقناع برأيه وشوره عليه فيما يراه له . ونصيحة نصب على التمييز.

الفصل الخامس : قوله :

وَاعْلَمْ ، يَا بُنَيَّ ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَلٰكِنَّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ! كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، لاَ يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ ، وَلاَ يَزُولُ أَبداً ، وَلَمْ يَزَلْ ، أَوَّلُ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّةٍ ، وَآخِرُ بَعْدَ الأَشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَةٍ . عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذٰلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلى رَبِّهِ ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ : فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلاَّ بِحَسَنٍ ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلاَّ عَنْ قَبِيحٍ .

أقول : أشار في هذا الفصل إلى الحجة على وحدانية الصانع سبحانه ، وعلى جملة من صفاته . ثمّ إلى ما ينبغي أن يفعله من ملاحظة

عظمته تعالى من الصفات المذكورة فإذن هاهنا أبحاث :

البحث الاول: الحجة على وحدة الصانع، وهي شرطية متصلة مقدمها قوله: لو كان لربك شريك، وتاليها لأتتك رسله. إلى قوله: ولعرفت أفعاله وصفاته، ويستنتج منها استثناء نقيض اقسام التالي لينتج نقيض المقدم. بيان الملازمة: أنه لو كان له شريك لكان شريكه إلهاً مستجمعاً لجميع شرائط الإلهية وإلاّ لم يصلح للشركة لكن من لوازم الإلهية أمور:

أحدها : الحكمة في وجوب بعثة الرسل إلى الخلق ووصولهم إليه لما علمت من برهان وجوب البعثة في موضعه .

الثاني : يلزم أن يكون آثار ملكه وسلطانه وصفات أفعاله ظاهرة مشاهدة.

الثالث : أن يعرف أفعاله وصفات ذاته . لكن هذه اللوازم كلها باطلة :

أما الأول : فلأنه لم يأتنا رسول ذو معجزة يدلنا على الثاني ويخبرنا عنه .

وأما الثاني : فهو أن آثار الملك والسلطان وعظمة الملك وإحكامه إنما يدل على حكيم قادر فأما على التعدد فلا .

وأما الثالث : فلأن مجرد الأفعال التي نشاهدها إنما يدل على فاعل فأما التعدد فلا ، وكذلك صفات الإلهية المكتسبة بواسطة الأفعال من العلم والقدرة والإرادة وغيرها. إنما يدل على صانع موصوف بها فأما على صانعين أو أكثر كذلك فلا . فإذن القول بأن لربنا شريك قول باطل لا برهان عليه كما قال تعالى : ﴿ **ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به** ﴾[1] الآية .

وقوله : إله واحد كما وصف نفسه . من لوازم النتيجة لأنه إذا بطل القول بثاني الإله ثبت أنه إله واحد كما وصف هو نفسه بقوله : ﴿ **قل هو الله**

---

(١) ٢٣ ـ ١١٨.

أحد . وهو الله الواحد القهار ﴾ وأنه لا يضاده في ملكه أحد : أي يعانده في أفعاله وينازعه في ملكه كما هو عادة الملوك . واعلم أن هذه الحجة إقناعية كما هو غاية الخطيب من الخطابة وليست برهانية لأنه إن أريد في الشرطية أن وجود الثاني يستلزم وجود آثار وأفعال وصفات تخصه ويعلم اختصاصه به . فالملازمة ممنوعة لأن الإلهين سواء كانا متفقي الحقيقة أو مختلفي الحقيقة لا يلزم أن يختلف أفعالهما ولوازمهما بالنوع ويتخصص كل منهما بلازم خاص وفعل خاص لا يوجد للآخر بل جاز أن يتفقا في اللوازم والآثار ، وإن أريد أن وجوده يستلزم أن يعرف آثار وأفعال ولوازم لا تخصّه . بل جاز أن يشاركه فيها الإله الآخر فهذا مسلم لكن لا يمكن الاستدلال ببطلان التالي هاهنا ، وهو ظاهر لأنا نرى آثار ملك وأفعال ولوازم وصفات لا تدلُّ على أحدية فاعلها والموصوف بها ولا على إثنينيته وإنما يدل على مطلق فاعل وملزوم ما . فلا يمكن بطلانها ورفعها لأن رفعها يستلزم رفع وجود الإله المطلق لاستلزام عدم اللازم عدم الملزوم لا رفع التالي خاصة .

البحث الثاني : كونه تعالى لا يزال أبداً وأنه لم يزل ، وهو إشارة إلى دوام وجوده وثباته أزلاً وأبداً ، وبرهانه أنه تعالى واجب الوجود ، وكل واجب الوجود لذاته فهو دائم الوجود وثابته أزلاً وأبداً : أما الصغرى فقد مرّ برهانها ، وأما الكبرى فلأنه لو جاز عليه الزوال والعدم لما كان واجب الوجود لذاته ، وفساد التالي يستلزم فساد المقدم . فإذن هو دائم الوجود أزلاً وأبداً .

البحث الثالث : كونه أولاً قبل الأشياء بلا أولية لوجوده ، وكونه آخراً بعد الأشياء بلا نهاية لوجوده .

أما الأول : فلأنه لو كان لوجوده أولية لكان مسبوقاً بالعدم فكان محدثاً فكان ممكناً . هذا خلف .

وأما الثاني : فلأنه لو كانت آخريته منقطعة بنهاية لكان ملحوقاً بالعدم فلم يكن واجب الوجود لذاته . هذا خلف .

البحث الرابع : كونه أعظم من أن يثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر : أي هو أعظم أن يطلع أحد بقلبه أو بصره على كمال صفات ربوبيته

والاعتبارات المعتبرة فيها ، ووجه الشبه على ذلك أنك علمت أن صفة الربوبية وسائر صفات الإلهية باعتبار الخارج نفس حقيقته تعالى ، وباعتبار العقل أمور يعتبرها لمعقولية ذاته بالقياس إلى مخلوقاته وآثاره وعلى الوجهين فهو أعظم من أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر .

أما في الخارج فلأن صفة ربوبيته هي نفس ذاته فكانت إحاطة العلم بها موقوفة على إحاطته بكنه ذاته ، وقد علمت أنها بريئة عن وجوه التركيب فيمتنع الإحاطة بها لغيرها ، وأما في العقل فلأن اعتبار صفة الربوبية وإحاطة العقول بها موقوفة على الإحاطة بجميع اعتبارات صفات الكمال ونعوت الجلال . إذ اعتبار ربوبيته المطلقة مستلزم لاعتبار الإلهية المطلقة المستلزم لاعتبار جميع ماله من صفات الإلهية ، وقد علمت أن تلك الإعتبارات غير متناهية فهي أعظم أن يحيط بها عقل بشري فضلاً أن يتعلق بها إدراك بصري .

البحث الخامس : اعلم أنه لما نبّهه على عظمة الله سبحانه وكمال ذاته في الاعتبارات المذكورة أمره أن يفعل كما ينبغي أن يفعله من هو مثله في النقصان بالنسبة إلى عظمة الله سبحانه فيطيعه حق طاعته ويعبده بكمال عبادته، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله ، وعدد له وجوه النقصان ليعتبر حاله في كل منها بالقياس إلى كمال ذاته تعالى ليعلم صغر منزلته بالنسبة إلى عظمته تعالى ، وقلّة مقدرته وكثرة عجزه بالنسبة إلى كمال قدرته . وكذلك عظم حاجته إلى ربه في كل حال من طلب توفيقه وإعداده لطاعته والرهبة من عقوبته والإشفاق من سخطه كل ذلك بالنسبة إلى غنائه المطلق في كل شيء عن كل شيء .

وقوله : فإنه . إلى قوله : قبيح .

تنبيه إجمالي على وجوب طاعته تعالى في كل ما أمر به ونهى عنه . وجذبه إلى فعل كل مأمور به بكونه حسناً وإلى الانتهاء عن كل شيء منهي عنه بكونه قبيحاً . وقد علمت أن الغاية من بعثة الرسل ووضع الشرائع والسنن هي نظام أحوال الخلق في معاشهم ومعادهم . فلا بد إذن في كل أمر أو نهي

من سرّ وحكمة يوجب حسن المأمور به وقبح المنهي عنه ، ولهذا الكلام ونحوه تعلّقت المعتزلة بمسألة الحسن والقبح العقليين ، وبالله التوفيق .

الفصل السادس : قوله :

يَا بُنَيَّ ؛ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا ، وَزَوَالِهَا وَٱنْتِقَالِهَا ، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لأَهْلِهَا فِيهَا ، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ لِتَعْتَبِرَ بِهَا ، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا ! إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً ، وَجَنَاباً مَرِيعاً ، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ أَلَماً ، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً مَغْرَماً ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلِّهِمْ . وَمَثَلُ مَنِ ٱغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ ؛ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ !

يَا بُنَيَّ ، ٱجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَٱكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا ، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ ، وَٱسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ ، وَٱرْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ ، وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ .

وَٱعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ ؛ فَٱسْعَ فِي كَدْحِكَ ، وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ .

أقول : يحذو : يقتدي . والسفر : المسافرون : وأموا : قصدوا . والجناب : الفناء والمنزلة . والمريع . ذو الكلاء والخصب . ووعثاء السفر : مشقته . وجشوبة المطعم : غلظته . وهجم : وقع بغتة . والكدح الكسب .

وفي الفصل مطلوبان :

أحدهما : أنه نبهه على حالتي الدنيا والآخرة ، وذكره بما أخبره به عنهما من ضرورة زوال الدنيا وانتقالها وبقاء الآخرة، وما أعد لأهلها فيها من السعادة الباقية التي اشتمل على تعديد انواعها الكتاب العزيز والسنة الكريمة، وضرب لطالبهما مثلين ليكون ممن أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة . فالمثل الأول : مثل من خبر الدنيا وعرف زوالها وانتقالها ، وخبر الآخرة وعرف بقاءها وما أُعد فيها لأهلها ، ومثلهم بقوم مسافرين فارقوا منزلاً جديباً إلى منزل خصيب ، ووجه مطابقة هذا المثل أن النفوس البشرية لما كانت في عالم المجردات ، وكانت الحكمة في هبوطها إلى هذا العالم ومقارنتها لهذه الهياكل الجسمانية الكثيفة في دار الغربة ومحل الوحشة من عالمها هو أن يحصل بواسطتها الكمالات العقلية التي إنما تمكن لها بواسطتها ، ثم يرجع بعد الاستكمال عنها إلى عالمها الأعلى طاهرة عن علائق هذه الهياكل وهيئاتها الرديئة كما أُخذ عليها في العهد القديم كانت كل نفس حفظت عهد ربها وبقيت على صراطه المستقيم وهي المدة المضروبة لها ناظرة بعين الاعتبار الى ان الدنيا كالمنزل الجديب خال عن المطاعم الحقيقية والمشارب العذبة الهنيئة فهو لذلك غير صالح للاستيطان والإقامة ، وأن عالم الآخرة كالمنزل الخصيب والجناب المريع من وصل إليه مستقيماً على أوامر الله ونواهيه فاز بالمقاصد السنية واللذات الباقية فكانت أبداً في طريق السفر في منازل طريق الله والاستعداد للوصول إلى بهجة حضرته الشريفة محتملة لمشقّة ذلك السفر من معاناة الجوع والظمأ ومقاساة السهر قصداً إلى سعة الدار. ومنزل القرار لا تجد من ذلك ألماً ولا تعد ما تنفقه من المال والعمر فيه مغرماً ولا شيء أحب إليها من وسيلة تقرّبها إلى ذلك المنزل الذي أمته والجناب الذي قصدته فأشبهت في ذلك من وصل إلى منزل جديب . ثم علم أن أمامه منزلاً خصيباً فاقتضى رأيه الحسن أن يحتمل وعثاء السفر ومشقته إليه ليحصل على الراحة الكبرى .

وأما المثل الثاني : فهو مثل أهل الدنيا الذين قادتهم نفوسهم الأمارة بالسوء إليها فغفلوا فيها عما وراءها ونسوا عهد ربهم وأعرضوا عما ذكروا به

من آياته ، وشبّههم بقوم كانوا في منزل خصيب فنبا بهم إلى منزل جديب ، فالمنزل الخصيب في هذا المثل هو الدنيا لأنها محل سعادة أهلها ونعيمهم ، والمنزل الجديب هو الآخرة . إذ لم يكونوا قد استعدوا لدرك السعادة فيها ، ووجه تشبيههم بالقوم هو ما ذكره من أنه ليس شيء أكره إليهم . إلى آخره : أي ليس شيء أكره إليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما هم فيه من الدنيا إلى ما يهجمون عليه بغتة من الأهوال ، ويصيرون إليه من مقاساة السلاسل والأغلال كما أنه ليس شيء أكره إلى القوم من مفارقة منزل خصيب كانوا فيه إلى منزل جديب يهجمون عليه ، وإلى هذين المثلين أشار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

المطلوب الثاني : الوصية بإصلاح معاملته مع الخلق . فأشار عليه أن يجعل نفسه ميزاناً بينه وبين غيره ، ووجه استعارة لفظ الميزان له أنّه يكون ذا عدل بين نفسه وبين الناس كالميزان . ثم شرح وجوه العدل والتسوية التي أمره أن يكون ميزاناً باعتبارها فمنها أمور ثبوتية ، ومنها أمور سلبية :

فالأول : أن يحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها ، وفي الحديث المرفوع : لا يكمل إيمان عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه . وسرّ الحديث أن ذلك من كمال فضيلة العدالة التي هي من كمال الإيمان .

الثاني : أن لا يظلم كما لا يحب أن يُظلم فيسلم من رذيلتي الظلم والانظلام .

الثالث : أن يحسن إلى الغير كما يحب أن يُحسن إليه ، والإحسان فضيلة تحت العفة .

الرابع : أن يستقبح من نفسه ما يستقبح من غيره فينزجر عن جميع مناهي الله وهو من لوازم المروة ، ولذلك قال أحنف إذ سئل عن المروة : هي أن تستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك .

الخامس : أن يرضى من الناس ما يرضاه لهم من نفسه : أي كل ما

رضي أن يفعله بهم من خير أو شر إن فعله فينبغي أن يرضى بمثله منهم ، وفيه تنبيه على أنه لا يجوز أن يفعل الشر لعدم لازمه وهو الرضا منهم به .

السادس : أن لا يقول ما لا يعلم وإن قلّ ما يعلم ، وإنما قال : وإن قل ما يعلم لأن تصور قلة العلم قد يكون داعية لبعض الناس إلى أن يقول بغير علم لئلا ينسب إلى الجهل فيضل ويضل كما قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾[1] .

السابع : أن لا يقول لأحد ما لا يحب أن يقال له كالمواجهة بالعيوب والألقاب المكروهة وكل كلام مؤذٍ .

الثامن : نبهه على وجوب ترك الإعجاب بأنه ضد الصواب . ولما كان الصواب هو سلوك طريق الله باستجماع مكارم الأخلاق وكان الإعجاب من رذائل الأخلاق كان مضاداً للصواب مضادة الرذيلة للفضيلة ، وبأنه آفة للعقول . إذ هو من أكبر أمراض العقل وآفاته المهلكة له كما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ثلاث مهلكات : إلى أن قال : وإعجاب المرء بنفسه .

التاسع : أن يسعى في كدحه : أي فيما ينبغي له من كسب الطاعات ، وقيل : أراد بالكدح ما اكتسبه من المال وما ينبغي فيه إنفاقه في سبيل الله .

العاشر : أن يكون عند هداية الله إياه لرشده أخشع ما يكون لربه ، وذلك أن الهداية للرشد هي العلم بالطريق إلى الله تعالى في جميع ما عدد من مكارم الأخلاق . والعلم بالطريق المؤدية إليه حين سلوكها يستلزم ملاحظة جلاله وعظمته وهناك يكون الخشوع الحق والخشية التامة لقوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[2] .

الفصل السابع : قوله :

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ . وَأَنَّهُ لا غِنَى لَكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الارْتِيَادِ ، وَقَدِّرْ بَلاغَكَ مِنَ الزَّادِ مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ فَلَا تَحْمِلَنَّ

---

(١) ٣١ ـ ٢٠ .
(٢) ٣٥ ـ ٢٥ .

عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ فَيَكُونَ ثِقَلُ ذٰلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ . وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً ، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ وَالْبَطِيءُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ ، وَأَنَّ مَهْبَطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَلَا إلى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إلى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ . وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً ، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ ، وَبَابَ الاسْتِعْتَابِ ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاءَكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ : مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ . ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ ، فَلَا يُقْنِطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ لِيَكُونَ ذٰلِكَ أَعْظَمَ لأَجْرِ السَّائِلِ ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الآمِلِ ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ

لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ . فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جمالُهُ ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبالُهُ ، وَالْمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ ، وَلاَ تَبْقَى لَهُ .

أقول : الإرتياد : الطلب . والطوق والطاقة : ما يتسع له قدرتك . والوبال : الهلاك . وكؤد : شاقة المصعد . والنزوع عن الذنب . الخروج منه . والإفضاء : الوصول . والبث : النشر والكشف . والشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر . والقنوط : اليأس . والاستعتاب : طلب العتبى وهي الرجوع إلى الرضا .

وفي الفصل مطالب :

أحدها : الوصية بالسعي في تحصيل الكمالات النفسانية الباقية .

والثاني : طرح الرذائل المنقصة فنبهه على الأول بأن أمامه : أي في سفره إلى الله طريقاً طويلاً شديداً ، وظاهر أن الطريق الذي يكون لذلك لا بد لسالكه من حسن طلب القصد فيه إلى مطلوبه ، ومن قدر مبلغ له من الزاد ، واستعار له لفظ الطريق لما يسير فيه الإنسان من أحوال الدنيا ويعبر منها إلى الآخرة ، وأشار بطولها وشدتها إلى عسر النجاة فيها والسلامة من خطرها . إذ كان ذلك إنّما يكون بلزوم القصد والثبات على سنن العدل والاستقامة على حاقّ الوسط من مكارم الأخلاق . إذ علمت أن لكل من القوة التميزية والشهوية والغضبية حدّ يجب وقوف الإنسان عنده وهو العدل ، وعلمت أنه أدقّ الحدود وأصعبها . إذ هو محتوش بطرفي تفريط وإفراط قل ما يسلم الإنسان من الوقوع في أحدهما ، وهما طريقا جهنم .

فبالحري أن يكون طريقاً ذا مسافة لا يصل الإنسان منها إلى غايته إلاّ على بعد بعيد ، ولا يحصل منها على خبير إلاّ بجهد جهيد ، واستعار لفظ الزاد للتقوى والكمالات التي هي بلاغ الإنسان في تلك الطريق إلى الله تعالى ، وبهذا تكون النجاة فيها والخلاص من مهالكها ، ونبهه على الثاني بقوله : مع خفة الظهر . إلى قوله : وبالاً عليك . واستعار لفظ الخفة لتقليل

اكتساب الآثام وحملها على النفس ، ولفظ الحمل لاكتسابها .

ووجه الاستعارة الأولى : أن مقلل الآثام سريع القطع لتلك الطريق قريب إلى النجاة فيها من مخاوفها كما قال عليه السلام : تخفّفوا تلحقوا . وكما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : نجا المخفّون .

ووجه الثانية : أن مكتسب الآثام يثقل بها ويبطىء عن لحوق المخفّين ويهلك بها في طريقه ، وكثرة تخلّفه تابعة لكثرة اكتسابه كما يكون حال المثقل في الطريق البعيدة ، ولفظ الظهر ترشيح المطلوب .

الثالث : التنبيه على وجوب إنفاق المال في وجوه الصدقة والبر لمن يحتاج إليه من أهل الفاقة ، وذلك قوله : وإذا وجدت . إلى قوله : عسرتك . وجذبه وأعده لذلك بأمرين :

أحدهما : كون ذلك زاداً يحمله ذو الفاقة إلى يوم القيامة ، ويلقاه به هناك في موضع الحاجة إليه . واستعار لفظ الزاد هنا لما يحصل من فضيلة السخاء والكرم بالإنفاق ، ووجه الاستعارة كونه سبباً لسلامة النفس من الهلاك في طريق الآخرة ووسيلة إلى السعادة الباقية كالزاد المخلص للمسافر في طريقه والمبلغ له إلى مطالبه ، واستعار للمتصدق عليه وصف الحامل لذلك الزاد باعتبار أنه سبب لحصول الفضيلة بتلك الصدقة ووصول ثوابها إلى المتصدق يوم القيامة فوجدانه لتلك الفضيلة وظهورها في صحيفة أعمال المتصدق يوم القيامة هو المشار إليه بالموافاة بها غداً .

ثم أمره أن يغتنم ذا الفاقة عند وجدانه ، وأن يحمله ذلك الزاد ويكثر من تزويده وتحميله للزاد حينما هو قادر على تحصيله ، وجذب إلى اغتنامه والمسارعة إلى الصدقة بقوله : فلعلك تطلبه فلا تجده . لأن الوسيلة إلى أمر عظيم إذا كان في معرض أن يطلب فلا توجد ثم وجدت في وقت فمن الواجب أن يغتنم تحصيلها ولا تهمل .

الثاني : كون الصدقة . على ذي الفاقة قرضاً للمتصدق في حال غناه بالمال يقضي له يوم عسرته وفقره ، واستعار وصف المستقرض هنا لله باعتبار أنه هو المجازي بالثواب من أنفق ماله في طاعته ، وإليه الإشارة بقوله

تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً فيضاعفه أضعافاً كثيرة** ﴾[1]. ونبه بكون القرض في حال الغناء ، والقضاء في حال العسرة ليكون القضاء أفضل فيرغب في القرض لغاية الربح المطلوب .

الرابع : التنبيه على شدة طريق الآخرة وعلى وجوب الاستعداد لها بالخفة من حمل الآثام والسرعة فيها قبل انقضاء الأيام ، واستعار لفظ العقبة لما فيها من الصعود والارتقاء في درجات الكمال بالفضائل عن مهابط الرذائل ، ووصفها بشدة الصعود باعتبار ما في ذلك الارتقاء من التعسر وكثرة الموانع .

وجذب إلى الاستعداد بأمور ثلاثة :

أحدها : كون المخفّ فيها أحسن حالاً من المثقل ، وهو ظاهر كما قدمناه .

الثاني : كون المبطىء فيها أقبح حالاً من المسرع وهو أيضاً ظاهر . إذ كان المبطىء فيها واقفاً في أحد طرفي الإفراط والتفريط مشغولاً بما يلهيه ملتفتاً عما يعينه حتى إذا تصرم أجله بقي في مهاوي الهلاك أسيراً وعلى ما فاته من سرعة السير حسيراً .

الثالث : ذكر الغايتين منها وهي الجنة والنار . وأنه لا بد من تأديتها وهبوطها بسالكها على أحدهما ، وهو ظاهر أيضاً . فإن خوض الإنسان في أحوال الدنيا والتصرف فيها إلى غاية انقطاعها ووصول الآخرة. إما أن يكون على وجه القصد ، ولزوم سمت القبلة الحقيقية وتجنّب طريق طرفي الإفراط والتفريط وبذلك يكون هجوم تلك الطريق وهبوطها بسالكها على الجنة .

وإما أن يكون على وجه الانحراف عن ذلك القصد ، والتعريج عنه إلى ما في تلك الطريق من مناهي الله وأبواب محارمه ، وبذلك يكون هبوطها بسالكها على النار ، ونسبة الهبوط إليها مجاز باعتبار تأدّيها إلى إحدى الغايتين كالهابط بالشيء ليوصله إلى قراره .

---

(١) ٢ - ٢٤٦ .

ثم أمره أن يرتاد لنفسه ويطلب ما يكون سبباً لنجاته فيها وحسن حاله قبل نزول أحد المنزلين اللذين هما غايتاها ليكون هبوطها به على الجنة ، وأن يوطىء المنزل الذي يريد سكناه بالاستعداد له . وروي : يوطن ـ بالنون ـ أي يتخذه وطناً .

المطلوب الخامس : التنبيه على الدعاء والترغيب فيه ، وسرّه دوام ملاحظة جلال الله والانقطاع إليه . إذ هو مبدأ كل محبوب ومعطي كل مطلوب .

ورغب في ذلك بأمور :

أحدها : أن بيده تعالى خزائن السماوات والأرض ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك كان أحق بالرغبة إليه من كل أحد .

الثاني : أنه تعالى أذن في الدعاء وتكفّل بالإجابة فقال : ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾[1] وتقدير الكبرى فكالأول .

الثالث : انه أمر الخلق أن يسألوه ليعطيهم في قوله تعالى : ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾[2] وكذلك أن يطلبوا منه الرحمة ليرحمهم ، وذلك أن إفاضة الرزق والرحمة وكل فضل منه إنما يوجد بعد الاستعداد له بالإخلاص في الطلب والاسترحام وغيره كما علم في مظانه ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فواجب أن يسأل ويسترحم .

الرابع : أنه لم يجعل بينه وبين الراغب إليه حاجباً ولا بواباً لتقدسه سبحانه عن الجسمية والجهة وصفات المحدثات. بل تجلى في كل شيء لكل من فتح عين بصيرته ووجهها إلى مطالعة كبريائه وعظمته ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فهو أولى من يُسأل ويسترحم .

الخامس : أنه لم يلجئه إلى من يشفع إليه لأن الشفيع إنما يضطر إليه

---

(١) ٤٠ - ٦٣ .
(٢) ٤ - ٣٦ .

عند تعذّر المطلوب من جهة المرغوب إليه إما لبخله أو جهله باستحقاق الطالب . والباري تعالى لا بخل فيه ولا منع من جهته ، وإنّما يتوقف فيضه على استعداد الطالب له ولم يجعل سبحانه للراغبين إليه ضرورة إلى الشفعاء . إذ مكّنهم من الاستعداد لنيل مطلوباتهم منه وهيأ لهم أسبابها ، وفتح لهم أبواب رحمته فإن عرضت لهم حاجة إلى شفيع فليس ذلك عن ضرورة وإلجاء منه إلى ذلك .

السادس : أنه لم يمنعه إن أساء من التوبة بل أمره بها ووعده عليها فقال : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم الجنة ، وقال بعد أن عدد الكبائر وتوعد عليها : إلّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات الآية .

السابع : أنه لم يعاجله بالنقمة مع اطلاعه عليه حين معصيته ولم يفضحه في مقامه الذي تعرض فيه للفضيحة بل أمهله على ظلمه وأسبل عليه ستر كرمه وحلمه .

الثامن : أنه يشدّد عليه في قبول الإنابة ، والرجوع إليه كما يفعله الملوك في حق من أساء وطلب الإقالة ، ولم يناقشه بجريمته وذنبه فيستقصي في حسابه بل سهل عليه في ذلك وقبل توبته متى شاء لأنه تعالى لا مضرّة عليه بإساءة مسيء ولا نفع يصل إليه من انابة منيب . إذ هو الغني بالمطلق .

التاسع : أنه لم يؤيسه من الرحمة حيث قال : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . الآية .

العاشر : أنه جعل نزوعه عن ذنبه وتوبته منه حسنة حيث قال بعد ذكر التوبة : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وحسب سيئته واحدة وحسنته عشراً حيث قال : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلّا مثلها .

الحادي عشر : كونه فتح له باب المتاب حيث قال : غافر الذنب وقابل التوب وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وباب الاستعتاب حيث أمره وأرشده إلى طلب الرضا عنه بعد توبته .

الثاني عشر : كونه إذا ناداه سمع نداءه لقوله تعالى : ﴿ **إن ربي لسميع الدعاء** ﴾[1] . وإذا ناجاه علم نجواه لقوله تعالى : ﴿ **يعلم السر وأخفى** ﴾[2] فأوصل إليه حاجته إن شاء سراً وإن شاء جهراً ، وطلب منه إعانته على أموره ، ونشر له ما كان في نفسه من مهماته ، وسأله كشف كروبه . فوهب له من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الأرزاق .

الثالث عشر : أنه جعل في يديه مفاتيح خزائنه بما أدت له من مسألته ، واستعار لفظ المفاتيح للأدعية باعتبار أنها أسباب لتحصيل النعمة وكمال الرحمة متى شاء استفتح بها أبواب خزائنها ، وكذلك استعار لفظ الأبواب لأسباب جزئيات النعم الواصلة إلى العبد . وخزائن نعمه هي خزائن السماوات والأرض . إذ الكل منه وبيده ، ويحتمل أن يشير بها إلى المعقول من سماء جوده وما تحويه قدرته من الخيرات الممكنة ، واستعار وصف الاستمطار لطلب نعم الله تعالى ملاحظة لشبهها بالمطر في كونهما سببين للحياة وصلاح الحال في الدنيا ويشبه طالبيهما بالمستمطر ، ورشح بذكر الشآبيب ، وتقدير الكبرى في كل واحد من هذه الضمائر : وكل من كان كذلك فهو أحق بأن يرغب إليه ويوجه الطلب نحوه ، واعلم أنه لما رغّبه في الدعاء بهذه الجواذب نبهه على أن الإجابة في الدعاء قد تبطىء وتتأخر . ثم عدد ما يصلح أسباباً لتأخرها ليلحظها عند تأخرها فلا يقنط منها :

أحدها : أن العطية على قدر النية : أي أن الإجابة موقوفة على الاستعداد بإخلاص النية فإذا تأخرت الإجابة فلعل تأخرها لأن النية لم تكن خالصة .

الثاني : أنها ربما أخّرت لعلم الله تعالى أن تأخيرها من أسباب استعداد السائل والمؤمل استعداداً أعلى لعطاء ما هو أعلى وأشرف مما سأل

---

(١) ١٤ - ٤٢ .
(٢) ٢٠ - ٧ .

فيعطاه عند كمال استعداده لأنه على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، وبقدر الكد يكتسب المعالي .

الثالث : أن المطلوب قد لا يكون فيه مصلحة للعبد لاشتماله على مفسدة في دينه لو أُعطي إيّاه كالغنى والجاه مثلاً وسائر المطالب الدنيوية الخالصة فلا يجيب الله سؤاله فيه بل يعطيه خيراً منه إما في عاجل دنياه أو في آجل آخرته ويصرف ذلك الأمر عنه لما هو مصلحة له أو خير . ثم ختم ذلك بتعريفه مواقع مسألته لله وما ينبغي أن يسأله إياه وهو ما يبقى له جماله وينفى عنه وباله من التوفيق لأسباب السعادة الباقية وجميل الأحدوثة في الأعقاب دون المال .

الفصل الثامن : قوله :

وَٱعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ ، وَدَارِ بُلْغَةٍ ، وَطَرِيقٍ إلى الآخِرَةِ ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ؛ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ! وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا ؛ فَقَدْ نَبَّأَ اللهُ عَنْهَا ، وَنَعَتْ لَكَ نَفْسَهَا ؛ وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِئِهَا ؛ فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهِرُّ بَعْضُهَا بَعْضاً ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا ، نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا ، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا ، سُرُوحُ عَاهَةٍ ، بِوَادٍ وَعْثٍ ! لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا ! سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا !

رُوَيْداً يُسْفِرِ الظَّلَامُ كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ .

أقول : منزل قلعة : لا يصلح للاستيطان . والبلغة : ما تبلغ به من العيش . الأزر : القوة . ويبهره : غلبه وأتعبه ، وأصل البهر تتابع النفس من التعب . وأخلد إلى كذا : استند إليه . والتكالب : التواثب . والمساوي : المعائب . والضراوة : تعوّد الصيد والجرأة عليه . والمعقلة : المقيدة . والمجهول والمجهل : المفازة التي لا أعلام فيها . وواد وعث : لا يثبت به خفّ ولا حافر لكثرة سهولته . والمسيم : الراعي .

وقد نبهه في هذا الفصل على أمور :

أحدها : أن العلة الغائية من خلقه ووجوده هي الآخرة دون الدنيا والموت والفناء دون الحياة والبقاء ، وهذه الأمور علل عرضية من وجود الإنسان لكونها من ضرورات وجوده ، وأما العلة الحقيقية الأولى من وجوده فهي استكماله ووصوله إلى حضرة ربه طاهراً عن علائق الدنيا ، وذكره بهذه الغايات التي يجزم بالوصول إليها ليعمل لها ولما بعد الموت ، ويقل العرجة على الدنيا وعمارتها ولا يركن إلى البقاء فيها لكونها أموراً عرضية زائلة .

الثاني : نبهه بكون الدنيا منزل قلعة على أنها منزل عبور لم تخلق للاستيطان والإقامة ، وبكونها دار بلغة على أنها إنما خلقت ليتّخذ منها الإنسان بلاغاً للوصول إلى الآخرة وزاداً لكونها طريقاً إليها .

الثالث : نبهه على أنه طريد الموت ، واستعار له لفظ الطريق ملاحظة لشبهه بالصيد يطرده السبع وغيره . ثم وصف الموت بكونه لا ينجو منه هارب ولا بد أنه مدركه تحذيراً منه وجذباً إلى الاستعداد له بطاعته المقاومة لأهواله وشدائده ، ولذلك قال : فكن منه على حذر . إلى قوله : نفسك : أي ببقائك على الحال السيئة تحدث نفسك فيها بالتوبة إلى أن يدركك ، ويحول عطف على يدركك ، وإذا للمفاجأة .

الرابع : أمره بالإكثار من ذكر الموت وما يهجم عليه فإن ذلك يستلزم

العبرة والانزجار والأخذ في الأهبة والاستعداد لـه ولما بعـده ، ولذلـك قال : حتى يأتيك وقد أخذت منـه حذرك وشـددت له قـوتك : أي بـالكمالات التي استعددت بها ولا يأتيك بغتةً فيتبعك ، وقوله : ولا يأتيك عـطف على قولـه : حتى يـأتيك ، والـواو في قولـه : وقد للحـال ، وكـذلـك بغتـة حـال ويبهـرك منصوب بإضمار أن بعد الفاء في جواب النفي .

الخامس : نهاه أن يغترّ باستناد أهل الدنيا إليهـا وتواثبهم عليهـا ، ونبهه على أنه لا ينبغي له ذلك الاغترار بقياسات ضمير .

فقوله : فقد نبّأك الله . إلى قوله : عنها .

هو صغرى القيـاس الأول كقولـه تعالى : ﴿ **ومـا الحياة الـدنيا إلاّ لعب ولهو** ﴾[1] في مواضع كثيرة من كتابه العزيز وقوله : ﴿ **إنما الحياة الدنيا كمـاء أنزلناه من السماء** ﴾[2] الآية وأمثاله .

وقوله : ونعت لك نفسها .

صغـرى القياس الثـاني ، وروي : ونعت . بمعنى أن الله وصفها لـه ، ومعنى نعتها لنفسها وصفهـا بلسان حـالها لنفسهـا ، وبيان أنهـا محل الهمـوم والغموم والأعراض والأمراض ودار كل بلاء ومنزل كل فتنة .

وقوله : وإنما أهلها . إلى آخره .

صغرى القياس الثـالث ، وتقديـر الكبرى في القيـاس الأول : وكل من أخبر الله تعالى عنه بذلك فلا ينبغي أن يغتر به ، وتقديرهـا في الثاني : وكـل من وصـف نفسه كذلك فلا ينبغي أن يغترّ به ، وتقديرها في الثالث : وكل من كان كذلـك فلا ينبغي أن يغتـرّ بفعله ، واعلم أنه أشـار في هذين المثلين إلى قسمـة أهـل الـدنيـا أوّلاً بقسمـين بحسب اعتبـار قـواهم الغضبيـة والشهـويـة واتباعهم لها : أي فمنهم من اتبع قوته الغضبية وأعطاها مقتضاها ، ومنهم من اتبع قوته الشهوية واسترسل في قيادها وغفل عما خلق لأجله ، وضرب المثـل

---

(١) ٦ ـ ٣٣ .
(٢) ١٠ ـ ٢٥ .

للأولين بالكلاب العاوية والسباع الضارية . وأشار إلى وجه مطابقة المثل بقوله : يهر . الى قوله: صغيرها.

ووصف الهرير مستعار لتنازعهم عليها، وكذلك لفظ الأكل لغلبة بعضهم على بعض . وضرب للآخرين مثل النعم باعتبار غفلتهم عما يراد بهم كالبهائم ، ثم قسم هؤلاء إلى قسمين : معقلة ومهملة ، واستعار لفظ المعقلة للذين تمسكوا بظواهر الشريعة والإمام العادل فقيّدهم بالدين عن الاسترسال في اتباع الشهوات والانهماك فيها وإن لم يعقلوا أسرار الشريعة فهم كالنعم التي عقلها راعيها . وأشار بالمهملة إلى الذين استرسلوا في اتباع شهواتهم وخرجوا عن طاعة إمامهم ولم يتعبّدوا بأوامره فهم كالبهائم المرسلة .

وأشار إلى وجه المشابهة بقوله : التي أضلت عقولها . إلى آخره ، ويحتمل أن يريد بعقولها عُقُلها جمع عقال فأشبع الضمة وقلبها واواً متابعة لقوله : مجهولها ، ويحتمل أن يريد به جمع عقل وهو الملجأ : أي أنها ضيّعت من يلجأ إليه ، وهو إمامها ، ووجه مطابقة هذا المثل أن هؤلاء في عدم انتفاعهم بعقولهم وركوبهم لأهوائهم الفاسدة وشروعهم في مشتهياتهم الدنيوية مكتسبين للرذائل والعاهات النفسانية ليس لهم إمام يقيمهم على طاعة الله في طرق الهدى إلى مكارم الأخلاق قد أشبهوا النعم المهملة التي أضلت عقلها وركبت المفازة فهي سروح مترددة متحيّرة بواد وعث ليس لها راع يرعاها ويقيمها إلى المرعى .

وروي سروح آفة : أي فهي سارحة عن آفة قد خرجت بها عن الانتفاع .

والرواية الثانية أقرب إلى الصواب وأراد بطرق العمى طرق الجهل ومسالك الباطل التي لا يهتدى فيها لشيء كما لا يهتدي الأعمى للطريق ، ونسب السلوك بهم إليها باعتبار أنها سبب لغرورهم وغفلتهم عما وراءهم ، وكذلك أخذها بأبصارهم : أي بأبصار عقولهم عن منازل الهدى وهي آيات الله ومنازل الطريق إليه ، وأشار بتيههم في حيرتها إلى ضلالهم عن طرق

الحق ، واستعار لفظ الغرق باعتبار استيلاء نعيمها على عقولهم وتملكه لها كما يستولي الماء على الغريق ، واتخاذهم لها رباً باعتبار خدمتهم لها . فلعبت بهم إذ كانوا عبيداً لها ، ولعبوا بها إذ اشتغلوا بها غير منتفعين ، وضيّعوا ما الأولى بهم فعله ، ونسوا ما وراءها مما خلقوا لأجله .

الفصل التاسع : قوله :

وَٱعْلَمْ يَابُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً ، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً .

وَٱعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُو أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ ، فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ ؛ فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إلى حَرَبٍ ، فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلاَ كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ ، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إلى الرَّغَائِبِ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً ، وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ الله حُرّاً ، وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لاَ يُنَالُ إلاَّ بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لاَ يُنَالُ إلاَّ بِعُسْرٍ ؟!.

وَإِيَّاكَ انْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ ، وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله ذُو نِعْمَةٍ فَٱفْعَلْ ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ ! وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الله ـ سُبْحَانَهُ ـ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ .

وَتَلاَفِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدِ غَيْرِكَ . وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إلى النَّاسِ ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ . وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ ! قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ ! بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ ، وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ . إذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً . رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً وَالدَّاءُ دَوَاءً ، وَرُبَّمَا نَصَحَ

غَيْرُ النَّاصِحِ وَغَشُّ الْمُسْتَنْصَحُ . وَإِيَّاكَ وَاتِّكَالَكَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى ، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ . وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ ! بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً . لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ ، وَلاَ كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ ، وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ ! وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ ، وَلاَ خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ ، وَلاَ فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ ، سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ ، وَلاَ تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ ! احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ ـ عِنْدَ صَرْمِهِ ـ عَلَى الصِّلَةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ ؛ لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ ، وَآمْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً ، وَتَجَرَّعِ الغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً ، وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ ، وَجُدْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذٰلِكَ يَوْماً مَّا ، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ ، وَلاَ تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ ، وَلاَ يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ ، وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ ، وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ عَلَى مُقَاطَعَتِكَ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ ، وَلاَ يَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ ، وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ ؛ فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ .

أقول : تعدوه : تجاوزه . والتخفيض : التسهيل على النفس . والحرب : سلب المال . والإجمال في الطلب : التسهيل فيه حتى يكون جميلاً . وأوجفت : أسرعت . والمناهل : المعاطش . والحرفة : الضيق في الرزق والحرمان . وأهجر الرجل : إذا أفحش في منطقه . والرفق : اللين .

وضده الخرق . والنوكى : الحمقى ، جمع أنوك . والفرصة : وقت الإمكان . والظنين : المتهم . والصرم : القطع . ومحضه النصيحة : أخلصها له . والمغبة : العاقبة .

وقد اشتمل هذا الفصل على الوصية بلطائف من الحكمة العملية ومكارم الأخلاق التي بها ينتظم أمر المعاش والمعاد ، وصدّره بالتنبيه على ضرورة الموت ليبني عليه ما يريد أن يوصيه به من مفردات الحكم . وذلك التنبيه بأمرين :

أحدهما : أن الإنسان في مدة عمره مسافر إلى الآخرة، وأن ذلك السفر ليس على مطايا محسوسة ولا في طرق محسوسة. بل المطية فيه الليل والنهار ، واستعار لفظ المطية باعتبار أنهما أجزاء اعتبارية للزمان يعقب بعضها بعضاً وينقضي بانقضائها الزمان فينتقل الشخص بحسبها في منازل مدته المضروبة المقدرة له منه إلى أن تفنى مدته ويتم سفره إلى الآخرة. كما ينتقل في منازل طريقه المحسوسة إلى أن يتم سفره فيها ، وكذلك لفظ المسافة مستعار لمدته المضروبة ، ولذلك كان سير الزمان به سيراً اعتبارياً، وإن كان واقفاً وقوفه المتعارف ويقطع مسافة أجله راكباً تلك المطايا وإن كان وادعاً قاراً قراره الحسي.

الثاني : أمره أن يعلم يقيناً أنه لن يبلغ أمله . وذلك أن الإنسان أبداً في توجيه أمله في المطالب كلما حصل مطلوب منها أو أفسد وجه أمله فيه وجهه إلى مطلوب آخر وإن اختلفت المطالب ، فالأمل أبداً متوجه إلى مطلوب ما ليس مدركاً في الحال ، والإحالة في ذلك على الوجدان . فإذن ليس كل بمدرك ، وكذلك لا يمكن أن يتجاوز الإنسان أجله المضروب له، وإلاّ لما كان أجلاً له . وهذان الأمران في قوة صغريين لقياسي ضمير من الشكل الأول ، وتقدير كبرى الأول : وكل من يسرى به كذلك فيوشك أن ينقطع مدته ويصل إلى الآخرة ، وتقدير كبرى الثاني : وكل من لا يبلغ أمله ولا يتجاوز أجله وهو سالك بطريق من كان قبله فيوشك أن يلحق بهم ، ولما نبه على ضرورة مفارقة الدنيا والوصول إلى الآخرة رتّب على ذلك الوصية بالحكم المذكورة ، وذكر منها جملة :

الأولى : أن يخفض في طلب الدنيا ولا يحرص عليها بل يجعل طلبه لها بقدر حاجته إليها .

الثاني : أن يفعل الجميل فيما يكتسبه منها ، وذلك أن يضع كل شيء منه موضعه فيمسك منه قدر ضرورته وينفق فاضله في وجوه البر ومصارف القربة ، ويحتمل أن يريد بالمكتسب الاكتساب فأطلق اسم المفعول على المصدر مجازاً ، ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فأجملوا في الطلب .

وقوله : فإنه رب طلب . إلى قوله : محروم .

تنفير عن الخوض في الطلب بأمور ثلاثة :

أحدها : أنه قد تجرّ إلى الحرب ، وذلك كما شوهد في وقتنا أن تاجراً كان رأس ماله سبعة عشر ديناراً فسافر بها إلى الهند مراراً حتى بلغت سبعة عشر ألفاً فعزم حينئذ على ترك السفر والاكتفاء بما رزقه الله فسوّلت له نفسه الأمَّارة بالسوء في العود، وحبّبت اليه الزيادة فعاود السفر فلم يلبث ان خرجت عليه السراق في البحر فأخذوا جميع ما كان معه فرجع وقد حرب ماله. وذلك ثمرة الحرص المذموم. وهوفي تقدير صغرى ضمير، وتقدير كبراه: وكل ما جرّ الى الحرب فلا ينبغي ان يحرص عليه.

الثاني : قوله : وليس كل طالب بمرزوق ، وهو تمثيل نبه فيه على أن الطلب على الحرمان في بعض الطالبين حتى يقيس نفسه عليه فلا يحرص في الطلب .

الثالث : قوله : ولا كل مجمل بمحروم . تنبيه على تمثيل آخر كذلك نبه فيه على أن الإجمال علّة للرزق في بعض الناس ليقيس نفسه عليه فيجمل في الطلب .

الرابع : أن يكرم نفسه عن كل دنيّة وإن استلزمت وصوله إلى ما يرغب فيه ويتنافس عليه ، وذلك كأن يكذب مثلاً أو يغدر ليصل إلى الملك ونحوه ، والإكرام لها عن ذلك يستلزم فضائل كالسخاء والمروّة وكبر الهمة . إذ كل

واحد من رذيلة البخل والنذالة وصغر الهمة يستلزم مفارقة الدنايا. فإكرام النفس عنها يستلزم الامر بالحصول على فضائلها ونفّره عن مقارفة الدنيّة بقوله: فإنّك. إلى قوله: عوضاً: أي أن ما تبذله من نفسك من الفضيلة وتعدل عنه الى الرذيلة لا يقاومه عند الله وعند اهل الفضائل من خلقه شيء وإن جلّ، ولا يكون لك عنه عوض. وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكل ما لا يحصل له عوض يقابله ويساويه فلا ينبغي ان يبذل في مقارفة الدنايا.

الخامس : أن لا يكون عبد غيره : أي لا يجعل لغيره عليه فضل إحسان يسأله إياه فيسترقه به ، ويستوجب بذلك على نفسه خدمته والاشتغال بشكره عن الله .

وقوله : وقد جعله الله حراً .

في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من جعله الله حراً فيقبح أن يجعل نفسه عبداً لغيره ، وكذلك قوله : وخير خيره إلى قوله : إلّا بعسر استفهام في معنى الاستنكار : أي لا خير في خير لا يوجد إلّا بشر ، ويسر لا ينال إلا بعسر ، وكنّى بذلك الخير واليسر عما يطلب في مقارفة الدنايا ويصير الإنسان بسببه عبداً لغيره كالمال ونحوه ، وبالشر والعسر المقارن له كبذل ماء الوجه في السؤال والذلة وغيرها من الدنايا ، وهو أيضاً في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما لا خير فيه فلا ينبغي أن يطلب ويتعبد للغير من أجله .

السادس : حذّره من الطمع ، واستعار لفظ المطايا لقواه الأمارة بالسوء كالوهمية والخيالية والشهوية والغضبية ، ووجه المشابهة كونها حاملة لنفسه العاقلة وموصلة لها إلى المشتهيات وما يطمع فيه من متاع الدنيا كالمطايا الموصلة لراكبها إلى أغراضه ، وكذلك وصف الوجيف لسرعة انقياده معها إلى المطامع الرديئة .

وقوله : فتوردك مناهل الهلكة .

فاستعار لفظ المناهل لموارد الهلاك في الآخرة كمنازل جهنم وطبقاتها، ووجه المشابهة كونها موارد شراب أهل النار المهلك كما قال تعالى :

﴿ فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ﴾[1] والفاء في جواب النهي اللازم للتحذير المذكور ، وهو في قوة متصلة هي صغرى ضمير تقديرها فإنّك إن أوجفت بك مطايا الطمع أوردتك مناهل الهلكة ، وتقدير الكبرى : وكل مطية كذلك فيحرم ركوبها .

السابع : نهاه أن يجعل بينه وبين الله واسطة في وصول نعمته إليه إن استطاع ذلك وهو نهي عن مسألة الغير والتعرض لنواله بل ينتظر قسمه من رزق الله المفروض له من غير سؤال ذي نعمة يكون فيه بذل ماء الوجه والذلة والمنّة إن أعطى وبذله ، والحرمان والذل إن حرم . ورغّبه في ذلك بضميرين :

أحدهما : قوله : فإنّك مدرك قسمك وآخذ سهمك : أي من رزق الله ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فلا ينبغي أن يجعل بينه وبين الله واسطة يطلب منه رزقه.

الثاني : قوله : وإن اليسير . إلى قوله : خلقه : أي ما حصل من جهة يحمد حصوله منها وهي الجهة التي أمر الله تعالى بطلب الرزق منها وإن كان يسيراً أكرم عنده وأشرف من الكثير من غير تلك الجهة كسؤال الغير والتعرض له ، وتقدير الكبرى وكل ما كان أعظم فينبغي أن يكون هو المطلوب .

وقوله : وإن كان كل منه .

أي وإن كان الرزق من الخلق أيضاً من الله إلاّ أنه ينبغي أن يوجه الرغبة إليه ابتداء دون غيره . إذ هو مبدأ الكل وعنايته بالجميع واحدة .

الثامن : قوله : وتلافيك . إلى قوله : منطقك . تنبيه على وجوب ترجيح الصمت وتغليبه على كثرة الكلام بضمير هذه صغراه ، وتقريرها أن الفارط من الصمت وإن استلزم الخطأ كالسكوت عما ينبغي أن يقال من الحكمة أو ما يترتب عليه بعض المصالح إلاّ أنه يمكن استدراكه غالباً بما ينبغي من القول . وأما فارط القول فإن الخطأ فيه قد لا يمكن استدراكه .

---

(١) ٥٦ ـ ٥٤.

وإن أمكن فعلى غاية من العسر . فلذلك كان تلافي فارط الصمت بالقول أسهل من تدارك فارط القول ، ولقوة الخطأ في القول أكثر الناس في ذم الإكثار ومدح الصمت ، والمنطق هنا يحتمل أن يريد به المصدر فيكون من لبيان الجنس ، أو محل النطق فيكون لابتداء الغاية . وتقدير كبرى الضمير : وكل ما كان أيسر فهو أولى بك . ينتج أن تلافي فارط الصمت أولى بك ، وذلك مستلزم لرجحان الصمت .

التاسع : نبهه على حفظ ما في يده من المال الحفظ الذي ينبغي وهو الواسطة بين التبذير والبخل . والكلام في قوة صغرى ضمير أيضاً وتقدير كبراه : وكل ما كان أحب إليّ من طلبك ما في يدي غيرك فهو أولى بك .

العاشر : نبّهه على فضيلة قطع الطمع واليأس عما في أيدي الناس بضمير أيضاً صغراه قوله : ومرارة اليأس . إلى قوله : الناس ، وتقدير كبراه : وكل ما كان خيراً فهو أولى أن يلزم ويكرم النفس به ، وأطلق لفظ المرارة على الألم الذي تجده النفس بسبب اليأس من المطالب إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ، وكونه خيراً لما يستلزمه من إكرام النفس عن ذلّ السؤال ورذيلة المهانة . وإليه أشار الشاعر بقوله :

وإن كان طعم اليأس مرّاً فإنه ألذ وأحلى من سؤال الأراذل

الحادي عشر : نبهه على وجوب الصبر في ضيق الرزق والحرمان إذا كان مع فضيلة العفة ، وأن لزومه أولى من طلب الغنى المستلزم للفجور بضمير أيضاً صغراه ما ذكر ، وتقدير كبراه : وكل ما كان خيراً من الغنى مع الفجور فلزومه أولى من طلب ذلك الغنى ، وإنما كان كذلك لاستلزام تلك الحرفة الفضيلة واستلزام ذلك الغنى الرذيلة . وقد علمت أن العفة فضيلة القوة الشهوية وأنها بين رذيلتي تفريط يسمى خمود الشهوة وإفراط يسمى فجوراً .

الثاني عشر : نبهه على أنه لا يجوز إفشاء سره بتمثيله أصله المرء ، والفرع هو المخاطب ، والحكم كونه أحفظ لسره ، والعلة كونه أكثر عناية بنفسه من غيره .

إذا ضاق صدر المرء من سر نفسه ... فصدر الذي يستودع السر أضيق

الثالث عشر : نبهه بطريق التمثيل أيضاً على التحرز في السعي والتثبت في ارتياد المصالح بقوله : رب ساع فيما يضره . فالأصل هو الساعي ، والفرع هو المخاطب ، والعلة هي السعي ، والحكم هو التضرر .

الرابع عشر : نبه على وجوب ترك الإكثار في القول بتمثيل أيضاً أصله المكثر ، وفرعه المخاطب ، وعلته الإكثار ، وحكمه الهجر . والغرض أن يعتبر نفسه في لحوقها بالمكثرين في لزوم الهجر لهم فيترك الإكثار لما يلزمه من الهجر ولحوق الذم به .

الخامس عشر : نبه على فضيلة التفكر في الأمور بقوله : من تفكّر أبصر : أي أدرك بعين بصيرته حقائق الأمور وعواقبها .

السادس عشر : أمره بمقارنة أهل الخير بضمير دلّ على صغراه بقوله : تكن منهم ، وتقديرها أن مقارنتهم تستلزم الكون منهم ، وتقدير الكبرى : وكل ما استلزم الكون منهم فواجب أن يفعل .

السابع عشر : وكذلك أمره بمباينة أهل الشر ومفارقته لما يستلزمه المباينة لهم من عدم العداد في جملتهم في الدنيا والآخرة ، ووجه الحجة كالذي قبله .

الثامن عشر : نبهه على قبح أكل الحرام لغاية اجتنابه بذمه بضمير صغراه ما ذكر ، وإنما كان أقبح الظلم لكون الضعيف في محل الرحمة فظلمه لا يصدر إلاّ عن قلب قاس ونفس بعيدة من الرقة والرحمة والعدل ، ولأنه غير مقابل من الضعيف بمدافعة وممانعة فكان أبعد عن العدل ، وتقدير كبراه : وكل ما كان أفحش الظلم كان أولى أصناف الظلم بالترك والاجتناب .

التاسع عشر: نبهه على ان الرفق في بعض المواضع كالخرق في كونه مخلاً بالمصلحة غالباً ومفوّتاً للغرض فكان استعمال الخرق في ذلك الموضع كاستعمال الرفق في استلزامه للمصلحة وحصول الغرض غالباً فكان أولى من الرفق في ذلك الموضع . ولفظا الخرق الأول والرفق الثاني مستعاران للرفق

الأول والخرق الثاني لما ذكرناه من المشابهة،وإلى هذا المعنى أشار أبو الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

العشرون: نبهه على ان بعض ما فيه مصلحة ظاهرة قد يشتمل على مفسدة بقوله : ربما كان الدواء داءً ، وعلى أن بعض ما هو مفسدة في الظاهر قد يستلزم مصلحة بقوله : والداء دواءً . ولفظا الدواء مستعاران للمصلحة ، ولفظا الداء للمفسدة ، ووجه الاستعارتين أن المصلحة من شأنها نظام حال الإنسان ، ومن شأن المفسدة فساده كالدواء والداء ، وإلى هذا المعنى أشار المتنبي :

فربما صحت الأجساد بالعلل .

الحادي والعشرون: نبه على انه لا ينبغي ان يعرض عن مشورة احد عليه بأمر هو مظنة مصلحة وإن كان من شأنه أنه غير ناصح له بل ينظر في رأيه وشوره فربما كان نصيحة ، وكذلك لا ينبغي أن يركن إلى قول من يعتقده ناصحاً . إذ من الجائز أن يغشه .

الثاني والعشرون: نهاه عن الاتكال على المنى ونفره عنها بضمير صغراه قوله : إنها بضائع النوكى [الموتى خ]، واستعار لفظ البضائع لها باعتبار أن الأحمق يحصل منها لذة خيالية من الأمور المتمناة وهي فرعها كما يحصل عن البضاعة الربح . وأضافها إلى النوكى لعدم الفائدة في المنى كعدم الربح عن بضائع النوكى .

الثالث والعشرون: رسم العقل بأنه حفظ التجارب. والاشارة الى العقل العملي وهو القوة التي للنفس بحسب حاجتها إلى تدبير بدنها الموضوع لتصرفاتها وتكميله ، وهي التي بها تستنبط الآراء المصلحية مما يجب أن يفعل من الأمور . إذ كان الشروع في العمل الاختياري المختص بالإنسان إنما يتأتى بإدراك ما ينبغي أن يعمل في كل باب وهو إدراك رأي كلي أو جزئي يستنبط من مقدمات بعضها جزئية محسوسة وبعضها كلية أولية أو تجربية أو

ذائعة أو ظنية يحكم بها العقل النظري من غير أن يختص بجزئي دون غيره ، والعقل العملي يستعين بالنظري في ذلك ثم ينتقل منه باستعمال مقدمات جزئية إلى أن ينتقل إلى الرأي الجزئي الحاصل فيعمل بحسبه ويحصل بعمله مقاصده في معاشه ومعاده . وإرادته لهذا العقل أظهر لأنه المتعارف ولأنه في معرض الأمر بتحصيل مكارم الأخلاق التي هي كمال هذه القوة . وحفظ التجارب إشارة إلى ضبط هذه العلوم المنتزعة عن مشاهدات متكررة منّا لأمور جزئية تتكرر فيفيد حكماً كلياً ككون السقمونيا مثلاً من شأنها الإسهال . وعرف العقل بذلك لكونه من خواصه وكمالاته .

الرابع والعشرون: نبهه على انه ينبغي ان يقتصر من التجارب على ما وعظه : أي من شأنه أن يفيد موعظة واعتباراً كالنظر في حال من تكرر ظلمه فأسرعت عقوبة الله إليه ، أو تكرر كذبه فأدركه المقت بضمير صغراه ما ذكر ، وتقديرها : ما وعظك فهو خير التجارب ، وتقدير الكبرى : وخير التجارب أولى بك . ينتج فما وعظك من التجارب أولى بك ، ونحوه قول أفلاطون : إذا لم تعظك التجربة لم تجرّب بل أنت ساذج كما كنت .

الخامس والعشرون: أمره بانتهاز الفرصة فيما ينبغي أن يفعل ، ونفره عن تركها بما يستلزمه من الأسف المغص ، وأطلق اسم الغصة على الفرصة مجازاً تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه .

السادس والعشرون: نبه على ما ينبغي من ترك الأسف على ما يفوت من المطالب بضمير صغراه ما في قوة هذا السلب من الإيجاب ، وتقديره : بعض الطالبين لا يصيب مطلوبه ، وتقدير الكبرى : وكل من لا يصيب مطلوبه فلا ينبغي أن يأسف على فواته. ليقدر السامع نفسه أنه من ذلك البعض فلا يأسف على فائت ، وكذلك قوله : ولا كل غائب يؤوب .

السابع والعشرون: نبه على لزوم التقوى بضمير تقدير صغراه : إضاعة الزاد ومفسدة المعاد من الفساد ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان من الفساد وجب تركه . ولفظ الزاد مستعار للتقوى كما سبق .

الثامن والعشرون: نبه على وجوب النظر في عواقب الأمور واختيار

أحسنها بضمير ذكر ما هو في قوة صغراه ، وتقديرها : كل أمر له عاقبة نافعة أو ضارة ، وتقدير كبراه : وكل ما له عاقبة كذلك فينبغي أن يلمح ليفعل ما يوصل إليها أو يجتنب .

التاسع والعشرون: نبه على وجوب ترك الحرص وكد النفس في طلب المال ونحوه بضمير ذكر صغراه، وتقدير كبراه: وكل ما سوف يأتيك فينبغي ان لا تحرص في طلبه.

الثلاثون: نبه على وجوب الاحتراز في المعاملات كالبيع والشراء ونحوه بضمير صغراه ما ذكر ، ووجه كون التاجر مخاطراً أنه لما كان محباً للمال ومتوجهاً إلى اكتسابه كان حال البيع في مظنة أن يحيف فيأخذ راجحاً ، ويعطي ناقصاً مع أن تكليفه لزوم العدل والاستقامة على سواء الصراط فلا جرم كان على خطر من وقوعه في طرف التفريط والتقصير من سواء السبيل ، وتقدير الكبرى : والمخاطر يجب أن يحترز في فعله المخاطر فيه .

الحادي والثلاثون: لما نبه على وجوب الاحتراز في التجارة والتحفظ من الظلم ، وكان ذلك الظلم إنما هو لغرض كثرة المال نبه في هذه الكلمة على أن من المال اليسير ما هو أنمى من الكبير ليقتصر عليه ، وأراد باليسير الحلال فإنه أغنى للعاقل من الكثير الحرام في الآخرة لاستلزامه زيادة الثواب ، وهي في قوة صغرى ضمير تقديره : اليسير الحلال أغنى من الكثير الحرام وتقدير الكبرى : وكل ما كان أغنى من الكثير الحرام فيجب أن يقتصر عليه .

الثاني والثلاثون: نبه على ترك الاستعانة في المهمات بالمهين من الناس بضمير تقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فالأولى اجتناب الاستعانة به ، والخير المنفي عنه هو النافي في الاستعانة به ، ومعلوم أنه منتف عنه لما أن مهانته تضاد النهوض في مهمات الأمور وعلياتها ، ولأن ذلته تستلزم قهره وضعفه عن المقاومة ، ونحوه قولهم : إذا تكفّيت بغير كاف وجدته للهم غير شاف .

الثالث والثلاثون: نبه على مجانبة الصديق المتهم بضمير تقدير صغراه كالتي قبلها ، وأراد أنه لا خير فيه لصديقه . إذ كان من جهة الباطن مظنة الشر له .

الرابع والثلاثون: أمره أن يصبر على ما يقتضيه الدهر ولا يتسخّط من ذلك وإن كان دون رضاه . إذ كان ذلك هو المتمكن في الطبيعة ، وما بمعنى المدة ، واستعار لفظ القعود للزمان الذي تيسر فيه رزقه وتسهل فيه بعض مهماته ، ووجه المشابهة أن ذلك الزمان يمكنه من بعض مهماته وحوائجه . وطلب ما لا يمكن فيه وما لم يعد لحصوله من المطالب ربما يستلزم تغيّره وامتناع ما كان ممكناً فيه كما أن القعود من شأنه أن يمكن من ظهره واقتعاده وهو بمعرض أن ينفر براكبه إذا استزاده وشدّ عليه ، ولفظ الذلة مستعار لسكون الزمان وإمكان المطلوب فيه ، وأراد بمساهلته الجريان معه بقدر مقتضاه من دون تشدد وتسخط عليه فإن ذلك يستلزم تعب النفس من غير فائدة ، وإلى مثله أشار القائل :

إذا الدهر أعطاك العنان فسر به ... رويداً ولا تعنف فيصبح شامسا

الخامس والثلاثون: نهاه أن يخاطر بما يملكه رجاء اكثر منه. إذ كان في مظنة أن لا يعود فيوشك أن يضيع الأصل ، ويحمل ذلك على كون الإنسان يلقي ما في يده للغرض المذكور مع شكه في سلامته أما مع ظن السلامة فلا خطر . ونحوه قولهم : من طلب الفضل حرم الأصل .

السادس والثلاثون: حذره من اللجاج في طلب الأمر عند تعسره، ونفره عنه بأن استعار له لفظ المطية الجموح ، ووجه المشابهة كونه يؤدي بصاحبه إلى غاية ليست بمجهوده [بمحمودة خ] كالجموح من المطايا .

السابع والثلاثون: أمره ان يلزم نفسه ويحملها في حق صديقه الحق على أن يقابله ويجازيه برذائله فضائل كالقطيعة بالصلة ، وسائر ما ذكر ليعود إلى العتبى وتدوم المودة ، وحذّره أن يضع ذلك في غير موضعه أو يفعله بغير أهله من اللئام. لأن ذلك وضع الشيء في غير موضعه وهو خروج عن العقل ، وقد علمت أن الأمور المذكورة من لوازم الصداقة الحقة . وإلى

نحوه أشار الشاعر بقوله :

وإن الـذي بيني وبين بني أبي ... وبين بني أمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيراً بنحس تمر بي ... زجرت لهم طيراً يمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

الثامن والثلاثون: نهاه أن يتخذ عدو صديقه صديقاً، ونبه على قبح ذلك بضمير استثنائي تقديره : فإنك إن فعلت ذلك عاديت صديقك ، ويستدل فيه بقبح اللازم على قبح ملزومه : أي لكن معاداة الصديق قبيحة منهي عنها فاتخاذ عدوه صديقاً كذلك ، ووجه الملازمة أن مصادقة عدو الصديق يستلزم نفرة الصديق عمن يصادق عدوه لنفرته عن عدوه وتوهمه مشاركة العدو وموافقته في جميع أحواله ومن جملة أحواله عداوته فهي إذن توهمه الموافقة على عداوته فيوجب له النفرة والمجانبة ، وإليه أشار بذكر القائل :

تودّ عدوّي ثمّ تزعم أنني ... صديقك إنَّ الرأي عنك لعازب

التاسع والثلاثون: ان يخلص نصيحته لاخيه في جميع احواله سواء كانت النصيحة حسنة أو قبيحة: أي مستقبحة في نظر المنصوح ضارة له في العاجل باعتبار استحيائه وانفعاله له من المواجهة بها . ونحوه قوله تعالى : ﴿ **وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم** ﴾[1] فعدّها بالنسبة إليهم سيئة .

الاربعون: أمره بفضيلة كظم الغيظ ، وقد رسمت بأنها الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهها إليه . وقد يرادفه الحلم والكرم والصفح والتثبت والعفو والتجاوز والاحتمال ، وربما فرّق بعضهم بين هذه المفهومات ، واستعار وصف التجرّع للتصبر على مضض الألم الموجود منه ملاحظة لما يشرب من دواء مرّ .

---

(١) ٣٠ ـ ٣٥.

ثم نبه على فضيلته بضمير صغراه قوله: فإني لم أر. الى قوله: مغبّة، واستعار لفظ الحلاوة لما يستلزمه من العاقبة الحسنة، ووجه المشابهة ما يستلزمانه من اللذة. والضمير في قوله: منها يعود إلى ما دلّ عليه قوله: تجرع من المصدر، وتقدير الكبرى: وكل ما لا يرى من المتجرع أحلى منه فينبغي أن يتجرّع. وعن زين العابدين عليه السلام وصية لابنه الباقر عليه السلام يا بني عليك بتجرّع الغيظ من الرجال فإن أباك لا تسره بنصيبه من تجرّع الغيظ من الرجال حمرُ النعم.

الحادي والاربعون: أمره أن يلين لمن غالظه وخاشنه، ونبّه على حسن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنه يوشك أن يلين لك: أي بسبب لينك له حال غلظته: وتقدير كبراه: وكل من قارب أن يلين لك بسبب لينك له فالأولى بك أن تلين له، ونحوه قولهم: إذا عزّ أخوك فمن واصله وقوله تعالى: **﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾**(1).

الثاني والاربعون: أمره ان يأخذ على عدوه بالفضل من عوارفه. ونبهه على أحسنه باستلزامه لأحد الظفرين فإن للظفر سببين:

أحدهما: الرهبة بالقوة والغلبة وهو الأظهر.

الثاني: الرغبة بالإفضال عليه بحيث يسترق به ويدخل في الطاعة بسببه.

وقوله: فإنه أحد الظفرين.

صغرى ضمير، وتقدير الكبرى: وكل ما صدق عليه أنه أحد الظفرين فينبغي أن يفعل.

الثالث والأربعون: أمره إن أراد مقاطعة اخيه ان يبقي له من نفسه بقيّة من صداقته ولا يفارقه مفارقة كلية، ونبه على ذلك بضمير أشار الى صغراه بقوله: يرجع اليها: أي فإنه يرجع اليها لو بدا له الرجوع، وتقدير الكبرى: وكل ما يرجع به فواجب ان يبقيه له، ونحوه قولهم: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن

---

(1) ٤١ - ٤٤.

يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما، وقولهم : إذا هويت فلا تكن غالياً، وإذا تركت فلا تكن قالياً .

الرابع والأربعون : أن يصدق من ظن به خيراً في ظنه وذلك التصديق بفعل ما ظنه فيه من الخير كأن يظن به الجود فيفضل عليه .

الخامس والأربعون: نهى ان يفعل بأهله شراً. ونفّره بضمير تقدير صغراه : فإن أهلك حينئذ يكونون أسعى الخلق بك ، وذلك لملازمته لهم وقربه منهم ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فهو مذموم .

السادس والأربعون: أن لا يضيع حق أخ له اعتماداً على ما بينهما من الأخوة ونبه على ذلك بضمير قوله : فإنه . إلى قوله : حقه ، والمعنى أن من أضعت حقه لا بد أن يفارقك لتضييعك حقه فلا يكون أخاً لك : وتقدير كبراه: وكل أخ يفارقك لتضييع حقه فلا ينبغي أن تضيّع حقه لتسلم لك مودته وأخوته ، ونحوه قولهم : إضاعة الحقوق داعية العقوق .

السابع والأربعون: نهاه عن الرغبة فيمن زهد فيه وأراد بمن زهد فيه من ليس للصنيعة موضعاً ، ولا للمودة أهلاً . وليس بأخ قديم وإلاّ لناقض ما قبله وما بعده من الأمر بصلة من قطعه والدنو ممن تباعد عنه والإحسان الى من أساء إليه .

الثامن والأربعون : ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته . إلى قوله : الإحسان . وأشار إلى وجوب ذلك بالتنفير عن نقيضه بضمير صغراه شرطية متصلة تقديرها فإنك إن لا تفعل ذلك لكان أخوك أقوى على فعل الإساءة منك إلى فعل الإحسان ، وبيان الملازمة أن الإساءة والشر له صوارف كثيرة تصرف عنه، والإحسان وفعل الخير له بواعث كثيرة تبعث عليه فإذا لم تفعل الإحسان مع كثرة البواعث عليه وأساء أخوك مع كثرة صوارفه عن الإساءة كان هو أقوى على الإساءة منك على الإحسان ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فهو عاجز مذموم .

التاسع والاربعون: نهاه عن استعظام ظلم الظالمين في حقه، وهونه عنده بضمير صغراه قوله: فإنه يسعى في مضرته ونفعك اي ان سعيه في ظلمه

يستلزم مضرته في الآخرة بما توعد الله به الظالمين ونفعك بما وعد الله به الصابرين على بلائهم ، وتقدير الكبرى : وكل من سعى في مضرته ونفعك فلا ينبغي أن يكبر عليك صنيعه في حقك .

الخمسون: نبهه على وجوب مقابلة الاحسان بمثله دون الكفران بقوله : ليس جزاء من سرك أن تسوءه : وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها : من سرك فليس جزاؤه أن تسوءه ، وتقدير كبراه : وكل من لم يكن جزاؤه ذلك فينبغي أن لا تسوءه ، وقيل : إن هذه الكلمة من تمام التي قبلها ، والتقدير لا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك فتقابله بسوء فإنه يسعى في مضرته ونفعك وكل من كان كذلك فليس جزاؤه أن تقابله بالإساءة .

الفصل العاشر : قوله :

وَٱعْلَمْ ، يَا بُنَيَّ ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ . مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى . إِنَّ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ ؛ وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ . إِسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ ؛ فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَابِ ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ . إِطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ ؛ مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ ؛ وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ ، وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَنَاءِ ، رُبَّ قَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ؛ وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ . مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ . وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ، وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ ، قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً . لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ، وَأَصَابَ الأَعْمَى رُشْدَهُ . أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ . مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ ! لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ ، إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ

الزَّمَانُ ، سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ . إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا كَانَ مُضْحِكاً ، وَإِنْ حَكَيْتَ ذٰلِكَ عَنْ غَيْرِكَ ، وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ ؛ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلى أَفْنٍ وَعَزْمَهُنَّ إِلى وَهْنٍ ، وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ؛ فَانَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ ، وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ ، وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا ، وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلى السُّقْمِ ، وَالْبَرِيئَةَ إِلى الرَّيْبِ ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ لَا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ ، وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ .

اسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ ، وَأَسْأَلُهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

أقول : المثوى : المقام . وتفلّت : تخلّص . وعزائم الصبر : ما جزمت به منه ولزمته . والعورة هنا : الإسم من أعور الصيد إذا أمكنك من نفسه ، وأعور الفارس : إذا بدا منه موضع خلل الضرب . والأفن : الضعف . والقهرمانة : فارسي معرب .

وفي الفصل تنبيهات على لطائف من الحكمة ومكارم الأخلاق :

الأولى : أنه قسم مطلق الرزق إلى قسمين مطلوب وطالب ، وأراد بالرزق المطلوب ما لم يجر في القضاء الإلهي كونه رزقاً له ، وبالطالب عما علم الله أنه رزقه وأنه لا بد من وصوله إليه . وترك بيان أحكام القسمين للعلم به إيجازاً . والتقدير فأما الذي تطلبه فلا تدركه لكون القضاء الإلهي لم يجر به ، وكل ما لا تدركه فينبغي أن لا تحرص عليه .

وأما الذي يطلبك فإنه لا محالة يأتيك وإن لم تأته ، وهي صغرى ضمير

تقدير كبراه : وكل ما كان آتيك لا محالة فينبغي أن لا تحرص في طلبه .

الثانية : نبه على فضيلة عزة النفس عند الحاجة ، وعلى مواصلة الإخوان في الغنى بالتعجب من قبح ضديهما ، وهما الخضوع في الحاجة والجفاء في الغنى للتنفير عنهما . إذ كانا رذيلتين ، وهي في قوة ضمير تقديرها : أن الذلة في الحاجة وجفاء الإخوان في الغنى قبيحان جداً ، وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الثالثة : نبهه على بذل المال في وجوه البر والقربات لغاية إصلاح آخرته بقوله : إنما لك . إلى قوله : مثواك ، وأراد بما له من دنياه ما يملك نفعه دائماً ولذلك حصره بإنما لأنه القدر المنتفع به على الحقيقة ، والذي تبقى ثمرته لاستلزام بذله تحصيل الملكات الفاضلة المستلزمة للثواب الدائم والنعيم المقيم في الآخرة ، وهو صغرى ضمير تقديرها : ما أصلحت به مثواك من دنياك هو الذي يبقى لك منها ، وتقدير الكبرى : وكل ما هو الباقي لك منها فينبغي أن تحضه بعنايتك ، ويحتمل أن تكون هذه الكلمة تنبيهاً على ما قبلها من المواصلة في الغنى داخلة في إصلاح المثوى بالمال المنبه عليه هيهنا .

الرابعة : نبهه على ترك الأسف والجزع على ما يخرج من يده من المال بقياس استثنائي ، وذلك قوله : فإن جزعت . إلى قوله : إليك . وبيان الملازمة أن الذي خرج من يده كالذي لم يصل إليه في أنه ليس برزق له وليس مما قضى الله له به . وتقدير الاستثناء : لكن الجزع هناك قبيح وغير محقق فينبغي أن لا يحصل الجزع هاهنا .

الخامسة : أمره أن يستدل بقياس ما لم يكن أي ما لم يحدث من أمور الدنيا وأحوالها وتغيّراتها على ما كان وحدث منها ، وذلك أن يقيس نفسه وما ترغب فيه من متاع الدنيا على ما سبق من أهلها ومتاعها فتجده مثله فيحكم بلحوق حكمه له وهو التغيّر والزوال فيستلزم ذلك الاعتبار الرغبة عن الدنيا ومتاعها ، ونبّه على إمكان ذلك بضمير صغراه قوله : فإن الأمور أشباه ، وتقدير الكبرى : وكل ما هو متشابه فيمكن قياس بعضه على بعض ، وكأن

يقال : إذا أردت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك .

السادسة : حذّره أن يكون ممن لا ينفعه النصيحة فيما نصح به من الرأي إلّا إذا بالغت النصيحة والتوبيخ في إيلامه وأذاه ، وروي بالغت بالتاء المخاطب : أي في إيلامه بالقول وغيره ، وضرب له العاقل مثلاً في اتعاظه بالأدب وتذكيره بالنصيحة ليقيس نفسه عليه فيتعظ بالأدب ، والبهائم مثلاً في عدم اتعاظها وتذكرها إلّا بالضرب ليعتبر نفسه بالقياس إليها وقد رفعه الله عنها بالعقل فيجب أن ينزه نفسه عن لازمها فلا يحتاج إلى إيلام بقول أو فعل كأن يقال : اللئيم كالعبد والعبد كالبهيمة عتبها ضربها.

السابعة : أن يحذف عن نفسه ما يرد عليها من الغموم والهموم ومصائب الدنيا بالصبر الجازم الثابت عن حسن اليقين بالله تعالى وبأسرار حكمته وقضائه وقدره ، وذلك أن يعلم يقيناً أن كل أمر صدر عن الله وابتلى به عباده من ضيق رزق أو سعته وكل أمر مرهوب أو مرغوب فعلى وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض في ذلك مما يعد شراً فأمر عرضي لايمكن نزع الخير المقصود منه. فإنّ ذلك إذا كان متيقناً استعدت النفس بعلمه للصبر ومفارقة الهوى في الغم والجزع ونحوه . والغرض من الكلمة الأمر بالصبر وهي في قوة صغرى ضمير تقديرها : إن عزائم الصبر وحسن اليقين بالله يستلزمان طرح واردات الهموم وحذفها عن النفس ، وتقدير الكبرى : وكل ما استلزم ذلك فينبغي أن تستعد به وتستكمل به نفسك .

الثامنة : نبهه على لزوم القصد والعدل في أفعاله وأقواله بضمير ذكر صغراه وتقدير كبراه : ومن جاز هلك .

التاسعة : نبه على حفظ الصاحب الحق والرغبة فيه بضمير ذكر صغراه ، واستعار له لفظ التنسيب باعتبار مودته وحسن معاضدته كالنسيب ، وتقدير كبراه : والمناسب ينبغي أن يحمى عليه ويصطنع عنده .

العاشرة : عرّف الصديق الحق بعلامته ليعرف بها فيصادق ، وأراد بصدقه في غيبه صدقه في ضميره وما غاب من باطنه عن غيره .

الحادية عشر : نبهه على مجانبة الهوى والميول الطبيعية بضمير صغراه

قوله : الهوى شريك العمى ، ووجه كونه شريكاً له استلزامه للضلال وترك القصد كالعمى ، وتقدير الكبرى : وكل ما هو شريك العمى فينبغي أن يجتنب ، ونحوه قولهم : حبك للشيء يعمي ويصم .

الثانية عشر : نبه على أن في البعداء من هو أقرب وأنفع من النسيب ، وفي الأقرباء من هو أبعد من البعيد وهو مشهور ، وإلى المعنى الثاني أشار القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم** ﴾ .

الثالثة عشر : نبه على أن الحقيق باسم الغريب هو من لم يكن له نسيب : أي محب يحبه ، وإليه أشار القائل :

أُسرة المرء والداه وفي ... ما بين حضنيهما الحياة تطيب
فإذا وليا عن المرء يوماً ... فهو في الناس أجنبي غريب

وذلك باعتبار محبة الوالدين له .

الرابعة عشر : نبه على لزوم الحق بما يلزم نقيضه وهو تعديه وتجاوزه إلى الباطل من ضيق المذهب ووعارة المسلك ، وذلك أن طريق الحق واضح مأمور باتباعه وقد نصبت عليه أعلام الهداية ، أما طريق الباطل فهي ضيقة وعرة على سالكها لما فيها من التحيّر والخبط وعدم الهداية إلى المصلحة والمنفعة مع كونها ممنوعة بحرسة طريق الحق من حاد إليها عنه أخذوا عليه مذهبه وضيّقوا عليه مسلكه حتى يعود إلى طريق الحق ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه كما في قوله : من ترك القصد جار .

الخامسة عشر : نبهه على وجوب الاقتصار على قدره وهو مقداره ومحله في خلق الله ، واقتصاره عليه مبني على معرفته وهو أن يعلم الفطرة التي فطر الإنسان عليها من الضعف والجور والنقص فيعلم أنه كذلك فيمنع نفسه حينئذ عن الترفع عن أبناء نوعه والاستطالة على أحد منهم بفضل قوة أو إعجاب بقية جسمانية أو نفسانية ويقتصر على ما دون ذلك من التواضع ولين

الجانب والاعتراف بما جبل عليه من العجز والنقص ، وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها : من اقتصر على قدره كان اقتصاره أبقى له ، وذلك أن المتطاول إلى قدر غيره والمتجاوز لقدره في مظنة أن يهلك لقصد الناس إياه بالمكاره والنكير . قيل : من جهل قدره قتل نفسه . والاقتصار على القدر يستلزم عدم هذه الأمور فكان أبقى على صاحبه وأسلم ، وتقدير الكبرى : وكل من كان اقتصاره على قدره أبقى له فواجب أن يقتصر عليه .

السادسة عشر : نبهه على لزوم سبب بينه وبين الله تعالى وهو كل ما قرب إليه من علم وقول وعمل ، ولفظ السبب مستعار لذلك باعتبار إيصاله إلى الله والقرب منه كالحبل الذي يتوصل به إلى المقصود ، وظاهر أنه أوثق الأسباب لثباته دائماً ونجاة المتمسك به في الدنيا والآخرة ، والكلمة صغرى ضمير تقديرها السبب بينك وبين الله تعالى هو أوثق الأسباب المأخوذ بها ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فينبغي أن يتمسك به . ونحوه قوله تعالى : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾(١) .

السابعة عشر : نبهه على مجانبة من لا يبالي به بضمير ذكر صغراه ، وتقديرها : من لم يبالك وقت حاجتك إليه وقدرته على نفعك فهو عدوك ، ولفظ العدو مستعار له باعتبار أن عدم المبالاة من لوازم العدو ، وتقدير الكبرى : وكل عدو ينبغي مجانبته .

الثامنة عشر : نبه على أن اليأس من بعض مطالب الدنيا قد يكون سبباً للسلامة من الهلاك وإدراك النجاة منه ، وذلك عندما يكون الطمع في ذلك المطلوب مستلزماً للهلاك كالطمع في نيل ملك ونحوه .

التاسعة عشر : نبه بقوله : ليس كل عورة . إلى قوله : رشده . على أن من الأمور الممكنة والفرص ما يغفل الطالب البصير عن وجه طلبه فلا يصيبه ولا يهتدي له ، ويظفر به الأعمى ، واستعار لفظ البصير للعاقل

---

(١) ٢ - ٢٥٦ .

الذكي ، والأعمى للجاهل الغبي . وغرض الكلمة التسلية عن الأسف والجزع على ما يفوت من المطالب بعد إمكانها .

العشرون : أمره بتأخير الشر وعدم الاستعجال فيه ، ونبه عليه بضمير ذكر صغراه : ومعناها : أنك قادر على تعجيله أي وقت شئت ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فينبغي أن لا يعجل فيه . إذ لا يفوتك ، ونحوه من الحكمة قولهم : إبدأ بالحسنة قبل السيئة فلست بمستطيع للحسنة في كل وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر .

الحادية والعشرون : نبه على وجوب قطيعة الجاهل بضمير ذكر صغراه ، وتقدير كبراه : وكل ما يعدل صلة العاقل فينبغي أن يرغب فيها ويفعلها وإنما كانت تعدلها باعتبار استلزامها للمنفعة ، ومنفعة قطيعة الجاهل بالقياس إلى ما في صحبته من المضرّة .

الثانية والعشرون : نبه على وجوب الحذر من الزمان ودوام ملاحظة تغيّراته ، والاستعداد لحوادثه قبل نزولها بالأعمال الصالحة ، واستعار له لفظ الخيانة باعتبار تغيّره عند الغفلة عنه والأمن فيه والركون إليه فهو في ذلك كالصديق الخائن . والكلمة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من خانه الزمان فينبغي أن يكون منه على حذر ، وفي الحكمة : من أمن الزمان ضيّع ثغراً مخوفاً .

الثالثة والعشرون : نبه بقوله : من أعظمه أهانه على وجوب ترك إعظامه . ولم يرد الزمان المجرد. بل من حيث هو مشتمل على خيرات الدنيا ولذاتها ومعدّ لطيب العيش بالصحة والشباب والأمن ونحوها ، وبذلك الاعتبار يكرم ويستعظم فيقال في العرف : زمان طيب وزمان عظيم .

وأما استلزام ذلك لإهانة من يستعظمه لأن إعظامه له يستلزم استنامته إليه واشتغاله بما فيه من اللذات الدنيوية فغفل بسبب محبتها عن الاستعداد لما وراءه . ثم إن الزمان مكر عليه بمقتضى طباعه فيفرّق بينه وبين ما كان يغترّ به من مال أو جاه أو رجال فيصبح حقيراً بعد أن كان خطيراً وصغيراً بعد أن كان كبيراً وقليلاً بعد أن كان كثيراً ، والكلمة في قوة صغرى ضمير تقدير

كبراه : وكل من أهانه الزمان فينبغي له أن يستهين به ولا يعظّمه .

الرابعة والعشرون : قوله : ليس كل من رمى أصاب ، وقد سبق مثله في قوله : ليس كل طالب يصيب . وغرضه التنبيه على ما ينبغي من ترك الأسف على ما يفوت من المطالب والتسلي بمن أخطأ في طلبه ، أو توبيخ الغير وتبكيته بأنه ليس بأهل لذلك المطلوب وأن له قوماً آخرين . وإلى نحوه أشار أبو الطيب :

ماكل من طلب المعالي نافذاًفيها ولا كل الرجال فحولا

الخامسة والعشرون : نبه على أن تغيّر السلطان في رأيه ونيته وفعله في رعيته من العدل إلى الجور يستلزم تغيّر الزمان عليهم . إذ يغيّر من الإعداد للعدل إلى الإعداد للجور ، وروي أن كسرى أنوشيروان جمع عمال السواد ، وبيده درّة يقلّبها . فقال : أي شيء أضرّ بارتفاع الأعمال وأدعى الى محقها ، ومن أجابني بما في نفسي جعلت هذه الدرة في فيه . فقال كل منهم قولاً من احتباس المطر والجراد واختلاف الهواء . فقال لوزيره : قل أنت فإني أظن عقلك يعادل عقول الرعية ويزيد عليها . فقال : إنما يضر بارتفاعها تغيّر رأي السلطان في رعيّته ، وإضمار الحيف لهم والجور عليهم . فقال : لله أبوك بهذا العقل أهّلك الملوك لما أهّلوك له . ودفع إليه الدرة فجعلها في فيه .

السادسة والعشرون : أمره بالسؤال عند إرادته لسلوك طريق عن الرفيق فيها لغاية أن يجتنبه إن كان شريراً ، ويرافقه إن كان خيّراً . فإن الرفيق إما رحيق وإما حريق ، وكذلك عن الجار عند إرادته لسكنى الدار للغاية المذكورة . وروي هذا الكلام مرفوعاً .

السابعة والعشرون : حذّره أن يذكر من الكلام ما كان مضحكاً سواء كان عن نفسه أو عن غيره لما يستلزم ذلك من الهوان ، وقلّة الهيبة في النفوس .

الثامنة والعشرون : وصاه في النساء بأمور :

أحدها : الحذر من مشاورتهنّ ، ونبه على وجوب الحذر بضمير صغراه

قوله : فإنّ رأيهنّ . إلى قوله : وهنّ . وذلك لنقصان عقولهنّ ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فينبغي أن يحذر من استشارته لما أن ضعف الرأي مظنة الخطأ وعدم إصابة وجه المصلحة فيما يستشار فيه .

الثاني : أن يكف عليهنّ من أبصارهنّ بحجابه إيّاهنّ ، وهو من أفصح الكنايات عن الحجب . ومن زائدة ، ويحتمل أن تكون للتبعيض . ونبه على وجوب حجبهنّ بضمير صغراه قوله : فإنَّ شدة الحجاب أبقى عليهنّ : أي أبقى للستر والعفة من الخروج والتبرّج وأدوم لحفظهنّ ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك وجب فعله .

الثالث : نبه على أنه لا يجوز أن يرخص في إدخال من لا يوثق به عليهنّ ، وهو أعم من الرجال والنساء، والكلام في قوة صغرى ضمير دل به على ذلك المنع ، وتقديرها : إن إدخال من لا يوثق به عليهن إما مساوٍ لخروجهنّ في المفسدة أو أشد وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فلا يجوز الرخصة فيه ، وإنَّما كان أشد في بعض الصور لأن دخول من لا يوثق به عليهن أمكن لخلوته بهنّ والحديث معهنّ فيما يراد من الفساد .

الرابع : أمره أن يحسم أسباب المعرفة بينه وبين غيره لكون معرفتهن لغيره مظنة المفسدة . وقرينة الحال يخرج غير أولي الإربة كالوالد والمحرم ، وإنما شرط في ذلك الاستطاعة لأنه قد لا يمكن الإنسان دفع معرفتهن لغيره مطلقاً .

الخامس : نهاه أن يملك المرأة من أمرها ما خرج عن حد نفسها من مأكول أو ملبوس ونحوه ، وما جاوز ذلك كالشفاعات ، ونبه على عدم صلوحها بضمير صغراه قوله : فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . واستعار لفظ الريحانة باعتبار كونها محلاً للذة والاستمتاع بها ، ولعل تخصيص الريحانة بالاستعارة لأن شأن نساء العرب استعمال الطيب كثيراً ، وكنى بكونها غير قهرمانة عن كونها لم تخلق لتكون حاكمة متسلطة بل من شأنها أن تكون محكوماً عليها ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فلا ينبغي أن يجاوزونه أمر نفسه ، وتمكن من التصرف في أمر غيره .

السادس : وكذلك نهيه أن يجاوز بكرامتها نفسها : أي لا تكرمها بكرامة تتعدّى صلاح نفسها ، وهي كقوله : ولا يملك المرأة . إلى آخره .

السابع : وكذلك نهيه أن يطمعها في الشفاعة لغيرها لأن ذلك مجاوزة منها لحد نفسها ، وقد نبّه على أنها ليست بأهل لذلك لما هي عليه من نقصان الغريزة وضعف الرأي .

الثامن : نهاه عن التغاير في غير موضع الغيرة ، ونبه على ما في ذلك من المفسدة بضمير صغراه قوله : فإن ذلك . إلى قوله : السقم ، وكنّى بالصحيحة عن البريئة من الخيانة والفساد ، وبالسقم عنهما وإنما كان كذلك لأن المرأة حين براءتها من الفساد يستقبح ذلك ويستنكره كره المواجهة ، ويستشعر خوف الفضيحة والعقاب فإذا نسبت إلى ذلك مع براءتها منه عظم عليها في أول الأمر فإذا تكرر ذلك من الرجل هان عليها أمره وصار لومه لها في قوة الإغراء بها بذلك ، وقد علمت ما في الطباع الحيوانية من الحرص على الأمر الممنوع منه فكانت الغيرة في غير موضعها واللائمة بسبب التخيّل الفاسد على ما لم يفعل أمراً داعياً إلى قوله : وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك لم يجز فعله .

التاسع والعشرون : أمره أن يجعل لكل إنسان من خدمه شغلاً يخصه ، ويأخذه بفعله ويؤاخذه على تركه ، وذلك من الحكمة المنزلية . ونبه على سر ذلك بضمير صغراه قوله : فإنه أحرى . إلى قوله : خدمتك ، وذلك أنهم إذا شركوا في التكليف بفعل واحد يقوم به كل واحد منهم فالغالب عليهم أن يكل كل واحد منهم فعله إلى الآخر فيستلزم ذلك أن لا يفعل . قال كسرى أنوشيروان لولده شيرويه : وانظر إلى كتَابك فمن كان منهم ذا ضياع قد أحسن عمارتها فولّه الخراج ، ومن كان منهم ذا عبيد فولّه الجند ، ومن كان منهم ذا سراري قد أحسن القيام عليهنّ فولّه النفقات والقهرمة ، وهكذا فاصنع في خدم دارك ولا تجعل أمرك فوضى بين خدمك فيفسد عليك ملكك .

الثلاثون : أمره بإكرام عشيرته ، ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله :

فإنّهم . إلى قوله : تقول . واستعار لهم لفظ الجناح باعتبار كونهم مبدء نهوضه وقوته على الحركة إلى المطالب كجناح الطائر ، ورشح بذكر الطيران ، وكذلك لفظ اليد باعتبار كونهم محل صولته على العدو ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك وجب عليك إكرامه .

ثم ختم الوصية بوداعه واستودع الله دينه ودنياه وسؤاله خير القضاء له في عاجلته وآجلته وداريه دنياه وآخرته حسب إرادته تعالى ومشيئته ولفظ الاستيداع مجاز في طلب الحفظ من الله لما استودعه إياه . وبالله التوفيق والعصمة .

٣٢ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية :

وَأَرْدَيْتَ جِيلاً مِنَ النَّاسِ كَثِيراً : خَدَعْتَهُمْ بِغَيِّكَ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ ، تَغْشَاهُمُ الظُّلُمَاتُ ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَازُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ ، إلاَّ مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ؛ فَإِنَّهُمْ فَارَقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلى اللهِ مِنْ مُوَازَرَتِكَ ؛ إذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ ، فَاتَّقِ اللهَ يَا مُعَاوِيَةُ فِي نَفْسِكَ ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ ، وَالآخِرَةَ قَرِيبَةٌ مِنْكَ وَالسَّلَامُ .

أقول : أول هذا الكتاب : من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية ابن أبي سفيان أما بعد فإن الدنيا دار تجارة وربحها الآخرة . فالسعيد من كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومن رأى الدنيا بعينها وقدرها بقدرها وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مرد له دون نفاذه ، ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يردوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغوي والرشيد . فاتق الله ولا تكن ممن لا يرجو لله وقاراً ، ومن حقّت عليهم كلمة العذاب فإن الله بالمرصاد ، وإن دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرة عليك فانتبه من الغي والضلال على كبر سنك وفناء عمرك فإن حالك اليوم كحال الثوب المهيل

الـذي لا يصلح من جـانب إلاّ فسـد من آخـر . ثم يتصـل بـه وقـد أرديت . الفصل .

والمهيـل : المتـداعي في التمـزق ، ومنـه رمـل مهيـل : أي ينهـال ويسيل . وأرديت أهلكت . والجيل : الصنف ، وروي جبلاً : وهو الخلق . وجـاروا : عدلـوا . والوجهـة : القصد . والنكـوص : الرجـوع . وعوّل على كذا : اعتمد عليه . وفاء : رجع . والموازرة : المعاونة .

وفي الكتاب مقاصد :

الأول : مـوعظتـه وتذكيـره بحال الـدنيا وكـونها دار تجـارة والغايـة من التجارة فيها إمـا ربح الآخـرة بصلاح البضـاعة وهي الأعمـال ، وإما خسـران الآخرة بفسادها .

الثاني : تنبيهه على أن يـرى الدنيـا بعينها : أي يعـرفها بحقيقتهـا ، أو يراها بالعين التي بها تعرف وهي عين البصيرة ، ويعلم مـا هي عليه من الغيـر والزوال وأنها خلقت لغيرها ليقـدرها بمقـدارها ويجعلهـا في نظره لمـا خلقت له .

الثالث : نبهه على أن لله تعالى علماً لا بد من نفاده فيه فإن ما علم الله تعالى وقوعه لا بد من وقوعه ، وإنما وعظه امتثـالاً لأمر الله ووفـاء بعهده على العلمـاء أن يؤدوا أمانتـه ، ويبلغـوا أحكـامـه إلى خلقـه وأن يَنصحـوا ضـالّهم ورشيدهم .

الرابع : أمره بتقوى الله ، ونهاه أن يكون ممن لا يـرجو لله وقـاراً : أي لا يتـوقع لله عـظمة فيعبـده ويـطيعـه . والـوقـار : الاسم من التـوقيـر : وهـو التعظيم . وقيل : الرجاء هنا بمعنى الخوف فيكـون مجازاً إطـلاقاً لاسم أحـد الضدين على الآخر ، وأن يكون ممن حقت عليه كلمة العذاب .

وقوله : فإنّ الله بالمرصاد .

تنبيه له على اطلاعه عليه وعلمه بما يفعل ليرتدع عن معصيته .

الخامس : نبهه على إدبار الدنيا ، وعودها حسرة عليه يوم القيامة فقدها

مع عشقه لها ، وعدم تمسكه في الآخرة بعصم النجاة ، وفناء زاده إليها .

السادس : أمره بالانتباه من رقدة الجهل والضلال على حال كبر سنه وفناء عمره فإن تلك الحال أولى الأحوال بالانتباه منها ، ونبهه على أنه غير قابل للإصلاح في ذلك السن بعد استحكام جهله وتمكن الهيئات البدنية من جوهر نفسه ونهكها له فهو كالثوب الخلق لا يمكن إصلاحه بالخياطة بل كلما خيط من جانب تمزّق من آخر .

السابع : أخبره في معرض التوبيخ على ما فعل بأهل الشام من خدعته لهم وإلقائهم في موج بحره ، ولما كان ضلاله عن دين الله وجهله بما ينبغي هو سبب خدعته لهم نسبها إليه ، واستعار لفظ البحر لأحواله وآرائه في طلب الدنيا والانحراف عن طريق الله باعتبار كثرتها وبعد غايتها ، ولفظ الموج للشبه التي ألقاها إليهم وغرقهم بها فيما يريد من الأغراض الباطلة ، ومشابهتها للموج في تلعبها بأذهانهم واضطراب أحوالهم بسببها ظاهرة ، وكذلك استعار لفظ الظلمات لما حجب أبصار بصائرهم عن إدراك الحق من تلك الشبهات ، ولفظ الغشيان لطريانها على قلوبهم وحجبها لها . ومحل تغشاهم نصب على الحال . وكذلك لفظ التلاطم لتلعب تلك الشبهات بعقولهم .

وقوله : فجازوا .

عطف على ألقيتهم ، وأراد أنهم عدلوا عن الحق بسبب ما ألقاه إليهم من الشبه واعتمدوا في قتالهم على أحسابهم حمية الجاهلية في الذب عن أصولهم ومفاخرهم دون مراعاة الدين والذب عنه إلاّ من رجع إلى الحق من أهل العقول فإنهم عرفوك وما أنت عليه من الضلال ، فارقوك وهربوا إلى الله من مؤازرتك فيما تريده من هدم الدين حين حملتهم على الأمور الصعبة الهادمة له وعدلت بهم عن قصد الحق . وقد كان استغوى العرب بشبهة قتل عثمان والطلب بدمه . فلما عرف عقلاؤهم والمتمسكون بالدين منهم أن ذلك خدعة منه لإرادة الملك فارقوه واعتزلوه .

وقوله : على أعقابهم ، وعلى أدبارهم .

ترشيح لاستعارة لفظي النكوص والتولي من المحسوسين للمعقولين ، والاستثناء هنا من الجيل الذين خدعهم ، ولفظ الصعب مستعار لما حملهم عليه من الأمور المستصعبة في الدين باعتبار أن ركوبهم لها يستلزم عدولهم عن صراط الله ووقوعهم في مهاوي الهلاك كما يستلزم ركوب الجمل الصعب النفور العدول براكبه عن الطريق وتقحم المهالك ، وكذلك لفظ القصد مستعار للطريق المعقول إلى الحق من الطريق المحسوس . ثم كرر عليه الأمر بتقوى الله ، وأن يجاذب الشيطان قياده . واستعار لفظ المجاذبة للممانعة المعقولة ، ولفظ القياد لما يقوده به من الآراء الباطلة وكواذب الآمال ، وممانعة الشيطان لذلك القياد بتكذيب النفس الأمارة فيما يوسوس به من تلك الآراء .

وقوله : فإن الدنيا . إلى آخره .

تنبيه له على وجوب قطع الآمال الدنيوية لانقطاع الدنيا ، وعلى العمل للآخرة بقربها . وهو في قوة صغرى ضميرين تقدير كبرى الأول : وكل ما كان منقطعاً زائلاً وجب أن يقطع الأمل فيه لانقطاعه وتجاذب الشيطان في دعوته إليه ، وتقدير كبرى الثاني : وكل ما كان قريباً فينبغي أن يستعد لوصوله بالعمل . وبالله التوفيق .

٣٣ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى قثم بن العباس ، وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِب ، كَتَبَ إِلَيَّ يُعْلِمُنِي أَنَّه وُجِّهَ إِلى الْمَوْسِمِ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، الْعُمْيِ الْقُلُوبِ ، الصُّمِّ الأَسْمَاعِ ، الْكُمْهِ الأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبونَ الدُّنْيَا دَرَّهَا بِالدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِآجِلِ الأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ ، وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إلاَّ عَامِلُهُ ، وَلاَ يُجْزِي جَزَاءِ الشَّرِّ إلاَّ فَاعِلُهُ ، فَأَقِم عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الحَازِمِ الصَّلِيبِ ، وَالنَّاصِحِ اللَّبِيبِ ، التَّابِعِ لِسُلْطَانِهِ الْمُطِيعِ لإِمَامِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، وَلاَ تَكُنْ عِنْدَ النَّعْمَاءِ بَطِراً ، وَلاَ عِنْدَ الْبَأْسَاءِ فَشِلاً .

أقول : هو قثم بن العباس بن عبد المطلب ، ولم يزل والياً لعلي عليه السلام على مكة حتى قتل عليه السلام واستشهد بسمرقند في زمن معاوية ، وسبب هذا الكتاب أن معاوية كان قد بعث إلى مكة في موسم الحج واجتماع العرب بها دعاة يدعون إلى طاعته ويثبطون العرب من نصرة علي عليه السلام ، ويلقون في أنفسهم أنه إما قاتل عثمان أو خاذل له وعلى التقديرين فلا يصلح للإمامة ، وينشرون محاسن معاوية ـ بزعمهم ـ وأخلاقه وسيرته في العطاء . فكتب عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكة ينبهه على ذلك ليعتمد عليه فيما تقتضيه السياسة ، وقيل : إن الذين بعثهم بعض السرايا التي كان يبعثها ليغير على أعمال علي عليه السلام .

والعين : الجاسوس . والموسم : مجمع الحاج . والأكمه : الأعمى خلقة . والبطر : شدة المرح وكثرة النشاط . والبأساء : الشدة بني على فعلاء ولا أفعل له لأنه اسم غير صفة . والفشل : الجبن والضعف .

وحاصل الكتاب إعلامه أولاً بما كتب إليه عينه بالمغرب ، وأراد الشام لأنها من البلاد المغربية ، وقد كان له عليه السلام في البلاد جواسيس يخبروه بما يتجدد من الأمور عند معاوية ، ولمعاوية عنده كذلك كما جرت عادة الملوك بمثله . ثم وصف أهل الشام بأوصاف يستلزم البعد عن الله لغرض التنفير عنهم :

أحدها : شمول الغفلة بهم من كل وجه عما خلقوا لأجله ، واستعار لقلوبهم لفظ العمى باعتبار عدم عقليتهم للحق وإدراكهم لما ينبغي من طريق الآخرة كما لا يدرك الأعمى قصده ، ولفظ الصم لأسماعهم والكمه لأبصارهم باعتبار عدم انتفاعهم من جهة الأسماع بالمواعظ والتذاكير ، ومن جهة الأبصار بتحصيل العبرة بها من آثار الله سبحانه كما لا ينتفع بذلك فاقد هاتين الآلتين .

الثاني : كونهم يلبسون الحق بالباطل : أي يخلطونه ويعمونه فيه . والمراد أنهم يعلمون أنه على الحق وأن معاوية على الباطل ثم يكتمون ذلك ويغطونه بشبهة قتل عثمان والطلب بدمه إلى غير ذلك من أباطيلهم ، وروي

يلتمسون الحق بالباطل . إذ كانوا يطلبون حقاً بحركاتهم الباطلة .

الثالث : كونهم يطيعون المخلوق : أي معاوية في معصية خالقهم .

الرابع : كونهم يحتلبون الدنيا درها بالدين ، واستعار لفظ الدر لمتاع الدنيا وطيباتها ، ولفظ الاحتلاب لاستخراج متاعها بوجوه الطلب من مظانه ملاحظاً لشبهها بالناقة . ودرّها منصوب بدلاً من الدنيا . وإنما كان ذلك بالدين لأن إظهارهم لشعاره وتمسكهم بظواهره لغرض تحصيل الدنيا وأخذهم ما لا يستحقونه منها فإن محاربتهم له عليه السلام إنما كانت كما زعموا للأخذ بثأر الخليفة عثمان وإنكار المنكر على قاتليه وخاذليه ، ولذلك تمكنوا من تألّف قلوب العرب وأكثر جهّال المسلمين على حربه عليه السلام ، وأخذ البلاد .

الخامس : شراؤهم عاجل الدنيا بآجل الأبرار ، وهو ثواب الآخرة ، ولفظ الشراء مستعار لاستعاضتهم ذلك العاجل من ذلك الآجل ، ولما كان ذلك في شعار الإسلام هو الخسران المبين ذكره في معرض ذمهم ، ثم ذكر في مقام الوعد والوعيد لهم انحصار الفوز بالخير ممن عمل الخير ترغيباً فيه والمجازاة بالشر في فاعله تنفيراً عنه . ثم ختم بأمره وتحذيره أما أمره فبأن يقيم على ما في يديه من العمل مقام من هو أهل ذلك وهو الحازم المتثبّت في آرائه ، الصليب في طاعة الله ، الناصح اللبيب له ولأوليائه ، التابع لسلطانه ، المطيع لإمامه . وأما تحذيره فمما يعتذر منه وهو كل أمر عد في الشرع معصية وتقصيراً عن أداء حقه ، ويروى الكلمات مرفوعة . ثم من البطر في النعمة والفشل والضعف عند البأساء والشدة لكون ذلك معدّاً لزوال النعمة وحلول النقمة . والبطر رذيلة تستلزم رذيلتي الكبر والعجب ، وتقابل فضيلة التواضع ، والفشل رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة . وبالله التوفيق .

٣٤ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى محمد ابن أبي بكر ، لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر ثم توفي الأشتر في توجهه إلى مصر قبل وصوله اليها .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَلَغَني مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الأَشْتَرِ إلى عَمَلِكَ ، وَإنِّي

لَمْ أَفْعَلْ ذٰلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجُهْدِ ، وَلاَ ازْدِيَاداً لَكَ فِي الْجِدِّ ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ لَوَلَّيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وِلاَيَةً .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلَّيْتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلاً لَنَا نَاصِحاً وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيداً نَاقِماً ، فَرَحِمَهُ اللهُ فَلَقَدِ آسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ ، وَلاَقَى حِمَامَهُ ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ ، أَوْلاَهُ اللهُ رِضْوَانَهُ ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ ، فَأَصْحِرْ لِعَدُوِّكَ ، وَآمْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبِ مَنْ حَارَبَكَ ، وَآدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ الاسْتِعَانَةَ بِاللهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَيُعِنْكَ عَلَى مَا نَزَلَ بِكَ ، وَالسَّلاَمُ .

أقول : السبب أن محمد ابن أبي بكر كان يضعف عن لقاء العدو ، ولم يكن في أصحاب علي عليه السلام أقوى بأساً في الحرب من الأشتر ـ رحمه الله ـ وكان معاوية بعد وقائع صفين قد تجرد للإغارة على أطراف بلاد المسلمين ، وقد كانت مصر جعلت طعمة لعمرو بن العاص ، وعلم عليه السلام أنها لا تتحفظ إلّا بالأشتر فكتب له العهد الذي يأتي ذكره ووجهه إليها فبلغه أن محمداً تألم من ذلك . ثم إن الأشتر مات قبل وصوله إليها فكتب عليه السلام إلى محمد هذا الكتاب ، وهو يؤذن باقراره على عمله واسترضائه ، وتعريفه وجه عذره في تولية الأشتر لعمله ، وأنه لم يكن ذلك لموجدة عليه ولا تقصير منه . والموجدة ما يجده الإنسان من الغضب والتألم عنه . والتسريح : الإرسال . وأصحر له : أي أخرج له إلى الصحراء . والبصيرة هنا : الحجة والهدى في الدين .

وحاصل الفصل أمور :

الأول : فقد بلغني . إلى قوله : عملك كالاعتراف له بما يشبه الإساءة في حقه ليرتب عليه ما يشبه الاعتذار إليه .

الثاني : قوله : وإني لم أفعل ذلك . إلى قوله : ناقماً . أخذ فيما يشبه العذر فنفى عنه التقصير والاستبطاء في الجهاد ونحوه مما عساه يتوهمه سبباً لعزله . ثم وعده على تقدير تمام عزله بولاية أمر هو أسهل عليه كلفة وأحب

إليه ولاية تسكيناً لقلبه عن مصر بالترغيب فيما هو خير منها . ثم أشار إلى وجه بعثه الأشتر في معرض ذلك الثناء عليه بما استجمعه من الخصال الحميدة المذكورة ، وهي كونه لإمامه ناصحاً ، وعلى عدوه شديداً ناقماً : أي منكراً ومغيراً ، ومحمد وإن كان له الأمر في الأول إلّا أنه في الثاني ضعيف .

الثالث : قوله : فرحمه الله . إلى قوله : الثواب له . إعلام بأنه مات وهو عنه راض لأن لا يظهر به شماتته .

الرابع : قوله : فأصحر . إلى آخره أمر له بالاستعداد للعدو، وأمره بالإصحار لإشعاره بالقوة دون الاستتار في المدينة المشعر بالضعف ، وأن يمضي في محاربته على حجته في الحق واستبصاره فيه ، وكنّى وصف التشمير عن الاستعداد للحرب ، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، وأن يكثر الاستعانة بالله فإن الرغبة إليه ، والاستعانة به تعد لإفاضة النصر وكفايته ما أهم من أمر العدو ومعونته على ما نزل من الشدائد . وبالله التوفيق والعصمة .

٣٥ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عبدالله بن العباس ، بعد مقتل محمد ابن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ الله قَدِ ٱسْتُشْهِدَ ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً ، وَعَامِلاً كَادِحاً ، وَسَيْفاً قَاطِعاً ، وَرُكْناً دَافِعاً ؛ وَقَدْ كُنْتُ حَثَثْتُ النَّاسَ عَلَى لِحَاقِهِ ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوَقْعَةِ ؛ وَدَعَوْتُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً ، وَعَوْداً وَبَدْءاً : فَمِنْهُمُ الآتِي كَارِهاً ، وَمِنْهُمُ الْمُعْتَلُّ كَاذِباً ، وَمِنْهُمُ الْقَاعِدُ خَاذِلاً . أَسْأَلُ الله أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ فَرَجاً عَاجِلاً ، فَوَاللهِ لَوْلَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ ، وَتَوْطِينِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ ؛ لَأَحْبَبْتُ أَنْ لَا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ يَوْماً وَاحِداً ، وَلَا أَلْتَقِي بِهِمْ أَبَداً .

أقول : احتسبت كذا عند الله : أي طلبت به الحسبة بكسر الحاء وهي

الأجر . والشهادة : القتل في سبيل الله . واستشهد : كأنه استحضر إلى الله .

ومدار الكتاب على أمور :

أحدها : إعلامه بفتح مصر .

الثاني : إخباره عن قتل محمد ابن أبي بكر ليساهمه في الهم بهذه المصيبة ، ومدحه في معرض التفجع عليه والتوجع له، وولداً وعاملاً وسيفاً وركناً أحوال ، وتسميته ولداً مجاز باعتبار تربيته في حجره كالولد ، وذلك أنه كان ربيباً له ، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية كانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولدت له محمداً وعوناً وعبدالله بالحبشة ، ولما قتل جعفر تزوجها أبو بكر فولدت له محمداً هذا . فلما توفي عنها تزوّجها علي عليه السلام فولدت له يحيى بن علي ، واستعار له لفظ السيف باعتبار كونه يقمع به العدو ويصال به عليه ، ورشح بذكر القاطع ، وكذلك لفظ الركن باعتبار كونه يستند إليه في الحوادث فتدفع به ورشح بقوله : دافعاً .

الثالث : إعلامه بحاله مع الناس في معرض التشكي منهم ، وأنه قد حثّهم على لحاقه وإغاثته فلم يسمعوا ، وأشار إلى وجه تقصير كل منهم ، وقد كان حاله عليه السلام مع الناس كحال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع قومه فالآتون كارهين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، والمعتلّون كذباً كالذين قالوا لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون ، ومن تأمل حالهما وسيرتهما إلى أن قبضا تحقق وجه الشبه بينهما في أكثر الأحوال . وهذه القسمة لهم بحسب ما وجدهم .

الرابع : سؤاله لله تعالى أن يعجّل له منهم الفرج وهو في معرض التشكي أيضاً والإشارة إلى وجه عذره في المقام بينهم على هذه الحال وهو طلبه للشهادة وتوطينه نفسه على الموت عند لقاء العدو ، ولولا ذلك لفارقهم . وبالله التوفيق .

٣٦ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عقيل بن أبي طالب ، في ذكر جيش أنفذه إلى بعض الأعداء وهو

جواب كتاب كتبه إليه .

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشاً كَثِيفاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِباً ، وَنَكَصَ نَادِماً ، فَلَحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ ، وَقَدْ طَفَّلَتِ الشَّمْسُ لِلإِيَابِ ؛ فَاقْتَتَلُوا شَيْئاً كَلاَ وَلاَ ؛ فَمَا كَانَ إِلاَّ كَمَوْقِفِ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضاً بَعْدَمَا أُخِذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ ، وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ غَيْرُ الرَّمَقِ ، فَلأْياً بِلأْيٍ مَا نَجَا فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلاَلِ وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَبْلِي ؛ فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي ؛ فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي ، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللهَ ، لاَ يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلاَ تَفَرُّقُهُمْ عَنِّي وَحْشَةً ، وَلاَ تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ ـ وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ ـ مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً ، وَلاَ مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً ، وَلاَ سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ ، وَلاَ وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُقْتَعِدِ ، وَلكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سُلَيْمٍ :

فَإِنْ تَسْأَلِينِي : كَيْفَ أَنْتَ ؟ فَإِنَّنِي ... صَبُورٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَآبَةٌ ... فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

أقول : طفلت الشمس بالتشديد : إذا مالت للمغيب . وآبت : لغة في غابت . والجريض : المغموم الذي يبتلع ريقه على همّ وحزن بالجهد ويكاد يموت لذلك . والمخنّق بالتشديد : هو من العنق موضع الخنق بكسر النون . والرمق : بقية النفس. واللأي : الشدة والعسر . والإجماع : تصميم العزم . والجوازي : جمع جازية وهي النفوس تجزى بالسيئة . والمحلّين : من نقض البيعة ، يقال لمن نقض عهده وبيعته : محل ، ولمن حفظه : محرم . والمقتعد : الراكب لاقتعاده لأظهر البعير .

وحاصل الفصل أمور :

أحدها : قوله : فسرحت ، إلى قوله : ما نجا . حكاية حال عدو وقد أغار على بعض أعماله فنفذ إليه جيشاً من المسلمين فهرب حين علم توجههم نحوه ثم لحقوه فقاتلوه قليلاً ثم أفلت منهم على شدة وعسر من الخلاص ، وألفاظه عليه السلام أفصح العبارات عما ذكره ، وهارباً ونادماً وجريضاً أحوال .

وقوله : كلا ولا .

تشبيه بالقليل السريع الفناء ، وذلك لأن لا ولا لفظان قصيران سريعا الانقطاع قليلان في المسموع من المتخاطبين . فشبه بهما ما كان من محاربة العدو للجيش الذي نفذه . ونحوه قول ابن هاني المغربي :

وأسرع في العين من لحظة وأقصر في السمع من لا ولا

وموقف مصدر أي فما كان ذلك القتال إلّا كوقوف ساعة ، وروي : لا وذا . ولأياً مصدر والعامل محذوف ، وما مصدرية في موضع الفاعل ، والتقدير : فلأبي لأياً نجاؤه أي عسر وإبطاء .

وقوله : بلأي .

أي لأيا مقروناً بلأي .

الثاني : قوله: فدع عنك إلى قوله : ابن أمي .

كالجواب لكلام ذكر فيه قريشاً ومن انضم منهم إلى معاوية فأمره عليه السلام بالإضراب عن ذكرهم على سبيل الغضب منهم ، والواو في قوله : وتركاضهم. يشبه أن يكون بمعنى مع ، ويحتمل أن تكون عاطفة ، واستعار لهم لفظ التركاض باعتبار خبط أذهانهم في الضلال عن سبيل الله وخوضهم في الباطل يتسرع فيه من غير توقف ، وكذلك لفظ التجوال ، ولفظ إجماح باعتبار كثرة خلافهم للحق وحركاتهم في تيه الجهل والخروج عن طريق العدل كالفرس يجمح ويجول .

وقوله : فإنهم . إلى قوله : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

في قوة صغرى ضمير نبه به على أنه لا خير فيهم وأنه يجب الإعراض عنهم ، وتقدير الكبرى ، وكل من كان كذلك فينبغي تركه والإعراض عنه إذ

لا خير فيه . وأما حقيقة الصغرى فظاهرة لأن قريشاً صمم عزمهم على حربه منذ بويع بغضاً له وحسداً وحقداً عليه واتفقوا على شقاقه كما كانت حالهم في بدو الإسلام مع رسول الله ﷺ لم يفترق الحالان في شيء من ذلك .

وقوله : فجزت قريشاً عني الجوازي .

دعاء عليهم بأن يجازوا بمثل فعلهم به من قطيعة الرحم وسلبه سلطان الإسلام والخلافة التي هو أولى بها . وهي تجري مجرى المثل .

وقوله : فقد قطعوا رحمي .

كالتعليل لحسن الدعاء عليهم ، وهو في قوة صغرى ضمير أيضاً ، وتقدير كبراه : وكل من فعل ذلك فهو حقيق بالدعاء عليه ، وأراد بابن أمه رسول الله ﷺ لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم أم عبدالله وأبي طالب ، ولم يقل ابن أبي لأن غير أبي طالب من الأعمام يشركه في النسب إلى عبد المطلب . وقيل : إن أمه فاطمة بنت أسد كانت تربي رسول الله ﷺ حين كفّله أبو طالب يتيماً فهي كالأمّ له فأطلق عليه البنوّة لها مجازاً .

الثالث : قوله : وأما ما سألت عنه . إلى آخره . فهو تقرير بسؤاله والجواب عنه ، وفيه تنبيه على فضيلته من وجوه :

الأول : قوته في الدين على من أحلّ ذمة الله ونقض عهداً من عهوده .

الثاني : شجاعته التي لا يزيده معها كثرة الناس حوله عزّة ولا تفرّقهم عنه وحشة ، ولا يوجد معها بالصفات المذكورة من الجبن والعجز والانقياد للعدو ، ولكنه معها كالقائل . والشعر منسوب إلى العباس بن مرداس السلمي وهو في قوة تمثيل أصله القائل ، وفرعه هو عليه السلام ، وعلته ما ذكر من الأوصاف ، وحكمه كونه شجاعاً يجب الحذر من صولته . وبالله التوفيق .

٣٧ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى معاوية :

فَسُبْحَانَ الله !! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ ، مَعَ تَضْيِيقِ الْحَقَائِقِ ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ ، الَّتِي هِيَ للهِ طِلْبَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ فَأَمَّا إِكْثَارُكَ الْحِجَاجَ فِي عُثْمَانَ وَقَتَلَتِهِ . فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ .

أقول : أول هذا الكتاب : أما بعد فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة لم يصبُ إليها أحد إلاّ شغلته بزينتها عما هو أنفع له منها ، وبالآخرة أمرنا وعليها حثنا . فدع يا معاوية ما يفنى ، واعمل لما يبقى ، واحذر الموت الذي إليه مصيرك والحساب الذي إليه عاقبتك . واعلم أن الله إذا أراد بعبد خيراً حال بينه وبين ما يكره ووفقه لطاعته ، وإذا أراد بعبد شراً أغراه بالدنيا وأنساه الآخرة وبسط له أمله وعاقه عما فيه صلاحه . وقد وصلني كتابك فوجدتك ترمي غير غرضك ، وتنشد غير ضالتك ، وتخبط في عماية وتيه في ضلالة ، وتعتصم بغير حجة ، وتلوذ بأضعف شبهة . فأما سؤالك إلى المشاركة والإقرار لك على الشام ؛ فلو كنت فاعلاً لذلك اليوم لفعلته أمس . وأما قولك: إن عمر ولاّكها. فقد عزل عمر من كان ولاّ صاحبه، وعزل عثمان من كان عمر ولاّه، ولم ينصب للناس إمام إلاّ ليرى من صلاح الأمة ما قد كان ظهر لمن كان قبله أو خفي عنهم غيبته، والأمر يحدث بعده الأمر، ولكل والٍ رأي واجتهاد. ثم يتصل بقوله: سبحان الله. الفصل إلى آخره.

والفصل مشتمل على أمرين :

أحدهما: التعجب من شدة لزومه للأهواء التي هو مبتدعها، والتحيّر فيها عن قصد الحق. وذلك أنه في كل وقت يوقع شبهة ويبتدع رأياً يغوي به أصحابه ويقرر في أذهانهم بذلك أن علياً عليه السلام لا يصلح للإمامة ؛ فتارة يقول : إنه قتل عثمان ، وتارة يزعم أنه خذله ، وتارة يزعم أنه قتل الصحابة وفرق كلمة الجماعة ، وتارة تصرف عنه بالعطاء وتفريق مال المسلمين على

غير الوجه الشرعي ، وتارة يعترف بكونه صالحاً للإمامة ، ويطلب إليه الإقرار بالشام . إلى غير ذلك مما يبتدعه في الدين من الأباطيل ، ويتبّع الحيرة فيها مع تضييعه لحقائق الأمور التي ينبغي أن يعتقدها من كونه عليه السلام الأحق بهذا الأمر ، واطراحه لمواثيق الله وعهوده المطلوبة المرضية له وهي على عباده حجة يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك** ﴾ الآية .

الثاني: جوابه عن خطابه في أمر عثمان وفخره بنصرته وتبكيته له عليه السلام بخذلانه إيّاه .

وقوله : فإنّك : إلى آخره .

في قوة صغرى ضمير بيانها أن معاوية لما استصرخه عثمان تثاقل عنه وهو في ذلك يعده حتى إذا اشتد به الحصار بعث إليه يزيد بن أسد القسري ، وقال له : إذا أتيت ذي خشب فأقم بها ولا تقل : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . فإني أنا الشاهد وأنت الغائب . قال : فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان . فاستقدمه حينئذ معاوية فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان معه ، فكان نصره له حيث بعث لنصرته إنما كان على سبيل التعذير والتقاعد عنه ليقتل فيدعو إلى نفسه فكان ذلك النصر في الحقيقة لمعاوية . إذ كان فعله ذلك سبباً لقتله ، وانتصاره هو على مطلوبه من هذا الأمر ، وكان خذلانه له حيث كان محتاجاً إلى النصر ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فليس له أن يفخر بنصرته وينسب غيره إلى خذلانه . وبالله التوفيق .

٣٨ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى أهل مصر ، لما ولّى عليهم الأشتر رحمه الله .

مِنْ عَبْدِ الله عَلِيٍّ أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إلى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لله حِينَ عُصِيَ فِي أَرْضِهِ ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمُقِيمِ وَالظَّاعِنِ ، فَلاَ مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاحُ إلَيْهِ ، وَلاَ مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ .

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْداً مِنْ عِبَادِ الله لاَ يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ، وَلاَ

يَنْكُلُ عَنِ الأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ، أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَذْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الحقَّ ؛ فإنّه سيفٌ مِنْ سُيُوفِ الله لاَكَلِيلُ الظُّبَّةِ ، وَلاَ نَابِي الضَّرِيبَةِ ، فإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَأَقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لاَ يُقْدِمُ وَلاَ يُحْجِمُ ، وَلاَ يُؤَخِّرُ وَلاَ يُقَدِّمُ ، إلاَّ عَنْ أَمْرِي . وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

أقول : السرادق : البيت من القطن . والنكول : الرجوع . والظبة بالتخفيف : حد السيف ، ونبا السيف : إذا لم يقطع لضريبه . والإحجام : التأخر . وفلان شديد الشكيمة . إذا كان أبياً قوي النفس . وأصل الشكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس .

وفي الكتاب مقاصد :

الأول : قوله : من عبدالله . إلى قوله : يتناهى عنه . صورة عنوانه ، ووصف أهل مصر بالغضب لله استجلاباً لطباعهم ، وإشارة إلى إنكارهم للأحداث التي نسبت إلى عثمان ومسيرهم لذلك إلى المدينة غضباً لحدود الله أن تعطل .

فإن قلت : فيلزم أن يكون عليه‌السلام راضياً بقتل عثمان . إذ مدح قاتله على المسير بقتله .

قلت : لا يلزم ذلك لجواز أن يكون مسيرهم إنما كان للنكير عليه دون غرض قتله . فمدحهم على ذلك النكير لأنه جهة مدح ، وأما قاتلوه والذين تسوّروا عليه الدار ـ وكانوا قوماً قليلين ـ لعله لم يك فيهم من أهل مصر إلاّ النادر ، وليس في كلامه عليه‌السلام ما يقتضي مدح أولئك باعتبار كونهم قتلوه ، واستعار لفظ السرادق لما عمّ من الجور البرَّ والفاجر ، والمقيم والمسافر كالسرادق الحاوي لأهله ، وقابل بين المعروف والمنكر ولم يرد نفي المنكر بل نفي صفة التناهي عنه .

الثاني: قوله: أما بعد. إلى قوله: أخو بني مذحج. صدر الكتاب: أعلمهم فيه ببعث الأشتر اجمالاً، ووصفه بأوصاف يستلزم رغبتهم فيه، وكنّى بكونه لا ينام أيام الخوف عن علو همته وتعلّقها حين الخوف بتدبير الحرب والاستعداد للقاء العدو، وبكونه لا ينكل عن الاعداء عن شجاعته وشدة بأسه. وأكد ذلك بوصف كونه أشد على الفجّار من حريق النار، وهو وصف صادق مع المبالغة فيه. إذ كان لقاؤه للفجّار يستلزم غلبة ظنونهم بالهلاك معه وعدم السلامة، ولا كذلك وجود الحريق لطمعهم في الفرار من النار وإطفائها.

ثم ذكره بعد تعديد أوصافه الحميدة وهو أبلغ لأن الغرض الأهم وصفه لا ذكره فقط. ومذحج بفتح الميم كمسجد: أبو قبيلة من اليمن، وهو مذحج بن جابر بن مالك بن نهلان بن سبأ. والنخع: قبيلة من هذه القبيلة، والأشتر نخعي.

الثالث: أمرهم بالمقصود وهو السمع له والطاعة لأمره لا مطلقاً بل فيما يطابق الحق ويوافقه من الأوامر، وأشار إلى حسن امتثال أمره بضمير صغراه قوله: فإنه سيف. إلى قوله: الضريبة، واستعار له لفظ السيف باعتبار كونه يصال به على العدو فيهلكه كالسيف، ورشح بذكر الظبة، وكنّى بكونه غير كليلها وغير نابي الضريبة عن كونه ماضياً في الحوادث غير واقف فيها ولا راجع عنها، والإضافة إلى الضريبة إضافة اسم الفاعل إلى المفعول: أي ولا نابٍ عن الضريبة، وتقدير الكبرى: وكل من كان كذلك فيجب أن يقدم ويمتثل أمره فيما يشير به من الحرب وغيرها.

الرابع: أمرهم أن يكون نفارهم إلى الحرب، وإحجامهم عنها على وفق أمره، ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله: فإنه. إلى قوله: أمرىء. وكنّى بذلك عن كونه لا يأمر في الحرب وغيرها بأمر إلّا وهو في موضعه لأن أوامره عليه السلام كانت كذلك فمن كان على وفقها فأوامره أيضاً كذلك، ولم يرد عليه السلام أن كل ما يأمر به مالك في الأمور الكلية والجزئية فإنه من أمره عليه السلام بالتعيين والتفصيل بل أراد أنه قد علمه بقواعد كلية للسياسات

وتدابير المدن والحروب وأعدّه لذلك بحيث يمكنه أن يجتهد فيها ويستخرج جزئياتها .

الخامس : أعلمهم أنه قد آثرهم به على نفسه مع حاجته إليه في الرأي والتدبير في معرض الامتنان عليهم بذلك ليشكروه ، وأشار إلى علة إيثاره لهم به وهي كونه ناصحاً لهم قوي النفس شديد الوطأة على عدوهم . وكنى بشدة الشكيمة عن ذلك فأما مصلحته عليه السلام في ذلك الإيثار فهو استقامة الأمر له بصلاح حالهم . وبالله التوفيق .

٣٩ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا ٱمْرِىءٍ ظَاهِرٍ غَيُّهُ ، مَهْتُوكٍ سِتْرُهُ ، يَشِينُ ٱلْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ ، وَيُسَفِّهُ ٱلْحَلِيمَ بِخُلْطَتِهِ ، فَٱتَّبَعْتَ أَثَرَهُ ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ٱتِّبَاعَ ٱلْكَلْبِ لِلضِّرْغَامِ : يَلُوذُ إِلَى مَخَالِبِهِ ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيسَتِهِ ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ ، أَدْرَكْتَ مَا طَلَبْتَ ، فَإِنْ يُمَكِّنِّي ٱللَّهُ مِنْكَ وَمِنِ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْزِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَانِي وَتَبْقَيَا فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا وَالسَّلَامُ .

أقول : قد ذكر هذا الكتاب برواية تزيد على هذه ، وأوله : من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى الأبتر بن الأبتر عمرو بن العاص شانىء محمد وآل محمد في الجاهلية والإسلام . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنك تركت مروتك لامرىء فاسق مهتوك ستره يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلطته . فصار قلبك لقلبه تبعاً كما وافق شنّ طبقه . فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وآخرتك، وكان علم الله بالغاً فيك . فصرت كالذئب يتبع الضرغام إذا ما الليل دجى يلتمس أن يداوسه . وكيف تنجو من القدر ولو بالحق طلبت أدركت ما رجوت ، وقد يرشد من كان قائده . فإن يمكّني الله منك ومن ابن آكلة الأكباد ألحقكما بمن قتله الله من ظلمة قريش على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن تعجزا أو تبقيا بعدي فالله حسبكما وكفى بانتقامه انتقاماً وبعقابه عقاباً .

ومدار الكتاب على توبيخ عمرو بمتابعته لمعاوية في باطله وتنفيره عما هو عليه ووعيده لهما على ذلك . ومعنى جعله دينه تبعاً لدنيا معاوية أنه يصرفه في مرضاته بحسب ما يتصور حصوله عليه من دنياه كما أشرنا إليه قبل من بيعه دينه في المظاهرة على حربه عليه السلام بطعمة مصر . ثم ذمّ معاوية بأوصاف أربعة لغاية التنفير عنه :

أحدها : كونه ظاهراً غيّه، وضلال معاوية عن طريق الله أوضح من أن يوضح .

الثاني : كونه مهتوكاً ستره ،ومن المشهور عنه أنه كان هاتكاً لستر دين الله عنه فإنه كان كثير الخلاعة به والهزل صاحب سمار وجلساء لهو ومتاع وشرب وسماع ، وقد كان يتستر بذلك في زمان عمر خوفاً منه إلّا أنه كان يلبس الحرير والديباج ويشرب في آنية الذهب والفضة، وأما في أيام عثمان فكان شديد التهتك ، وإنما قارب الوقار حيث خرج على علي عليه السلام لحاجته إلى استغواء الناس بظاهر الدين .

الثالث : يشين الكريم بمجلسه ، وذاك أن الكريم هو الذي يضبط نفسه وينزهها عما يشين العرض من الرذائل ، وقد كان مجلس معاوية مشحوناً ببني أمية ورذائلهم ، ومجالسة الكريم لهم تستلزم نسبته إليهم ولحاقه بهم ، وذلك مشين لعرضه ومقبح لذكره .

الرابع : كونه يسفه الحليم بخلطته ، وذلك أنه كان دأبه هو وبنو أمية شتم بني هاشم وقذفهم والتعرض بذكر الإسلام والطعن عليه ، وإن أظهروا الانتماء إليه ، وذلك مما يستفزّ الحليم ويسفه رأيه في الثبات عند مخالطتهم وسماعه منهم ، وكنّى باتباعه لأثره عن متابعته له فيما يفعله ، وأشار بقوله : وطلبت فضله إلى غرض اتباعه ، وشبه اتباعه له باتباع الكلب الأسد تحقيراً له وتنفيراً ، ونبهه على وجه الشبه بقوله : يلوذ. إلى قوله: فريسته ، وأراد أن اتباعه له على وجه الذلة والحقارة ودناءة الهمة للطمع فيما يعطيه من فضل ماله وانتظار ذلك منه كاتباع الكلب للأسد ، وفي مثل هذا التشبيه بلاغ لعمرو في التنفير لو كان له كرم . ثم نبهه

على لازم اتباعه له بقوله : فأذهبت دنياك وآخرتك ، وأراد بدنياه ما كان يعيش بـه من الرزق والعـطاء الحـلال عـلى وجـه يلتـذّ بـه في طيب نفس وأمن من الحروب التي لقيها بصفين والأهوال التي باشرها في موافقته لمعـاوية ، وتلك هي الـدنيا الحقـة . إذ الدنيـا إنما يـراد للذة بها والاستمتـاع ، وذلك ممـا لم يحصل عليه عمرو . وأما ذهاب آخرته فظاهر .

وقوله : ولو بالحق أخذت . إلى قوله : طلبت .

جذب له إلى لزوم الحق وترغيب فيه بذكر لازمه ، وهـو إدراك ما طلب من دنيا وآخرة ، وظاهر أنه لو لزم الحق لوصل إلى دنيا كاملة وآخرة بـالمعالي كافلة .

وقوله : فإن يمكنني الله . إلى آخره .

وعيد بعذاب واقع على تقدير كل واحد من النقيضين وذلك العذاب إما بواسطته في الدنيا بتقدير تمكين الله منهما وهو جزاؤه لهما بما قدما من معصية الله ، وإما من الله في الآخرة على تقـدير أن يعجـزاه ويبقيا بعـده وهو عـذاب النـار ، ونبه عليـه بقولـه : فما أمـامكما شـر لكما لقـوله تعـالى : ﴿ **ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ واستعار لفظ الأمام للآخرة بـاعتبار استقبـال النفوس لهـا وتوجهها نحوها . وبالله التوفيق .

٤٠ ـ ومن كتاب له عليه السلام إِلى بَعْضِ عُمَّالِهِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ، وَلَمْ يَكُنْ في أهلي رَجُلٌ أوثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسي ، لِمُواسَاتِي وَمُوازَرَتِي ، وأَدَاءِ الأَمَانَةِ إِلَيَّ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلِبَ ، وَالعَدُوَّ قَدْ حَرِبَ ، وأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ خَزِيَتْ ، وَهَذِهِ الأُمَّةَ قَدْ فَنَكَتْ وَشَغَرَتْ ، قَلَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ ، فَفَـارَقْتَـهُ مَـعَ ٱلْمُفَـارِقِينَ ، وَخَـذَلْتَهُ مَـعَ ٱلْخَـاذِلِينَ ، وَخُنْتَـهُ مَـعَ ٱلْخَـائِنِينَ ، فَلَا ٱبْنَ عَمِّـكَ آسَيْتَ ، وَلَا ٱلْأَمَانَـةَ أَدَّيْتَ ، وَكَأَنَّـكَ لَـمْ تَكُنِ ٱللَّهَ تُرِيدُ بِجِهَادِكَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّـكَ ، وَكَأَنَّـكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيـدُ

هٰذِهِ ٱلْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ ، وَتَنْوِي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ ، فَلَمَّا أَمْكَنَتْكَ ٱلشِّدَّةُ فِي خِيَانَةِ ٱلْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ ٱلْكَرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ ٱلْوَثْبَةَ ، وَٱخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ ٱلْمَصُونَةِ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ ، ٱخْتِطَافَ ٱلذِّئْبِ ٱلْأَزَلِّ دَامِيَةَ ٱلْمِعْزَى ٱلْكَسِيرَةَ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى ٱلْحِجَازِ رَحِيبَ ٱلصَّدْرِ بِحَمْلِهِ ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ مِنْ أَخْذِهِ كَأَنَّكَ ـ لَا أَبَا لِغَيْرِكَ ـ حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ . فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِٱلْمَعَادِ أَوَ مَا تَخَافُ نِقَاشَ ٱلْحِسَابِ ؟ أَيُّهَا ٱلْمَعْدُودُ ـ كَانَ عِنْدَنَا ـ مِنْ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ كَيْفَ تُسِيغُ شَرَاباً وَطَعَاماً وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَاماً وَتَشْرَبُ حَرَاماً ؟ وَتَبْتَاعُ ٱلْإِمَاءَ وَتَنْكِحُ ٱلنِّسَاءَ مِنْ مَالِ ٱلْيَتَامَى ، وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَٱلْمُجَاهِدِينَ ٱلَّذِينَ أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ هٰذِهِ ٱلْأَمْوَالَ ، وَأَحْرَزَ بِهِمْ هٰذِهِ ٱلْبِلَادَ ، فَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَٱرْدُدْ إِلَى هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمْكَنَنِي ٱللَّهُ مِنْكَ لَأُعْذِرَنَّ إِلَى ٱللَّهِ فِيكَ ، وَلَأَضْرِبَنَّكَ بِسَيْفِي ٱلَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَداً إِلَّا دَخَلَ ٱلنَّارَ .

والله لَوْ أَنَّ ٱلْحَسَنَ وَٱلْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ ٱلَّذِي فَعَلْتَ ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ ، وَلَا ظَفِرَا مِنِّي بِإِرَادَةٍ ، حَتَّى آخُذَ ٱلْحَقَّ مِنْهُمَا ، وَأُزِيحَ ٱلْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتِهِمَا ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَا أَخَذْتَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي أَتْرُكُهُ مِيرَاثاً لِمَنْ بَعْدِي ، فَضَحِّ رُوَيْداً فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ٱلْمَدَى ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ ٱلثَّرَى ، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِٱلْمَحَلِّ ٱلَّذِي يُنَادِي ٱلظَّالِمُ فِيهِ بِٱلْحَسْرَةِ ، وَيَتَمَنَّى ٱلْمُضَيِّعُ ٱلرَّجْعَةَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

أقول : المشهور أن هذا الكتاب إلى عبدالله بن عباس حين كان والياً له على البصرة ، وألفاظ الكتاب تنبه على ذلك كقوله : قلبت لابن عمك ظهر المجن وقوله : فلا ابن عمك آسيت ، وكذلك ما روي أن ابن عباس كتب إليه جواباً عن هذا الكتاب : أما بعد فقد أتاني كتابك تعظم فيه ما أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمري إن حقي في بيت المال لأكثر مما أخذت والسلام . فكتب عليه السلام جواب ذلك : أما بعد فإن من العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت المال من الحق أكثر ما لرجل من المسلمين فقد

أفلحت إن كان تمنّيك الباطل وادّعاك ما لا يكون تنجيك من المأثم وتحل لك المحارم . لأنت المهدي السعيد إذن . وقد بلغني أنك اتّخذت مكة وطناً . وضربت بها عطناً تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف تختارهنّ على عينك وتعطي فيهن مال غيرك فارجع هداك الله إلى رشدك وتب إلى الله ربك، واخرج إلى المسلمين من أموالهم فعما قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت وتغيب في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد قد فارقت الأحباب وسكنت التراب وواجهت غنياً عما خلفت وفقيراً إلى ما قدمت . والسلام .

وأنكر قوم ذلك وقالوا : إن عبدالله بن عباس لم يفارق علياً عليه السلام ولا يجوز أن يقول في حقه ما قال. قال القطب الراوندي ـ رحمه الله ـ إذاً يكون المكتوب إليه هو عبيد الله. وحمله على ذلك أشبه وهو به أليق.

واعلم أن هذين القولين لا مستند لهما:

أما الاول : فهو مجرد استبعاد ان يفعل ابن عباس ما نسب اليه ، ومعلوم أن ابن عباس لم يكن معصوماً وعلي عليه السلام لم يكن ليراقب في الحق أحداً ولو كان أعزّ أولاده كما تمثل بالحسن والحسين عليهما السلام في ذلك فكيف بابن عمه بل يجب أن تكون الغلظة على الأقرباء في هذا الأمر أشد ثم إن غلظته عليه وعتابه له لا يوجب مفارقته إياه لأنه عليه السلام كان إذا فعل أحد من أصحابه ما يستحق به المؤاخذة أخذه به سواء كان عزيزاً أو ذليلاً قريباً منه أو بعيداً فإذا استوفى حق الله منه أو تاب إليه مما فعل عاد في حقه إلى ما كان عليه كما قال: العزيز عندي ذليل حتى آخذ الحق منه ، والذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له . فلا يلزم إذن من غلظته على ابن عباس ومقابلته إياه بما يكره مفارقته له وشقاقه على ما بينهما من المحبة الوكيدة والقرابة .

وأما القول الثاني : فإن عبيدالله كان عاملاً له عليه السلام باليمن ولم ينقل عنه مثل ذلك . ولنرجع إلى المتن فنقول :

الشعار : ما يلي الجسد من الثياب . وبطانة الرجل : خاصته . وكلب الزمان : شدته . وحرب العدو : اشتد غضبه . والفتك : القتل على غرّة .

وشغـرت : تفـرقت . والمجنّ : التـرس . والأزل : خفيف الـوركين . والهـوادة : المصالحـة والمصـانعـة . وضـح رويـداً : كلمـة يقـال لمن يؤمـر بالتؤودة ، وأصله الرجل يطعم إبله ضحى ويسيرها مسرعاً للسير فلا يشبعها . فيقال له : ضح رويداً . والمناص : المهرب والمخلص . والنوص : الهرب والتخّلص .

وفي هذا الكتاب مقاصد :

المقصود الأول : إنه ذكر بإحسانه اليه في معرض الامتنان عليه من وجوه :

الأول : إشراكه إيّاه في أمانتـه التي ائتمنه الله عليهـا ، وهي ولاية أمـر الرعية والقيام بإصلاح أمورهم في معاشهم ومعادهم .

الثاني : جعله من خاصتـه وملازميـه ، واستعار لـه بذلـك الاعتبار لفظ الشعار لمباشرته وملازمته الجسد .

الثالث : كونـه أوثق أهله في نفسه وأدنـاهم منه لمـواساتـه وموازرتـه ، وأداء الأمانة إليه .

المقصـود الثاني : أنـه بعد تـذكيره بـإحسانـه إليه ذكـر مقابلتـه بـذلـك بالإساءة إليه في مفارقته إيّاه وخذلانه وخيـانته لمـا تحت يديـه من الأمانـة عند رؤيته شدة الزمان عليه، وقيام العدو في وجهه وتفـرّق كلمة الإمـامة عن الحق لتبين أنـه قابـل إحسانـه بـالكفـران ليحسن ذمـه على ذلـك وتـوبيخـه فيـذمـه ويوبخه ، وأراد مفارقته له في الطريقة ولزوم حد الأمانة.

وقوله : قلبت لابن عمك ظهر المجن .

يضرب مثلاً لمن يكون مع أخيه فيتغيّر عليـه ويصير خصمـاً له ، وأصله أن الرجل إذا كان سلماً لأخيه يكون بطن ترسه إليه فإذا فارقـه وصار حـرباً لـه يقلب له ظهر ترسه ليدفع به عن نفسه مـا يلقاه من شـره . فجعل ذلـك كنايـة عن العداوة بعد الصداقة . وضرب مثلاً لمن فعل ذلك .

المقصود الثالث : الأخذ في تعنيفه وتوبيخه . وحكاية حاله في خيـانته في معرض التوبيخ . وذلك قوله : فلا ابن عمك . إلى قـوله : هـذه البلاد .

وشبهه بمن لم يرد الله بجهاده بل الدنيا ، وبمن لم يكن على بيّنة من ربه بل هو جاهل به وبوعده ووعيده . ووجه الشبه مشاركته لطالبي غير الله والجاهلين به في طلب غيره والإعراض عنه ، وكذلك شبهه بمن لم يكن له غرض من عبادته إلاّ خدعة المسلمين عن دنياهم ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله : فلما أمكنتك الشدة . إلى قوله : الكبيرة ، أي فكما أن غرض الذي يكيد غيره عن شيء أن يترصد الفرصة في أخذه وينتهزها إذا وجدها فكذلك أنت في إسراعك بالوثوب على الخيانة وشبه اختطافه لما أخذه من المال باختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة ، ووجه الشبه سرعة أخذه له وخفته له في ذلك ، وخصّ الذئب الأزل لأن خفة الوركين يعينه على سرعة الوثبة والاختطاف ، ودامية المعزى الكسيرة لأنها أمكن للاختطاف لعدم الممانعة . ثم أخبر في معرض التوبيخ أنه حمله إلى وطنه بمكة ، وكنّى بكونه رحيب الصدر به إما عن سروره وفرحه به أو عن كثرة ما حمل منه. لأن من العادة إذا أراد الإنسان حمل شيء في صدره وباعه حوى منه ما أمكنه حمله . ونصب رحيب وغير على الحال ، وإضافة رحيب في تقدير الانفصال . ثم شبهه في معرض التوبيخ والتقريع في حمله بمن حمل تراثه إلى أهله من والديه ، واستفهم على سبيل التعجب من حاله والإنكار عليه على أمرين :

أحدهما : عن إيمانه بالمعاد وخوفه من مناقشة الله في الحساب تذكيراً له ، ونبهه على أنه كان معدوداً في نظره من ذوي العقول . وأدخله في حيز كان تنبيهاً له على أنه لم يبق عنده كذلك .

الثاني : عن كيفية إساغته للشراب والطعام مع علمه أن ما يأكله ويشربه وينكح به من هذا المال حرام لكونه مال المسلمين اليتامى منهم والمساكين والمجاهدين أفاء الله عليهم ليحرز به عباده وبلاده استفهام إنكار وتقريع بذكر معصية الله .

المقصود الرابع : أمره بعد التوبيخ الطويل بتقوى الله وردّ أموال المسلمين عليهم ، وتوعده إن لم يفعل ثم أمكن الله منه أن يعذر إلى الله فيه : أي يبلغ إليه بالعذر فيه وبقتله ، وذكر الضرب بالسيف الموصوف بالصفة المذكورة أغلظ في الوعيد وأبلغ في الزجر .

المقصود الخامس : أقسم أن ولديه على قربهما منه وكرامتهما عليه لو فعلا كفعله من الخيانة لم يراقبهما في ذلك حتى يأخذ الحق منهما ويزيح الباطل عن مظلمتهما من مال أو غيره ، ومراده أن غيرهم بطريق أولى في عدم المراقبة له . ثم أقسم القسم البار أنه ما يسره أن يكون ما أخذه ابن عباس من أموال المسلمين حلالاً له يخلفه ميراثاً لمن بعده لما علمت أن جمع المال وادّخاره سبب العذاب في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة**﴾[1] الآية ، وقسمه الأول كالعذر له في شدة إنكاره عليه. والثاني : لتحقير ما أخذه، وبيان أنه لو كان أخذه على وجه حلال فلا يصلح للقنية فكيف به وهو حرام ، وذلك ليتركه ويخرج عنه إلى أهله .

السادس : أمره بالإمهال على سبيل التهديد بقرب الوصول إلى الغاية التي هي الموت والدفن وعرض أعماله عليه بالمحل الذي ينادي فيه الظالم بالحسرة ويتمنى فيه مضيعو أمر الله ، والعمل الصالح الرجعة إلى الدنيا حين لا مخلص لهم مما هم فيه . وذلك المحل هو عرصة القيامة . وذكر النداء بالحسرة حين لا رجعة ليتأكد التخويف والتهديد بتعداد الأمور المنفرة .

وأما قوله : ولات حين مناص شبهوا لات بليس وأضمروا فيها اسم الفاعل . ولا يستعمل لات إلّا مع حين ، وقد جاءت حين مرفوعة بأنها اسم لات ، وقيل : إن التاء زائدة كهي في ثمت وربّت . وقد مرّ ذلك قبل .

٤١ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى عمر ابن ابي سلمة المخزومي، وكان عامله على البحرين، فعزله، واستعمل النعمان بن عجلان الزُّرقي مكانه :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ عَجْلاَنَ ٱلزُّرَقِيَّ عَلَى ٱلْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلاَ ذَمٍّ [لَكَ] ، وَلاَ تَثْرِيبٍ عَلَيْكَ ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الوِلاَيَةَ ، وَأَدَّيْتَ ٱلْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ ، وَلاَ مَلُومٍ ، وَلاَ مُتَّهَمٍ ، وَلاَ مَأْثُومٍ ، فَلَقَدْ أَرَدْتُ

(١) ٩ ـ ٣٤.

ٱلْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ ٱلشَّامِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِي ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ ٱلدِّينِ ، إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ .

أقول : عمر هذا ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمه أم سلمة وأبوه أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عمر بن مخزوم ، وأما النعمان بن عجلان فمن سادات الأنصار من بني زريق . والتشريب : التعنيف واستقصاء اللوم . والظنين : المتهم . واستظهرت بفلان : اتخذته ظهيراً .

ومدار الكتاب على إعلام عمر ابن أبي سلمة بانفاذ النعمان عوضاً منه . ثم إعلامه بأن ذلك لم يكن عن ذنب صدر منه يستحق به الذم والعزل ، وأنه شاكر له بكونه أحسن ولايته وأدى أمانته . ثم إعلامه بغرضه من عزله واستدعائه وهو الاستعانة به على عدوه كل ذلك ليطمئن قلبه ويفارق الولاية عن طيب نفس ، ونبهه على وجه رغبته في حضوره معه بقوله : فإنك . إلى آخره ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من أستظهر به على العدو وإقامة عمود الدين فواجب أن أرغب في حضوره ويشهد معي ، ولفظ العمود مستعار للأصول التي بحفظها وقيامها يقوم كالعمود للبيت : وبالله التوفيق .

٤٢ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى مصقلة بن هُبيرة الشيباني، وهو عامله على (أردشير خُره):

بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ ، فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلٰهَكَ ، وَأَغْضَبْتَ إِمَامَكَ : أَنَّكَ تَقْسِمُ فَيْءَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخُيُولُهُمْ ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ، فِيمَنِ ٱعْتَامَكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ ، فَوَٱلَّذِي فَلَقَ ٱلْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ ٱلنَّسَمَةَ ، لَئِنْ كَانَ ذٰلِكَ حَقّاً ، لَتَجِدَنَّ بِكَ عَلَيَّ هَوَاناً ، وَلَتَخِفَّنَّ عِنْدِي مِيزَاناً ، فَلَا تَسْتَهِنْ بِحَقِّ رَبِّكَ ، وَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ ؛ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً .

أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قِبَلَكَ وَقِبَلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هٰذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ ، يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ ، وَيَصْدُرُونَ عَنْهُ .

أقول : اعتامك : اختارك من بين الناس ، وقد أعلمه بما بلغه من الأمر الصادر عنه إجمالاً ليتنبه له ، وأشعره أنه أمر مكروه بما يلزمه وهو سخط إلهه وغضب إمامه ، ونبه بقوله : إن كنت فعلته . على عدم تحققه لذلك . ثم بين له ذلك وهو عطاؤه مال المسلمين لمن اختاره رئيساً من أعراب قومه . ووصف ذلك الفيء بكونه حيازة رماحهم وخيولهم ، وعليه أريقت دماؤهم ليتأكد في النفوس ويتبين وجه استحقاقهم له . وبقدر ذلك يتأكد قبح قسمته في غيرهم . ثم أقسم قسمه المعتاد في معرض الوعيد إن كان ذلك منه حقاً أن يلحقه به هوان وحقارة عنده ويخفّ وزنه في اعتباره ، وكنّى به عن صغر منزلته . وميزاناً نصب على التمييز . ثم نهاه عن استهانته بحق ربه، وعن إصلاح دنياه بفساد دينه تنبيهاً على عظمة الله ووجوب المحافظة على طاعته ، ونبهه على ما يلزم من ذلك من دخوله في زمرة الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ثم نبهه على قبح ما فعل من تخصيص قومه بذلك المال بقوله : ألا وإن . إلى قوله : سواء ، وهو في قوة صغرى ضمير ، وقوله : يردون إليه ويصدرون عنه تأكيد لتساويهم في الاستحقاق وأنه لهم كالشريعة المشتركة ، وتقدير كبراه : وكل حق سواء بين المسلمين فلا يجوز تخصيص بعضهم به . وقد ذكرنا حال مصقلة من قبل . وبالله التوفيق .

٤٣ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى زياد ابن أبيه، وقد بلغه ان معاوية كتب اليه، يريد خديعته باستلحاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَزِلُّ لُبَّكَ ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ ، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يأتي الْمُؤمِنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَنَزْغَةٌ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ، لاَ يَثْبُتُ بِهَا نَسَبٌ، وَلاَ يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ، وَالمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالوَاغِلِ المُدَفَّعِ ، وَالنَّوْطِ المُذَبْذَبِ .

(فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادٌ ٱلْكِتَابَ قَالَ : « شَهِدَ بِهَا وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ » ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ٱدَّعَاهُ مُعَاوِيَةُ) .

قَالَ الرضي : قَوْلُهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : « ٱلْوَاغِلُ » : هُوَ ٱلَّذِي يَهْجُمُ عَلَى الشُّرْبِ لِيَشْرَبَ مَعَهُمْ ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ ، فَلاَ يَزَالُ مُدَفَّعاً مُحَاجَزاً . « وَٱلنَّوْطُ ٱلْمُذَبْذَبُ » : هُوَ مَا يُنَاطُ بِرَحْلِ ٱلرَّاكِبِ مِنْ قَعْبٍ ، أَوْ قَدَحٍ ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ ، فَهُوَ أَبَداً يَتَقَلْقَلُ إِذَا حَثَّ ظَهْرَهُ ، وَٱسْتَعْجَلَ سَيْرَهُ) .

أقول : زياد هذا هو دعي أبي سفيان ، ويقال : زياد بن عبيد . فمن الناس من يقول عبيد ابن فلان الثقفي . والأكثرون على أنه كان عبداً وأنه بقي إلى أيام زياد فابتاعه وأعتقه ، وأما ادعاء أبي سفيان له فروي أنه تكلم يوماً بحضرة عمر فأعجب الحاضرين كلامه فقال عمرو بن العاص : لله أبوه لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه . فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشي ولو عرفته لعرفت أنه من خير أهلك . فقال : ومن أبوه ؟ فقال : أنا والله وضعته في رحم أمه . قال : فهلا تستلحقه . قال : أخاف هذا العير الجالس أن يخرق على إهابي يعني عمر ، ولما ولي علي عليه السلام الخلافة ولى زياداً فارس فضبطها ضبطاً صالحاً وحماها . فكتب إليه معاوية يخدعه باستلحاقه أخاً له : من أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان أما بعد فإن المرء ربما طرحه الهوى في مطارح العطب ، وإنك للمرء المضروب به المثل قاطع الرحم وواصل العدو ، حملك سوء ظنك بي وبغضك لي على أن عققت قرابتي وقطعت رحمي ، وثبت نسبي وحرمتي كأنك لست أخي وليس صخر بن حرب أباك وأبي ، وسيان بيني وبينك أطلب بدم أبي العاص وأنت تقاتلني ، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساوة فكنت كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحاً ، وقد رأيت أن أعطف عليك ولا أؤاخذ بسوء سعيك وأن أصل رحمك وأبتغي الثواب في أمرك . واعلم أبا المغيرة أنك لو خضت البحر في طاعة

القوم تضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم إلاّ بعداً فإن بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح . فارجع رحمك الله إلى أصلك واتصل بقومك ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره فقد أصبحت ضال النسب . ولعمري ما فعل ذلك بك إلاّ اللجاج فدعه عنه فقد أصبحت على بينة من أمرك ووضوح من حجتك فإن أحببت جانبي ووثقت بي فأتمر بأمري وإن كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففعل جميل لا عليّ ولا لي . والسلام .

وحمل الكتاب مع المغيرة بن شعبة إليه ، وكان ذلك سبب فساده على الحسن بعد علي عليه السلام وانضيافه إلى معاوية . ولما بلغ علياً عليه السلام ذلك كتب إليه : أما بعد فإني وليتك ما وليتك وأنا أراك لذلك أهلاً ، وقد عرفت أن معاوية . إلى آخر الكتاب . ولنرجع إلى المتن فنقول :

غرب السيف : حدّه . والاستفلال: طلب الفل وهو ثلم الحد.

ومدار الكتاب على إعلامه بما علمه من كتاب معاوية اليه ثم تنبيهه على قصده من ذلك الكتاب ، وهو أن يستزل عقله ويستغفله عما هو عليه من الرأي الصحيح في نصره الحق وولائه له عليه السلام ويكسر حدته في ذلك ، واستعار لفظ الغرب لعقله ورأيه ، ولفظ الاستفلال لطلب صرفه عن ذلك الرأي الصالح ملاحظة لشبهه بالسيف . ثم حذره عنه بقوله : فإنما هو الشيطان . باعتبار وسوسته وصده عن الحق على وجه الشبه بقوله: يأتي الانسان. الى قوله: شماله. وهو كقوله تعالى: ﴿**لآتينهم من بين ايديهم**﴾ الى قوله: ﴿**شمائلهم**﴾[1]. أي أنه يأتي الانسان من كل جهة كما يأتي الشيطان، وخصّ الجهات الأربع لأنها الجهات التي يعتاد الإتيان منها . وقال بعض المفسرين : من بين أيديهم يطمعهم في العفو ويغريهم بالعصيان ، ومن خلفهم يذكرهم خلفهم ويحسن لهم جمع المال وتركه لهم ، وعن أيمانهم

(١) ١٥ - ٧.

يحسن لهم الرئاسة والثناء ، وعن شمائلهم يحبّب إليهم اللهو واللذات . وعن شقيق قال : ما من صباح إلّا ويقعد إليّ الشيطان على أربعة مراصد من بين يدي فيقول : لا تخف إن الله غفور رحيم . فاقرأ إني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

وأما من خلفي فيخوّفني الضيعة على من خلفي فأقرأ وما من دابة في الأرض إلّا على الله رزقها ، وأما من قبل يميني فيأتيني من جهة الثناء فأقرأ : والعاقبة للمتقين ، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات . فأقرأ : وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، ثم نبهه على وجه فساد حيلة معاوية ، وذلك أن معاوية إنما أراد استغفاله باستلحاقه إياه أخاً فنبهه عليه السلام ، على أن ذلك الاستلحاق إنما يتم بصحة استلحاق أبي سفيان له ابنا ولم تصحّ تلك الدعوى ، وإنما كان قوله : أنا كذا وكذا ، فلتة من حديث النفس وقع منه من غير ثبت ولا روية ، وإقرار بالزنا في قوله : أنا وضعته في رحم أمه . وذلك نزغة من نزغات الشيطان ألقاها على لسانه فلا يثبت بها نسب ولا يستحق بها إرث لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : الولد للفراش وللعاهر الحجر . ثم شبه المتعلق في نسبه بهذه الفلتة والنزغة بالواغل المدفع ، ووجه الشبه كونه لا يزال مدفعاً ، وبالنوط المذبذب ووجه الشبه اضطراب أمره وعدم لحوقه بنسب معين وعدم استقراره كما يضطرب النوط ولا يستقر . وبالله التوفيق .

٤٤ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ ٱلْأَنْصَارِيِّ ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى ٱلْبَصْرَةِ ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ دُعِيَ إِلَى وَلِيمَةِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِهَا فَمَضَى إِلَيْهَا

أَمَّا بَعْدُ : يَا ٱبْنَ حُنَيْفٍ ! فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا[1] تُسْتَطَابُ لَكَ ٱلْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ ٱلْجِفَانُ ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ ، وَغَنِيُّهُمْ

(١) وفي بعض النسخ زيادة هي: وكررت عليك الجفان بثريدها فأكرعت ثم عطفت على اللحم فأكلته أكل يتيم قرم، ونهشت عظمه نهش ضبع هرم.

مَدْعُوٌّ ، فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هٰذا الْمَقْضَمِ ، فَمَا آشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ ، أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ آكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ ، أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَآجْتِهَادٍ ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ ، فَوَاللّٰهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً ، وَلَا آدَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً . بَلَى ؛ كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ آلسَّمَاءُ ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ،وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ،وَنِعْمَ الحَكَمُ الله،وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ وَآلنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ ؟ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا ، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا ، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا ، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا ، لأَضْغَطَهَا الحَجَرُ وَالمَدَرُ ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ المُتَرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى، لِتَأْتِي آمِنَةً يَوْمَ الخَوْفِ الأَكْبَرِ ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ المَزْلَقِ ، وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلى مُصَفَّى هٰذَا آلْعَسَلِ ، وَلُبَابِ هٰذَا آلْقَمْحِ ، وَنَسَائِجِ هٰذَا آلْقَزِّ ، وَلٰكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ آلْأَطْعِمَةِ ، وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ آلْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي آلْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ، أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى ! أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ آلْقَائِلُ :

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى آلْقِدِّ

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : « أَمِيرُ آلْمُؤْمِنِينَ » ، وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ آلدَّهْرِ ؟ أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ آلْعَيْشِ ، فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ آلطَّيِّبَاتِ ، كَالْبَهِيمَةِ آلْمَرْبُوطَةِ ، هَمُّهَا عَلَفُهَا ، أَوِ آلْمُرْسَلَةِ ، شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، أَوْ أُتْرَكَ سُدىً ،وَأُهْمَلَ عَابِثاً ، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ آلضَّلَالَةِ ، أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ المَتَاهَةِ ، وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ :

« إِذَا كَانَ هٰذَا قُوتَ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِهِ ٱلضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ ٱلْأَقْرَانِ ، وَمُنَازَلَةِ ٱلشُّجْعَانِ » ؟! أَلَا وَإِنَّ ٱلشَّجَرَةَ ٱلْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُوداً ، وَٱلرَّوَائِعَ ٱلْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُوداً ، وَٱلنَّبَاتَاتِ ٱلْبَدَوِيَّةَ أَقْوَى وُقُوداً ، وَأَبْطَأُ خُمُوداً ، وَأَنَا مِنْ رَسُولِ ٱللَّهِ كَالصِّنْوِ مِنَ ٱلصِّنْوِ ، وَٱلذِّرَاعِ مِنَ ٱلْعَضُدِ ، وَٱللَّهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ ٱلْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أَمْكَنَتِ ٱلْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ، وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ ٱلْأَرْضَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ ٱلْمَعْكُوسِ ، وَٱلْجِسْمِ ٱلْمَرْكُوسِ ، حَتَّى تَخْرُجَ ٱلْمَدَرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ ٱلْحَصِيدِ .

إِلَيْكِ عَنِّي يَا دُنْيَا ! فَحَبْلُكِ عَلَى غَارِبِكِ ، قَدِ ٱنْسَلَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكِ ، وَأَفْلَتُّ مِنْ حَبَائِلِكِ ، وَٱجْتَنَبْتُ ٱلذِّهَابَ فِي مَدَاحِضِكَ ، أَيْنَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ غَرَرْتِهِمْ بِمَدَاعِبِكِ ؟ أَيْنَ ٱلْأُمَمُ ٱلَّذِينَ فَتَنْتِهِمْ بِزَخَارِفِكِ ؟ هَا هُمْ رَهَائِنُ ٱلْقُبُورِ ، وَمَضَامِينُ ٱللُّحُودِ ، وَٱللَّهِ لَوْ كُنْتِ شَخْصاً مَرْئِياً ، وَقَالَباً حِسِّيّاً ، لَأَقَمْتُ عَلَيْكِ حُدُودَ ٱللَّهِ فِي عِبَادٍ غَرَرْتِهِمْ بِٱلْأَمَانِي ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتِهِمْ فِي ٱلْمَهَاوِي ، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتِهِمْ إِلَى ٱلتَّلَفِ ، وَأَوْرَدْتِهِمْ مَوَارِدَ ٱلْبَلَاءِ ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدَرَ ، هَيْهَاتَ مَنْ وَطِئَ دَحْضَكِ زَلِقَ ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكِ غَرِقَ ، وَمَنِ ٱزْوَرَّ عَنْ حَبَائِلِكِ وُفِّقَ ، وَٱلسَّالِمُ مِنْكِ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاخُهُ ، وَٱلدُّنْيَا عِنْدَهُ كَيَوْمٍ حَانَ ٱنْسِلَاخُهُ .

أُعْزُبِي عَنِّي ؛ فَوَٱللَّهِ لَا أَذِلُّ لَكِ فَتَسْتَذِلِّينِي ، وَلَا أَسْلَسُ لَكِ فَتَقُودِينِي ، وَأَيْمُ اللهِ ـ يَمِيناً بَرَّةً أَسْتَثْنِي فِيهَا بِمَشِيئَةِ اللهِ ـ لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهَشُّ مَعَهَا إِلَى ٱلْقُرْصِ ، إِذَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ مَطْعُوماً ، وَتَقْنَعُ بِٱلْمِلْحِ مَأْدُوماً ، وَلَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا ، مُسْتَفْرَغَةً دُمُوعُهَا . أَتَمْتَلِئُ ٱلسَّائِمَةُ مِنْ رَعْيِهَا فَتَبْرُكَ ؟ وَتَشْبَعُ ٱلرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا فَتَرْبِضَ ؟ وَيَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ ؟! قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ ، إِذَا ٱقْتَدَى بَعْدَ ٱلسِّنِينَ ٱلْمُتَطَاوِلَةِ ، بِٱلْبَهِيمَةِ ٱلْهَامِلَةِ ، وَٱلسَّائِمَةِ ٱلْمَرْعِيَّةِ .

طُوبَى لِنَفْسٍ أَدَّتْ إِلَى رَبِّهَا فَرْضَهَا ، وَعَرَكَتْ بِجَنْبِهَا بُؤْسَهَا ؛ وَهَجَرَتْ فِي اللَّيْلِ غُمْضَهَا، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الكَرَى عَلَيْهَا، افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا؛ فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عُيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ ، وَهَمْهَمَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ ، وَتَقَشَّعَتْ بِطُولِ ٱسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فَاتَّقِ ٱللَّه يَا ٱبْنَ حُنَيْفٍ ، وَلْتَكْفِكَ أَقْرَاصُكَ ، لِيَكُونَ مِنَ ٱلنَّارِ خَلَاصُكَ .

أقول : المأدبة بالضم : الطعام يدعى إليه . والعائل : الفقير . والقضم : الأكل بأدنى الفم . والطمر : الثوب الخلق . والوفر : المال الكثير . وفدك : اسم قرية كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله . والجدث : القبر . وأضغطها : ضيّقها . والقمح : الحنطة . والنسائج : جمع نسجة بمعنى منسوجة . والجشع . أشد الحرص على الطعام . والمبطان : عظيم البطن لكثرة الأكل . وغرثى : جائعة . والبطنة : الكظة وهي الامتلاء من الطعام والتقمم : تتبع القمامة وهي الكناسة . وتكترش : تملأ كرشها . والسدى : الملقى المهمل . والروائع : الأشجار التي تروع بنضارتها . والبدوية : النباتات التي لا يسقيها إلّا ماء المطر . والمركوس : المردود مقلوباً كالمنكوس . والمداحض : المزالق ، وازورّ أخذ جانباً . واعزبي . ابعدي . يقال : عزب الرجل ـ بالفتح ـ : إذا بعد . وسلس الرجل يسلس بكسر اللام في المستقبل : سهل قياده . والرياضة : التأديب والتعويد . والربيضة : الجماعة الرابضة من الغنم . وتجافت : أي بانت وارتفعت . والهمهمة : الصوت الخفي .

وفي الكتاب مقاصد :

الأول : أشار إلى ما يريد عتابه عليه وهو اجابته إلى المأدبة مسرعاً يستطاب له الألوان وتنقل إليه الجفان ، وأعلمه أنه بلغه ذلك مقرراً له ليحسن توبيخه ، وذلك في قوله : أما بعد . إلى قوله : الجفان .

الثاني : أشار على وجه المعاتبة إلى تخطئته في ذلك بقوله : وما ظننت أنك إلى كذا : أي كان ظني فيك من الورع أنك تنزه نفسك عن الإجابة إلى طعام قوم لا يلتفتون إلى فقرائهم ، ويقصرون الدعوة والكرامة على أغنيائهم وأمرائهم ، ووجه الخطأ في إجابة داعي هؤلاء أن تخصيصهم الأغنياء دون الفقراء بالكرامة والدعوة دليل واضح على أنهم إنما يريدون بذلك الدنيا والسمعة والرئاء دون وجه الله تعالى ، ومن كان كذلك فإجابته موافقة له على ذلك ورضىً بفعله ، وذلك خطأ كبير خصوصاً من أمراء الدين المتمكنين من إنكار المنكرات .

الثالث : أمره أن يحترز فيما يتفق له أن يقع فيه من ذلك بالنظر إلى ما يحضر من الطعام فما وجد فيه شبهة حرام ولم يحقق حاله فليتركه ، وما تيقّن حله وطيب وجه اكتسابه ببراءة عن الشبهة فينال منه ، وكنّى عنه بالمقضم تحقيراً له وتقليلاً ، ويفهم منه بحسب التأديب الأول أن التنزّه عن هذا المباح أفضل له من تناوله .

الرابع : نبهه بعد ذلك بقوله : ألا وإن . إلى قوله : علمه . على أن له إماماً يجب أن يقتدي به ، وهو تمثيل في قوة قياس كامل حذفت صغراه . فأصل التمثيل مطلق الإمام والمأموم ، وعلته كونهما إماماً ومأموماً ، وفرعه هو عليه‌السلام وعامله ، وحكمه وجوب الاقتداء . وتقدير القياس : أنك مأموم لإمام ، وكل مأموم لإمام فيجب عليه أن يقتدي بإمامه ، ينتج أنه يجب عليك أن تقتدي بإمامك وتستضيء بنور علمه .

الخامس : أردف ذلك بالبيّنة على ما يجب أن يقتدي به فيه من حاله في دنياه وهو اكتفاؤه من ملبوسها بما يستر بدنه من طمريه : ومن مطعومها بما يسد به فورة جوعه من قرصيه غير ملتفت فيما لبسه إلى زينته فإن طمريه كانا عمامة ومدرعة قد استحيا من راقعها ، ولا مكترث فيما طعمه بلذة وطيب فإن قرصيه كانا من شعير غير منخول واحد بالغداة وواحد بالعشي .

السادس: نبه أصحابه على أن رياضته تلك لا تستطاع لهم فإنها قوة مشروطة باستعداد لم يصلوا اليه . ثم أمرهم إذ كانت الحال كذلك أن يقصروا في معونته على انفسهم ورياضته بالورع ، وأراد به هنا الكف عن المحارم ثم

بالاجتهاد في الطاعة، ويحتمل أن يريد بالورع لزوم الاعمال الجميلة. ثم الاجتهاد فيها.

السابع : نبه بالقسم البار على ردّ ما عساه يعرض لبعض الأذهان الفاسدة في حقه عليه السلام أن زهده في الدنيا مشوب برياء وسمعة وأن وراءه محبتها وجمعها وادّخارها خصوصاً وهو إمام الوقت وخليفة الأرض فعدّد أنواع ما أفاء الله على المسلمين منها ثم أقسم أنه لم يأخذ منه إلاّ قوته ، وشبهه في القلة والحقارة بقوت الأتان الدبرة ، وخصّها لأن ضعفها بالدبر وشغلها بألمه يقلّل قوتها . ثم بالغ في وصف حقارة دنياهم عنده فأخبر أنها في نظره واعتباره أهون من عفصة مقرة ، وظاهر أن من كان كذلك كيف يتصور محبته للدنيا وعمله لها .

الثامن : أنه لما قال فيما أقسم عليه من الدنيا : ولا حزت من أرضها شبراً . استثنى من ذلك فدك بقوله : بلى قد كانت لنا فدك من كل ما أظلته السماء . وذكرها في معرض حكاية حاله وحال القوم معه على سبيل التشكي والتظلم ممن أخذها منهم إلى الله سبحانه وتسليم الأمر له والرضا بكونه حكماً .

واعلم أن فدك كانت خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك أنه لما فرغ من أمر خيبر قذف الله في قلوب أهل فدك الرعب فبعثوا اليه (ص) يصالحونه على النصف فقبل ذلك منهم فكانت له خاصة إذ لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وروي انه صالحهم على كلها . ثم المشهور بين الشيعة والمتفق عليه عندهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطاها فاطمة عليها السلام ، ورووا ذلك من طرق مختلفة : منها عن أبي سعيد الخدري قال : لما أُنزلت : ﴿ **وآت ذي القربى حقه** ﴾ أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة عليها السلام فدك فلما تولى أبو بكر الخلافة عزم على أخذها منها. فأرسلت اليه تطالبه بميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتقول : إنه أعطاني فدكاً في حياته واستشهدت على ذلك علياً عليه السلام وام أيمن فشهدا لها بها . فأجابها عن الميراث بخبر رواه هو : نحن معاشر الأنبياء لا نورث فما تركناه فهو صدقة ، وعن دعوى فدك أنها لم تكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وإنما كانت مالاً

للمسلمين في يده يحمل بـه الرجـال وينفقه في سبيـل الله وأنا أليه كما كـان يليه . فلما بلغها ذلك لاثت خمارها وأقبلت في لمة من حفدتهـا ونساء قـومها تطأ في ذيولها حتى دخلت عليه ومعه جلّ المهـاجرين والأنصار فضربت بينها وبينهم قطيفة . ثم أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء . ثم أمهلت طويـلاً حتى سكتوا من فورتهم؟[1].

وقالت: أبتدىء بحمـد من هو أولى بـالحمد والـطول والمجد الحمـد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم . ثم خطبت خطبة طويلة قالت في آخرها : ‹فاتّقوا الله حق تقاته وأطيعوه فيما أمركم. فإنما يخشى الله من عباده العلماء، واحمدوا الله الذي بعظمته ونوره يبتغي من في السماوات ومن في الأرض إليه الوسيلة ، ونحن وسيلته في خلقه ، ونحن خاصته ومحل قدسه ، ونحن حجته في غيبـه، ونحن ورثة انبيـائـه . ثم قـالت أنـا فـاطمـة بنت محمـد. أقـول: عـوداً على بدء مـا اقول ذلـك شـرفـاً ولا شـططاً فـاسمعـوا بأسماع واعيـة. ثم قـالت : لقـد جـاءكم رسـول من انفسكم عـزيـز عليـه مـا عنتّم حـريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تعـزوه تجدوه أبي دون آبـائكم وأخا ابن عمي دون رجـالكم . ثم قـالت : ثم أنتم تـزعمـون أن لا إرث لأبي أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون أيهاً معشـر الملة . أفي كتاب الله أن ترث يا ابن أبي قحافة أباك ولا أرث أبي ؟ لقـد جئت شيئاً فـريا فدونكها مخطومة مرحولة . تلقاك يوم حشرك فنعم الحكم الله والـزعيم محمد والموعد القيامة ، وعنـد الساعـة يخسر المبـطلون ، ولكل نبـأ مستقر وسـوف تعلمون من يأتيه عذاب مقيم قال : ثم التفتت إلى قبر أبيها فتمثّلت بقول هند بنت أمامة :

قـد كـان بعـدك أنبـاء وهنبثـة	لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم	لما قضيت وحالت دونـك الترب
تجهّمتنـا رجـال واستخفّ بنـا	إذ غبت عنّـا فنحن اليوم مغتصب

(1) وجدت هذه الخطبة عنها عليها السـلام في ج ٥ من كتاب [المنظوم والمنثور في كـلام نسوان العـرب من الخطب والشعـر] وكان مؤلفـه من متقدمي علمـاء العـامـة، والكتـاب عن خـزانـة المتوكل العباسي منه.

قال فلم ير الناس اكثر باكياً وباكية منهم يومئذ. ثم عدلت الى مسجد الأنصار، وقالت: يا معشر الأنصار وأعضاد الملة وحضنة الإسلام ما هذه الفترة عن نصرتي، والونية عن معونتي والغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي، أما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: المرء يحفظ في ولده. سرعان ما أحدثتم، وعجلان ما آتيتم. ألآن مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمتم دينه. ها إن موته لعمري خطب جليل استوسع وهيه واستنهر فتقه، وفقد راتقه، وأظلمت الأرض له، وخشعت الجبال، وأكدت الأمال. أُضيع بعده الحريم وهتكت الحرمة وأزيلت المصونة، وتلك نازلة أعلن بها كتاب الله قبل موته وأنبأكم بها قبل وفاته فقال: وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين.

ايهاً بنى قيلة أأُهضم تراث أبي وأنتم بمرأى ومسمع تبلغكم الدعوة وتشملكم الصوت، وفيكم العدّة والعدد، ولكم الدار والجنن، وأنتم نجبة الله التي انتجب، وخيرة الله التي اختار. فأديتم العرب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم حتى دارت بكم رحى الإسلام، ودر حلبه وخبت نيران الحرب، وسكنت فورة الشرك، وهدأت دعوة الهرج، واستوثق نظام الدين. أفتأخرتم بعد الإقدام، وجبنتم بعد الشجاعة عن قوم نكثوا أيمانهم من بعد ايمانهم وطعنوا في دينكم. فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون. ألا وقد أرى أن قد أخلدتم الى الخفض وركنتم إلى الدعة وجحدتم الدين ودسعتم الذي سوغتم. وإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله غني حميد. ألا وقد قلت ما قلت على معرفة مني بالخذلة التي خامرتكم وخور القنا وضعف اليقين فدونكموها فاحتقبوها مدبرة الظهور ناقبة الخفّ باقية العار موسومة الشنار موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة فبعين الله ما تعملون. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ثم رجعت إلى بيتها وأقسمت أن لا تكلّم أبا بكر ولتدعون الله عليه.

ولم تزل كذلك حتى حضرتها الوفاة فأوصت أن لا يصلي عليها فصلّى عليها العباس ودفنت ليلاً،وروي انه لما سمع كلامها حمد الله واثنى عليه وصلى على رسوله،ثم قال: يا خيرة النساء وابنة خير الآباء والله ما عدوت رأي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا عملت إلاّ بأمره ، وإن الرائد لا يكذب أهله قد قلت فأبلغت وأغلظت فأهجرت فغفر الله لنا ولك أما بعد فقد دفعت آلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودابته وحذاه إلى علي عليه السلام ، وأما ما سوى ذلك فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إنّا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا أرضاً ولا عقاراً ولا داراً ولكنا نورث الإيمان والحكمة والعلم والسنة ، وقد عملت بما أمرني وسمعت . فقالت : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد وهبها لي .

قال : فمن يشهد بذلك . فجاء علي بن أبي طالب وأم أيمن فشهدا لها بذلك فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمٰن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله وصدق علي وصدقت ام أيمن وصدق عمر وصدق عبد الرحمٰن ، وذلك أن لك ما لأبيك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله ، ولك عليّ الله أن أصنع بها كما كان يصنع . فرضيت بذلك وأخذت العهد عليه به .

وكان يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم . ثم فعلت الخلفاء بعده كذلك إلى أن ولّى معاوية فأقطع مروان ثلثها بعد الحسن عليه السلام . ثم خلصت له في خلافته وتداولها أولاده إلى أن انتهت إلى عمر بن عبد العزيز فردّها في خلافته على أولاد فاطمة عليها السلام قالت الشيعة : فكانت أول ظلامة ردّها . وقالت السنة : بل استخلصها في ملكه ثم وهبها لهم . ثم أُخذت منهم بعده إلى أن انقضت دولة بني أمية فردها عليهم أبو العباس السفاح . ثم قبضها المنصور. فردها ابنه المهدي.ثم قبضها ولداه موسى وهارون.فلم تزل في ايدي بني العباس الى زمن المأمون فردها اليهم وبقيت الى عهد المتوكل فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار،وروي أنه كان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده فكان بنو فاطمة يهدون ثمرها إلى

الحاج فيصلونهم عن ذلك بمال جليل فبعث البازيار رجلاً فصرمها وعاد إلى البصرة ففلج ، وفي هذه القصة خبط كثير بين الشيعة ومخالفيهم ، ولكل من الفريقين كلام طويل . ولنرجع إلى المتن .

فنقول : أشار بالنفوس التي شحت بها إلى أبي بكر وعمر وأتباعهما ، وبالنفوس التي سمحت بها إلى وجوه بني هاشم ومن مال ميلهم .

التاسع : استفهم عما يصنع بفدك وغيرها من القينات الدنيوية استفهام إنكار لوجه حاجته إليها تسلية لنفسه عنها وجذباً له عن الدنيا إلى الأعمال الصالحة بذكر غاية النفوس منها ، وهي صيرورتها إلى الجدث ، ولوازم تلك الغاية من انقطاع الآثار وغيبة الأخبار فيها وسائر ما عدده من صفات الجدث ، وإنما عدد هذه الأمور لأن الأوهام تنفر عنها وتخشع القلوب لذكرها . فتفزع إلى الله تعالى ويجذب إلى الأعمال الصالحة التي بها الخلاص من أهوال الموت وما بعده . والواو في قوله : والنفس . للحال .

العاشر : لما نبّه على أن فدك وغيرها من قينات الدنيا لا حاجة إليها أشار إلى حصر حاجته وغايته لنفسه وهي رياضتها بالتقوى ، والضمير كهو في قوله فيما سبق : وإنما هي الكوفة . والتقدير : وإنّما همتي وحاجتي رياضة نفسي بالتقوى . واعلم أن رياضة النفس تعود إلى نهيها عن هواها وأمرها بطاعة مولاها وهي مأخوذة من رياضة البهيمة وهي منعها عن الإقدام على حركات غير صالحة لصاحبها ولا موافقة لمراده ، وتمرينها على ما يوافق مراده من الحركات ، والقوّة الحيوانية التي هي مبدأ الإدراكات والأفاعيل الحيوانية في الإنسان . إذا لم يكن لها طاعة القوة العاقلة ملكة كانت بمنزلة بهيمة لم ترض فهي تتبع الشهوة تارة والغضب أخرى ، وغالب أحوالها أن تخرج في حركاتها عن العدل إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط بحسب الدواعي المختلفة المتخيّلة والمتوهمة ويستخدم القوة العاقلة في تحصيل مراداتها فتكون هي أمارة والعاقلة مؤتمرة لها .

أما إذا راضتها القوة العاقلة ومنعتها عن التخيّلات والتوهمات والإحساسات والأفاعيل المثيرة للشهوة والغضب ومرّنتها على ما يقتضيه العقل

العملي وأدّبتها على طاعته بحيث يأتمر بأمرها وينتهي لها كانت العقلية مطمئنة لا تفعل أفعالاً مختلفة المبادىء وكانت باقي القوى مؤتمرة مسالمة لها . إذا عرفت ذلك فنقول : لما كان الغرض الأقصى من الرياضة إنما هو نيل الكمال الحقيقي ، وكان ذلك موقوفاً على الاستعداد له ، وكان حصول ذلك الاستعداد موقوفاً على زوال الموانع الخارجية والداخلية كان للرياضة أغراض ثلاثة :

أحدها : حذف كل محبوب ومرغوب عدا الحق الأول سبحانه عن درجة الاعتبار ومستن الإيثار. وهي الموانع الخارجية .

والثاني : تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ليجذب التخيّل والتوهم عن الجانب السفلي إلى العلوي ويتبعهما سائر القوى فتزول الدواعي الحيوانية المذكورة . وهي الموانع الداخلية .

الثالث : بعث السر وتوجيهه إلى الجنة العالية لتلقي السوانح الإلهية وتهيّئه لقبولها . ويعين على الغرض الأول الزهد الحقيقي وهو الإعراض عن متاع الدنيا وطيباتها بالقلب ، وعلى الثاني العبادة المشفوعة بالفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وعظمة الخالق سبحانه والأعمال الصالحة المنوية لوجهه خالصاً . وعبر عليه السلام بالتقوى التي روّض بها نفسه عن هذه الأمور المعيّنة والأسباب المعدة ، ونبه على غرضه الأقصى من الرياضة وهو الكمال الحقيقي واللذة به بذكر بعض لوازمه، وهي أن تأتي نفسه آمنة من الفزع يوم الخوف الأكبر وهو يوم القيامة ، وأن يثبت على جوانب المزلق وهو الصراط المستقيم فلا تميل به الدواعي المختلفة عنه إلى أبواب جهنم ومهاوي الهلاك . واستعار لفظ المزالق : لمظان زلل أقدام العقول في الطريق إلى الله وجذب الميول الشهوية والغضبية عنها إلى الرذائل الموبقة .

العاشر : نبه على أن زهده في الدنيا واقتصاره منها على الطمرين والقرصين وترك ما سوى ذلك ليس عن عجزه عن تحصيل طيبات مطعوماتها وملبوساتها ، وأنه لو شاء لاهتدى إلى تحصيل تلك الطيبات ولباب القمح ومصفى العسل لأن الهريسة والعسل من أشهر الطيبات بمكة والحجاز . وإنما

تركه مع القدرة عليه رياضة لنفسه وإعداداً لها لتحصيل الكمالات الباقية. واستثنى هنا نقيض الملزوم وهو عدم غلبة هواه لعقله وعدم قود جشعه له إلى تخيّر الأطعمة ، ونبه عن ذلك العدم بقوله : هيهات . فإن ما استبعد وقوعه من نفسه وأنكره فقد نفاه عنها وحكم بعدمه .

وأما أن ذلك العدم هو نقيض الملزوم بعينه فلأن الملزوم هنا هو المشيئة لتخيّر الطيبات وغلبة الهوى للعقل على مقتضى رأيه في تركها والتنزه عنها وقود الشهوة له إلى الموافقة على استعمالها ، والمستثنى هيهنا هو عدم ذلك بعينه ، وأما جواز استثنائه لنقيض المقدم فلأن مشيئة تلك شرط مساوٍ لتخيّر الطيبات والاهتداء إليها ، وكان عدمه مستلزماً لعدم مشروطه وأكثر استعمال لو في لغة العرب على وجه أن الملزوم علة للازمه أو شرط مساوله ، ويستثنى نقيض الملزوم . والواو في قوله : ولعل . للحال : أي هيهات أن يغلبني هواي إلى تخيّر الأطعمة حال ما يحتمل أن يكون بالحجاز واليمامة من هو بصفة كذا .

وقوله : أو أبيت .

عطف على يقودني داخل فيما استبعده من نفسه . والواو في قوله : وحولي . للحال ، والعامل أبيت ، وكذلك قوله : أو أن أكون . عطف على أبيت ، وهما لازمان من لوازم نتيجة القياس الاستثنائي فإن عدم إرادته لتخيّر الطيبات لما استلزمه هنا عدم تناولها واستمتاعه بها استلزم ذلك أن لا يبيت مبطاناً وحوله أكباد جائعة وأن لا يلحقه عار بذلك. والبيت تمثيل . غرضه التنفير عن العار اللازم عن الاستمتاع بالطيبات مع وجود ذوي الحاجة إلى يسير الطعام ، ونبه على حسن هذه اللوازم بما قارن نقائضها من الأحوال المذكورة . والبيت لحاتم بن عبدالله الطائي من قطعة أولها :

أيا ابنة عبدالله وابنة مالك	ويا ابنة ذي البردين والفرس النهد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له	أكيلا فإني لست آكله وحدي
قصيا بعيداً أو قريباً فإنني	أخاف إذا مت الأحاديث من بعدي
كفى بك عاراً أن تبيت ببطنة	وحولك أكباد تحنّ إلى القد

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما فيّ لولا هذه شيمة العبد

ويروى حسبك داء . وأطلق عليه اسم الداء باعتبار أنه رذيلة تنفيراً عنه ، وروي قوله : أو أبيت وقوله : أو أكون . مرفوعين ، والوجه فيه أن لا يكون أو حرف عطف. بل تكون الهمزة للاستفهام . والواو بعدها متحركة كالفاء في قوله : ﴿ **أفأصفيكم ربكم بالبنين** ﴾ ويكون استفهام إنكار لبيانه مبطاناً ولكونه كما قال القائل ، وكذلك الاستفهام في قوله : أأقنع من نفسي . في معرض الإنكار لرضاء نفسه بأن يدعى أمير المؤمنين ولا يشاركهم في مكاره الدهر وجشوبة المطعم . والواو في قوله : ولا للحال . وأو أكون عطف على أشاركهم في حكم النفي .

الحادي عشر : نبه على بعض العلل الحاملة له على ترك الطيبات والزهد في الدنيا . وهو كونه لم يخلق ليشغله أكل الطيبات عما يراد منه ، وذلك في قوله : فما خلقت . إلى قوله : المتاهة ، ونفر عن الاشتغال بأكل الطيبات بذكر ما يلزم المشتغل بذلك من مشابهة البهيمة ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله : همّها علفها . إلى قوله : يراد بها . وذلك أن المشتغل بها إن كان غنياً أشبه البهيمة المعلوفة في اهتمامه بما يعتلفه من طعامه الحاضر . وإن كان فقيراً كان اهتمامه بما يكسبه ويقمّمه من حطام الدنيا ثم تعليفه ، ويملأ كرشه مع غفلته عما يراد منه كالسائمة التي همّها الاكتراش لقممه من الكناسات مع غفلتها عمّا يؤول إليه حالها ويراد بها من ذبح واستخدام ، واستعار لفظ الحبل وجرّه ، وكنّى بذلك عن الإهمال والإرسال كما ترسل البهيمة .

الثاني عشر : أشار إلى بعض ما عساه يعرض للأذهان الضعيفة من الشبهة ، وهي اعتقاد ضعفه عن قتال الأقران بسبب ذلك القوت النزر ، وذلك بقوله : وكأني . إلى قوله : الشجعان . ثم نبه على الجواب عن ذلك من خمسة أوجه :

الأول : التمثيل بالشجرة البرية ، وقياس نفسه عليها في القوة . فالأصل هو الشجرة البرية ، والفرع هو عليه السلام ، والمشترك الجامع بينهما هو

قلة الغذاء وجشوبة المطعم كقلة غذاء الشجرة البرية وسوء رعيها ، والحكم عن ذلك هو صلابة أعضائه وقوته كصلابة عود الشجرة البرية وقوتها . ذلك دافع للشبهة المذكورة .

الثاني : تمثيل خصومه وأقرانه كمعاوية بالروائع الخضرة وهي الأصل في هذا التمثيل ، والفرع هو خصومه وأقرانه ، والمشترك الجامع بينهما هو الخضرة والنضارة الحاصلة عن الترفه ولين المطعم ، والحكم اللازم عن ذلك هو رقة الجلود ولينها والضعف عن المقاومة وقلة الصبر على المنازلة والميل إلى الدعة والرفاهية ، والغرض أن يعلم كون أقرانه أضعف منه . فتندفع الشبهة .

الثالث : تمثيله بالنباتات العذية وهو كتمثيله بالشجرة البرية والحكم هنا هو كونه أقوى على سعير نار الحرب وأصبر على وقدها وأبطأ فتوراً فيها وخموداً كالنباتات العذية في النار .

الرابع : تمثيله نفسه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصنو من الصنو . وأصل هذا التمثيل هو الصنو من الصنو وفرعه نسبة نفسه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلته الجامعة هي كون علومه وكمالاته النفسانية المشرقة مستفادة ومقتبسة من مصباح علم النبوة، وكمالاتها كالمعلول من العلة والمصباح من الشعلة .

الخامس : تمثيله منه صلى الله عليه وآله وسلم بالذراع من العضد . والأصل فيه الذراع مع نسبته إلى العضد ، والفرع هو عليه السلام منسوباً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والعلة الجامعة هي قربه منه وقوته به وكونه ظهيراً له ووسيلة إلى حصول مقصوده من تمام الدين وكماله ، وكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصلاً في ذلك كقرب الذراع من العضد ، وكون العضد أصلاً له ، وكون الذراع وسيلة إلى التصرف والبطش بالعضد ، والحكم في هذين التمثيلين واحد وهو كونه عليه السلام لا يضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان ، ووجه لزوم هذا الحكم عن المشترك الأول أنه لما كانت علومه اليقينيّة وبصيرته في الدين يناسب بصيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أعظم أمر يشجعه ويقوّيه على قتال الأقران حمية للدين ، وكذلك عن المشترك الثاني .

ثم لما أثبت ذلك الحكم ونفى عنه الضعف المتوهم فيه أكد ذلك بالقسم البار أنه لو تعاونت العرب على قتاله لما ولى عنها ، ولو أمكنت الفرصة من رقابها يسارع إليها : أي حين القتال واستحقاقهم للقتل بعداوتهم للدين وقبح العفو عنهم ملاحظة تشبهه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك في مبدء الإسلام فإنه لم يكن ليضع العفو إلاّ في موضعه . وروي أنه قتل في يوم واحد ألف إنسان صبراً في مقام واحد لما رأى في ذلك من مصلحة الدين .

الثالث عشر : تواعد أن يجتهد في تطهير الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس ، وأراد معاوية ، وإنما قال : شخصاً وجسماً ترجيحاً لجانب البدن على النفس باعتبار عنايته بكمال بدنه دون كمال نفسه فكأنه جسم وشخص فقط ، وأشار بكونه معكوساً ومركوساً إلى التفاته عن الجنبة العالية وانتكاسه عن تلقي الكمالات الروحانية إلى الجنبة السافلة وارتكاسه في الدنيا، وانعكاس وجه عقله إلى تحصيلها لذاتها والاعتناء بجمعها [بجميعها خ] فإن غرض العناية الإلهية من خلق الإنسان أن يترقى في مدارج الكمال بعد حفظ فطرته الأصلية عن الدنس برذائل الأخلاق فإذا جذبته دواعي الأمارة إلى الدنيا وغرّته بحبها حتى التفت إليها لم يزل ينحط في دركات محبتها، وبحسب ذلك يكون انتكاسه عن مراتب الكمال وارتكاسه في الرذائل ومهاوي الضلال ، وتقيّده فيها بالسلاسل والأغلال .

وقوله : حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد .

إشعار لفظ المدرة لمعاوية وحب الحصيد للمؤمنين ، ووجه المشابهة أنه مخلص المؤمنين من وجود معاوية بينهم ليزكوا إيمانهم ويستقيم دينهم . إذ كان وجوده فيهم سبباً عظيماً لفساد عقائدهم، وهلاك دينهم كما يفعل أهل البيادر من تصفية الغلال وإخراج ما يشوبها ويفسدها من المدر وغيره . وقال الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد. كما أن الزراع يجتهدون في إخراج المدر والحجر والشوك ونحوه من بين الزرع كيلا يفسد منابته فيفسد ثمرته . وفيه نظر لأنه لا معنى لإخراج الطين من الزرع ، ولأن لفظ حبّ الحصيد لا يفهم منه ذلك .

الرابع عشر : تمثّل الدنيا بصورة من يعقل ، وخاطبها بخطاب العقلاء ليكون ذلك أوقع في النفوس لغرابته . ثم أمرها بالتنحي والبعد عنه كالمطلّق لها . وحبلك على غاربك كناية عن الطلاق تمثيلً . وأصله : أن الناقة إذا أُريد إهمالها لترعى وضع حبلها على غاربها فضرب مثلاً لكل من أهمل وأطلق عن الحكم . ثم جعلها ذات مخالب استعارة بالكناية عن كونها كالأسد في جذبها للإنسان بما فيها من الشهوات والقينات إلى الهلاك الأبد. كما يجر الأسد فريسته ، وكذلك جعلها ذات حبائل؛ وكنّى بهذا الوصف المستعار عن كونها تصيد قلوب الرجال بشهواتها الوهمية فهي لها كحبائل الصائد ، واستعار لفظ مداحضها لشهواتها وملذاتها أيضاً باعتبار كونها مزالق أقدام العقول عن طريق الله ومصارع لها ، وعبّر بجميع ذلك عن زهده فيها وإبعادها فيها عن نفسه .

ثم أخذ في سؤالها عن القوم الذين غرّتهم بمداعبها والأمم الذين فتنتهم بزخارفها سؤالاً على سبيل التوبيخ لها والذم على فعلها ذلك بهم في معرض التنفير عنها ، وهو من قبيل تجاهل العارف ، واستعار لها لفظ المداعب جمع مدعبة بمعنى دعابة ، ووجه المشابهة أنها عند صفاء لذاتها للخلق واغترارهم بها ثم كرّها عليهم بعد ذلك بالأمر الجد يشبه من يمزح مع غيره، وينبسط معه بالأقوال والأفعال الليّنة ليغترّ به ثم يأتيه بعد ذلك بالأمر الجد فيؤذيه أو يهلكه ، وإنما نسب الغرور إليها لكونها سبباً مادياً لذلك . وفي نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ غرّرتيهم بإثبات الياء ، ووجهه أنها حدثت من إشباع الكسرة .

الخامس عشر : أشار إلى غايتهم التي صاروا إليها ، وهي كونهم رهائن القبور ومضامين اللحود ، ونبّه في ذلك على أن غرورهم وفتنتهم بما لم يخلصهم من هذه الغاية كل ذلك لغرض التنفير عنها . وها للتنبيه ، واستعار لفظ الرهائن لهم باعتبار كونهم موثقين في القبور بأعمالهم كالرهن ، ويحتمل أن يكون حقيقة ، ويكون رهينة بمعنى راهنة وهي الأشخاص المقيمة بقبورها .

السادس عشر : أقسم أنها لو كانت شخصاً مرئياً وقالباً حسياً لأقام عليها حدود الله في عباد غرّتهم بالأماني وأوردتهم موارد البلاء حيث لا ورد ولا صدر : أي أن تلك الموارد ليس من شأنها أن يكون إليها ورود وعنها صدر . ثم لما كان في هذا الخطاب كالمعلم لها أنه قد اطلع على خداعها ، وغرورها قال كالمؤيس لها من نفسه هيهات : أي بعد اغتراري بك وركوني إليك .

ثم نبه على بعض العلل الحاملة على البعد عنها والنفرة عن قربها وهي ما يلزم وطيء دحضها من الزلق ، وركوب لججها من الغرق ، والازورار عن حبائلها من التوفيق للسلامة ، وما يلزم السالم منها من عدم مبالاته بضيق مناخه ، وكل مناخ أناخ به من فقر وسجن ومرض وبلاء بعد السلامة منها فهو فسيح رحب بالقياس إلى ما يستلزم التفسّح في سعتها، والجري في ميادين شهواتها من العذاب الأليم في الآخرة ، وهي عنده في القصر وعدم الالتفات إليها كيوم حان انسلاخه . وألفاظ المداحض واللجج والحبال مستعار لشهواتها ولذاتها .

فالأول : باعتبار كون شهواتها مظنة أن تحب فينجر الإنسان عند استعمالها إلى الاستكثار منها أو تجاوز القدر المعتدل إلى المحرم فتزل قدم نفسه عن صراط الله فيقع في مهاوي الهلاك والمأثم .

والثاني : باعتبار أن مطالبها والآمال فيها غير متناهية فمن لوازم المشتغل بها والمنهمك في الدنيا أن يغرق نفسه في بحر لا ساحل له منها فينقطع عن قبول رحمة الله إلى الهلاك الأبدي كالملقي نفسه في بحر لجي .

الثالث : باعتبار أن الإنسان إذا اغترّ بها وحصل في محبة مشتهياتها عاقته عن النهوض والتخلّص إلى جناب الله ومنعته أن يطير بجناحي قوته العقلية في حضرة قدس الله ومنازل أوليائه الأبرار كما تعوق حبائل الصائد جناح الطائر . ولفظ الوطي والركوب والزلق والغرق ترشيح . ثم كرر الأمر لها بالبعد عنه وأقسم أنه لا يذل لها فتستذله ولا يسلس لها قياده فتقوده ، وفيه تنبيه على أنها لا يذلّ فيها إلاّ من أذلّ نفسه وعبدها لها ولا تملك إلاّ قياد من

أسلس لها قياده وهو ظاهر . إذ الإنسان ما دام قامعاً لقوته الحيوانية مصرفاً لها بزمام عقله فإنه من المحال أن تذله الدنيا ويستعبده أهلها ومهما اتبع شهوته فيما تمثّل إليه فإنها تذله أشد إذلال وتستعبده أقوى استعباد كما قال عليه السلام : عبد الشهوة أذلّ من عبد الرق . واستعار وصف إسلاس القياد للتسهيل في متابعة النفس العاقلة للنفس الأمارة وعدم التشدّد في ضبطها باستعمال العقل عن متابعتها .

السابع عشر : أقسم ليوقعن ما صمم عزمه عليه وهو بصدده من رياضة نفسه . ووصف تلك الرياضة في قوتها باستلزام أمرين :

أحدهما : كون نفسه تهشّ معها إلى القرص وترضى به إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً . وتلك رياضة القوة الشهوية ، ولما كانت عدواً للنفس وأكثر الفساد يلحق بسببها خصها بالذكر وقوة العزم، ويحتمل ان يريد رياضة جميع القوى وانما وصفها بكون النفس تهش معها الى القرص لأن ضبط الشهوة أعظم من ضبط سائر القوى، وأصعب وكانت الإشارة إلى ضبطها إلى الحد المذكور أبلغ في وصف الرياضة بالشدة ، واستثنى في يمينه بمشيئة الله أدباً لقوله تعالى : ﴿ **لا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله** ﴾[1] . وتنبيهاً على استناد جميع الأمور في سلسلة الحاجة إلى الله تعالى .

الثاني : كونه يدع مقلته في تلك الرياضة كعين ماء نضب ماؤها ، ووجه الشبه أن يفني دموعها ويستفرغها بالبكاء شوقاً إلى الملأ الأعلى وما أعدّ لأولياء الله من السعادة الأبدية وخوفاً من حرمانها . ومن كان في مقام الغربة ومحل الوحشة كيف لا يشتاق إلى وطنه الأصلي ومقام أنسه الأولى . ومطعوماً ومأدوماً ومستفرغة أحوال . ثم أخذ في تمثيل نفسه بالسائمة والربيضة على تقدير أن يرضى بمثل حالهما وغايتهما من الدنيا في معرض الإنكار لذلك الرضا من نفسه ، والأصل في ذلك التمثيل البهيمة ، والفرع هو عليه السلام ، والمشترك الجامع هو الرعي والشبع والبروك والنوم والراحة . ولما كان الأصل

(١) ١٨ - ٣٤.

المقيس عليه في غاية من الخسة بالقياس إلى الإنسان الكامل استلزم ذلك التشبيه به قوة النفرة عما يستلزم التشبيه من الصفات .

وقوله : قرّت إذن عينه .

إخبار في معرض الإنكار والاستهزاء باللذة كقوله تعالى : ﴿ **ذقْ إنّك أنت العزيز الكريم** ﴾[1] .

الثامن عشر : نبه على أن النفس إذا كانت بالصفات المذكورة فلها استحقاق طوبى . وجمع في تلك الصفات أكثر مكارم الأخلاق :

فالأولى : القيام بواجب طاعة الله وما افترضه عليها .

الثانية : قوله : وعركت بجنبها بؤسها . كناية عن الصبر على نزول المصائب . يقال : عرك فلان بجنبه الأذى ، إذا أغضى عمن يؤذيه وصبر على فعله به . ويلازم ذلك عدة فضائل كالحلم والكرم والعفو والصفح والتجاوز وكظم الغيظ واحتمال المكروه والعفة ونحوها .

الثالثة : أن تهجر بالليل غمضها ، وهو كناية عن إحياء ليلها بعبادة ربها واشتغالها بذكره حتى إذا غلب النوم عليها افترشت أرضها وتوسدت كفّها : أي لم يكن لها كلفة في تهيئة فراش وطيب وساد. بل كانت برية عن كل كلفة عريّة عن كل قينة منزهة عن كل ترفة .

وقوله : في معشر . يصلح تعلّقه بكل من أفعال النفس المذكورة : أي فعلت هذه الأفعال في جملة معشر من شأنهم كذا . وعرفهم بصفات أربع :

أحدها : كونهم أسهر عيونهم خوف معادهم .

الثاني : وتجافت جنوبهم عن مضاجعهم . وهو كناية عن اشتغالهم ليلاً بعبادة ربهم كقوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾[3] .

---

(١) ٤٤ ـ ٤٩ .

(٢) ٣٢ ـ ١٦ .

الثالث : وهمهمت بذكر ربهم شفاههم كقوله تعالى : ﴿ **يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾[1] .

الرابع : وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ، وهو لازم عن الثلاثة الأولى أو ثمرة لها ، واستعار لفظ التقشع لانمحاء ذنوبهم ، ووجه المشابهة أن الذنوب والهيئات البدنية في تسويدها لألواح النفوس وتغطيتها وحجبها لها عن قبول أنوار الله يشبه المتراكم الحاجب لوجه الأرض عن قبول نور الشمس والاستعداد بها للنبات وغيره فاستعار لزوالها ، وانمحائها من ألواح النفوس لفظ التقشع . كل ذلك للترغيب في طاعة الله والجذب إلى الدخول في زمرة أوليائه ، وبالله التوفيق .

٤٥ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ ٱلدِّينِ ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ ٱلأَثِيمِ ، وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ ٱلثَّغْرِ ٱلْمَخُوفِ ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ ، وَٱخْلِطِ ٱلشِّدَّةَ بِضِغْثٍ مِنَ ٱللِّينِ ، وَٱرْفُقْ مَا كَانَ ٱلرِّفْقُ أَرْفَقَ ، وَٱعْتَزِمْ بِالشِّدَّةِ حِينَ لَا يُغْنِي عَنْكَ إِلَّا ٱلشِّدَّةُ ، واخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ ، والإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ العُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ ، وَالسَّلَامُ .

أقول : النخوة : الكبر . والأثيم : الآثم . والضغث : النصيب من الشيء يختلط بغيره . وأصله القبضة من الحشيش المختلط من رطبه ويابسه . واعتزم بكذا : أي لزمه وأخذ به .

وقد استماله أولاً بأمور ثلاثة أعلمه بها من نفسه وأعدّه لقبول أوامره ؛ وهي كونه ممن يستظهر به على إقامة الدين ، ويقمع به نخوة الأثيم ، ويسدّ به الثغر المخوف . واستعار لفظ اللهاة لما عساه ينفتح من مفاسد الثغر

---

(١) ٣٢ ـ ١٦ .

فيحتاج إلى سده بالعسكر والسلاح ملاحظة لشبهه بالأسد الفاتح فاه للافتراس . ثم أردف ذلك بما أمره به من مكارم الأخلاق .

أولها : أن يستعين بالله على ما أهمّه من أموره فإن الفزع إليه والاستعانة به أفضل ما أعان على حصول المهمات .

الثاني : أن يمزج الشدة بضرب من اللين ويضع كلامه موضعه فيرفق ويلين ما كان الرفق أولى وأوفق له ويأخذ بالشدة حين لا يغني إلاّ الشدة.

الثالث : أن يخفض جناحه لرعيته ، وهو كناية عن التواضع .

الرابع : أن يبسط لهم وجهه ، وهو كناية عن لقائهم بالبشاشة والبشر وترك العبوس والتقطيب .

الخامس : أن يلين لهم جانبه ، وهو كناية عن المساهلة معهم وعدم التشدد عليهم .

السادس : أن يواسي بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية ، واللحظة أخص من النظرة وهو أمر بفضيلة العدل بين الرعية لئلا يطمع عظيمهم في حيفه على الضعيف فيتسلّط عليه ، ولا ييأس الضعيف من عدله على القوي فيضعف نفسه ويكلّ عما هو بصدده من الأعمال المصلحية ، وبالله التوفيق .

٤٦ ـ ومن وصية له (عليه السلام)

لِلْحَسَنِ وَٱلْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلاَمُ ، لَمَّا ضَرَبَهُ ٱبْنُ مُلْجَمٍ ، لَعَنَهُ ٱللَّهُ

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى ٱللَّهِ ، وَأَنْ لاَ تَبْغِيَا ٱلدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا ، وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا ، وَقُولاَ بِالْحَقِّ ، وَٱعْمَلاَ لِلأَجْرِ ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً ، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً .

أُوصِيكُمَا ، وَجَمِيعَ وَلَدِي ، وَأَهْلِي ، وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي ، بِتَقْوَى ٱللَّهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ ، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم يَقُولُ: «صَلاَحُ ذَاتِ البَيْنِ،أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاَةِ وَالصِّيَامِ» .

أَللَّهَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَيْتَام ! فَلاَ تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ ، وَلاَ يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ ، وَٱللَّهَ ٱللَّهَ فِي جِيرَانِكُمْ ! فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ، مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ ، وَٱللَّهَ ٱللَّهَ فِي ٱلْقُرْآنِ ! لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ ، وَٱللَّهَ ٱللَّهَ فِي ٱلصَّلاَةِ ! فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ ، وَٱللَّهَ ٱللَّهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ ! لاَ تُخْلُوهُ مَا بَقِيتُمْ ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا ، وَٱللَّهَ ٱللَّهَ فِي ٱلْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ ، وَأَنْفُسِكُمْ ، وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ .

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَٱلتَّبَاذُلِ ، وَإِيَّاكُمْ وَٱلتَّدَابُرَ وَٱلتَّقَاطُعَ ، لاَ تَتْرُكُوا ٱلْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ ثم قَال :

يَا بَنِي عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ خَوْضاً تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، أَلاَ ؛ لاَ تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي .

أُنْظُرُوا إِذَاأَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هٰذِهِ ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلاَ يُمَثَّلُ بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِيَّاكُمْ وَٱلْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ ٱلْعَقُورِ » .

أقول : بغيت كذا : أردته . وإغباب أفواههم : أن يطعموهم يوماً ويتركوهم يوماً . والمناظرة : المحافظة والمراقبة . والتدابر : التقاطع والتعادي . والمثلة التنكيل .

وقد أوصاهما بأمور :

أولها : تقوى الله التي هي رأس كل خير.

الثاني : الزهد في الدنيا ، وأن لا يريداها وإن أرادتهما : أي أقبلت عليهما بما يعد فيها [عنها خ] خيراً ، واستعار لفظ البغية لها باعتبار سهولتها عليهما عن توافق أسباب خيرها لهما فهي بذلك الاعتبار كالطالبة لها .

الثالث : أن لا يأسفا على ما قبض وغيّب عنهما من خيراتها وهو من

لوازم الزهد الحقيقي فيها .

الرابع : أن لا يقولا إلّا الحق وهو ما ينبغي قوله من أوامر الله ونواهيه ، وأن يعملا لأجر الآخرة : أي تكون أقوالهما وأعمالهما مقصورة على هذين .

الخامس : أن يكونا للظالم خصيماً وللمظلوم عوناً ، وذلك من لوازم قول الحق والعمل له . إذ من كان على حاق العدل لا بد أن يجانب الظالم المنحرف إلى طرف الجور ويخاصمه ليردّه إلى فضيلة العدل فيكون حينئذ عوناً للمظلوم . ثم عاد مؤكداً لوصيتهما مع جميع ولده وأهله ومن بلغه كتابه من عباد الله بتقوى الله مكرراً لها ومردفاً بأوامر أُخرى :

أحدها : صلاح ذات البين وذات كناية عن الحالة الموجبة للبين والافتراق . وقيل : هي الحالة بين الرجلين والقبيلتين أو الرجل وأهله . أمر بإصلاح ما بينهما من فساد . وقيل : يحتمل أن يريد بالبين هنا الوصل ، وبالذات النفس : أي أصلحوا نفس وصلكم من فساد يقع فيه . وقيل : إن ذات هنا مقحمة زائدة ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾[1] . وصلاح ذات البين من لوازم الألفة والمحبة في الله ، وهي فضيلة تحت العفة . ورغّب في ذلك بما رواه سماعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قوله : صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ووجه الأفضلية هنا إنك علمت فيما سلف أن أهم المطالب للشارع صلى الله عليه وآله وسلم جمع الخلق على سلوك سبيل الله وانتظامهم في سلك دينه ولن يتم ذلك مع تنازعهم وتنافر طباعهم وثوران الفتنة بينهم فكان صلاح ذات البين مما لا يتم أهم مطالب الشارع إلّا به ، وهذا المعنى غير موجود في الصلاة والصيام لإمكان المطلوب المذكور بدونهما فتحققت أفضليته من هذه الجهة . والخبر في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : كلما كان كذلك فواجب أن يفعل .

الثاني : حذّره من الله تعالى في الأيتام ونهى عن إجاعتهم : وكنّى عنها بإغباب أفواههم إذ هو مظنة جوعهم . ثم عن إضاعتهم واستلزم ذلك

---

(١) ٨ - ١.

النهي أمرهما ببرّهم والإحسان إليهم وهو فضيلة تحت العفة .

الثالث : الوصية في الجيران والتحذير من الله فيهم ، ونبه على حفظ قلوبهم وإكرامهم بوصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حقهم ، وجعلهم نفس الوصية تأكيداً للمحافظة عليهم كالمحافظة على وصية رسول الله . والمجاز من باب إطلاق اسم المتعلق .

وقوله : ما زال . إلى قوله : سيورثهم . تفسير للوصية المذكورة ، وهي أيضاً في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من أوصى النبي في حقه كذلك فواجب أن يحفظ .

الرابع : الوصية بما اشتمل عليه القرآن الكريم من القوانين والقواعد ، والتحذير من الله سبحانه في تركه ، والنهي عن أن يسبقهم بذلك غيرهم المستلزم للأمر بالمسارعة والسبق إليه .

الخامس : الوصية بأمر الصلاة والتحذير من الله في أمرها ، ونبه على فضيلتها بضمير صغراه قوله : فإنها عمود الدين . وهو عين ما رويناه من الحديث قبل ، وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فواجب أن يقام الدين بإقامته .

السادس : الوصية ببيت ربهم والنهي عن ترك زيارته مدة العمر ، وقد سبق سره ، ونبه على فضيلة أخرى له توجب ملازمته وهو ما يستلزمه تركه من عدم مناظرة الله لتاركيه وترك محافظته عليهم ومراقبته لأن من لا يحفظ الله في بيته ولا يراقبه في مراعاة جانبه لم يحفظه الله ولم يراقبه ، ويحتمل أن يريد لن يناظركم الأعداء ولم يراقبوكم . إذ في الإجماع إلى بيت الله والمحافظة عليه عزّ بالله واعتصام به يوجب مراقبة الخلق المعتصمين به وانفعال القلوب عنهم وعن كثرتهم ومناظرتهم .

السابع : الوصية بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس واللسان والتحذير من الله في تركه وهو مما علمت فضيلته .

الثامن : الوصية بالتواصل والتباذل : أي يبذل كل منهم النصرة لصاحبه

في سبيل الله .

التاسع : التحذير من التقاطع والتدابر . وسرّه ظاهر .

العاشر : النهي عن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المستلزم للأمر بهما . ونفر عن ذلك الترك بما يستلزمه ويعدّ له من تولى الأشرار عليهم وعدم استجابة دعاء الداعين منهم ، ووجه إعداده لذلك أن ترك الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزم ثوران المنكر وقلة المعروف من طباع الأشرار ويعد لاستيلائها وغلبتها وولاية أهلها وذلك يستلزم كثرة الشر والأشرار وقلة الصالحين، وضعف هممهم عن استنزال رحمة الله تعالى بأدعيتهم فيدعون فلا يستجاب لهم . ثم عقب ذلك بوصية أهل بيته من بني عبد المطلب بما يخصه من أمر دمه . والوصية بأمور :

أحدها : نهاهم عن إثارة الفتنة بسبب قتله فقال : لا أجدنكم تخوضون دماء المسلمين خوضاً ، وكنّى عن كثرة القتل .

وقوله : تقولون : قتل أمير المؤمنين . حكاية ما جرت به العادة أن يقوله طالب الثأر حين هياجه إظهاراً لعذره والسبب الحامل له على إثارة الفتنة .

الثاني : نهاهم أن يقتلوا إلاّ قاتله . إذ ذلك هو مقتضى العدل .

الثالث : نبههم بقوله : انظروا . إلى قوله : هذه . على أنه لا يجوز قتله بمجرد ضربته إن لو حصل الموت بسبب غيرها إلاّ أن يعلم أن موته كان بسببها .

الرابع : أمرهم أن يضربوه ضربة بضربة ، وذلك مقتضى عدله عليه السلام أيضاً .

الخامس : نهى عن المثلة به معللاً بما رواه سماعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك لما في المثلة من تعدي الواجب وقسوة القلب وشفاء الغيظ وكل ذلك رذائل يجب الانتهاء عنها ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه فوجب أن لا يفعل . وبالله التوفيق .

٤٧ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَــى مُعَاوِيَــة

وَإِنَّ ٱلْبَغْيَ وَٱلزُّورَ يُوتِغَانِ بِالْمَرْءِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَيُبْدِيَانِ خَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْراً بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، فَتَأَوَّلُوا عَلَى ٱللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ ، فَاحْذَرْ يَوْماً يَغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ ، وَيَنْدَمُ مَنْ أَمْكَنَ ٱلشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَاذِبْهُ .

وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ ٱلْقُرْآنِ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَسْنَا إِيَّاكَ أَجَبْنَا ، وَلٰكِنَّا أَجَبْنَا ٱلْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ ، وَٱلسَّلاَمُ .

أقول : هذا الفصل من كتاب له إليه بعد التحكيم، وتمسك معاوية بما حكم به الحكمان ، ويحتمل أن يكون عند إجابته إلى التحكيم . والوتغ بالتحريك : الهلاك . وأوتغ فلان دينه بالإثم : أهلكه وأفسده ، وفي نسخة الرضي ـ رحمه الله ـ يذيعان : أي يظهران . والغبطة : السرور ، والغبطة : تمنّي مثل حال الغير .

وصدر الفصل بذكر الظلم والكذب والتنفير عنهما بما يلزمهما من إهلاك دين المرء ودنياه ، ويبديان خلله وعيبه لمن يعيبه . أما في دينه فلكونهما رذيلتين مضادتين للعدل والعفة ومجانبتين للإيمان والدين ، وأما في دنياه فلأن أعظم مطالب الدنيا للعقلاء الذكر الجميل وإنما يحصل بظهور مكارم الأخلاق دون رذائلها ، وأراد بما قضي فواته ما جعله معاوية شبهة له في محاربته ، وهو الطلب بدم عثمان وهو في قوة صغرى ضمير احتجّ به على وجوب ترك المشاقّة ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك تعيّن عليه أن يترك ذلك الطلب . ثم أعلمه بحال من طلب أمراً باطلاً وتأوّل على الله في ذلك.

والإشارة إلى أصحاب الجمل حيث كانوا طالبين للأمر والملك فتأوّلوا على الله : أي على سلطان الله وهي الخلافة الحقة فجعلوا لخروجهم وبغيهم عليها تأويلاً وهو الطلب بدم عثمان ، ونحوه من الشبه الباطلة . فأكذبهم الله

بنصره عليهم وردّ مقتضى شبههم . والإكذاب كما يكون بالقول كذلك يكون بالفعل . وقال القطب الراوندي ـ رحمه الله ـ : معناه وقد طلب قوم أمر هذه الأمة فتأوّلوا القرآن كقوله تعالى : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾[1] . فسموا من نصبوه من الأمراء أولي الأمر متحكمين على الله فأكذبهم الله بكونهم ظالمين بغاة ، ولا يكون الوالي من قبل الله كذلك . ثم حذّره يوم القيامة منبهاً له على ما فيه من سرور الذين حمدوا عاقبة أعمالهم بما حصلوا عليه من السعادة الباقية واغتباط غيرهم لهم وتمني مثل مراتبهم ، وندم من أمكن الشيطان من قياده فصرفه كيف شاء ولم يجاذبه ، واستعار لفظ التمكين من القياد لمطاوعة النفس الأمارة . وغرض التحذير أن لا يكون كمن سبق من طالبي هذا الأمر بالتأويل على الله .

وقوله : وقد دعوتنا . إلى آخره .

صورة سؤاله والجواب عنه . وكونه ليس من أهله . إذ لم يكن صالحاً للإمامة كما سبق بيانه مراراً ، وحيث لم يكن أهلاً لأن يجاب إلى الرضى بالتحكيم أعلمه بذلك وأنه إنما أجاب القرآن إلى حكمه ، وذلك في قوله تعالى في حق الزوجين ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها** ﴾[2] الآية. فجعل عليه السلام هذا أصلاً وقاس عليه بالطريق الأولى حال الأمة عند وقوع الشقاق بينهم . وبعين ذلك احتج ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ على الخوارج حيث أنكروا التحكيم فقالوا : كيف يجوز لعلي أن يحكم في دين الله الرجال . فقال لهم : إن ذلك ليس بأمر علي عليه السلام . وإنما هو بأمر من الله تعالى في كتابه . إذ يقول في حق الزوجين ﴿ **وإن خفتم** ﴾ الآية. أفترون أنه أمر تعالى بذلك في حق الرجل وامرأته مراعاة لمصلحتهما ولا يأمر بذلك في حق الأمة رعياً لمصلحتهم ؟ فرجع كثير منهم إلى قوله : وبالله التوفيق .

---

(١) ٤ ـ ٦٢.
(٢) ٤ ـ ٣٩.

٤٨ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى غيره

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ آلدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصاً عَلَيْهَا ، وَلَهَجاً بِهَا، وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ ، وَنَقْضُ مَا أَبْرَمَ ، وَلَوِ آعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى حَفِظْتَ مَا بَقِيَ ، وَآلسَّلَامُ .

أقول : اللهج : الحرص الشديد.

وصدر الكتاب بالتنبيه على معائب الدنيا ليقل الرغبة فيها ، وذكر منها أموراً:

الأول : كونها مشغلة عن غيرها : أي عن الآخرة وهو ظاهر مما مر .

الثاني : كونها لم يصب صاحبها منها شيئاً إلّا كان ذلك معداً للحرص عليها واللهج بها ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : لو كان لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب .

الثالث : كونها لا يستغني صاحبها بما نال فيها عما لم يبلغه منها ، وذلك من لوازم العيب .

الثاني : فإن حصول بعضها إذا كان معداً للفقر إليها لم يستغن طالبها أبداً منها . ثم أردف ذلك بذكر أمور للتنفير عنها أيضاً :

أحدها : استعقابها لفراق ما جمع منها .

الثاني : نقض ما أحكم من أمورها ، ثم نبه على وجوب الاعتبار بما مضى من العمر أو من أحوال الدنيا والقرون الماضية لغاية حفظ ما بقي من العمر أن يضيّع في الباطل أو حفظ ما يبقى من السعادة الأُخروية بالسعي في تحصيلها . وبالله التوفيق .

٤٩ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)
إِلى أُمَرَائِهِ عَلَى ٱلْجُيُوشِ

مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلى أَصْحَابِ ٱلْمَسَالِحِ :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ حَقّاً عَلَى ٱلْـوَالِي أَنْ لاَ يُغَيِّرَهُ عَلَى رَعِيَّتِـهِ فَضْلٌ نَـالَهُ ، وَلاَ طَوْلٌ خُصَّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ ٱللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِـهِ دُنُوّاً مِنْ عِبَـادِهِ ، وَعَطْفـاً عَلَى إِخْوَانِهِ .

أَلاَ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَنْ لاَ أَحْتَجِزَ دُونَكُمْ سِرّاً إِلاَّ فِي حَرْبٍ ، وَلاَ أَطْوِيَ دُونَكُمْ أَمْراً إِلاَّ فِي حُكْمٍ ، وَلاَ أُؤَخِّرَ لَكُمْ حَقّـاً عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلاَ أَقِفَ بِهِ دُونَ مَقْطَعِهِ . وَأَنْ تَكُـونُـوا عِنْـدِي فِي ٱلْحَقِّ سَـوَاءً ، فَـإِذَا فَعَلْتُ ذٰلِـكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمُ النِّعْمَةُ، وَلِي عَلَيْكُمُ الطَّاعَةُ، وَأَنْ لاَ تَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَةٍ، وَلاَ تُفَرِّطُوا فِي صَلاَحٍ ، وَأَنْ تَخُوضُوا ٱلْغَمَرَاتِ إِلَى ٱلْحَقِّ ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا [لِي] عَلَى ذٰلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِمَّنِ آعْوَجَّ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ ٱلْعُقُوبَةَ ، وَلاَ يَجِدُ عِنْدِي فِيهَا رُخْصَةً ، فَخُذُوا هٰذا مِنْ أُمَرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَـا يُصْلِحُ ٱللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ .

أقـول : أحتجـز : أمنـع . والنكـوص : الـرجـوع على الأعقـاب . والغمرة : الشدة .

واعلم أنه قدم هاهنا ما يجب على الوالي المطلق لرعيته بوجه كلي كما هو عادة الخطيب . ثم ثنى ببيان ما يجب عليه لهم تفصيلاً لذلك الكلي . ثم ما يجب عليهم . ثم أمرهم بلزوم ما أوجبه عليهم .

أما الأول : أما بعد . إلى قوله : إخوانه . وأشار فيه إلى أمرين :

أحدهما : أن لا يغيّره عنهـم ما اختص به من الفضل والطول لأن تغيّره عنهم خروج عن شرائط الولاية .

الثاني : أن يزيده تلك النعمة من الله دنّواً من عباده عـطفاً على إخـوانه لأن ذلك من تمام شكر النعمة .

وأما الثاني : فاشترط على نفسه لهم خمسة أمور :

أحدها : أن لا يحتجز دونهم سراً في الأمور المصلحية إلّا في الحرب . ويحتمل ترك مشورتهم هناك أمرين :

أحدهما : أن أكثرهم ربما لا يختار الحرب فلو توقف على المشورة فيه لما استقام أمره بها . ولذلك كان عليه السلام كثيراً ما يحملهم على الجهاد ويتضجّر من تثاقلهم عليه ، وهم له كارهون . كما سبق .

الثاني : أن يكتم ذلك خوف انتشاره إلى العدو فيكون سبب استعداده وتأهبه للحرب ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد سفراً إلى الحرب ورّى بغيره كما روي أنه لما نوى غزاة بدر كتب للسرية كتاباً وأمرهم أن يخرجوا من المدينة إلى صوب مكة يومين أو ثلاثة . ثم ينظروا في الكتاب ويعملوا بما فيه . فلما ساروا المدة نظروا فيه فإذا هو يأمرهم فيه بالخروج إلى نخلة محمود وأن يفعلوا كذا وكذا ففعلوا وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلفهم إلى بدر وكان الظفر لهم . ولو أعلمهم عليه السلام حين أمرهم بالخروج أنه يسير إلى قريش لانتشر ذلك إلى قريش وكان استعدادهم لهم أقوى ، وجاز أن يكون ذلك أيضاً مانعاً لبعض الصحابة عن النهوض خوفاً من أهل مكة وشوكتهم .

الثاني : أنه لا يطوي دونهم أمراً إلّا في حكم . استعار لفظ الطي لكتمان الأمر : أي لا يخفي عنكم أمراً إلّا أن يكون حكماً من أحكام الله فإني أقضيه دونكم من غير مراقبة ومشاورة فيه كالحدود وغيرها .

الثالث : أن لا يؤخر لهم حقاً عن محله كالعطاء وسائر الحقوق اللازمة له ولا يقف به دون مقطعه كالأحكام المتعلقة بالمتخاصمين المحتاجة إلى الفصل .

الرابع : أن يسوي بينهم في الحق . والأوّلان مقتضى فضيلة الحكمة ، والثالث والرابع مقتضى فضيلة العدل .

وأما الأمر الثالث : مما يستحقه عليهم فبدأ بوجوب حق الله تعالى أولاً . إذ كان حكم قضائه بنصبه لهم إماماً وفعله بهم ما ذكر من أتم نعمه

تعالى عليهم . ثم ثنى بما يجب له وذكر أموراً :

أحدها : بذل طاعته . إذ لا حجة لهم عليه يكون سبباً لعصيانهم .

الثاني : أن لا ينكصوا عن دعوة له إذا دعاهم . وهو من تمام الطاعة .

الثالث : أن لا يقفوا في حيّز التفريط في مصلحة يراها أو يبدو لهم .

الرابع : أن يخوضوا الغمرات ويركبوا الشدائد في نصرة الحق وطلبه .

ثم أردف ذلك بالوعيد لهم إن لم يستقيموا له على ما وجب له عليهم مما عدده وتوعد بأمرين :

أحدهما : هوان المعوجّ منهم عن طاعته عليه وسقوط منزلته .

والثاني : إعظام العقوبة له وعدم الرخصة فيها عنده . ولما بيّن لهم ما وجب عليهم أمرهم أن يأخذوا ذلك البيان، والنصح منه ومن سائر أمراء العدل ، ويعطوهم من أنفسهم ما يصلح الله به أمورهم من الطاعة وفعل ما أُمروا به . وبالله التوفيق .

٥٠ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى عُمَّالِهِ عَلَى ٱلْخَرَاجِ

مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَصْحَابِ ٱلْخَرَاجِ :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ ، لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُحْرِزُهَا ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسِيرٌ ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى ٱللَّهُ عَنْهُ مِنَ ٱلْبَغْيِ وَٱلْعُدْوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ لَكَانَ فِي ثَوَابِ ٱجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ طَلَبِهِ .

فَأَنْصِفُوا ٱلنَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَٱصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ ٱلرَّعِيَّةِ ، وَوُكَلَاءُ ٱلْأُمَّةِ ، وَسُفَرَاءُ ٱلْأَئِمَّةِ ، وَلَا تَحْسِمُوا أَحَداً عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْبِسُوهُ عَنْ طِلْبَتِهِ ، وَلَا تَبِيعُنَّ لِلنَّاسِ فِي ٱلْخَرَاجِ كِسْوَةَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا ، وَلَا عَبْداً ، وَلَا تَضْرِبُنَّ أَحَداً سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ ،

وَلَا تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ، مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهَدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَساً ، أَوْ سِلَاحاً يُعْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ ٱلْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذٰلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ ٱلْإِسْلَامِ فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ ، وَلَا تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا ٱلْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا ٱلرَّعِيَّةَ مَعُونَةً ، وَلَا دِينَ ٱللَّهِ قُوَّةً ، وَأَبْلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ مَا ٱسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدِ ٱصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا ، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

أقول : السفير . الرسول . وحشمته واحتشمته : بمعنى : أي أغضبته وأخجلته . والشوكة : القوة . وأبليته معروفاً : أي أعطيته .

وصدر الكتاب بمقدمة كلية ، وهو أن من لم يحذر ما يصير إليه من العواقب المخوفة لم يقدم لنفسه استعداداً يحرزها منها فإن الإنسان إنما يستعد للأمر المرغوب أو المرهوب إذا رغب فيه أو خافه ، وهي في معرض التوبيخ على ترك الحذر لغرض تقديم طاعة وما يستعد به الإنسان مما يحرز نفسه من عذاب الله . ثم أعلمهم بكون التكليف لهم يسيراً تسهيلاً له ، وكون ثوابه كثيراً ترغيباً فيه . وهو في قوة صغرى ضمير رغبهم به في القيام بالأمور المكلّف بها ، وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك وجب القيام به والاجتهاد فيه . ثم أردفه بالتنبيه على وجوب ترك البغي والظلم بما يلزمه فعله من العقاب الأليم وتركه من الثواب العظيم الذي لا عذر في ترك طلبه لو لم يكن في فعله عقاب . والمعنى أنه لو لم يكن فيه عقاب يخاف فيترك لأجله لكان في تركه ثواب يجب لأجله فكيف ؛ وفي فعله العقاب الأليم .

فبالأولى أن يجب تركه، وهو من أفصح الكلام ، والغرض التحذير من الوقوع في رذيلة الظلم ثم أردف ذلك بأوامر ونواهي فمن الأوامر أمران :

أحدهما : إنصاف الرعية من أنفسهم وميولها .

الثاني : أن يصبروا لحوائجهم لينتظم أمر مصلحتهم ، وعلل ذلك بكونهم خزّان الرعية ووكلاءهم على بيت مالهم وسفراء أئمتهم إليهم ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فعليه النصفة والصبر

على حوائجهم .

ومن النواهي ستة :

أحدها : أن لا يغضبوا أحداً ولا يجبهوه فيستحي عن حاجته .

الثاني : لا يمنعوا أحداً عن حاجته ويحتجبوا دونه .

الثالث : أن لا يحوجوا أحداً في طلب الخراج إلى بيع ما يضطر إليه من كسوة أو دابة ينتفع بها في عمل ، ولا عبد .

الخامس : أن لا يأخذوا من مال أحد من أهل القبلة أوالمعاهدين من أهل الكتاب شيئاً إلّا أن يكون فرساً أو سلاحاً يعدى به على المسلمين والإسلام فإنه يجب أخذه من أيدي أعدائهم لئلا يكون شوكة عليهم وعوناً .

السادس : أن لا يدّخروا أنفسهم عن أنفسهم نصيحة بل ينصح بعضهم لبعض ، ولا عن الجند حسن سيرة ، ولا عن الرعية معونة ، ولا عن دين الله قوة . ثم أمرهم أن يبلوا في سبيله ويعطوا ما استوجب عليهم من شكر نعمه وطاعته . ثم علل وجوب ذلك بقوله : فإن الله . إلى آخره . وهو في قوة صغرى ضمير . والمعنى أنه تعالى جعل شكره بجهدنا ونصرته بما بلغت قوّتنا صنيعة عندنا . إذ كان شكره ونصرته من أعظم نعمه علينا كما سبق . وقيل : أراد لأن نشكره . وتقدير الكبرى : وكل من اصطنع عندنا وجب علينا شكره . وبالله التوفيق .

٥١ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى أُمَرَاءِ ٱلْبِلَادِ فِي مَعْنَى ٱلصَّلَاةِ

أَمَّا بَعْدُ : فَصَلُّوا بِالنَّاسِ ٱلظُّهْرَ حَتَّى تَفِيءَ ٱلشَّمْسُ مِثْلَ مَرْبَضِ ٱلْعَنْزِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعَصْرَ وَٱلشَّمْسُ بَيْضَاءُ حَيَّةٌ فِي عِضْوٍ مِنَ ٱلنَّهَارِ ، حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرْسَخَانِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْمَغْرِبَ حِينَ يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ ، وَيَدْفَعُ ٱلْحَاجُّ ، وَصَلُّوا بِهِمُ ٱلْعِشَاءَ حِينَ يَتَوَارَى ٱلشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ ٱللَّيْلِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ

ٱلْغَدَاةَ وَٱلرَّجُلُ يَعْرِفُ وَجْهَ صَاحِبِهِ ، وَصَلُّوا بِهِمْ صَلاَةَ أَضْعَفِهِمْ ، وَلاَ تَكُونُوا فَتَّانِينَ .

أقول : بيّن في هذا الكتاب أوقات الصلاة المفروضة :

فالأول : وقت الظهر وحده بوقت فيء الشمس : أي رجوعها وميلها إلى المغرب ثم نبه بتقديره بمربض العنز، وهو أول وقت الظهر وذلك مما يختلف باختلاف البلاد .

الثاني : وقت العصر وقدره ببقاء الشمس بيضاء لم تصفر للمغيب ، وحية . واستعار لفظ الحياة لظهورها على الأرض لمكان المشابهة ، وفي عضو من النهار ، وأراد القسم والقطعة منه . ثم قدّر ذلك العضو بمقدار أن يسافر فيه فرسخان السير المعتاد .

الثالث : وقت المغرب وعرّفه بأمرين :

أحدهما : حين يفطر الصائم ، وذلك عند سقوط القرص .

والثاني : حين يدفع الحاج ويفيض من عرفات . ولشهرة هاتين العلامتين وتعارفهما مع المخاطبين عرّفه بهما.

الرابع : وقت العشاء الآخرة عرفه بتوارى الشفق وذلك من ناحية المغرب ، وحدّ آخره بثلث الليل ، وإنّما حدّ آخر هذا الوقت دون أوقات سائر الفرائض لأن الفرائض يتبيّن آخر كل وقت منها ببيان أول وقت الأُخرى . ولا كذلك آخر وقت العشاء الآخرة لاتصاله بالليل الخالي عن الفرائض، واما آخر وقت الصبح فحده بطلوع الشمس ايضاً ظاهر.

الخامس : وقت صلاة الغداة ، وحدّه بحين يعرف الرجل وجه صاحبه ، وذلك حين طلوع الفجر الثاني وهو الحمرة المعترضة من ناحية المشرق ، والعلامة التي ذكرها أوضح لسائر الناس . ثم أوصاهم بفعل وترك : أما الفعل فأن يصلوا بالناس صلاة أضعفهم ، وهو أن لا يطيلوا في القراءة وفي الفرائض كقراءة البقرة والسور الطوال فإن ذلك لا يستطيع القيام به كل الناس فيؤدي ذلك إلى المشقة وعجز بعضهم عن أداء الفريضة في

الجماعة، وهو ضرر منفي في الدين ، وأما الترك فأن لا يكونوا فتّانين بإطالة الصلاة، ووجه الفتنة هنا أنهم يكونون صارفين للناس عن الاتفاق والتساعد على الجماعة بإطالتها المستلزمة لتخلّف العاجزين والضعفاء والله أعلم .

٥٢ ـ ومن عهد له (عليه السلام)

كتبه للأشتر النخعي رحمه الله، لما ولّاه على مصر وأعمالها حين اضطرب أمر محمدابن أبي بكر وهو أطول عهد، وأجمعُ كتبِهِ للمحاسن

أقول : هو مالك بن الحرث الأشتر النخعي من اليمن ، وكان من أكابر أصحابه عليه السلام ذوي النجدة والشجاعة الذين عليهم عمدته في الحروب ، وروي أن الطرماح لما دخل على معاوية قال له : قل لابن أبي طالب : إني جمعت من العساكر بعدد حبّ جاورس الكوفة وها أنا قاصده . فقال له الطرماح : إن لعلي عليه السلام ديكاً أشتر يلتقط جميع ذلك . فانكسر معاوية من قوله . وفي العهد فصول :

الفصل الأول قوله :

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

هٰذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ ٱللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ ٱلْحَارِثِ ٱلْأَشْتَرَ ، فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ : جِبَايَةَ خَرَاجِهَا ، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا ، وَٱسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا .

أَمَرَهُ بِتَقْوَى ٱللَّهِ ، وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ ، وَٱتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ : مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ ٱلَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِٱتِّبَاعِهَا ، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ، وَأَنْ يَنْصُرَ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ ، وَيَدِهِ ، وَلِسَانِهِ ، فَإِنَّهُ ـ جَلَّ ٱسْمُهُ ـ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ .

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ ٱلشَّهَوَات ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ ٱلْجَمَحَاتِ ، فَإِنَّ ٱلنَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ ٱللَّهُ .

أقول : يزعها : يكفّها .

وصدر عليه السلام هذا العهد بذكر أمور هي غرض الولاية ، وبها يكون نظام الأمر فمنها ما يعود إلى منفعة الوالي وهو جبوة الخراج ، ومنها ما يعود إلى الرعية وهي جهاد عدوهم واستصلاحهم بالسياسة وحسن الرعي ، ومنها ما يعود إليهما وهو عمارة البلاد ولواحقها . ثم أمره بأوامر خمسة يعود إلى إصلاح نفسه أولاً :

أحدها : تقوى الله وخشيته ، وقد سبق بيان كونها أصلاً لكل فضيلة .

الثاني : اتباع أوامره في كتابه من فرائضه وسننه . ورغب في ذلك بقوله : لا يسعد . إلى قوله : إضاعتها . وتكرر بيان ذلك .

الثالث: أن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه في جهاد العدو . وإنكار المنكرات . ورغب في ذلك بقوله : قد تكفل . إلى قوله : أعزّه . كقوله تعالى : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1] .

الرابع : أن يكسر من نفسه عند الشهوات . وهو أمر بفضيلة العفة .

الخامس : أن يكفها ويقاومها عند الجمحات . وهو أمر بفضيلة الصبر عن اتباع الهوى وهو فضيلة تحت العفة ، وحذّر من النفس بقوله : فإن النفس . إلى آخره ، وهو من قوله تعالى :﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾[2] الآية. و ـ ما ـ بمعنى ـ من ـ وهي نصب على الاستثناء : أي إلّا نفساً رحمها الله .

الفصل الثاني : في أوامره ووصاياه بالأعمال الصالحة المتعلقة بأحوال الولاية وتدبير الملك والمدينة وذلك قوله :

---

(١) ٤٧ ـ ٨ .
(٢) ١٢ ـ ٥٣ .

ثُمَّ آعْلَمْ يَا مَالِكُ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ ، وَإِنَّ آلنَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ آلْوُلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى آلصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي آللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ آلذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ آلْعَمَلِ آلصَّالِحِ ، فَامْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ آلشُّحَّ بِالنَّفْسِ : آلْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ ، وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ آلرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَآلْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَآللُّطْفَ بِهِمْ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي آلدِّينِ ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي آلْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ آلزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ آلْعِلَلُ ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي آلْعَمْدِ وَآلْخَطَإِ ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ آلَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ آللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي آلْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَآللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ ، وَقَدِ آسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ وَآبْتَلَاكَ بِهِمْ ، وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ آللهِ . فَإِنَّهُ لَا يَدَيْ لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً ، وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ إِدْغَالٌ فِي آلْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ آلْغِيَرِ ، وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ ، أُبَّهَةً أَوْ مَخْيلَةً ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ آللَّهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ آللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ وَآلتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ آللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ .

أَنْصِفِ آللَّهَ وَأَنْصِفِ آلنَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوىً مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ آللَّهِ كَانَ

ٱللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ ٱللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ وَيَتُوبَ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ ٱللَّهِ ، وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ ، مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ ، فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ ٱلْمُضْطَهَدِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .

وَلْيَكُنْ أَحَبُّ ٱلْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطَهَا فِي ٱلْحَقِّ ، وَأَعَمَّهَا فِي ٱلْعَدْلِ ، وَأَجْمَعَهَا لِرِضَا ٱلرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ ٱلْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا ٱلْخَاصَّةِ ، وَإِنَّ سُخْطَ ٱلْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا ٱلْعَامَّةِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ ٱلرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى ٱلْوَالِي مَؤُونَةً فِي ٱلرَّخَاءِ ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي ٱلْبَلَاءِ ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ ٱلإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ ٱلْمَنْعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ ٱلدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَاصَّةِ ، وَإِنَّمَا عِمَادُ ٱلدِّينِ ، وَجِمَاعُ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَٱلْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ ، ٱلعَامَّةُ مِنَ ٱلْأُمَّةِ ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ ،وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ .

وَلْيَكُنْ أَبْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنَؤُهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبَهُمْ لِمَعَائِبِ ٱلنَّاسِ ، فَإِنَّ فِي ٱلنَّاسِ عُيُوباً ٱلْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَٱللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ ، فَٱسْتُرِ ٱلْعَوْرَةَ مَا ٱسْتَطَعْتَ ، يَسْتُرِ ٱللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، أَطْلِقْ عَنِ ٱلنَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ، وَٱقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَصِحُّ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ ، فَإِنَّ ٱلسَّاعِيَ غَاشٌّ ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عَنِ ٱلْفَضْلِ ، وَيَعِدُكَ ٱلْفَقْرَ ، وَلَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ ٱلْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ ٱلشَّرَهَ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ ٱلْبُخْلَ ، وَٱلْجُبْنَ ، وَٱلْحِرْصَ ، غَرَائِزُ شَتَّى ، يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ .

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً ، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي ٱلآثَامِ ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ ٱلْأَثَمَةِ ، وَإِخْوَانُ ٱلظَّلَمَةِ ، وَأَنْتَ

وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ ٱلْخَلَفِ ، مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ ، وَلاَ آثِماً عَلَى إِثْمِهِ ، أُولٰئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً ، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً ، فَاتَّخِذْ أُولٰئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِكَ ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ ٱلْحَقِّ لَكَ ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ ٱللَّهُ لأَوْلِيَائِهِ ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ . وَٱلْصَقْ بِأَهْلِ ٱلْوَرَعِ وَٱلصِّدْقِ ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَنْ لاَ يُطْرُوكَ ، وَلاَ يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلإِطْرَاءِ تُحْدِثُ ٱلزَّهْوَ ، وَتُدْنِي مِنَ ٱلْعِزَّةِ .

وَلاَ يَكُونَنَّ ٱلْمُحْسِنُ وَٱلْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ تَزْهِيداً لأَهْلِ ٱلإِحْسَانِ فِي ٱلإِحْسَانِ ، وَتَدْرِيباً لأَهْلِ ٱلإِسَاءَةِ عَلَى ٱلإِسَاءَةِ ، وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ . وَٱعْلَمْ : أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ ٱلْمُؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ ٱسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ ؛ فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذٰلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ ٱلظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ ٱلظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً طَوِيلاً ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ .

وَلاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ ٱلأُمَّةِ ، وَٱجْتَمَعَتْ بِهَا ٱلأُلْفَةُ ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّعِيَّةُ ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ ٱلسُّنَنِ فَيَكُونَ ٱلأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا ، وَٱلْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ ٱلْعُلَمَاءِ ، وَمُنَاقَثَةَ ٱلْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ ، وَإِقَامَةِ مَا ٱسْتَقَامَ بِهِ ٱلنَّاسُ قَبْلَكَ .

أقول : الضاري : المعتاد للصيد ، الجريء عليه . والصفح : الإعراض عن الذنب . والبجح ـ بسكون الجيم ـ : الفرح والسرور. والبادرة : الحدة . والمندوحة : السعة . والإدغال : إدخال الفساد في

الأمر. والنهك: الضعف . والأُبهة، والمخيلة: الكبر. ويطامن: يسكن. وطماح النفس : جماحها . وطمح البصر : ارتفع . وغرب الفرس : حدته ، وأول جريه ، والمساماة : مفاعلة من السمو . والجبروت : الكبر العظيم . وأدحض حجته : أبطلها . وينزع : يرجع . وأجحف به : ذهب به . والإلحاف : شدة السؤال . وملمّات الدهر : ما يلم من خطوبه . وجماع المسلمين : جمعهم . والصغوة : الميل . وأشنأهم : أبغضهم والوتر : الحقد : والتغابي : التجاهل والتغافل وبطانة الرجل : خاصته والآصار : الآثام . وحفلاتك : أي جلساتك في المحافل والمجامع . والإطراء : المدح البالغ . والزهو: الكبر . والتدريب : التعويد . والمنافثة : المحادثة .

واعلم أن مدار هذا الفصل لما كان على أمره بالعمل الصالح في البلاد والعباد نبهه أوّلاً على بعض العلل الغائية من ذلك ، وهو الذكر الجميل في العقبى والكون من الصالحين ليعمل له ، وذلك بقوله : إني قد وجهتك .

إلى قوله : تقول فيهم . وهو في قوة صغرى ضمير تقديرها : إنك موجه إلى بلدة حالها كذا وكذا وحال الناس في فعلك بها كذا ، وتقدير الكبرى : وكل من كان وجّه إلى بلدة كذلك وكان الناس ينظرون من أمره مثل ما كان ينظر قبله من أمر الولاة ويقولون فيه مثل ما كان يقول فيهم فيجب عليه أن يكون أحب الأمور إليه العمل الصالح ليحصل منه الذكر الجميل بين الناس الدال على كون المذكور عند الله من الصالحين ، ونبه على تلك الدلالة بقوله : وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده . وفي نسبة إجراء القول إلى الله ترغيب عظيم في تحصيل الذكر الجميل . ثم أعقب ذلك بأمره أن يجعل العمل الصالح أحب الذخائر إليه ، واستعار له لفظ الذخيرة باعتبار أن يحصله في الدنيا لغاية الانتفاع به في العقبى كالذخيرة .

ولما أمره بالعمل الصالح إجمالاً شرع في تفصيله وذكر أنواعاً :

أحدها : أن يملك هواه في شهوته وغضبه فلا يتبعهما ، ويشح بنفسه عما لا يحل لها من المحرمات .

وقوله : فإن الشح . إلى قوله : كرهت .

تفسير لذلك الشح بما يلازمه وهو الإنصاف والوقوف على حد العدل في المحبوب فلا تقوده شهوته إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة الفجور ، وفي دفع المكروه فلا يقوده غضبه إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل فيقع في رذيلة الظلم والتهور . وظاهر أن ذلك شح بالنفس وبخل بها عن إلقائها في مهاوي الهلاك .

الثاني : أن يشعر قلبه الرحمة للرعية والمحبة واللطف بهم . وهي فضائل تحت ملكة العفة : أي اجعل هذه الفضائل شعاراً لقلبك . ولفظا للشعار والسبع مستعاران . وأشار إلى وجه استعارة السبع بقوله : تغتنم أكلهم .

الثالث : أن يعفو ويصفح عنهم ، وهو فضيلة تحت الشجاعة .

وقوله : فإنهم . إلى قوله : في الخلق .

بيان لسببين من أسباب الرحمة لهم واللطف بهم .

وقوله : يفرط منهم الزلل . إلى قوله : والخطأ .

تفسير للمثليّة وهي السبب الثاني ، والكلام في قوة صغرى ضمير في حسن العفو والصفح ، وأراد بالعلل التي تعرض لهم الأمور المشغلة الصارفة لهم عما ينبغي من إجراء أوامر الوالي على وجوهها .

وقوله : ويؤتى على أيديهم .

كناية عن كونهم غير معصومين بل هم ممن يؤتون من قبل العمد والخطأ ، وتأتي على أيديهم أوامر الولاة والمؤاخذات فيما يقع منهم من عمد أو خطأ ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فينبغي أن يرحم ويشمل بالمحبة ذو اللطف به ويقابل خطأه بالعفو والصفح . وفي أمره بإعطاء العفو مثل الذي يجب أن يعطيه الله من عفوه أتم ترغيب في العفو وأقوى جاذب إليه ، وكذلك قوله : فإنك فوقهم . إلى قوله : وابتلاك بهم . تخويف من الله في معرض الأمر بالعفو واللطف ، وهو صغرى ضمير آخر في ذلك .

الرابع : نهاه أن ينصب نفسه لحرب الله . وكنّى بحربه عن الغلظة على عباده وظلمهم ومبارزته تعالى فيهم بالمعصية .

وقوله : فإنه لا يدي لك . إلى قوله : ورحمته .

صغرى ضمير نبه به على أنه لا يجوز ظلم عباد الله ومحاربته ، وكنّى بعدم اليدين عن عدم القدرة . يقال : ما لي بهذا الأمر يد . إذا كان مما لا يطاق . وحذف النون من يدين لمضارعة المضاف ، وقيل : لكثرة الاستعمال ، وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فلا يجوز أن ينصب لحرب الله بظلم عباده .

الخامس : نهاه عن الندم على العفو . وعن التبجّح بعقوبة الغير والتسرع إلى الغضب الذي يجد منه مندوحة. فإن ذلك كله من لوازم إعطاء القوة الغضبية قيادها . وقد علمت أنها شيطان تقود إلى النار .

السادس : نهاه أن يأمر بما لا ينبغي الأمر به ويخالف الدين ، ونهى عن ما عساه يعرض في النفس من وجوب طاعة الخلق لإمرته فإن عليهم أن يسمعوا وعليه أن يأمر فإن ذلك فساد في القلب والدين ، وأشار إلى ذلك الفساد بقوله : فإنه إدغال إلى قوله : الغير . وهو من وجوه ثلاثة :

أحدها : أنه إدغال في القلب وصرف له عن دين الله ، وهو معنى إفساده .

الثاني : أن ذلك منهكة للدين وإضعاف له .

الثالث : أنه مقرب من الغير لكون الظلم من أقوى الأسباب المعدة باجتماع همم الخلق على زواله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾(١) والكلام في قوة ثلاث صغريات لثلاثة ضمائر ، وتقدير الكبريات فيها : وكل ما كان كذلك فلا يجوز ارتكابه .

السابع : أرشده إلى دواء داء الأُبّهة والكبر الذي عساه يعرض له في

---

(١) ١٣ ـ ١٢ .

سلطانه وولايته ، وذلك . أن ينظر إلى عظمة الله تعالى فوقه وقدرته على ما لا يملكه من نفسه ولا يستطيعه جلباً لها أو دفعاً عنها فإن ذلك يسكن داء الكبر الذي يحدث له فيطفيه ويكسر حدة غضبه ويردّه إليه ما قهرته قوته الغضبية من عقله فغرب عند جماحها ، وهذه أيضاً صغريات ثلاث لثلاثة ضمائر نبه فيها على وجوب فعل ماأرشده اليه من الدواء ، وتقدير الكبريات فيه : وكلما كان كذلك فيجب عليك فعله .

الثامن : حذّره عن التعظيم والتجبّر ، ونفّر عن ذلك بكونهما مساماة وتشبّهاً به ، وبأن التكبر يستلزم أن يذل الله صاحبه ويهينه . وتقدير الاحتجاج : فإنك إن تجبّرت واختلت يذلّك الله ويهينك وهو في قوة صغرى ضمير أيضاً ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب أن يحذر من الله بترك التجبّر .

التاسع : أمره بإنصاف الله وإنصاف الناس من نفسه وأهل هواه من رعيته . فإنصاف الله العمل بأوامره والانتهاء عن زواجره مقابلاً بذلك نعمه ، وإنصاف الناس العدل فيهم والخروج إليهم من حقوقهم اللازمة لنفسه ولأهل خاصته . واحتج على وجوب ذلك الإنصاف بقياس مفصول صغرى الأول قوله : فإنك إن لا تفعل تظلم : أي تظلم عباد الله . وكبراه ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده . وتقدير نتيجته : فإنك إن لا تفعل كان الله خصمك دون عباده وهي صغرى لقياس آخر كبراه قوله : ومن خاصمه الله . إلى قوله : ويتوب . وتقدير نتيجته : فإنك إن لا تفعل أدحض الله حجتك عند مخاصمته وكنت له حرباً إلى أن تنزع وتتوب من ظلمك .

وقوله : وليس شيء . إلى قوله : على ظلم .

تنبيه على لازم آخر لعدم الإنصاف أو الإقامة على الظلم . وهي كونه أدعى إلى تغيير نعم الله وتعجيل نقمته من كل شيء .

وقوله : فإن الله . إلى قوله : بالمرصاد .

بيان للزوم اللازم المذكور ، وذلك أن الله سبحانه إذا كان يسمع دعوة المظلوم ويطلع على فعل الظالم فإنه يسرع إلى تغيير نعمته إذ استعد لذلك .

العاشرة : أمره أن يكون أحب الأمور إليه أقربها إلى حاق الوسط من طرفي الإفراط والتفريط وهو الحق ، وأعمها للعدل ، وأجمعها لرضاء الرعية فإن العدل قد يوقع على وجه لا يعمّ العامة بل يتبع فيه رضاء الخاصة . ونبه على لزوم العدل العام للرعية وحفظ قلوب العامة وطلب رضاهم بوجهين :

أحدهما : أن سخط العامة لكثرتهم لا يقاومه رضاء الخاصة لقلتهم ؛ بل يجحف به ولا ينتفع برضاهم عند سخط العامة ، وذلك يؤدي إلى وهن الدين وضعفه أما سخط الخاصة فإنه مغتفر ومستور عند رضاء العامة فكان رضاهم أولى .

الثاني : أنه وصف الخاصة بصفات مذمومة تستلزم قلة الاهتمام بهم بالنسبة إلى العامة ، ووصف العامة بصفات محمودة توجب العناية بهم . أما صفات الخاصة :

فأحدها : كونهم أثقل مؤونة على الوالي في الرخاء لتكلفه لهم ما لا يتكلفه لغيرهم .

الثاني : كونهم أقل معونة له في البلاء لمحبتهم الدنيا وعزة جانبهم .

الثالث : كونهم أكره للإنصاف لزيادة أطماعهم في الدنيا على العامة .

الرابع : وكونهم أسأل بالإلحاف لأنهم عند الحاجة إلى السؤال أشد جرأة على الوالي وأطمع في إلانة جانبه .

الخامس : كونهم أقل شكراً عند الإعطاء لاعتقادهم زيادة فضلهم على العامة وأنهم أحق بما يعطونه ، واعتقادهم حاجة الوالي إليهم وتخوّفه منهم .

السادس : كونهم أبطأ عذراً للوالي إن منعهم : أي أنهم أقل مسامحة له إن اعتذر إليهم في أمر لاعتقادهم فضيلة أنفسهم وكونهم واجبي قضاء الحقوق .

السابع : كونهم أضعف صبراً عند ملمّات الدهر لتعودهم الترفه ، وجزعهم على ما في أيديهم من الدنيا . وأما صفات العامة :

فأحدها : كونهم عمود الدين ، واستعار لهم لفظ العمود باعتبار قيام

الدين بهم كقيام البيت بعموده .

الثاني : كونهم جماع المسلمين لكونهم الأغلب والأكثر والسواد الأعظم .

الثالث : كونهم العدة للأعداء لكثرتهم أيضاً ولأنهم كانوا أهل الحرب في ذلك الزمان . وهذه الصفات للفريقين يستلزم وجوب حفظ قلوب العامة ، وتقديمه على حفظ قلوب الخاصة . ولذلك أمره أن يكون صغوه وميله إلى العامة .

الحادي عشر : أمر بأن يكون أبعد رعيته منه وأبغضهم إليه أطلبهم لمعائب الناس ، ونبهه على وجوب ذلك بقوله : فإن في الناس إلى قوله : سترها . وإذا كان الوالي أحق من سترها لزمه أن لا يكشف عما غاب عنه منها ، وذلك بقمع أهل النميمة وإبعادهم ، وأن يلزم ما يجب عليه وهو تطهير الخلق مما ظهر له من ذنوبهم دون ما غاب عنه ، وأكد ذلك بالأمر بستر العورة من الغير بقدر الاستطاعة فإن كل عيب عورة ، ونبه على الرغبة في ذلك بما يستلزمه من إعداده لستر الله منه ما يحب أن يستره هو بستره على رعيته من الذنوب والعيوب .

الثاني عشر : أمره بنزع الحقد وعقد ما عقده في قلبه منه لكونه من الرذائل الموبقة ، وأن يقطع أسبابه من قبول السعاية وأهل النميمة .

الثالث عشر : أن يتغافل عن كل أمر لا يتضح له ولا يقوم به برهان ، ونهاه أن يعجل إلى تصديق من سعى به ، ونبه على ذلك بضمير صغراه : قوله : فإن الساعي . إلى قوله : الناصحين . ووجه غشه كونه مثير الأحقاد والضغائن بين الناس ويذيع الفاحشة والفساد في الأرض ، وتقدير كبراه : وكل من كان غاشاً وجب أن لا يلتفت إليه .

الرابع عشر : نهاه أن يدخل في مشورته ثلاثة البخيل والجبان والحريص ، ونبه على وجه المفسدة في استشارة كل أحد من الثلاثة بضمير صغرى الأول : قوله : يعدل بك . إلى قوله : الفقر . وذلك أن البخيل لا

يشير إلاّ بما يراه مصلحة عنده وهو البخل وما يستلزمه من التخويف بالفقر ، وهو يعدل بالمستشير عن الفضل . وصغرى الثاني قوله : ليضعفك عن الأمور . لأن الجبان لا يشير إلاّ بوجوب حفظ النفس والتخويف من العدو وهو المصلحة التي يراها ، وكل ذلك مضعف عن الحرب ومقاومة العدو . وصغرى الثالث : قوله : يزين لك الشره بالجور . وذلك أن المصلحة عنده جمع المال وحفظه وهو مستلزم للجور عن فضيلة العدل والقصد . وتقدير الكبرى في الثلاثة : وكل من كان كذلك فلا يجوز استشارته .

ثم نفر عن الثلاثة بضمير آخر نبه بصغراه على مبدأ رذائلهم الثلاث وهي البخل والجبن والحرص لتعرف فتجتنب وتنفر عن أهلها فذكر أنها غرائز : أي أخلاق متفرقة يحصل للنفس عن أصل واحد ينتهي إليه وهو سوء الظن بالله ، وبيان ذلك أن مبدء سوء الظن بالله عدم معرفته تعالى فالجاهل به لا يعرفه من جهة ما هو جواد فياض بالخيرات لمن استعد بطاعته لها فيسوء ظنه به ، وبأنه لا يخلف عليه عوض ما يبذله فيمنعه ذلك مع ملاحظة الفقر من [عند] البذل وتلزمه رذيلة البخل ، وكذا الجبان جاهل به تعالى من جهة لطفه بعباده وعنايته بوجودهم وغير عالم بسر قدره فيسوء ظنه بأنه لا يحفظه من التلف ويتصور الهلاك فيمنعه ذلك عن الإقدام في الحرب ونحوها فيلزمه رذيلة الجبن ، وكذلك الحريص يجهله تعالى من الوجهين المذكورين فيسوء ظنه به، ويعتقد أنه إذا لم يحرص الحرص المذموم لم يوصل إليه تعالى ما يصلح حاله مما يسعى فيه ويحرص عليه فيبعثه ذلك على الحرص . وكذلك النفس . فكانت هذه الأخلاق الثلاثة المذمومة راجعة إلى ما ذكره عليه السلام .

الخامس عشر : لماكان من الأعمال الصالحة اختيار الوزراء والأعوان نبهه على من لا ينبغي استصلاحه لذلك ليجتنبه ومن ينبغي ليرغب فيه . فمن لا ينبغي هو من كان للأشرار من الولاة قبله وزيراً ومشاركاً لهم في الآثام ، ونهاه عن اتخاذه بطانة وخاصة له ، ونفّر عنهم بضمير صغراه قوله : فإنهم : إلى قوله : الخلف . وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فلا تتخذه بطانة .

وقوله : ممن له مثل آرائهم .

تميز لمن هو خير الخلف من الأشرار وهم الذين ينبغي أن يستعان بهم ، وبيان لوجه خيريتهم بالنسبة إلى الأشرار ، وهو أن يكون لهم مثل آرائهم ونفاذهم في الأمور ، وليس عليهم مثل آصارهم ولم يعاون ظالماً على ظلمه . ثم رغب في اتّخاذ هؤلاء أعواناً بضمير صغراه قوله : أولئك أخف . إلى قوله : إلفاً . أما أنهم أخفّ مؤونة فلأن لهم رادعاً من أنفسهم عما لا ينبغي لهم من مال أو حال فلا يحتاج في إرضائهم أو ردعهم مما لا ينبغي إلى مزيد كلفة بخلاف الأشرار والطامعين فيما لا ينبغي . وبحسب قربهم إلى الحق ومجانبتهم للأشرار كانوا أحسن معونة وأثبت عنده قلوباً وأشد حنواً عليه وعطفاً وأقل لغيره إلفاً ، وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فينبغي أن يتخذ عوناً ووزيراً ولذلك قال : فاتخذ أولئك خاصة لخلوتك وحفلاتك . ثم ميَّز من ينبغي أن يكون أقرب هؤلاء إليه وأقواهم في الاعتماد عليه بأوصاف أخص :

أحدها : أن يكون أقولهم بمر الحق له .

الثاني : أن يكون أقلهم مساعدة له فيما يكون منه ، ويقع من الأمور التي يكرهها الله لأوليائه . وانتصب قوله : واقعاً على الحال : أي في حال وقوع ذلك القول منه والنصيحة وقلة المساعدة حيث وقع من هواك سواء كان في هوى عظيم أو يسير ، أو حيث وقع هواك : أي سواء كان ما تهواه عظيماً أو ليس ، ويحتمل أن يريد واقعاً عظيماً أو ليس ، ويحتمل أن يريد واقعاً ذلك الناصح من هواك ومحبتك حيث وقع : أي يجب أن يكون له من هواك موقعاً . ثم أمره في اعتبارهم واختيارهم بأوامر :

أحدها : أن يلازم أهل الورع منهم والأعمال الجميلة وأهل الصدق . وهما فضيلتان تحت العفة .

الثاني : أن يروضهم ويؤدبهم بالنهي عن الإطراء له ، أو يوجبوا له سروراً بقول ينسبونه فيه إلى فعل ما لم يفعله فيدخلونه في ذم قوله تعالى : ﴿ **ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾[1] ونفره عن كثرة الإطراء بضمير

---

(١) ٣ - ١٨٥ .

صغراه قوله : فإن كثرة الإطراء إلى قوله : الغـرة . واستلزام الإطراء للرذيلتين المذكورتين ظاهر ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك فيجب اجتنابه .

الثاني : نهاه أن يكون المحسن والمسيء عنده بمنزلة سـواء ، ونفر عن ذلـك ببيان وجـه المفسدة في ضميـر صغراه قـوله : فـإن ذلك . إلى قـوله : الإساءة . وسرّه أن أكثر فعل الإحسان إنما يكون طلباً للمجازاة بمثله خصوصاً من الولاة وطلباً لزيادة الـرتبة على الغيـر وزيادة الـذكر الجميـل مع أنـواع من الكلفة في ذلك . فإذا رأى المحسن مساواة منزلته لمنـزلـة المسيء كـان ذلك صـارفاً عن الإحســان وداعياً إلى الـراحة من تكلّفـه ، وكذلـك أكثر التـاركين للإساءة إنما يتركون خوفاً من الولاة وإشفاقاً من نقصـان الرتبـة عن النظر فـإذا رأى المسيء مساواة مرتبته مع مرتبة المحسنين كان التقصير به أولى : وتقديـر الكبرى : وكل ما كان فيـه تزهيـد للإحســان وتدريب على الإسـاءة فينبغي أن يجتنب .

ثم أكد ذلك بأمره أن يلزم كلًّا من أهل الإحســان والإساءة بمـا ألزم بـه نفسه من الاستعداد بـالإحسان والإسـاءة لهما فيلزم المحسن منـزلة الإحسـان ويلزم المسيء منزلة الإساءة .

السادس عشر : نبهه على الإحسان إلى رعيته وتخفيـف المؤونات عنهم وترك استكراههم على ما ليس له قبلهم بمـا يستلزمه ذلـك من حسن ظنه بهم المستلزم لقطع النصب عنه من قبلهم والاستراحة إليهم ، وذلك أن الوالي إذا أحسن إلى رعيتـه قويت رغبتهم فيـه وأقبلوا بطبـاعهم على محبتـه وطـاعتـه ، وذلـك يستلزم حسن ظنه بهم فـلا يحتاج معهم إلى كلفـة في جمـع أهـوائهم والاحتراس من شرورهم ، وأكد ذلك بقوله : وإن أحق من يحسن ظنك به . إلى قوله : عنده .

السابع عشر : نهاه أن ينقض سنّة صالحة عمل بها السلف الصالـح من صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلاح الـرعية ، وذلـك مفسدة ظـاهرة في الدين .

الثامن عشر : نهاه أن يحدث سنة تضر بشيء من ماضي السنن . وأشار إلى وجه الفساد فيها بضمير صغراه قوله : فيكون . إلى قوله : سنّها . والضمير في منها يعود إلى السنن التي دخل عليها الضرر فيكون الأجر لمن سنّ السنة الماضية التي أضرّت بها سنتك الحادثة والوزر عليك بما نقضت منها ، وتقدير كبراه : فكل ما كان كذلك فينبغي أن يجتنب وينفر عنه .

التاسع عشر : أمره أن يكثر مدارسة العلماء . أي بأحكام الشريعة وقوانين الدين ، ومنافثة الحكماء : أي العارفين بالله وبأسراره في عباده وبلاده العاملين بالقوانين الحكمية العملية التجربية والاعتباريه ، ويتصفح أنواع الأخبار في تثبت القواعد والقوانين التي يصلح عليها أمر بلاده ، وإقامة ما استقام به الناس قبله منها . وبالله التوفيق .

الفصل الثالث : في التنبيه على طبقات الناس الذين ينتظم بهم أمر المدينة ، ووضع كل على حدة وطبقته التي يقتضي الحكمة النبوية وضعه فيها ، والإشارة إلى تعلق كل طبقة بالأخرى حيث لا صلاح لبعضهم إلاّ بالبعض وبذلك يكون قوام المدينة ، ثم بالإشارة إلى من يستصلح من كل صنف وطبقة يكون أهلاً لتلك المرتبة ، والوصية في كل ما يليق به . وذلك قوله :

وَٱعْلَمْ : أَنَّ ٱلرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ ، وَلاَ غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ : فَمِنْهَا جُنُودُ ٱللَّهِ ، وَمِنْهَا كُتَّابُ ٱلْعَامَّةِ وَٱلْخَاصَّةِ ، وَمِنْهَا قُضَاةُ ٱلْعَدْلِ ، وَمِنْهَا عُمَّالُ ٱلْإِنْصَافِ وَٱلرِّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ ٱلْجِزْيَةِ وَٱلْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ ٱلذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ ٱلنَّاسِ ، وَمِنْهَا ٱلتُّجَّارُ وَأَهْلُ ٱلصِّنَاعَاتِ ، وَمِنْهَا ٱلطَّبَقَةُ ٱلسُّفْلَى مِنْ ذَوِي ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ ، وَكُلاًّ قَدْ سَمَّى ٱللَّهُ سَهْمَهُ . وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ ، أو سُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ صلّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً .

فَالجُنُودُ ، بِإِذْنِ ٱللَّهِ حُصُونُ ٱلرَّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ ٱلْوُلاَةِ ، وَعِزُّ ٱلدِّينِ ، وَسُبُلُ ٱلْأَمْنِ ، وَلَيْسَ تَقُومُ ٱلرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ ، ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ

ٱللَّهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْخَرَاجِ ٱلَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ، ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ إلاَّ بِالصِّنْفِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْقُضَاةِ وَٱلْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ ٱلْمَعَاقِدِ ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ ٱلْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ ٱلْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا ، وَلاَ قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إلاَّ بِالتُّجَارِ وَذَوِي ٱلصِّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ ٱلتَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مَا لاَ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ .

ثُمَّ ٱلطَّبَقَةُ ٱلسُّفْلَى مِنْ أَهْلِ ٱلْحَاجَةِ وَٱلْمَسْكَنَةِ ٱلَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ وَفِي ٱللَّهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ ، وَلِكُلٍّ عَلَى ٱلْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ . فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلإِمَامِكَ ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ ٱلْغَضَبِ ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى ٱلْعُذْرِ ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى ٱلْأَقْوِيَاءِ ، وَمِمَّنْ لاَ يُثِيرُهُ ٱلْعُنْفُ وَلاَ يَقْعُدُ بِهِ ٱلضَّعْفُ .

ثُمَّ أَلْصِقْ بِذَوِي ٱلْأَحْسَابِ ، وَأَهْلِ ٱلْبُيُوتَاتِ ٱلصَّالِحَةِ ، وَٱلسَّوَابِقِ ٱلْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلِ ٱلنَّجْدَةِ ، وَٱلشَّجَاعَةِ ، وَٱلسَّخَاءِ ، وَٱلسَّمَاحَةِ ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ ٱلْكَرَمِ ، وَشُعَبٌ مِنَ ٱلْعُرْفِ ، ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ ٱلْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا ، وَلاَ يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ ، وَلاَ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ ، وَإِنْ قَلَّ ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ ٱلنَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ ٱلظَّنِّ بِكَ . وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ ٱتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا ، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ .

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ ، بِمَا يَسَعُهُمْ ، وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ ، مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ ٱلْعَدُوِّ ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ ، وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ ٱلْوُلاَةِ ٱسْتِقَامَةُ ٱلْعَدْلِ فِي ٱلْبِلاَدِ ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ

آلرَّعِيَّةِ ، وَإِنَّهُ لاَ تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ ، وَلاَ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلاَّ بِحِيطَتِهِمْ عَلَى وُلاَةِ الأُمُورِ وَقِلَّةِ آسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ ، وَتَرْكِ آسْتِبْطَاءِ آنْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ ، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ آلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو آلْبَلاَءِ مِنْهُمْ ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ آلذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ آلشُّجَاعَ ، وَتُحَرِّضُ آلنَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثُمَّ آعْرِفْ لِكُلِّ آمْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلاَ تُضِيفَنَّ بَلاَءَ آمْرِىءٍ إِلَى غَيْرِهِ ، وَلاَ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ ، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ آمْرِىءٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ صَغِيراً ، وَلاَ ضَعَةُ آمْرِىءٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاَئِهِ مَا كَانَ عَظِيماً .

وَآرْدُدْ إِلَى آللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ آلْخُطُوبِ وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ آلْأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ آللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ :

﴿ **يَا أَيُّهَا آلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا آللَّهَ وَأَطِيعُوا آلرَّسُولَ وَأُولِي آلْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى آللَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾ . فَالرَّدُّ إِلَى آللَّهِ : آلْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَآلرَّدُّ إِلَى آلرَّسُولِ : آلْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ آلْجَامِعَةِ غَيْرِ آلْمُفَرِّقَةِ .

ثُمَّ آخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ آلنَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ ، مِمَّنْ لاَ تَضِيقُ بِهِ آلْأُمُورُ ، وَلاَ تُمَحِّكُهُ آلْخُصُومُ ، وَلاَ يَتَمَادَى فِي آلزَّلَّةِ ، وَلاَ يَحْصَرُ مِنَ آلْفَيْءِ إِلَى آلْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلاَ تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، وَلاَ يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ : وَأَوْقَفَهُمْ فِي آلشُّبُهَاتِ ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ آلْخَصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ آلْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ آتِّضَاحِ آلْحُكْمِ ، مِمَّنْ لاَ يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ ، وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ ، ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ ، وَآفْسَحْ لَهُ فِي آلْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى آلنَّاسِ ، وَأَعْطِهِ مِنَ آلْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ ، مَا لاَ يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ آغْتِيَالَ آلرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ ، فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً ،

فَإِنَّ هٰذَا آلدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ آلدُّنْيَا .

ثُمَّ آنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ : فَاسْتَعْمِلْهُمُ آخْتِبَاراً ، وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ آلْجَوْرِ وَآلْخِيَانَةِ ، وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ آلتَّجْرِبَةِ وَآلْحَيَاءِ ، مِنْ أَهْلِ آلْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَآلْقَدَمِ فِي آلْإِسْلَامِ آلْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً ، وَأَقَلُّ فِي آلْمَطَامِعِ إِشْرَافاً ، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ آلْأُمُورِ نَظَراً ، ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ آلْأَرْزَاقَ فَإِنَّ ذٰلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى آسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ ، أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ . ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ ، وَآبْعَثِ آلْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ آلصِّدْقِ وَآلْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي آلسِّرِّ لِأُمُورِهِمْ ، عُدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى آسْتِعْمَالِ آلْأَمَانَةِ ، وَآلرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ وَتَحَفَّظْ مِنَ آلْأَعْوَانِ ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ ، آجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ ، آكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً ، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ آلْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ آلْمَذَلَّةِ ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ آلتُّهَمَةِ .

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ آلْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ، فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ ؛ وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ آلنَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى آلْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ . وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ آلْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي آسْتِجْلَابِ آلْخَرَاجِ ، لِأَنَّ ذٰلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ، وَمَنْ طَلَبَ آلْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ آلْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَ آلْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلاً ؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً أَوْ عِلَّةً ، أَوِ آنْقِطَاعَ شِرْبٍ ، أَوْ بَالَّةٍ ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ آغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ . وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ آلْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ ، مَعَ آسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ

بِاسْتِفَاضَةِ ٱلْعَدْلِ فِيهِمْ ، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ ، وَٱلثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ . فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ ٱلْأُمُورِ ، مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ ، ٱحْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسِهِمْ بِهِ ، فَإِنَّ ٱلْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ ٱلْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ ٱلْوُلَاةِ عَلَى ٱلْجَمْعِ ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةِ ٱنْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ .

ثُمَّ ٱنْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ ؛ وَٱخْصُصْ رَسَائِلَكَ ٱلَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وَأَسْرَارَكَ ، بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ ٱلْأَخْلَاقِ ، مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ ٱلْكَرَامَةُ ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ ، فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ ، وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ ٱلْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى ٱلصَّوَابِ عَنْكَ ، فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً ٱعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ ، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي ٱلْأُمُورِ ؛ فَإِنَّ ٱلْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ ، ثُمَّ لَا يَكُنِ ٱخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَٱسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ ٱلظَّنِّ مِنْكَ ، فَإِنَّ ٱلرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ ٱلْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ ، وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ ٱلنَّصِيحَةِ وَٱلْأَمَانَةِ شَيْءٌ ، وَلَكِنِ ٱخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي ٱلْعَامَّةِ أَثَراً ، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وَلِيتَ أَمْرَهُ ، وَٱجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ ، لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا ، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ .

ثُمَّ ٱسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي ٱلصِّنَاعَاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً : ٱلْمُقِيمِ مِنْهُمْ ، وَٱلْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ ، وَٱلْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ ٱلْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ ٱلْمَرَافِقِ ، وَجُلَّابُهَا مِنَ ٱلْمَبَاعِدِ وَٱلْمَطَارِحِ ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ ٱلنَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ

لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ ، وَٱعْلَمْ ـ مَعَ ذٰلِكَ ـ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً ، وَشُحّاً قَبِيحاً ، وَٱحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّماً فِي ٱلْبِيَاعَاتِ ، وَذٰلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى ٱلْوُلَاةِ ، فَامْنَعْ مِنَ ٱلْإِحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ ،وَلْيَكُنِ البَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً ،بِمَوازِين عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْبَائِعِ وَٱلْمُبْتَاعِ ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً ، بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ ، فَنَكِّلْ بِهِ ، وَعَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ .

ثُمَّ ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِي ٱلطَّبَقَةِ ٱلسُّفْلَى مِنَ ٱلَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ ، وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَٱلْمُحْتَاجِينَ ، وَأَهْلِ ٱلْبُؤْسَى وَٱلزَّمْنَى فَإِنَّ فِي هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً ، وَٱحْفَظْ لِلَّهِ مَا ٱسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَٱجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْماً مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي ٱلْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ فَإِنَّ لِلْأَقْصَى ؛ مِنْهُمْ مِثْلَ ٱلَّذِي لِلْأَدْنَى ، وَكُلٌّ قَدِ ٱسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ ، فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ ٱلتَّافِهَ لِإِحْكَامِكَ ، ٱلْكَثِيرَ ٱلْمُهِمَّ ، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ ٱلْعُيُونُ ، وَتَحْقِرُهُ ٱلرِّجَالُ ، فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ ٱلْخَشْيَةِ وَٱلتَّوَاضُعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ ، ثُمَّ ٱعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ ٱلرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى ٱللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ ، وَتَعَهَّدْ أَهْلَ ٱلْيُتْمِ وَذَوِي ٱلرِّقَّةِ فِي ٱلسِّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْوُلَاةِ ثَقِيلٌ وَٱلْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ ٱللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا ٱلْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ ٱللَّهِ لَهُمْ .

أقول : المعاقد : جمع معقد مصدراً . والمرافق : المنافع . وتفاقم الأمر : عظم . والخلوف : المتخلفون جمع ـ خلف بالفتح ـ . والحيطة : الشفقة . ويضلعك : يثقلك . والمحك : اللجاج . والحصر : العي

والعجز . والتبرم : التضجر . والازدهاء : افتعال من الزهو وهو الكبر . والإطراء : كثرة المدح . والاغتيال : الأخذ على غرة . والمحاباة : المعاطاة والمقاربة فيها . والأثرة : الاستبداد . والجماع : الجمع . والتوخي : التقصد . والحدوة : الحث . والشرب : النصيب من الماء . والبالّة : القليل من الماء يبلّ به الأرض . وأحالت الأرض : تغيّرت عما كانت عليه من الاستواء فلم ينجبّ زرعها ولا أثمر نخلها . والإجمام : الإراحة . ومعتمد : قاصد . والإعواز : الفقر . واستنام إلى كذا : سكن إليه . والمترفق : طالب الرفق من التجارة . والمطارح : جمع مطرح وهي الأرض البعيدة . والبائقة الداهية . والغائلة : الشر . والاحتكار : حبس المنافع عن الناس عند الحاجة إليها . والبؤسى : الشدة . والقانع : السائل . والمعتر : الذي يتعرض للعطاء من غير سؤال . والصوافي : ـ جمع صافية ـ وهي أرض الغنيمة . والتافه : الحقير . وأشخص همه : رفعه . وتصعير الخدّ : إمالته كبراً . وتقتحمه : تزدريه . وأعذر في الأمر : صار ذا عذر فيه .

واعلم أن في الفصل أبحاثاً :

الأول : أنه قسم أهل المدينة إلى سبع طبقات ، وحكم بأنه لا يصلح بعضها إلّا بالبعض على ما بيّنه .

وقوله : من أهل الذمة ومسلمة الناس .

تفصيل للأهل الأول . فأهل الذمة تفسير لأهل الجزية ، ومسلمة الناس تفسير لأهل الخراج ، ويجوز أن يكون تفسيراً لأهل الجزية والخراج لأن للإمام أن يقبل أرض الخراج من سائر المسلمين وأهل الذمة ، وأراد بالسهم الذي سماه الله لكل منهم الاستحقاق لكل من ذوي الاستحقاق في كتابه إجمالاً من الصدقات كالفقراء والمساكين وعمّال الخراج والصدقة وفصله في سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم . وحدّه الذي وضع الله عليه عهداً منه عند أهل بيت نبيه هو مرتبته ومنزلته من اهل المدينة الذين لا يقوم إلّا بهم فإن للجندي منزلة وحداً محدوداً لا يجوز له تعديه ، وفريضته وقوفه عنده والعمل بما يلزم تلك المرتبة ، وكذلك الكتاب والعمال والقضاة وغيرهم فإن لكل منهم حداً يقف

عنده ، وفريضة يلزمها عليها عهد من الله محفوظ عند نبيه وأهل بيته عليهم السلام اشتملت عليها الشريعة .

البحث الثاني : أنه نبه بقوله : فالجنود بإذن الله . إلى قوله : معونتهم . على أن لكل من الأصناف المذكورة تعلق بالآخر بحيث لا يقوم إلّا به ، والحاجة إليه ضرورية . وبمجموعهم يقوم صورة المدينة . فبدأ بالجنود لأنهم الأصل وذكر وجه الحاجة إليهم في أربعة أوصاف :

أحدها : كونهم حصون الرعية ، واستعار لهم لفظ الحصون باعتبار حفظهم للرعية وحياطتهم لهم كالحصن .

الثاني : أنهم زين الولاة فإن الوالي بلا جند كأحد الرعية لا يبالى به ولا يطاع له أمر . والمفسدة فيه ظاهرة .

الثالث: كونهم عزّ الدين ، واطلق لفظ العز عليهم إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه . إذ كان العز للدين لازماً لوجودهم .

الرابع : استعار لفظ الأمن لهم باعتبار لزوم الأمن لوجود الجند في الطرق ونحوها . والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فليس تقوم الرعية إلّا به .

وقوله : وليس تقوم الرعية إلّا بهم .

نتيجة القياس المذكور . وقال : بإذن الله . لينبه على أنه أراد جنود الحق الذين هم مقتضى الحكمة لا مطلق الجنود .

الثاني : أهل الخراج ومن يؤخذ منهم ، وأشار إلى وجه استلزام الحاجة إلى الجند للحاجة إليهم بقوله : ثم لا قوام للجنود . إلى قوله : حاجتهم .

فقوله : لا قوام . إلى قوله : الخراج . دعوى .

وقوله : الذين يقوون . إلى قوله : حاجتهم .

في قوة صغرى ضمير نبه به عليها ، وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك

فلا قوام للجند إلّا به . فينتج لا قوام للجند إلّا بما يخرج الله لهم من الخراج ، ولما كان الخراج إنما يحصل من جماعة من الرعية ولا يقوم الجند إلّا بهم .

الثالث : القضاة والعمال والكتاب وجمعهم لأن وجه الحاجة إليهم واحد ، وأشار إليه بقوله : لما يحكمون به . إلى قوله : وعوامها . فإنهم أمناء الوالي والرعية على ما يعمّهم من الأمور أو يخص كلاً منهم ، وعلى أيديهم تكون أحكام العقود وجمع المنافع وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فحاجة الجند والرعية إليه ضرورية .

الرابع : التجار وذوي الصناعات ، وادّعى أنه لا قوام للأصناف السابقة إلّا بهم ونبه على ذلك بقوله : فيما يجتمعون عليه من مرافقهم فإن كل ما يفعله التجار من جلب الأمتعة وبيعها وشرائها ويقيمونه من الأسواق بذلك وما يفعله الصنّاع من المنفعة بأيديهم مما لا يحصل من غيرهم الانتفاع به فهي مرافق ومنافع للرعية في مقام حاجتهم وضرورتهم وهو في قوة صغرى ضمير كبراه ما سبق .

الخامس : الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة ، ونبه على وجه الحاجة إليهم بقوله : الذين يحق رفدهم ومعونتهم . وبيان ذلك أن رفد هؤلاء ومعونتهم يستلزم اجتماع هممهم وتوافر دواعيهم لرافدهم ومعينهم وبهم تستنزل الرحمة وتستدر البركة من الله تعالى لأهل المدينة ويدرك الثواب الأُخروي . فكانت الحاجة إليهم داعية لذلك . ولما أشار إلى وجه الحاجة إلى جميعهم قال : وفي الله لكل سعة : أي في وجود الله وعنايته . ليعتمد على الله في تدبير أُمورهم . إذ هو تعالى رب العناية الأولى وقال : ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه . ليعلم أن مراعاة كل منهم واجبة عليه فيشتمل عليها . وبالله التوفيق .

البحث الثالث : في أمره باستصلاح كل صنف بأوصاف يجب أن يكون عليها ، ونصبه في مقامه :

فالصنف الأول : الجند : وأشار إلى تعيين من يصلح لهذه المرتبة

بأوصاف ، وأمره ونهاه فيهم بأوامر ونواهي أما الأوصاف :

فأحدها : من كان أنصح في نفسه لله ولرسوله ولإمامه جيباً أي أكثرهم أمانة في العمل بأوامر الله ورسوله وإمامه . وناصح الجيب كناية عن الأمين .

الثاني : أفضلهم حلماً . ثم وصف ذلك الأفضل فقال : ممّن يبطىء عن الغضب ويستريح إلى العذر فيقبله إذا وجده ، ويرأف بالضعفاء فلا يغلظ عليهم ، وينبو على الأقوياء : أي يعلو عليهم ويتجنّب الميل إليهم على من دونهم ، ممن لا يثيره العنف : أي لا يكون له عنف فيثيره كقوله : ولا أرى الضب بها فينجحر . وقيل : لا يهيّجه العنف ولا يزعجه إذا فعل ، ولا يقعد به الضعف عن إقامة حدود الله وأخذ الحقوق من الظالمين أي لا يكون له ضعف فيقعده عن ذلك .

الثالث : من كان من أهل الأحساب والبيوتات الصالحة والسوابق الحسنة من الأحوال والأفعال والأقوال الخيرية .

الرابع : من يكون من أهل النجدة والشجاعة .

الخامس : من يكون من أهل السخاء والسماحة .

وأما الأوامر :

فأحدها : أن يولي من الجند من كان بهذه الصفات .

الثاني : أن يلصق بمن ذكر منهم : أي يلزمهم في هذه المرتبة . ورغب فيهم بقوله : فإنهم . إلى قوله : من العرف . ووصفهم بكونهم جماع من الكرم وشعب من العرف إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه . إذا كان الجماع من الكرم وهو الفضائل المذكورة لازمة لهم . والأمانة والسخاء والسماحة فضائل تحت العفة . والحلم والنجدة فضيلتان تحت الشجاعة . ويحتمل أن يكون الضمير في قوله : فإنهم . عائداً إلى الفضائل المذكورة كقوله تعالى : ﴿ **فإنهم عدوّ لي** ﴾ يشير إلى الأصنام .

الثالث : أن يتفقد من أُمورهم ومصالحهم ما يتفقده الوالدان ، وهو كناية عن نهاية الشفقة عليهم .

الرابع : نهاه أن يعظم في نفسه شيء يقويهم به من مال أو نفع فيدعوه إلى التقاصر في حقهم .

الخامس : وأن لا يحتقر لطفاً يتعاهدهم بـه فيحمله احتقاره على تـركه واحتـجّ لأولويـة فعله وإن قل بقـوله : فـإنه داعيـة . إلى قولـه : الظن بـك . وتقدير كبرى هذا الضمير : وكلما كان كذلك فالأولى بك فعله .

السـادس : نهاه أن يـدع تفقد الصغيـر من أمورهم اعتمـاداً على تفقـد عـظيمها . واحتـجّ لأولويـة فعله بقولـه : فإن اليسيـر . إلى قولـه : موقعـاً لا يستغنون عنه . والمعنى ظاهر . فإن موضـع اليسير المنتفـع به لا يستغنى فيـه عن الجسيم . وتقـدير كبـرى هذا الضميـر : وكلما كـان له مـوضعاً ينتفـع به فالأولى فعله في موضعه لينتفع به .

السـابع : أمـره أن يكون آثـر رؤوس جنـده عنـده من كـان بـالصفـات المـذكورة وهـو الذي يـواسي من تحت يـده من الجنـد فيمـا يحصـل لـه من المعونة ، ويفضل عليهم مما في يده بما يسعهم ويسع من ورائهم من ضعفاء أهليهم وخلوفهم حتى يكون بذلك همّهم واحداً فيكونوا بمنزلة رجل واحد في جهاد العدو . ثم رغب في العطف عليهم بما يستلزمه من عطف قلوبهم عليـه وهو في قوة صغرى ضمير تقـدير كبـراه : وكلما كـان مستلزماً لعـطف قلوبهم ففعله واجب ومصلحة . وأيضاً لما كانت صحة محبتهم من أهم المطالب بيّن أنّـهـا لا يتم إلاّ بأمور ثلاثة :

أحدها : حيطهم ومحافظتهم ولاة أُمورهم .

الثاني : قلة استثقال دولهم .

الثالث : أن يتركوا استبطاء انقطاع مدة دولهم ، وذلـك في قوة صغـرى ضمير تقدير كبراه : وما لا يتم أهم المطالب إلاّ به كان من أهم المطالب .

الثامن : أمره أن يفسح لهم : أي يجعل لهم من نفسه طمعاً يفتسـح به آمالهم فيه لأن ذلك مما لا يتم الأمور الثلاثة المذكورة إلاّ به ولذلك رتّب هذا الأمر عليها بالفاء .

التاسع : أمره أن يواصل من حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم واحتج لوجوب ذلك بقوله : فإن كثرة الذكر . إلى قوله : إنشاء الله . وهو ظاهر والقضية في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك كان واجباً .

العاشر : أمره أن يعرف لكل امرىء ما أبلى وينسبه إليه لأنه يهزّ الشجاع ويشجع الجبان .

الحادي عشر : نهاه أن يضم بلاء امرىء إلى غيره .

الثاني عشر : وأن يقصر به دون غاية بلائه فيذكر بعضه أو يحقّره .

الثالث عشر : وأن يدعوه شرف امرىء إلى أن يعظم صغير بلائه ، أو ضعة امرىء أن يستصغر كثير بلائه فإن كل ذلك داعية الكسل والفتور عن الجهاد .

الرابع عشر : أمره أن يرد إلى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب ويشتبه عليه من الأمور محتجاً بالآية . ثم فسر الرد إلى الله بالأخذ بمحكم كتابه ، والرد إلى الرسول بالأخذ بسنته . ووصف السنة بكونها جامعة لأن مدارها على وجوب الألفة واجتماع الخلق على طاعة الله وسلوك سلوكه .

الصنف الثاني : قضاة العدل وعينهم له بأوصاف وأمره فيهم بأوامر :

أما التعيين فأوجب أن يكون أفضل رعيته في نفسه ، وميّز ذلك الأفضل بصفات :

أحدها : أن يكون ممن لا يضيق به الأمور فيحار فيها حين تورد عليه .

الثاني : وممن لا يمحكه الخصوم : أي يغلبه على الحق باللجاج . وقيل: ذلك كناية عن كونه ممن يرتضيه الخصوم فلا تلاجه ويقبل بأول قوله :

الثالث : أن لا يتمادى في زلّته إذا زلّ فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الضلال .

الرابع : أن لا يحصر من الرجوع إلى الحق إذا عرفه كما يفعله قضاة

السوء حفظاً للجاه وخوفاً من شناعة الغلط .

الخامس : أن لا تشرف نفسه على طمع فإن الطمع في الناس داعية الحاجة إليهم والميل عن الحق .

السادس : أن لا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه لأن ذلك مظنة الغلط .

السابع : أن يكون أوقف الناس عند الشبهات لأنها مظنة الوقوع في المآثم .

الثامن : وآخذهم بالحجج .

التاسع : وأقلّهم تبرماً بمراجعة الخصم لما يستلزمه التبرم من تضييع الحقوق .

العاشر : وكذلك وأصبرهم على تكشف الأمور .

الحادي عشر : وأصرمهم عند اتضاح الحق فإن في التأخير آفات .

الثاني عشر : وممن لا يحدث له كثرة المدح كبراً .

الثالث عشر : وممن لا يستميله إلى غير الحق إغراء به ثم حكم بقلة من تجتمع فيه هذه الصفات تنبيهاً على أن فيها ما هو أولى دون أن يكون شرطاً في القضاء .

وأما الأوامر :

فأحدها : أن يختار من كان بالصفات المذكورة .

الثاني: أن يكثر تعاهد قضائه ليقطع طمعه في الانحراف عن الحق لو خطر بباله .

الثالث : أن يفسح له في البذل ما يزيل علته ، وهو كناية عما يكفيه ويقل معه حاجته إلى الناس فلا يميل إليهم ، و- ما- يحتمل أن يكون بدلاً من البذل ، وأن يكون مفعولاً لفعل محذوف دلّ عليه البذل كأنه قال : فيبذل له ما يزيل علته ، وأن يكون مفعولاً ليفسح : أي يوسع له ما يكفيه من

المال ، ويحتمل أن يكون في معنى مصدر يفسح : أي يفسح له فسحاً يزيل علّته .

الرابع : أن يعطيه من المنزلة عنده ما لا يطمع فيه معها غيره من خاصته ليأمن بذلك اغتيال الأعداء . وتقدير كبرى هذا الضمير : وكل ما كان كذلك فواجب بذله للقاضي .

الخامس : أن ينظر في اختيار من كان بهذه الصفات وفيما أمره به نظراً بالغاً ليعمل بأقصاه . وعلل ذلك بقوله : فإن هذا الدين . إلى قوله : الدنيا . واستعار لفظ الأسير باعتبار تصريفهم له كالأسير . والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب النظر في اختيار من يعمل بالحق ويخرجه من أُسر الأشرار . وبالله التوفيق .

الصنف الثالث : العمّال وميّزهم أيضاً بأوصاف وأمره فيهم بأوامر مصلحية .

أما الأوصاف :

فأحدها : أن يكون العامل من أهل التجربة للأعمال والولايات على علم بقواعدها . وبدأ بذلك لأنه الأصل الأكبر للعمل .

الثاني : أن يكون من أهل الحياء فلا ينتهي في الانفعال إلى حد الاستخدام، وهو طرف التفريط فيضيّع به الحقوق والمصالح ولا يتجاوزه إلى حدّ القحة فيقع في طرف الإفراط وما يلزمه من الجفاوة ونفرة القلوب عنه .

الثالث : أن يكون من أهل البيوتات الصالحة والقدم السابقة في الإسلام ، وهي كناية عن البيوت المتقدمة في الدين والخير ، ولهم في ذلك أصل معرق . وأشار إلى وجه الحكمة في تولية من كان بهذه الصفات الثلاث بقوله : فإنهم . إلى قوله : نظراً . وذلك أن الحياء وصلاح البيوت والتقدم في الإسلام يفيدهم كرم الأخلاق ومحافظة على الأعراض من المطاعن وقلة الإشراف والتطلع إلى المطامع الدنية ، والتجربة تفيدهم بلاغة النظر في عواقب الأمور . والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان

كذلك فهو أولى أن يقصد بالتوليه والعمل .

وأما الأوامر :

فأولها : أن ينظر في أمورهم فيستعملهم بعد التجربة والاختبار ولا يوليهم محاباة وأثرة كأن يعطونه شيئاً على الولاية فيوليهم ويستأثر بذلك دون مشاورة فيه فإنهما : أي المحاباة والأثرة ـ كما هو مصرح به في بعض النسخ عوض الضمير ـ جماع من شعب الجور والخيانة .

أما الجور فللخروج بهما عن واجب العدل المأمور به شرعاً وأما الخيانة فلأنّ التحري في اختيارهم من الدين وهو أمانة في يد الناصب لهم فكان نصبهم من دون ذلك بمجرد المحاباة والأثرة خروجاً عن الأمانة ونوعاً من الخيانة .

وثانيها : أن يقصد بالعمل من كان بالصفات المذكورة للعلل المذكورة .

الثالث : أن يسبغ عليهم الأرزاق . وبيّن المصلحة في ذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن عمومهم بالأرزاق يكون قوة لهم على استصلاح أنفسهم الذي لا بد منه .

الثاني : أنه غنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم من مال المسلمين .

الثالث : أنه يكون حجة له عليهم إن خالفوا أمره أو ثلموا أمانته . واستعار لفظ الثلم للخيانة . والوجوه الثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كان كذلك كان فعله مصلحة واجبة .

الرابع : أن يتفقد أعمالهم ويبعث العيون والجواسيس من أهل الصدق والوفاء عليهم ، وأشار إلى وجه المصلحة في ذلك بقوله : فإن تعاهدك . إلى قوله : بالرعية . فإن تعهده لأمورهم مع علمهم بذلك منه يبعثهم على أداء الأمانة فيما ولوا من الأعمال ، وعلى الرفق بالرعية . والمذكور صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب فعله .

الخامس : أن يتحفظ من خيانة الأعوان من العمال . وأرشده بقوله : فإن أحد منهم بسط . إلى قوله : التهمة . إلى ما ينبغي من تأديبهم وإقامة سنّة الله فيهم . واستعار لفظ التقليد لتعليق نسبة التهمة إليه ملاحظة لشبهها بما يقلد به من الشعار المحسوس واللفظ في غاية الفصاحة ، وهذه العقوبة مقدرة بحسب العرف ورأي الإمام أو من ارتضاه .

الصنف الرابع : أهل الخراج ، وأمره فيهم بأوامر :

أحدها : أن يتفقد أمر خراجهم ويفعل فيه ما يصلح أهله مما سيشرحه . ثم أشار إلى وجه المصلحة فيه بضمير صغراه : قوله : فإن صلاحه . إلى قوله : إلّا بهم . ونبه بقوله : لا صلاح لمن سواهم إلّا بهم على حصر صلاح الغير فيهم تأكيداً ، وتقدير الكبرى : وكل من كان لا صلاح للناس إلّا به فيجب مراعاة أموره وتفقد أحواله . ثم بيّن الصغرى بقوله : لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وهو ظاهر في ذلك الوقت .

الثاني : أن يكون نظره في عمارة الأرض أبلغ من نظره في طلب الخراج واستجلابه ، ونبه على وجه الحكمة فيه بقوله : لأن ذلك : أي الخراج لا يدرك إلّا بالعمارة . وهو في قوة صغرى ضمير . ثم بيّنها بقوله : ومن طلب إلى قوله : قليلاً . وهو إشارة إلى ما يلزم نقيض المدعي وهي مفاسد ثلاث أحدها : إخراب البلاد لعدم العمارة ، والثاني : إهلاك العباد لتكليفهم ما ليس في وسعهم ، والثالث : عدم استقامة أمر الطالب للخراج والوالي على أهله . وهو لازم عن الأولين . وتقدير الكبرى : وكل ما لا يدرك إلّا بالعمارة وجب أن يكون النظر فيها أبلغ من النظر فيه فينتج أن النظر في العمارةيجب ان يكون أبلغ من النظر في الخراج.

الثالث : أمره أن يخفف عنهم من خراجهم ما يرجو أن يصلح به أمرهم على تقدير أن يشكوا من حالهم ما عساه يلحقهم من قبل أرضهم من ثقل خراج أو علّة سماوية أو انقطاع نصيب كان لهم من الماء أو تغيّر أرض وفسادها بسبب غرق أو عطش ، ثم نهاه أن يستثقل بما يخفف عنهم

به المؤونة . وأشار الى وجه الحكمة فيه بقوله : فإنه ذخر . إلى قوله : العدل فيهم . ومعناه ظاهر - ومعتمداً - نصب على الحال والعامل خففت ، و- فضل - نصب بالمفعول عن معتمداً ، وقوله : والثقة . عطف على المفعول المذكور ، ونبه على وجه المصلحة في اعتماد فضل قوتهم بإراحتهم والثقة بينهم بما عوّدهم من عدله بقوله : فربما حدث . إلى قوله : أنفسهم به . وتقدير الكلام خفّف عنهم معتمداً فضل قوتهم فإن ذلك يستلزم احتمالهم لما عساه يحدث من الأمور فيحتملونه إذا عوّلت عليهم فيه بطيب نفس ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فواجب أن يخفف عنهم ويعتمد فضل قوّتهم ، وفي قوله : فإن العمران محتمل ما حملته . بيان الصغرى لأن التخفيف عنهم يستلزم عمران أرضهم وهو يستلزم احتمالهم لما يرد عليهم من حوادث الأمور . ثم نبه بقوله : وإنما يؤتى خراب الأرض . إلى قوله: أهلها . على سبب الخراب . وبقوله : وإنما يعوز . إلى قوله : العبر . على ذلك السبب وهو مركب من ثلاثة أجزاء :

أحدها : إشراف نفوس الولاة على الجمع .

والثاني : سوء ظن أحدهم أنه لا يبقى في العمل .

والثالث : عدم انتفاعهم بالعبر لقلة التفاتهم إليها . وظاهر أن هذه الأمور إذا اجتمعت في الوالي استلزمت جمعه للمال واستقصاءه على الرعية واستلزم ذلك إعوازهم وفقرهم فاستلزم ذلك خراب أرضهم وتعطيل عمارتها .

الصنف الخامس : الكتّاب وأمره فيهم بأوامر :

أحدها : أن يولي أموره خيرهم ، وتفسير الخير هنا هو من كان تقياً قيماً بما يراد منه من مصالح العمل .

الثاني : أن يخص رسائله وأسراره ومكائده بأجمعهم لصالح الأخلاق ، وقد علمت أصولها غير مرة وهي العلم بوجوه الآراء المصلحيّة والتهدي إلى وضع كل شيء موضعه ثم العفة والشجاعة والعدالة مع ما تحت الأربعة من

الفضائل الخلقية ثم فسّر بعض الفضائل التي عساها أن تخفى ، وذكر منها خمساً :

إحديها : عدم البطر ، وهي فضيلة تلزم الشكر وهو فضيلة تحت العفة . ونفّر عن صاحب البطر بقوله : فيجترىء إلى قوله : ملإ . وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من يجترىء عليك كذلك فغير صالح لولاية أمرك .

الثانية : الفطنة والذكاء فيما هو بصدده من الأمور المذكورة ، وكنّى عن ذلك بقوله : ممن لا تقصر به الغفلة . إلى قوله : منك . والذكاء : فضيلة تحت الحكمة .

الثالثة : أن لا يكون ممن يضعّف عقداً يعتقده لك من الأمور بل يجعله محكماً .

الرابعة : أن لا يعجز عن إطلاق ما اعتقده عليك خصومك من الأمور بالحيلة والخديعة ، وهذان لازمان لأصالة الرأي وهو فضيلة تحت الحكمة .

الخامسة : أن لا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور فيرفعها إلى فوق محلّها ومرتبتها وهي فضيلة تحت الحكمة الخلقية أيضاً ، ونبه على اجتناب الجاهل بذلك بقوله : فإن الجاهل . إلى قوله : أجهل ، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب اجتنابه .

الثالث : نهاه أن يكون اختياره للعمال تفرساً منه وسكوناً وحسن ظن بأحدهم ، وأشار إلى وجه المفسدة في ذلك بقوله : فإن الرجال . إلى قوله : شيء . والمعنى أن الرجال قد يتصنعون بحسن الخدمة ويتعرضون لأن يتفرّس فيهم الولاة فيعرفونهم بذلك مع أنه ليس وراء ذلك التصنّع من النصيحة والأمانة شيء وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فينبغي أن لا يعتمد على اختياره بحسب الفراسة .

الرابع : لما نهى أن يوقع اختيارهم كذلك أمره أن يختبرهم بولايتهم لمن كان قبله من الصالحين إرشاداً إلى وجه الاختيار ويعضد إلى من كان

بالصفات المذكورة وهو أن يكون أحسن أثراً في العامة وأعرفهم بوجه الأمانة في الدين . ورغبه في ذلك بضمير صغراه قوله : فإن ذلك . إلى قوله : أمره . وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك وجب فعله .

الخامس : أمره أن يجعل لرأس كل أمر من أموره رأساً من الكتّاب الموصوفين بكونهم مناسباً له بحيث لا يكبر عليه كبيرة فيقهره ولا يكثر عليه كثيرة فيتشتّت عن ضبطه ويقصر دونه .

السادس : نهاه أن يتغافل عما يكون في كتابه من عيب ونبهه على ذلك بقوله : ومهما . إلى قوله : ألزمته . وهو صغرى ضمير تقديره : فإن كل ما يتغافل عنه من ذلك تلزم به ، وتقدير كبراه : وكل ما تلزم به فلا يجوز أن يتغافل عنه .

الصنف السادس : التجار وذوو الصناعات وأمره فيهم بأوامر :

أولها : أن يستوصي بهم خيراً .

الثاني : أن يوصي بهم كذلك بأصنافهم المقيم منهم والمضطرب في تجارته بماله والمترفق ببدنه وهم أهل الصنائع ، وأشار إلى وجه الحكمة في الوصية بهم والعناية بحالهم من وجهين :

أحدهما : منفعتهم ، وذلك قوله : فإنهم . إلى قوله : عليها . والضمير في قوله : مواضعها وعليها . يعود إلى المنافع وحيث : أي ومن حيث كان لا يجتمع الناس لمواضع تلك المنافع منه ولا يجترؤون عليها فيه وذلك الحيث كالبحار والجبال ونحوها .

الثاني : أنه لا مضرة فيهم وذلك قوله : فإنهم . إلى قوله : غائلته . وتقدير كبرى الضميرين : وكل من كان كذلك فيجب الاستيصاء به والوصية بالخير في حقه .

الثالث : أن يتفقد أُمورهم بحضرته وفي حواشي بلاده ما عساه يعرض لهم من المظالم والموانع ليزيلها عنهم .

الرابع : أن يعلم ما فيهم من المعائب المعدودة وهي الضيق

الفاحش ، والشح . والضيق هنا البخل ، ثم الاحتكار للمنافع التي يعم نفعها وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب والسمن والملح ، ثم التحكم في البياعات وهو عبارة عن البيع على حكمه بالهوى المطلق من غير تقيّد بشريعة أو عرف فإن ذلك عدول عن العدل إلى رذيلة الجور .

ثم نبه على وجه المفسدة اللازمة لتلك المعائب بقوله : وذلك . إلى قوله : الولاة : أما أنه مضرة فظاهر ، وأما أنه عيب على الولاة فلأن قانون العدل بأيديهم فإذا أهملوا بترك ردّ هؤلاء عن طرق الجور توجهت اللائمة نحوهم والعيب عليهم وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب إنكاره ودفعه .

الخامس : لما بين له وجه المفسدة في تلك المعائب أمره بمنع الاحتكار واحتج بمنع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

السادس : أمره بكون البيع سهلاً سمحاً وأن يكون بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالبائع فيذهب أصل مبيعه ، ولا بالمشتري فيذهب رأس ماله .

السابع : أمره بإيقاع النكال على من احتكر بعد نهيه عن ذلك ، وأن يعاقبه من غير إسراف .

الصنف السابع : الطبقة السفلى وميّزهم بأوصاف وأمر فيهم بأوامر ونواهي :

أما تميّزهم فالعاجزون عن الحيلة والاكتساب والمساكين والمحتاجون وأهل البؤسى والزمنى ، وهؤلاء كلهم وإن دخل بعضهم في بعض إلّا أنه عددهم بحسب تعدد صفاتهم لمزيد العناية بهم كيلا يتغافل عن أحدهم وتثاقل فيه . وأما الأوامر :

فأحدها : أنه حذّر من الله فيهم ، وأشار إلى وجه الحكمة في ذلك التحذير بقوله : فإن فيهم قانعاً ومعتراً ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب أن يحذر الله فيه ويحفظ له ما استحفظ من حقه فيه .

الثاني : أن يجعل لهم قسماً من بيت ماله ومن صوافي الإسلام في كل بلد . وأضاف بيت المال إليه وأراد الذي يليه . ونبهه على ذلك بقوله : فإن للأقصى . إلى قوله : حقه . وتقدير كبرى هذا الضمير : وكل من كان كذلك وجب أن يحسن الرعاية في حقه بأدائه إليه .

الثالث : نهاه أن يشغله عنهم بطر . ونفر عن الاشتغال عنهم بقوله : فإنك لا تعذر . إلى قوله : المهم . وأراد بالتافه القليل من أمورهم وأحوالهم وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من لا يعذر بذلك فلا يجوز له الشغل عنه .

الرابع : نهاه أن يشخص همه عنهم : أي يرفعه حتى لا يتناولهم .

الخامس : نهاه أن يصعّر خده لهم ، وهو كناية عن التكبر عليهم .

السادس : أمره أن يتفقد أمور من لا يمكنه الوصول إليه منهم لعجزه وحقارته في عيون الأعوان والجند ، وأن يفرغ لهؤلاء ثقة له من أهل الخشية والتواضع وينصبه لهم ليرفع إليه أُمورهم .

السابع : أن يعمل فيهم بالإعذار إلى الله سبحانه يوم يلقاه : أي يعمل في حقهم ما أمره الله به بحيث يعذر إليه : أي يكون ذا عذر عنده إذا سأله عن فعله بهم ، ونبه على وجه الحكمة من مزيد العناية بهم بقوله : فإن هؤلاء . إلى قوله : غيرهم .

الثامن : أكّد الأمر بالإعذار إلى الله في تأدية حق كل واحد من المذكورين إليه .

التاسع : أمره أن يتعهد الأيتام وذوي الرقة في السن : أي الذين بلغوا في الشيخوخة إلى أن رق جلدهم وضعف حالهم عن النهوض فلا حيلة لهم ، وممن لا ينصب نفسه للمسألة حياءً مع حاجته وفقره . ثم أشار إلى ثقل التكليف بمجموع الأوامر السابقة بقوله : وذلك على الولاة ثقيل ، وبقوله : والحق كله ثقيل توطيناً لنفسه على ذلك . ثم رغب فيه بقوله : وقد يخفف الله . إلى قوله : لهم . فنسب تخفيفه إلى الله ليرغب إليه فيه

وشجعه على فعله واستسهاله بذكر صفات الصالحين وهم الذين طلبوا العافية من بلاء الله في الآخرة فاستسهلوا ما صعب من التكاليف الدنيوية بالقياس إليه ووثقوا بصدق موعود الله لهم في دار القرار . وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : في أوامر ونواهي مصلحية وآداب خلقيّة وسياسية بعضها عامة وبعضها خاصة يتعلق بعمّاله وبخاصته وبطانته وبنفسه وأحوال عبادته إلى غير ذلك، وهو قوله :

وَٱجْعَلْ لِذَوِي ٱلْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَكَ ، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ ٱلْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ » . ثُمَّ ٱحْتَمِلِ ٱلْخُرْقَ مِنْهُمْ وَٱلْعِيَّ ، وَنَحِّ عَنْهُمُ ٱلضِّيقَ وَٱلأَنَفَ ، يَبْسُطِ ٱللَّهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ ، وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئاً ، وَٱمْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وإِعْذَارٍ .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لاَ بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا ، مِنْهَا : إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كُتَّابُكَ ، وَمِنْهَا : إِصْدَارُ حَاجَاتِ ٱلنَّاسِ يَوْمَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ ، وَٱجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللَّهِ أَفْضَلَ تِلْكَ ٱلْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ ٱلأَقْسَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلُحَتْ فِيهَا ٱلنِّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا ٱلرَّعِيَّةُ .

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ : إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ ٱلَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً ، فَأَعْطِ ٱللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى ٱللَّهِ مِنْ ذٰلِكَ ، كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ ، وَلاَ مَنْقُوصٍ ، بَالِغاً مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ ، وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلاَ مُضَيِّعاً ، فَإِنَّ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ بِهِ ٱلْعِلَّةُ وَلَهُ ٱلْحَاجَةُ ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ

وَجَّهَنِي إِلَى ٱلْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ ؟ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً » .

وَأَمَّا بَعْدُ : فَلَا تُطَوِّلَنَّ ٱحْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ ٱحْتِجَابَ ٱلْوُلَاةِ عَنِ ٱلرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ ٱلضِّيقِ ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ ، وَٱلِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا ٱحْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ ٱلْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ ٱلصَّغِيرُ ، وَيَقْبُحُ ٱلْحَسَنُ ، وَيَحْسُنُ ٱلْقَبِيحُ ، وَيُشَابُ ٱلْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ، وَإِنَّمَا ٱلْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ ٱلنَّاسُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى ٱلْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ ٱلصِّدْقِ مِنَ ٱلْكَذِبِ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا ٱمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي ٱلْحَقِّ ، فَفِيمَ ٱحْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ ؟أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ ، أَوْ مُبْتَلىً بِالْمَنْعِ ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ ٱلنَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ ٱلنَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ .

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمُ ٱسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ ، وَلَا تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً ، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي ٱعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ ٱلنَّاسِ فِي شِرْبٍ ، أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذٰلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ .

وَأَلْزِمِ ٱلْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ ٱلْقَرِيبِ وَٱلْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذٰلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَٱبْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذٰلِكَ مَحْمُودَةٌ .

وَإِنْ ظَنَّتِ ٱلرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفاً فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ ، وَأَعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ، فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى ٱلْحَقِّ .

وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَلِلَّهِ فِيهِ رِضاً ، فَإِنَّ فِي ٱلصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْناً لِبِلَادِكَ ، وَلٰكِنَّ ٱلْحَذَرَ كُلَّ ٱلْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ ، فَإِنَّ ٱلْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَٱتَّهِمْ فِي ذٰلِكَ حُسْنَ ٱلظَّنِّ ، وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ؛ فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَٱرْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ ، وَٱجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ ٱللَّهِ شَيْءٌ ، ٱلنَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ ٱجْتِمَاعاً ، مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ ، مِنْ تَعْظِيمِ ٱلْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ ، وَقَدْ لَزِمَ ذٰلِكَ ٱلْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ لِمَا ٱسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ ٱلْغَدْرِ ، فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِىءُ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ ، وَقَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْناً ، أَفْضَاهُ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ ، وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ ، فَلَا إِدْغَالَ ، وَلَا مُدَالَسَةَ ، وَلَا خِدَاعَ فِيهِ ، وَلَا تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ ٱلْعِلَلَ ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ ٱلتَّأْكِيدِ وَٱلتَّوْثِقَةِ ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ ٱللَّهِ إِلَى طَلَبِ ٱنْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو ٱنْفِرَاجَهُ ، وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ ٱللَّهِ فِيهِ طِلْبَةٌ ، فَلَا تَسْتَقِيلَ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ .

إِيَّاكَ وَٱلدِّمَاءَ ، وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ ، وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ ، وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَٱنْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ ٱلدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، وَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ ٱلدِّمَاءِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ ٱلْعَمْدِ؛ لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ ٱلْبَدَنِ ، وَإِنِ ٱبْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ ، أَوْ سَيْفُكَ ، أَوْ يَدُكَ ، بِالْعُقُوبَةِ؛ فَإِنَّ فِي ٱلْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ ٱلْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ .

وَإِيَّاكَ وَٱلْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ ، وَٱلثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ ٱلْإِطْرَاءِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ ٱلشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْمُحْسِنِينَ .

وَإِيَّاكَ وَٱلْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ ، أَوِ ٱلتَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ ٱلْمَنَّ يُبْطِلُ ٱلْإِحْسَانَ ، وَٱلتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ ٱلْحَقِّ ، وَٱلْخُلْفَ يُوجِبُ ٱلْمَقْتَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَٱلنَّاسِ ، قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ .

وَإِيَّاكَ وَٱلْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوِ ٱلتَّسَقُّطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا ، أَوِ ٱللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ ، أَوِ ٱلْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا ٱسْتَوْضَحَتْ ، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ .

وَإِيَّاكَ وَٱلْإِسْتِئْثَارَ بِمَا ٱلنَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ ، وَٱلتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ ٱلْأُمُورِ ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ ، إِمْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ ، وَٱحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ بِكَفِّ ٱلْبَادِرَةِ ، وَتَأْخِيرِ ٱلسَّطْوَةِ ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ ٱلْإِخْتِيَارَ ، وَلَنْ تُحْكِمَ ذٰلِكَ مِنْ نَفْسِكَ ، حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ ٱلْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ .

وَٱلْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي ٱتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا ،وَٱسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ ٱلْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

أقول : الشرط : قوم يعلمون أنفسهم بعلامات الخدمة يعرفون بها . والخرق: ضد الرفق. والأنف : الأنفة وهي خصلة تلازم الكبر . والأكناف :

الجوانب . والإسداء : الإعطاء . والحامة : القرابة . والعقدة : الضيعة ، والعقدة أيضاً : المكان كثير الشجر والنخل ، واعتقد الضيعة : اقتناها . والمغبّة : العاقبة . وأصحر : أي أظهر . والدعة : الراحة . واستوبلوا الأمر : استثقلوه ، والوبال : الوخم ، يقال : استوبلت البلد : استوخمت فلم يوافق ساكنها وخاس بالعهد : نقضه . والختل : الخداع . وأفضاه : بسطه . واستفاض الماء : سال . والإدغال : الإفساد . والدغل : الفساد . والمدالسة : مفاعلة من التدليس في البيع وغيره كالمخادعة . ولحن القول : كالتورية والتعريض من الأمر . والوكزة : الضربة والدفعة ، وقيل : هي بجمع اليد على الذقن. والفرصة : النوبة ، والممكن من الأمر . وسورة الرجل : سطوته وحدة بأسه . وغرب اللسان . حدته . والبادرة : سرعة السطوة والعقوبة .

أما الأمور التي تعمّ مصلحتها .

فأحدها : أن يجعل لذوي الحاجات نصيباً من نفسه يفرّغ لهم فيه بدنه عن كل شاغل ويجلس لهم مجلساً عاماً في الأسبوع أو دونه أو فوقه حسب ما يمكن .

الثاني : أن يتواضع فيه لله . ورغبه في التواضع بنسبته إلى الله باعتبار أنه خالقه الذي من شأنه أن يكون له التواضع .

الثالث : أن يقعد عنهم جنده وأعوانه . وأبان وجه المصلحة في ذلك بقوله : حتى يكلمك متكلّمهم غير متتعتع ، وأشار إلى علة وجوبه بقوله : فإني سمعت . إلى قوله : القويّ . ووجه الدليل من هذا الخبر أنه لما دلّ بالمطابقة على وعيد الأمة التي لا يتصف فيها من قويّ بعدم طهارتها المستلزم لعذابها الأُخروي دلّ بالالتزام على وجوب أن يكون فيها ذلك . ثم لما كانت الأمور المأمور بها مما لا يتم ذلك الواجب إلاّ بها كانت بأسرها واجبة .

الرابع : أمور تلزمه مباشرتها وإن عمّت مصلحتها . وأمور مبتدأ حذف

خبره : أي وهناك أمور . ونحوه . منها إجابة عمّاله بما يرى المصلحة في الجواب به فقد يعجز الكتّاب عن كثير من ذلك . ومنها إصدار حوائج الناس التي يضيق منها صدور أعوانه عند ورودها عليه ، ولا ينبغي له أن يكلها إليهم فإن غاية قضائهم لها إذا قضيت أن يكون على غير الوجه المرضي .

الخامس : أن يمضي لكلّ يوم عمله . ونبّه على ذلك بقوله : فإن لكل يوم ما فيه . وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وإذا كان لكل يوم ما فيه وجب أن يقضي فيه ماله .

السادس : أن يجعل لنفسه في معاملته لله أفضل تلك المواقيت : أي الأوقات المفروضة للأفعال ، وأجزل أقسام الأفعال الموقتة . فأفضلها أبعدها عن الشواغل الدنيوية وأقربها إلى الخلوة بالله سبحانه ، ونبه بقوله : وإن كانت . إلى قوله : الرعية على أن أصلح الأعمال أخلصها لله .

السابع : أن يكون في خاصة ما يخلصه لله في دينه إقامة فرائضه فيخصّها بمزيد عناية منه ورعاية .

الثامن : أن يعطي الله من بدنه في ليله ونهاره : أي طاعة وعبادة فحذف المفعول الثاني للعلم به . والقرينة كون الليل والنهار محلّين للأفعال والقرينة ذكر البدن .

التاسع : أن يوفي ما تقرب به إلى الله من ذلك . وكاملاً ، وغير مثلوم ، وبالغاً أحوال . وما نصب على المصدرية بقوله : بالغاً من بدنك ما بلغ من القوة على الطاعة .

العاشر : من الآداب الراجعة إلي حال الإمامة بالناس في الصلاة أن يكون متوسطاً في صلاته بين المطول المنفر للناس بتطويله وبين المقصر المضيّع لأركان الصلاة وفضيلتها ، واحتج لنفي التثقيل والتطويل بالمعقول والمنقول : أما المعقول فضمير صغراه : قوله : فإن في الناس . إلى قوله : الحاجة . وتقدير كبراه : وكل من كان فيه من ذكر فيجب أن يرفق به ويخفف عنه ، وأما المنقول فما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الخبر ، ووجه التشبيه

بصلاة الأضعف تخفيف الصلاة بعد حفظ أركانها وواجباتها .

الحادي عشر : من الآداب المصلحية لتدبير المدينة النهي عن طول الاحتجاب عن الرعية . ورغّب في الانتهاء عنه من وجوه :

أحدها : أنه نوع من أنواع الضيق على الرعية . إذ كانت مشاهدتهم للوالي تفرّج عنهم ما يكرثهم من الأمور المهمة لهم .

الثاني : أنه قلة علم بالأمور : أي يلزمه ذلك فأطلق اسم اللازم على ملزومه وأكد ذلك بقوله : والاحتجاب عنهم يقطع منهم : أي من الولاة علم ما احتجبوا دونه من أمور الرعية . ثم أشار إلى ما يلزم عدم علمهم من المفاسد وهو أن يصغر كبير الأمور عندهم كأن يظلم بعض حاشية الأمير فتصغّر الأعوان جريمته عنده فيصغر وكذلك يعظم صغيرها لو وقع من ضعيف صغير ذنب في حق كبيره . وكذلك يقبح عندهم الحسن ويحسن القبيح ، ويشاب الحق بالباطل ويلبس به ، وذلك قوله : فيصغر. إلى قوله : بالباطل . ثم نبه على وجه لزوم قطع العلم بالأمور لطول الاحتجاب بقوله: وإنما الوالي بشر . إلى قوله : الصدق والكذب . والتقدير أنه بشر والبشر من خاصته أنه لا يعرف ذلك إلاّ بعلامة وليس على الحق علامات يعرف بها ضروب صدق القول من كذبه .

الثالث : أنه رغب في الانتهاء عنه بضمير صغراه شرطية منفصلة وهي قوله : وإنما أنت . إلى قوله : بذلك . وتلخيصه أنك إما أن تكون مطبوعاً على السخاء بالبذل في الحق أو مبتلى بالمنع منه . وتقدير الكبرى . وكل من كان كذلك فلا يجوز له الاحتجاب . بيان الكبرى : أما إن كان سخيّاً ببذل الحق فإنه عند الطلب منه إمّا أن يعطي حقاً يجب عليه ، أو يفعل فعل الكرماء وذلك لا يجوز الاحتجاب منه .

وأما إن كان مبتلى بالمنع فإذن يسرعون الكف عن مسألته إذا أيسوا من بذله وحينئذ لا معنى للاحتجاب عنهم .

الرابع : قوله : مع أن أكثر . إلى قوله : معامله . وهو صغرى ضمير

تقدير كبراه : وكل من كان أكثر حاجات الناس إليه ما لا مؤونة عليه فيه من الأمور المذكورة فلا معنى لاحتجابه عنهم .

الثاني عشر : من الأمور المصلحية المتعلقة بخاصته أن يحسم مؤونتهم عن الرعية فقوله : بقطع أسباب إلى قوله : مؤونته . إرشاد إلى سبب قطعها ، وأشار إلى وجه ذلك بذكر ما فيهم من الاستئثار على الرعية بالمنافع والتطاول عليهم بالأذى وقلة الإنصاف وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان كذلك فيجب قطع مؤونته عنهم . والأحوال التي أمر بقطع أسبابها هي وجوه المؤونة المذكورة من الاستئثار والتطاول وقلة الإنصاف .

وقوله : ولا تقطعنّ . إلى قوله : مشترك .

تفصيل لوجوه قطع الأسباب المذكورة فإنّ إقطاع أحدهم قطيعة وطمعه في اقتناء ضيعة تضر بمن يليها من الناس في ماء أو عمل مشترك يحمل مؤونته على الناس كعمارة ونحوها هي أسباب الأحوال المذكورة من وجوه المؤونة وقطع تلك الأحوال بقطع أسبابها . ثم نفّره عن أسباب المؤونة على الناس بما يلزم تلك الأسباب من المفسدة في حقه وهي كون مهنأ ذلك لهم دونه وعيبه عليه في الدنيا والآخرة ، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما كان مهنأه للغير وعيبه عليك فلا يجوز فعله .

الثالث عشر : أن يلزم الحق من يلزمه الحق من القريب والبعيد ، ويكون في ذلك الإلزام صابراً لما عساه يلحق أقاربه من مرّ الحق ، محتسباً له : أي مدخله في حساب ما يتقرب به إلى الله تعالى ويعدّه خالصاً لوجهه ، واقعاً ذلك الإلزام من قرابته وخواصه حيث اتفق وقوعه بمقتضى الشريعة ، والواو في قوله : ولكن للحال ، واقعاً أيضاً حال والعامل قوله : وألزم .

الرابع عشر : أن يبتغي عاقبة ذلك الإلزام بما يثقل عليه من فعله بخاصته . كأنه يستفيض بفعله ما يلزمه في العاقبة من العافية من عيب الدنيا وعذاب الآخرة ، ورغّب في ذلك بقوله : فإن مغبة ذلك محمودة وهي تلك العافية وما يلزمها من السعادة الباقية ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما كانت مغبته محمودة وجبت الرغبة في فعله .

الخامس عشر : أمره على تقدير أن تظن الرعية فيه حيفاً أن يصحر لهم عذره فيما ظنوا فيه الحيف ويعدل عنه ظنونهم بإظهاره ، ورغب في ذلك بضمير صغراه قوله : فإن . إلى قوله : الحق : أي فإن في إظهار عذرك لهم أن تصير ذا عذر تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق من معرفتهم أن فعلك حق لا حيف فيه ، وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك فينبغي فعله .

السادس عشر : نهاه أن يدفع صلحاً دعاه إليه عدوه إذا كان صلحاً يرضي الله . ونبه على وجوه المصلحة فيه بضمير صغراه . قوله : فإن في الصلح . إلى قوله : لبلادك . وهي ثلاث مصالح ظاهرة اللزوم لصلح العدو ، وتقدير كبراه : وكلما كان فيه هذه المصالح فواجب قبوله .

السابع عشر : بالغ في تحذيره من العدو بعد صلحه ، وأمره أن يأخذ بالحزم ويتهم في الصلح حسن ظنه الذي عساه أن ينشأ عن صلحه . ونبه على وجوب ذلك الحذر بضمير صغراه : قوله : فإن العدو ربما قارب ليتغفل : أي قارب عدوه بصلحه ليطلب غفلته فيظفر به ، وله عليه السلام في ذلك شواهد التجربة وحذف المفعولين للعلم بهما . وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فواجب أن يحذر منه .

الثامن عشر : أمره على تقدير أن يعقد بينه وبين عدوه عهداً أن يحوطه بالوفاء ويرعى ذمته بالأمانة ويجعل نفسه جنة دون ما أعطى : أي حفظ ذلك بنفسه ولو أدى إلى ضررها ، واستعار لفظ اللبس لإدخاله في أمان الذمة ملاحظة لشبهها بالقميص ونحوه . وكذلك لفظ الجنة لنفسه ملاحظة لشبهها في الحفظ بالترس ونحوه . ورغّب في ذلك بوجهين اشتمل عليهما قوله : فإنه . إلى قوله : العذر :

أحدهما : أن الناس أشد اجتماعاً على ذلك من غيره من فرائض الله الواجبة عليهم مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم .

الثاني : أن المشركين لزموا ذلك فيما بينهم واستثقلوا الغدر لما فيه من سوء العاقبة . والمذكوران صغريا ضمير تقدير الكبرى فيهما : وكلما كان كذلك فيجب لزومه والمحافظة عليه . ثم أكد ذلك بالنهي عن الغدر في

العهـد ونقض الذمـة وخداع العـدو بمعاهـدته ثم الغـدر به ، ونفّـر عن ذلـك بوجهين :

أحـدهما : قـوله : فـإنه. إلى قـوله : الأشقى . وهـو صغـرى ضمير تلخيصهـا : فإن المجتـرىء على الله شقي ، وتقدير كبراه : ونـاقض العهـد والمدغل فيـه مجترىء على الله ، ينتج من الرابـع فالشقي هـو ناقض العهـد والمدغل فيه . ويجوز أن يكـون تقديـر الصغرى : فـإن ذلك جـرأة على الله يستلزم الشقاوة ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك وجب اجتنـابه لينتـج من الأول المطلوب .

الثـاني : قولـه : وقد جعـل . إلى قولـه : جواره . وأمنـاً : أي مـأمنـاً واستعار لفظ الحريم للعهد ، ورشح بذكر السكون إلى منعته والاستفاضة إلى جواره ، ونبه بذلك على وجه الاستعارة وهـو الاطمئنان إليـه والأمن من الفتنة بسببه فأشبه الحريم المانع ، والكلام صغرى ضمير تقديـر كبراه : وكلمـا كان كذلك فلا يجوز نقضه والإدغال فيه .

التـاسع عشـر : نهاه أن يعقـد عقـداً يجـوز فيـه العلل : أي الأحـداث المفسدة له وهو كناية عن أمره بإحكام ما يعقد من الأمور .

العشرون : نهاه أن يعتمد على لحن القول في الإيمان والعهود بعد أن يؤكدها ويتوثق من غيره فيها أو يتوثق غيره منه فيها، ومثال لحن القول ما ادّعاه طلحة والزبيـر من الوليجـة والتوريـة في بيعتهما لـه عليه السلام : أي لا تعتمد على ذلك من نفسك ولا تلتفت إليه من غير لو ادّعاه .

الحادي والعشرون : نهاه أن يدعوه ضيق أمر لزمه فيـه عهد الله إلى أن يـطلب إبطالـه بغير حق ، ورغب في الصبـر عليه بقـوله : فـإن صبرك . إلى قـوله : آخـرتك . وهـو صغـرى ضميـر ، وأراد بتبعته مـا يتبعه من العقـوبة ، وبالطلبـة ما يـطالب به يـوم القيامـة من لزوم العهـد ، وإحاطتهـا به كنـاية عن لزومها له ، وبوصف الطلبة بقوله : لا تستقبـل فيها دنيـاك ولا آخرتـك . أراد أنه لا يكون لك معها دنيا تستقبلها وتنتظر خيرهـا لعدم الـدنيا هنـاك ولا آخرة تستقبلها إذ لا يستقبل في الآخرة إلاّ الأمور الخيـرية . ومن أحـاطت به طلبتـه

من الله فلا خير له في الآخرة يستقبله .

وروى تستقيل بالياء : أي لا يكون لك من تلك الطلبة والتبعة إقالة في الدنيا ولا في الآخرة .

الثاني والعشرون : حذّره من الدخول في الدماء وسفكها بغير حق وهو كناية عن القتل ، ونفّر عنه بوجهين :

أحدهما : قوله : فإنه . إلى قوله : حقها ، وهو صغرى ضمير تقديرها : فإن سفك الدماء بغير حق أدنى الأشياء لحلول نقمة الله ، وأعظمها في لحوق التبعة منه ، وأولاها بزوال النعمة وانقطاع مدة الدولة والعمر . وظاهر أنها أقوى المعدات للأُمور الثلاثة لما يستلزمه من تطابق همم الخلق ودواعيهم على زوال القاتل واستنزال غضب الله عليه لكون القتل أعظم المصائب المنفور عنها، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر فعله .

الثاني: قوله: والله سبحانه : إلى قوله : القيامة . ونبه بابتدائه تعالى بالحكم بين العباد في القتل على أنه أعظم عنده تعالى من سائر الكبائر ، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما ابتدأ الله بالحكم فيه فيجب التحرّي فيه واجتناب ما يكره منه .

الثالث والعشرون : نهاه أن يقوي سلطانه ودولته بسفك الدم الحرام ونفّر عنه بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : وينقله . وهي صغرى ضمير بيانها ما سبق فإن سفك الدم الحرام لما استلزم الأُمور الثلاثة المذكورة كان ذلك مضعفاً للسلطان ومزيلاً له ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الرابع والعشرون : نهاه عن قتل العمد حراماًونفر عنه بأمرين :

أحدهما : أنه لا عذر فيه عند الله ولا عنده .

الثاني : أن فيه قود البدن . وهما صغريا ضمير تقدير الكبرى فيهما : وكل ما كان كذلك وجب اجتنابه .

الخامس والعشرون : نهاه أن يرتكب رذيلة الكبر عندما يبتلي بقتل خطأ أو إفراط سوطه أو يده عليه في عقوبة فيأخذه عزّة الملك والكبر على أولياء المقتول فلا يؤدي إليهم حقهم ، ونبه بقوله : فإن . إلى قوله : مقتلة . على أن الضرب باليد المسمى وكزاً قد يكون فيه القتل وهو مظنة له .

السادس والعشرون : حذّره الإعجاب بنفسه ، والثقة بما يعجبه منها ، وحب الإطراء . والأخيران سببان لدوام الإعجاب ومادة له ، ونفّر عن الثلاثة بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : المحسنين . وفي نفسه متعلق بأوثق .

وقوله : ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

يحتمل وجهين : **أحدهما** : أنه لما كان الإعجاب من الهلكات لم ينفع معه إحسان المحسن فإذا تمكن الشيطان من الفرصة وزيّن الإعجاب للإنسان وارتكبه محق لذلك ما يكون له من الإحسان .

والثاني : إن المعجب بنفسه لا يرى لأحد عنده إحساناً فيكون إعجابه ماحقاً لإحسان من أحسن إليه . ولما كان مبدأ الإعجاب هو الشيطان كان الماحق لإحسان المحسن أيضاً هو الشيطان فلذلك نسبه إليه ، والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان أوثق فرص الشيطان في نفسه وجب الاحتراز عنه .

السابع والعشرون : حذره رذائل ثلاثة :

أحدها : المنّ على الرعية بإحسانه إليهم .

الثانية : التزيد فيما فعله في حقهم وهو أن ينسب إلى نفسه من الإحسان إليهم أزيد مما فعل .

الثالثة : أن يخلف موعوده لهم . ثم نفر عن المن بقوله : فإن المنّ يبطل الإحسان ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾[1] وعن التزيد بقوله : فإن التزيد يذهب بنور

---

(١) ٢ - ٢٦٦ .

الحق . وأراد بالحق هنا الإحسان إليهم ، أو الصدق في ذكره في موضع يحتاج إليه فإن على ذلك نوراً عقلياً ترتاح له النفوس وتلتذّ به . ولما كان التزيد نوعاً من الكذب وهو رذيلة عظيمة لا جرم كان مما يذهب نور ذلك الحق ويطفيه فلا يكون له وقع في نفوس الخلق . ونفّر عن الخلف بقوله : يوجب المقت عند الله والناس : أما عند الناس فظاهر وأما عند الله فلقوله تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله** ﴾[2] الآية . والثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الثامن والعشرون : حذّره من إيقاع الأمور على أحد طرفي التفريط والإفراط فطرف الإفراط في الطلب العجلة بها قبل أوانها أو اللجاجة فيها عند تنكرها، وتغيّر وجوه مأخذها وعدم اتضاحها وتسهلها ، وطرف التفريط التساقط فيها والقعود عنها إذا أمكنت وهو يقابل العجلة فيها أو الضعف عنها إذا استوضحت وهو يقابل اللجاجة فيها عند تنكرها . واستلزم النهي عن هذين الطرفين الأمر بإيقاعها على نقطة العدل وهي الحد الأوسط من الطرفين وموضعها الحق فلذلك قال : فيضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه .

التاسع والعشرون : حذّره من الاستئثار بما يجب تساوي الناس فيه كالذي يستحسن من مال المسلمين ونحوه .

الثلاثون : وعن التغافل عما يجب العلم والعناية به من حقوق الناس المأخوذة ظلماً مما قد وضح للعيون إهمالك له . ونفر عن ذلك بقوله : التغابي . إلى قوله : للمظلوم ، وأراد ما يستأثر به من حقوق الناس ويتغافل عنها ، وما في قوله : عمّا . زائدة ، وأراد بالقليل مدة الحياة الدنيا ، وأشار بأغطية الأمور إلى الهيئات البدنية الحاجبة لحقائق الأمور من أن يدركها بصر بصيرته . وقد علمت أن انكشاف تلك الأغطية عنه بطرح بدنه وحينئذ يشاهد ما أعد له من خير أو شر كما قال تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾[2] الآية .

---

(1) ٤٠ ـ ٣٧.

(2) ٣ ـ ٢٨.

الحادي والثلاثون : أمره أن يملك حمية أنفه : أي أنفته مما يقع من الأمور المكروهة ، وسورة حدّه ، وحدة لسانه وملكه لهذه الأمور إنما يكون بالاحتراس عن تعدي قوته الغضبية ووقوفه في فعلها على حاق الوسط بحيث لا يعبر فيها إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة التهور ويلزمه في تلك الرذيلة الظلم .

الثاني والثلاثون : أمره بالاحتراس من تلك الأمور وأرشده إلى أسبابه وهو كفّ البادرة وتأخير السطوة إلى حين سكون الغضب ليحصل له بذلك الاختيار في الفعل والترك الذي عساه مصلحة ، وأشار إلى وجه إحكام تلك الأسباب بقوله : ولن تحكم ذلك . إلى قوله : عليك. وذلك أن كثرة الهم عن ذكر المعاد والفكر في أمور الآخرة ماحٍ للرغبة في الأمور الدنيوية التي هي المشاجرات وثوران الغضب .

الثالث والثلاثون : أوجب عليه أمرين فيهما جماع ما أوصاه به في هذا العهد إجمالاً :

أحدهما : أن يتذكر ما مضى لمن تقدمه من الحكومات العادلة للولاة قبله ، أو من الآثار المنقولة عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو من فرائض الله ليقتدي بما شاهد من عمله عليه السلام فيها .

الثاني : أن يجتهد لنفسه في اتباع ما عهد إليه في عهده هذا واستوثق به من الحجة لنفسه عليه وهي الموعظة والتذكير بأوامر الله لكيلا يكون له عليه حجة يحتج بها عند تسرع نفسه إلى هواها كما قال تعالى : ﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾[1]

ومن هذا العهد أيضـــاً

وَأَنَا أَسْأَلُ ٱللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ

(١) ٤ - ١٦٣ .

من الله فلا خير له في الآخرة يستقبله .

وروى تستقيل بالياء : أي لا يكون لك من تلك الطلبة والتبعة إقالة في الدنيا ولا في الآخرة .

الثاني والعشرون : حذّره من الدخول في الدماء وسفكها بغير حق وهو كناية عن القتل ، ونفّر عنه بوجهين :

أحدهما : قوله : فإنه . إلى قوله : حقها ، وهو صغرى ضمير تقديرها : فإن سفك الدماء بغير حق أدنى الأشياء لحلول نقمة الله ، وأعظمها في لحوق التبعة منه ، وأولاها بزوال النعمة وانقطاع مدة الدولة والعمر . وظاهر أنها أقوى المعدات للأمور الثلاثة لما يستلزمه من تطابق همم الخلق ودواعيهم على زوال القاتل واستنزال غضب الله عليه لكون القتل أعظم المصائب المنفور عنها، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر فعله .

الثاني: قوله: والله سبحانه : إلى قوله : القيامة . ونبه بابتدائه تعالى بالحكم بين العباد في القتل على أنه أعظم عنده تعالى من سائر الكبائر ، وهي صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل ما ابتدأ الله بالحكم فيه فيجب التحرّي فيه واجتناب ما يكره منه .

الثالث والعشرون : نهاه أن يقوي سلطانه ودولته بسفك الدم الحرام ونفّر عنه بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : وينقله . وهي صغرى ضمير بيانها ما سبق فإن سفك الدم الحرام لما استلزم الأمور الثلاثة المذكورة كان ذلك مضعفاً للسلطان ومزيلاً له ، وتقدير الكبرى : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الرابع والعشرون : نهاه عن قتل العمد حراماًونفر عنه بأمرين:

أحدهما : أنه لا عذر فيه عند الله ولا عنده .

الثاني : أن فيه قود البدن . وهما صغريا ضمير تقدير الكبرى فيهما : وكل ما كان كذلك وجب اجتنابه .

الخامس والعشرون : نهاه أن يرتكب رذيلة الكبر عندما يبتلي بقتل خطأً أو إفراط سوطه أو يده عليه في عقوبة فيأخذه عزّة الملك والكبر على أولياء المقتول فلا يؤدي إليهم حقهم ، ونبه بقوله : فإن . إلى قوله : مقتلة . على أن الضرب باليد المسمى وكزاً قد يكون فيه القتل وهو مظنة له .

السادس والعشرون : حذّره الإعجاب بنفسه ، والثقة بما يعجبه منها ، وحب الإطراء . والأخيران سببان لدوام الإعجاب ومادة له ، ونفّر عن الثلاثة بقوله : فإن ذلك . إلى قوله : المحسنين . وفي نفسه متعلق بأوثق .

وقوله : ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

يحتمل وجهين : **أحدهما** : أنه لما كان الإعجاب من الهلكات لم ينفع معه إحسان المحسن فإذا تمكن الشيطان من الفرصة وزيّن الإعجاب للإنسان وارتكبه محق لذلك ما يكون له من الإحسان .

والثاني : إن المعجب بنفسه لا يرى لأحد عنده إحساناً فيكون إعجابه ماحقاً لإحسان من أحسن إليه . ولما كان مبدأ الإعجاب هو الشيطان كان الماحق لإحسان المحسن أيضاً هو الشيطان فلذلك نسبه إليه ، والكلام في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان أوثق فرص الشيطان في نفسه وجب الاحتراز عنه .

السابع والعشرون : حذره رذائل ثلاثة :

أحدها : المنّ على الرعية بإحسانه إليهم .

الثانية : التزيد فيما فعله في حقهم وهو أن ينسب إلى نفسه من الإحسان إليهم أزيد مما فعل .

الثالثة : أن يخلف موعوده لهم . ثم نفر عن المن بقوله : فإن المنّ يبطل الإحسان ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى** ﴾[1] وعن التزيد بقوله : فإن التزيد يذهب بنور

---

(١) ٢ - ٢٦٦ .

الحق . وأراد بالحق هنا الإحسان إليهم ، أو الصدق في ذكره في موضع يحتاج إليه فإن على ذلك نوراً عقلياً ترتاح له النفوس وتلتذّ به . ولما كان التزيد نوعاً من الكذب وهو رذيلة عظيمة لا جرم كان مما يذهب نور ذلك الحق ويطفيه فلا يكون له وقع في نفوس الخلق . ونفّر عن الخلف بقوله : يوجب المقت عند الله والناس : أما عند الناس فظاهر وأما عند الله فلقوله تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله** ﴾[1] الآية . والثلاثة صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كان كذلك وجب اجتنابه .

الثامن والعشرون : حذّره من إيقاع الأمور على أحد طرفي التفريط والإفراط فطرف الإفراط في الطلب العجلة بها قبل أوانها أو اللجاجة فيها عند تنكرها، وتغيّر وجوه مأخذها وعدم اتضاحها وتسهلها ، وطرف التفريط التساقط فيها والقعود عنها إذا أمكنت وهو يقابل العجلة فيها أو الضعف عنها إذا استوضحت وهو يقابل اللجاجة فيها عند تنكرها . واستلزم النهي عن هذين الطرفين الأمر بإيقاعها على نقطة العدل وهي الحد الأوسط من الطرفين وموضعها الحق فلذلك قال : فيضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه .

التاسع والعشرون : حذّره من الاستئثار بما يجب تساوي الناس فيه كالذي يستحسن من مال المسلمين ونحوه .

الثلاثون : وعن التغافل عما يجب العلم والعناية به من حقوق الناس المأخوذة ظلماً مما قد وضح للعيون إهمالك له . ونفر عن ذلك بقوله : التغابي . إلى قوله : للمظلوم ، وأراد ما يستأثر به من حقوق الناس ويتغافل عنها ، وما في قوله : عمّا . زائدة ، وأراد بالقليل مدة الحياة الدنيا ، وأشار بأغطية الأمور إلى الهيئات البدنية الحاجبة لحقائق الأمور من أن يدركها بصر بصيرته . وقد علمت أن انكشاف تلك الأغطية عنه بطرح بدنه وحينئذ يشاهد ما أعد له من خير أو شر كما قال تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾[2] الآية .

---

(1) ٤٠ - ٣٧.
(2) ٣ - ٢٨.

الحادي والثلاثون : أمره أن يملك حمية أنفه : أي أنفته مما يقع من الأمور المكروهة ، وسورة حدّه ، وحدة لسانه وملكه لهذه الأمور إنما يكون بالاحتراس عن تعدي قوته الغضبية ووقوفه في فعلها على حاق الوسط بحيث لا يعبر فيها إلى حد الإفراط فيقع في رذيلة التهور ويلزمه في تلك الرذيلة الظلم .

الثاني والثلاثون : أمره بالاحتراس من تلك الأمور وأرشده إلى أسبابه وهو كفّ البادرة وتأخير السطوة إلى حين سكون الغضب ليحصل له بذلك الاختيار في الفعل والترك الذي عساه مصلحة ، وأشار إلى وجه إحكام تلك الأسباب بقوله : ولن تحكم ذلك . إلى قوله : عليك. وذلك أن كثرة الهم عن ذكر المعاد والفكر في أمور الآخرة ماحٍ للرغبة في الأمور الدنيوية التي هي المشاجرات وثوران الغضب .

الثالث والثلاثون : أوجب عليه أمرين فيهما جماع ما أوصاه به في هذا العهد إجمالاً :

أحدهما : أن يتذكر ما مضى لمن تقدمه من الحكومات العادلة للولاة قبله ، أو من الآثار المنقولة عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو من فرائض الله ليقتدي بما شاهد من عمله عليه السلام فيها .

الثاني : أن يجتهد لنفسه في اتباع ما عهد إليه في عهده هذا واستوثق به من الحجة لنفسه عليه وهي الموعظة والتذكير بأوامر الله لكيلا يكون له عليه حجة يحتج بها عند تسرع نفسه إلى هواها كما قال تعالى : **﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾**[1]

ومن هذا العهد أيضاً

وَأَنَا أَسْأَلُ ٱللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ

(١) ٤ - ١٦٣ .

يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ مِنَ ٱلْإِقَامَةِ عَلَى ٱلْعُذْرِ ٱلْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مَعَ حُسْنِ ٱلثَّنَاءِ فِي ٱلْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ ٱلْأَثَرِ فِي ٱلْبِلَادِ ، وَتَمَامِ ٱلنِّعْمَةِ ، وَتَضْعِيفِ ٱلْكَرَامَةِ ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَٱلشَّهَادَةِ ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وَٱلسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الطَّيِّبِين ٱلطَّاهِرِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثِيراً ، وَٱلسَّلَامُ .

أقول : ختم هذا العهد بسؤال الله أن يوفقهما لما فيه رضاه ، وأقسم عليه في إجابة سؤاله برحمته التي وسعت كل شيء وبقدرته العظيمة على إعطاء كل رغبة . وظاهر كونهما مبدءين لإجابة السائلين . ثم فصل ما سأله مما فيه رضا الله وهي أمور :

أحدها : الإقامة على العذر الواضح إلى الله وإلى خلقه .

فإن قلت : العذر إنما يكون عن ذنب فمن أقام على طاعة الله كيف يكون فعله عذراً ؟

قلت : يحتمل أن يكون العذر إسماً من الإعذار إلى الله وهو المبالغة في الإتيان بأوامره فكأنه قال : من الإقامة على المبالغة إليه في أداء أوامره .

الثاني : حسن الثناء في العباد وجميل الأثر وهو ما يؤثر من الأفعال الحميدة في البلاد ، وذلك مما سأله الأنبياء كإبراهيم عليه السلام ﴿ **واجعل لي لسان صدق في الآخرين** ﴾[1] قيل هو الذكر الجميل في الناس .

الثالث : أن يتم نعمته عليهما .

الرابع : تضعيف كرامته لهما .

الخامس : الخاتمة الحسنة بالسعادة وما يوصل إليها من الشهادة ، ونبه بقوله : إنا إليه راغبون . على صدق نيّته في سؤاله ، ثم ختم بالسلام على رسول الله والصلاة عليه وآله .

---

(١) ٢٦ - ٨٤.

٥٣ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلى طلحة والزبير، مع عمران بن الحصين الخزاعي ذكره أبو جعفر الإسكافي في كتاب (المقامات) في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام:

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ عَلِمْتُمَا ـ وَإِنْ كَتَمْتُمَا ـ أَنِّي لَمْ أُرِدِ ٱلنَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي ، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي ، وَإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ ٱلْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ ، وَلَا لِعَرَضٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ ، فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا ٱلسَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا ٱلطَّاعَةَ ، وَإِسْرَارِكُمَا ٱلْمَعْصِيَةَ ، وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ ٱلْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَٱلْكِتْمَانِ ، وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هٰذَا ٱلْأَمْرَ ، [مِنْ] قَبْلِ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ ، كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا ، مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ ، بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يَلْزَمُ كُلُّ آمْرِىءٍ بِقَدْرِ مَا آحْتَمَلَ . فَارْجِعَا أَيُّهَا ٱلشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ! فَإِنَّ ٱلْآنَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا ٱلْعَارُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ ٱلْعَارُ وَٱلنَّارُ ، وَٱلسَّلَامُ .

أقول : خزاعة قبيلة من الأزد . وقيل : الإسكافي منسوب إلى إسكاف رستاق كبير كان بين النهروان والبصرة . وكتاب المقامات : الذي صنفه الشيخ المذكور في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام وقد احتج عليه السلام عليهما في نكث بيعته بحجّتين :

إحديهما : قوله : أما بعد . إلى قوله : حاضر. وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من علمتما من حاله ذلك فليس لكما أن تنكثا بيعته وتخرجا عليه .

وقوله : وإن كتمتما .

إشارة إلى أنهما بعد نكث بيعته كتما إرادتهما لبيعته وإرادة كثير من الناس وزعما أنه إنما حملهما عليها كرهاً .

الحجة الثانية قوله : فإن كنتما . إلى قوله : إقراركما به وهي شرطي منفصل تقديرها : إنه لا يخلو إما أن تكونوا بايعتماني طائعين أو كارهين .

والأول هو المطلوب . ويلزمكما ارتكاب المعصية والرجوع إلى الله بالتوبة إلى الله من قريب قبل استحكام المعصية في نفسيكما.

والثاني : باطل من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يلزمكما النفاق حيث أظهرتما لي الطاعة وأضمرتما المعصية فجعلتما بذلك السبيل عليكما في القول والفعل .

الثاني : أنكما ما كنتما بالتقية مني والكتمان لعصيانكما أحق من المهاجرين وذلك لأنهما كانا أقوى الجماعة وأعظمهم شأناً فكان غيرهما من المهاجرين أولى منهما بالتقية عند البيعة ونكثهما بعد ذلك .

الثالث : إن دفعهما لبيعته قبل الدخول فيها أوسع لعذرهما من خروجهما منها بعد إقرارهما . وهذه الأقوال الثلاثة صغريات ضمير تقدير الكبرى في الأول : وكل ما جعلتما لي عليكما به السبيل فيحرم عليكما فعله وليس لكما أن تدّعياه ، وفي الثاني : وكل من لا يكون أحق من المهاجرين بدعواه فليس له أن يدعيه إذا لم يدعوه ، وفي الثالث : وكلما كان أوسع لعذرهما فليس لهما العدول عنه إلى ما هو أضيق .

وقوله : وقد زعمتما أني قتلت عثمان .

إشارة : إلى شبهتهما المشهورة في خروجهما عليه .

وقوله : فبيني : إلى قوله : احتمل .

جوابها : أي الحكم إلى من تخلّف عن نصرتي ونصرتكما من أهل المدينة ثم يلزم كل منّا من اللائمة والعقوبة بقدر ما احتمل من الإثم والبغي . ثم بعد أن أقام الحجة عليهما أمرهما بالرجوع عن رأيهما الفاسد في اختيارهما لبيعته ورغّب في الرجوع عن ذلك . بقوله : فإن الآن . إلى آخره، وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : والعار أسهل من اجتماع العار والنار

في الآخرة . وأراد بالعار العار بالعذر . والآن ظرف انتصب بأعظم الذي هو اسم إن ، ويجوز أن يكون هو اسمها وأعظم مبتدأ خبره العار ـ والجملة خبر إن والعائد إلى اسمها محذوف تقديره : فإن الآن أعظم أمركما فيه العار.

٥٤ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)
إِلى مُعَاوِيَـــةَ

أَمَّا بَعْدُ : فَـإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَـهُ قَدْ جَعَـلَ ٱلدُّنْيَـا لِمَا بَعْـدَهَا ، وَٱبْتَلَى فِيهَـا أَهْلَهَـا ، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَلَسْنَـا لِلدُّنْيَـا خُلِقْنَـا ، وَلاَ بِـالسَّعْيِ فِيهَـا أُمِرْنَا ، وَإِنَّمَا وُضِعْنَا فِيهَـا لِنُبْتَلَى بِهَا ، وَقَـدِ ٱبْتَلاَنِي ٱللَّهُ بِـكَ ، وَٱبْتَلاَكَ بِي ، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الآخَرِ ، فَعَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ ٱلـدُّنْيَا بِتَـأْوِيلِ ٱلْقُـرْآنِ ، فَـطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَـدِي ، وَلاَ لِسَانِي ، وَعَصَبْتَـهُ أَنْتَ وَأَهْـلُ ٱلشَّامِ بِي ، وَأَلَّبَ عَالِمُكُمْ جَاهِلَكُمْ ، وَقَـائِمُكُمْ قَاعِـدَكُمْ ، فَاتَّقِ ٱللَّهَ فِي نَفْسِـكَ ، وَنَازِعِ ٱلشَّيْـطَانَ قِيَادَكَ ، وَٱصْـرِفْ إِلَى ٱلآخِرَةِ وَجْهَـكَ ، فَهِيَ طَـرِيقُنَـا وَطَـرِيقُـكَ ، وَٱحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ ٱللَّهُ مِنْهُ بِعَـاجِلِ قَارِعَـةٍ تَمَسُّ ٱلأَصْلَ ، وَتَقْـطَعُ ٱلدَّابِـرَ ، فَإِنِّي أُولِي لَكَ بِاللَّهِ أَلِيَّةً غَيْـرَ فَاجِـرَةٍ ، لَئِنْ جَمَعَتْنِي وَإِيَّاكَ جَـوَامِعُ ٱلأَقْـدَارِ لاَ أَزَالُ بِبَاحَتِكَ ﴿ **حَتَّى يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ** ﴾ .

أقـول : عصبه بـه : علقه بـه . والتـأليب : التحـريض . والقـارعـة : الداهية . والدابر المتأخر من النسل. والألية : اليمين .

فقوله : أما بعد : إلى قوله : لنبتلي بها .

إشارة إلى غرض الدنيا وغايتها ليتنبّـه لذلـك ويعمل لـه ، وأراد بالسعي فيها الذي لم يؤمر به اكتسابها لها ، دون غيره ممـا يكون للضـرورة فإن ذلـك مأمور به في قوله تعالى : ﴿ **فامشوا في مناكبها وكلوامن رزقه** ﴾[1].

وقوله : وقد ابتلاني : إلى قوله : الآخر .

---

(١) ٦٧ ـ ١٥.

تعيين لبعض أغراضها ، وقد علمت كيفية ابتلائه بخلقه فيما قبل ووجه ابتلائه عليه السلام بمعاوية عصيانه ومحاربته إيّاه حتى لو قصّر في مقاومته ولم يقم في وجهه كان ملوماً وكان معاوية حجة الله عليه ، ووجه ابتلاء معاوية به عليه السلام دعوته له إلى الحق وتحذيره إيّاه من عواقب المعصية حتى إذا لم يجب داعي الله لحقه الذم والعقاب وكان عليه السلام هو حجة الله عليه . وذلك معنى قوله : فجعل أحدنا حجة على الآخر .

وقوله : فعدوت . إلى قوله : قاعدكم .

إشارة إلى بعض وجوه ابتلائه عليه السلام به، ومعنى ذلك أنه إنما طلب بخروجه عليه الدنيا وجعل السبب إلى ذلك تأويل القرآن كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى** ﴾[1] وغيره من الآيات الدالة على وجوب القصاص فتأولها بإدخال نفسه فيها وطلب القصاص لعثمان ، وإنما كان دخوله في ذلك بالتأويل لأن الخطاب خاص بمن قتل وقتل منه . ومعاوية بمعزل عن ذلك إذ لم يكن من أولياء دم عثمان ففسر الآية بالعموم ليدخل فيها. والذي لم تجنه يده ولسانه عليه السلام هو ما نسبوه إليه عليه السلام وألب بعضهم بعضاً عليه فيه وهو قتل عثمان . وأراد ألب عليكم عالمكم بحالي جاهلكم به وقائمكم في حربي قاعدكم عنه .

ثم لما نبه على غاية الدنيا وجعل الله سبحانه كلًّا منهما حجة على الآخر ليعلم أيهم أحسن عملاً رجع إلى موعظته وتحذيره فأمره بتقوى الله في نفسه أن يهلكها بعصيانه ومخالفة أمره . وأن ينازع الشيطان قياده . واستعار لفظ القياد للميول الطبيعية ووجه الاستعارة كونها زمام الإنسان إلى المعصية إذا سلّمها بيد الشيطان وانهمك بها في اللذات الموبقة . ومنازعته للشيطان مقاومته لنفسه الأمارة عن طرف الإفراط إلى حاق الوسط في الشهوة والغضب ، وأن يصرف إلى الآخرة وجهه : أي يولي وجهه شطر الآخرة مطالعاً ما أُعد فيها من خير وشر وسعادة وشقاوة بعين بصيرته ليعمل بها .

---

(١) ٢ - ١٧٣ .

وقوله : فهي طريقنا وطريقك .

صغرى ضمير نبه به على وجوب صرف وجهه إلى الآخرة ، وتقدير كبراه : وكلما كان طريق الإنسان فواجب أن يصرف إليها وجهه . وجعلها طريقاً مجازاً عن غاية الطريق إطلاقاً لاسم ذي الغاية عليها . ثم حذره من الله أن يصيبه بداهية يصيب أصله ويقطع نسله ، وأراد بها ما نهاه من نهوضه إليه وحربه إياه ولذلك أقسم على تقدير أن يجمعهما جوامع الأقدار أن لا يزال بباحته مقيماً حتى يحكم الله بينهما ، وفي ذلك غليظ الوعد بعذاب شديد .

٥٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَصَّى بِهَا شُرَيْحَ بْنَ هَانِىءٍ لَمَّا جَعَلَهُ عَلَى مُقَدِّمَته إِلَى ٱلشَّام

إِتَّقِ ٱللَّهَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ ٱلدُّنْيَا ٱلْغَرُورَ ، وَلاَ تَأْمَنْهَا عَلَى حَالٍ ، وَٱعْلَمْ إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهٍ ، سَمَتْ بِكَ ٱلْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً ، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ ٱلْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً .

أقول : قد ذكرنا طرفاً من حال إنفاذه لشريح بن هاني مع زياد ابن النضير على مقدمته بالشام في إثني عشر ألفاً . والنزوة : الوثبة . والحفيظة : الغضب . والواقم : الذي يرد الشيء أقبح الرد ، يقال : وقمه : أي رده بعنف وبقهر ، والوقم : القهر والإذلال ، وكذلك القمع .

وقد أمره بتقوى الله دائماً ، ولما كانت تستلزم الأعمال الجميلة أردف ذلك بتفصيلها وهي أن يحذر على نفسه الدنيا،ونسب الغرور اليها لأنها سبب مادي له، وأن لا يأمنها على حال لما تستلزم ذلك من الغفلة عن الآخرة. ثم أعلمه أنه إن لم يردع نفسه الأمارة بالسوء عن الانهماك في كثير من مشتهياتها التي يخاف مكروهها في العاقبة ويقف بها عند حدود الله ويسلك بها صراطه المستقيم لم يزل يسمو به هواها وميولها حتى توره موارد الهلكة. ثم أكد وصيته بمنعها وقهرها عند نزواتها وتوثبها في الغضب . وقد عرفت أن إهمالها مبدأ كل شر يلحق في الدنيا والآخرة .

٥٦ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ عِنْدَ مَسِيرِهِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ إِلَى ٱلْبَصْرَةِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هٰذَا إِمَّا ظَالِماً ، وَإِمَّا مَظْلُوماً ، وَإِمَّا بَاغِياً ، وَإِمَّا مَبْغِيّاً عَلَيْهِ ، وَإِنِّي أُذَكِّرُ ٱللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هٰذَا لَمَا نَفَرَ إِلَيَّ ، فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِناً أَعَانَنِي ، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئاً ٱسْتَعْتَبَنِي .

أقول : غرض الكتاب إعلام أهل الكوفة بخروجه من المدينة لقتال أهل البصرة واستنفارهم إليه ، وقد مر مثل ذلك ، وحيّه : قبيلته.

وقوله : إما ظالماً . إلى قوله : عليه .

من باب تجاهل العارف ، ولأن القضية لم تكن بعد ظهرت لأهل الكوفة وغيرهم ليعرفوا هل هو مظلوم أو غيره . ولذلك ذكرهم لينفروا إليه فيحكموا بينه وبين خصومه فيعينوه أو يطلبوا منه العتبى وهي الرجوع إلى الحق . و ـ أُذكر ـ يتعدى إلى مفعول أول هو المذكر ، وثان هو المذكر به وهو الله تعالى . وقد قدمه لكونه هو المقصود من التذكير . و ـ لما ـ مشددة بمعنى إلاّ ، ومخفّفة هي ما زائدة دخل عليها لام التأكيد : أي لينفرنّ إليّ . وبالله التوفيق .

٥٧ ـ ومن كتاب له عليه السلام

كَتَبَهُ إِلَى أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ يقصّ فِيهِ مَاجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ صِفِّينَ

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا ٱلْتَقَيْنَا وَٱلْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّامِ ، وَٱلظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ ، وَدَعْوَتَنَا فِي ٱلْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ ، لَا نَسْتَزِيدُهُمْ فِي ٱلْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَٱلتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ ، وَلَا يَسْتَزِيدُونَنَا : ٱلْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا ٱخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ ، فَقُلْنَا : تَعَالَوْا نُدَاوِ مَا لَا يُدْرَكُ ٱلْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ ٱلنَّائِرَةِ ، وَتَسْكِينِ ٱلْعَامَّةِ ، حَتَّى يَشْتَدَّ ٱلْأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ ٱلْحَقِّ مَوَاضِعَهُ ، فَقَالُوا : بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ ، فَأَبَوْا حَتَّى جَنَحَتِ ٱلْحَرْبُ ، وَرَكَدَتْ ، وَوَقَدَتْ نِيرَانُهَا ، وَحَمِسَتْ ، فَلَمَّا ضَرَّسَتْنَا وَإِيَّاهُمْ ، وَوَضَعَتْ

مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ ، أَجَابُوا عِنْدَ ذٰلِكَ إِلَى ٱلَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا ، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، حَتَّى ٱسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْحُجَّةُ ، وَٱنْقَطَعَتْ مِنْهُمُ ٱلْمَعْذِرَةُ ، فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذٰلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ ٱلَّذِي أَنْقَذَهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْهَلَكَةِ ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ ٱلرَّاكِسُ ٱلَّذِي رَانَ ٱللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ عَلَى رَأْسِهِ .

أقول : وبدء الأمر : أوله . ويروى : بديء فعيل بمعنى مبتدأ . والنائرة : العداوة . وجنحت : مالت . وركدت : ثبتت . وحمست : اشتدت . وروي بالشين المعجمة : أي التهبت غضباً . وأنقذه خلصه . والتمادي في الشي : الإقامة عليه وطلب الغاية فيه . والركس : رد الشيء مقلوباً . والله أركسهم : أي ردّهم إلى عقوبة كفرهم والرين : التغطية . والدائرة : الهزيمة ، يقال : عليهم الدائرة ، ويؤكد شنعتها بالإضافة إلى السوء .

والفصل من حكاية حاله مع أهل الشام وحالهم . والقوم عطف على الضمير في التقينا وفي قوله : والظاهر إيماء الى تهمته لهم بضد ذلك كما صرح به هو وعمّار في صفين فإنه كان يقول : والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر فلما وجدوا عليه أعواناً أظهروه . والواو للحال .

وقوله : لا نستزيدهم .

أي لا نطلب منهم زيادة في الإيمان لتمامه منهم في الظاهر . وقد بيّن في حكاية الحال الاتحاد الذي بينهم في الأمور المذكورة التي لا يجوز الاختلاف معها ليظهر الحجة واستثنى من ذلك ما وقع الاختلاف فيه وهي الشبهة بدم عثمان والجواب عنها إجمالاً . ثم حكى وجه الرأي الأصلح في نظام أمر الإسلام وسلامة أهله وشوره عليهم وإبائهم عن قبوله إلى الغاية المذكورة . والباء في قوله : بإطفاء النائرة متعلق بقوله : نداوي ما لا يدرك : أي ما لا يمكن تلافيه بعد وقوع الحرب ولا يستدرك من القتل وهلاك المسلمين .

وقوله : فقالوا : بل نداويه بالمكابرة .

حكاية قولهم بلسان حالهم حين دعاهم إلى نظام أمر الدين بالرجوع عمّا هم عليه فكابروه وأصرّوا على الحرب ، وتجوز باسم الجنوح إطلاقاً لاسم المضاف على المضاف إليه ، واستعار لفظ النيران للحركات في الحرب لمشابهتهما في استلزام الأذى والهلاك ، ورشّح بذكر الوقد ، وكذلك لفظ الحمس والتضريس ووضع المخالب . ثم حكى إجابتهم ورجوعهم إلى رأيه الذي رآه لهم ، وذلك أنهم صبيحة ليلة الهرير حين حملوا المصاحف على الأرماح كانوا يقولون لأصحابه عليه السلام : معاشر المسلمين نحن إخوانكم في الدين الله الله في البنات والنساء . كما حكيناه أولاً . وذلك عين ما كان يذكرهم به (ع) من حفظ دماء المسلمين وذريتهم ، وأما إجابته الى ما دعوا فإجابته الى تحكيم كتاب الله حين دعوا اليه وظهور الحجة عليهم برجوعهم الى عين ما كان يدعوهم اليه من حقن الدماء ، وفي ذلك انقطاع عذرهم في المطالبة بدم عثمان إذا كان سكوتهم عن دم صحابي لا حق لهم فيه اسهل من سفك دماء سبعين الفاً من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان .

وقوله : فمن تم على ذلك . أي على الرضاء بالصلح وتحكيم كتاب الله وهم أكثر أهل الشام وأكثر أصحابه عليه السلام . والذين لجوّا في التمادي فهم الخوارج الذين لجّوا في الحرب واعتزلوه عليه السلام بسبب التحكيم وكانت قلوبهم في أغشية من الشبهات الباطلة حتى صارت دائرة السوء على رؤوسهم فقتلوا إلاّ أقلهم .

٥٨ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى ٱلْأَسْوَدِ بْنِ قَطِيبَةَ صَاحِبِ حُلْوَانَ[٢]

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱلْوَالِيَ إِذَا ٱخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذٰلِكَ كَثِيراً مِنَ ٱلْعَدْلِ ، فَلْيَكُنْ أَمْرُ ٱلنَّاسِ عِنْدَكَ فِي ٱلْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ٱلْجَوْرِ عِوَضٌ مِنَ ٱلْعَدْلِ ، فَاجْتَنِبْ مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَٱبْتَذِلْ نَفْسَكَ فِيمَا ٱفْتَرَضَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ،

رَاجِياً ثَوَابَهُ ، وَمُتَخَوِّفاً عِقَابَهُ .

وَٱعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرْغَتُهُ عَلَيْـهِ حَسْرَةً يَـوْمَ ٱلْقِيَامَـةِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيَـكَ عَنِ ٱلْحَقِّ شَيْءٌ أَبَداً ، وَمِنَ ٱلْحَقِّ عَلَيْكَ : حِفْظُ نَفْسِكَ ، وَٱلْإِحْتِسَابُ عَلَى ٱلرَّعِيَّـةِ بِجُهْدِكَ ، فَـإِنَّ ٱلَّذِي يَصِـلُ إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَصِلُ بِكَ ، وَٱلسَّلَامُ .

أقول : في الفصل لطائف :

أحدها : أنه نبهه على وجوب ترك تنويع الأهـوية والإعـراض عن اتباع مختلفاتها بما يستلزمه من المفسدة وهي الامتناع عن كثيـر من العدل، ووجـه الاستلزام ظاهر لأن اتباع الأهوية المختلفة يوجب الانحراف عن حـاق الوسط في المطالب ، ولما نبهه على مفسدة الجـور أمره ببسط العـدل والتسويـة بين الخلق في الحق. ثم نبـه على فضيلته بضميـر صغراه قـوله: فـإنه إلى قـوله: العدل وتقديـرها: فـإن العدل ليس في الجـور عوض عنـه، وتقديـر الكبرى: وكل ما لم يكن في الجور عوض عنه فيجب لزومه واتباعه.

الثانية : لمـا كان اتبـاع مختلف الأهويـة مما ينكـر مثله عند وقـوعه في حقه أو حق من يلزمه أمره كالأذى اللاحق له مثلاً أمره باجتنابه وأن لا يقع منـه في غيره ما يكره وقوع مثله في حقه . والعبارة وافيـة بهذا المعنى ، والغـرض التنفير عنه .

الثالثة : أمره بعد ذلك أن يبذل نفسه فيما افترض الله عليه حالتي رجائه لثوابه وخوفه من عقابه لكونهما داعي العمل .

الرابعة : نبهـه على أن الدنيـا دار ابتـلاء بـالعمـل كمـا قـال تعـالى : ﴿ **الـذي خلق المـوت والحيـاة ليبلوكم أيّكم أحسن عمـلاً** ﴾[1]. ولمـا كـان العمل الصالح فيها هو سبب الاستعداد للسعادة الباقية لا جرم كـان الفراغ من العمل فيها تركاً لسبب سعادة لا يحصل يوم القيامة إلاَّ به فكان من لوازم فرغته

(١) ٦٧ ـ ٢.

منه في الدنيا الحسرة على ثمرته يوم القيامة .

الخامسة : نبهه على ضرورته إلى عمل الحق بأنه لا يغنيه عنه شيء غيره لأن كل ما عدا الحق باطل والباطل سبب للفقر في الآخرة فلا يفيد غنى .

السادسة : نبّهه على أن من الحقوق الواجبة عليه حفظ نفسه : أي من زلّة القدم عن الصراط المستقيم والوقوع في سواء الجحيم ، ثم الاحتساب على رعيته بجهده وطاقته ، والأخذ على أيديهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقدم حفظ النفس لأنه الأهم ، ونبه على وجوب الأمرين بقوله : فإن الذي إلى آخره وأراد أن الذي يصل إلى نفسك من الكمالات والثواب اللازم عنها في الآخرة بسبب لزومك للأمرين المذكورين أفضل مما يصل بعدلك وإحسانك إلى الخلق من النفع ودفع الضرر ، وبالله التوفيق .

٥٩ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلَى ٱلْعُمَّالِ ٱلَّذِينَ يَطَأُ ٱلْجَيْشُ عَمَلَهُمْ[٢]

مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إلَى مَنْ مَرَّ بِهِ ٱلْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ ٱلْخَرَاجِ ، وَعُمَّالِ ٱلْبِلَادِ .

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ سَيَّرْتُ جُنُوداً هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إنْ شَاءَ ٱللَّهُ ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ بِمَا يَجِبُ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ ٱلْأَذَى ، وَصَرْفِ ٱلشَّذَى . وَأَنَا أَبْرَأُ إلَيْكُمْ وَإلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ ٱلجَيْشِ ، إلَّا مِنْ جَوْعَةِ ٱلْمُضْطَرِّ لَا يَجِدُ عَنْهَا مَذْهَباً إلَى شِبَعِهِ ، فَنَكِّلُوا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ شَيْئاً ظُلْماً عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ عَنْ مُضَارَّتِهِمْ ، وَٱلتَّعَرُّضِ لَهُمْ فِيمَا ٱسْتَثْنَيْنَاهُ مِنْهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِ ٱلْجَيْشِ فَٱرْفَعُوا إلَيَّ مَظَالِمَكُمْ ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ إلَّا بِاللَّهِ وَبِي ، فَأَنَا أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ ٱللَّهِ ، إنْ شَاءَ الله .

أقول : الشذى : الأذى . ومعرّة الجيش : المضرة الواصلة منه ، وعرّه معرّة : أي ساءه . ونكل ينكل بالضم : جبن . ونكّلوا : خوّفوا ، وجبّنوا .

وعراه الأمر : غشيه .

وحاصل الكتاب إعلام من على طريق الجيش من الجباة وعمّال البلاد بمسيره عليهم ليتنبّهوا ويحترزوا منه ، ثم وصية الجيش بما ينبغي لهم ويجب لله عليهم من كف الأذى عمن يمرّون به ليعرفوا عموم عدله ويتأدبوا بآدابه ، ثم إعلامهم أنه بريء إليهم وإلى ذمتهم التي أخذها منهم من إساءة الجيش فإنه ليس بأمره من ذلك إلاّ معرة جوعة المضطر التي لا يجد عنها إلى شبعه مذهباً . وتقدير الكلام : فإني أبرأ إليكم من معرة الجيش إلاّ من معرة جوعة المضطر منهم فأقام المضاف إليه مقام المضاف أو أطلقه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . ثم أمرهم أن يخوفوا ويجبّنوا من تناول من الجيش شيئاً عن ظلمه ويدفعوه الدفع الممكن لهم لئلا يكون بسطوتهم خراب الأعمال ، ثم أن يكفوا أيدي سفهائهم عن مضارتهم والتعرض لهم فيما استثناه من المعرة الضرورية لئلا يثور بذلك الفتنة بينهم وبين الجيش . ثم أعلمهم أنه بين أظهر الجيش كناية عن كونه مرجع أمرهم ليدفعوا إليه مظالمهم وما غشيهم من أمر يغلب عليهم من الجيش لا يطيقون دفعه إلاّ بالله وبه فيغيّره بمعونة الله وخشيته .

٦٠ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى (كُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ ٱلنَّخَعِيِّ) وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى (هيت) يُنْكِرُ عَلَيْهِ تَرْكَهُ دَفْعَ مَنْ يَجْتَازُ بِهِ مِنْ جَيْشِ ٱلْعَدُوِّ طَالِباً ٱلْغَارَةَ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ تَضْيِيعَ ٱلْمَرْءِ مَا وُلِّيَ ، وَتَكَلُّفَهُ مَا كُفِيَ ، لَعَجْزٌ حَاضِرٌ ، وَرَأْيٌ مُتَبَّرٌ ، وَإِنَّ تَعَاطِيكَ ٱلْغَارَةَ عَلَى أَهْلِ قِرْقِيسِيَا، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِحَكَ ٱلَّتِي وَلَّيْنَاكَ ، لَيْسَ بِهَا مَنْ يَمْنَعُهَا ، وَلَا يَرُدُّ ٱلْجَيْشَ عَنْهَا ، لَرَأْيٌ شَعَاعٌ ، فَقَدْ صِرْتَ جِسْراً لِمَنْ أَرَادَ ٱلْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ ، غَيْرَ شَدِيدِ ٱلْمَنْكِبِ وَلَا مَهِيبِ ٱلْجَانِبِ ، وَلَا سَادٍّ ثُغْرَةً ، وَلَا كَاسِرٍ شَوْكَةً ، وَلَا مُغْنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ ، وَلَا مُجْزٍ عَنْ أَمِيرِهِ وَالسَّلَامُ .

أقول : المتبّر : الهالك والفاسد . والشعاع : المتفرق .

وقوله : أما بعد . إلى قوله : متبّر .

اعلم أن في صدر الكتاب إجمالاً كما جرت عادة الخطيب ما يريد أن يوبخه عليه من تعاطيه أمراً مع إهماله ما هو أهم منه . ثم ذكر غرضه من الكتاب مفصلاً بقوله : وإن تعاطيك . إلى قوله : شعاع . ثم نفره عن ذلك الرأي بما فيه من المفاسد والرذائل :

أحدهما : كونه جسراً . واستعار لفظ الجسر له باعتبار عبور العدو عليه إلى غرضه ، وروي : حسراً . وهو أيضاً مجاز باعتبار خلو مسالحه عن العسكر الذي يبغي به العدو فهو كالحاسر عديم اللامة .

الثاني : كونه غير شديد المنكب ، وكنّى بذلك عن ضعفه ، وكذلك كونه غير مهيب الجانب .

الثالث : كونه غير ساد ثغرة .

الرابع : ولا كاسر شوكة عدوه .

والخامس : ولا مغن عن أهل مصره في دفع عدوّهم .

السادس : ولا مجز عن أميره فيما يريده منه .

٦١ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى أَهْلِ مِصْرَ مَعَ مَالِكٍ الأَشْتَرِ لَمَّا وَلاَّهُ إِمَارَتَهَا

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ ، وَمُهَيْمِناً عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ، فَلَمَّا مَضَى عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ تَنَازَعَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوَٱللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ، وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِي ، أَنَّ ٱلْعَرَبَ تُزْعِجُ هٰذَا ٱلأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلاَ أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ ٱنْثِيَالُ ٱلنَّاسِ عَلَى فُلاَنٍ يُبَايِعُونَهُ ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ ٱلنَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ

ٱلْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ ٱلْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً ، أَوْ هَدْماً ، تَكُونُ ٱلْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلَايَتِكُمْ ٱلَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلَائِلَ ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ ٱلسَّرَابُ ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ ٱلسَّحَابُ ، فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ ٱلْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ ٱلْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَٱطْمَأَنَّ ٱلدِّينُ وَتَنَهْنَهَ .

وَمِنْهُ : إِنِّي وَٱللَّهِ لَوْ لَقِيتُهُمْ وَاحِداً وَهُمْ طِلَاعُ ٱلْأَرْضِ كُلِّهَا ، مَا بَالَيْتُ وَلَا ٱسْتَوْحَشْتُ ، وَإِنِّي مِنْ ضَلَالِهِمُ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ ، وَٱلْهُدَى ٱلَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي ، وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ ٱللَّهِ لَمُشْتَاقٌ، وَحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ ، وَلٰكِنَّنِي آسىٰ أَنْ يَلِيَ أَمْرَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ ٱللَّهِ دُوَلاً ، وَعِبَادَهُ خَوَلاً ، وَٱلصَّالِحِينَ حَرْباً ، وَٱلْفَاسِقِينَ حِزْباً ، فَإِنَّ مِنْهُمُ ٱلَّذِي [قَدْ] شَرِبَ فِيكُمُ ٱلْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدّاً فِي ٱلْإِسْلَامِ ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ ٱلرَّضَائِخُ ، فَلَوْلَا ذٰلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيبَكُمْ ، وَتَأْنِيبَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيضَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَنَيْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدِ ٱنْتَقَصَتْ ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدِ ٱفْتُتِحَتْ ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تُزْوَى ، وَإِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى ، أَنْفِرُوا ـ رَحِمَكُمُ ٱللَّهُ ـ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَثَّاقَلُوا إِلَى ٱلْأَرْضِ فَتُقِرُّوا بِٱلْخَسْفِ ، وَتَبُوءُوا بِٱلذُّلِّ ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمُ ٱلْأَخَسَّ ، وَإِنَّ أَخَا ٱلْحَرْبِ ٱلْأَرِقُ ، وَمَنْ نَامَ لَمْ يُنَمْ عَنْهُ ، وَٱلسَّلَامُ .

أقول : المهيمن : الشاهد . والروع : القلب . والانثيال : الانصباب . وراح : ذهب . وزهق : زال واضمحلّ . وتنهنه : اتسع . وطلاع الأرض : ملاؤها . وآسى : أحزن . والدولة في المال ـ بالضم ـ : أن يكون مرة لهذا ومرة لذلك . والخول : العبيد. والرضخ ؛ الرشوة ، وأصله الرمي . والتأليب : التحريض . والتأنيب : اللوم . والونى : الضعف .

وتزوى : تقبض . وتبوءوا : ترجعوا . والخسف : النقيصة .

وصدره باقتصاص حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار كونه نـذيراً للعـالمين بعقاب أليم ، وشـاهداً على المرسلين بكونهم مبعـوثين ومصدقـاً لهم في ذلك . ثم اقتصـاص حال المسلمين بعـده في تنازع أمـر الخلافـة متدرجـاً من ذلك إلى شرح حاله معهم في معرض الشكاية من إزاحة أمر الخلافة عنه مع كـونه أحق بها وانصبابهم على بيعة فلان ـ وهو كناية عن أبي بكر ـ وإمساك يده عن القيام في ذلك والطلب للأمر إلى غاية ارتـداد الناس في زمن أبي بكـر عن الإسلام وطمعهم في محق الدين . ثم شرح حـاله من الخـوف على الإسلام وأهله أن ينثلم أو ينهـدم فتكون المصيبـة عليه في هـدم أصـل الـدين أعـظم من فـوت الولاية القصيرة الأمد التي غايتها إصلاح فروع الدين ومتمّماته . وشبه زوالهـا بزوال السراب وتقشع السحاب ، ووجـه الشبه سـرعة الـزوال وكونهـا لا أصل لثبـاتها كمـا لا ثبات لحقيقـة السراب ووجـود السحاب ، وقـدم ذكر الارتـداد لغرض بيان فضيلتـه في الإسلام ، ولـذلك عقبـه باقتصـاص حال نهـوضه في تلك الأحداث التي وقعت من العرب إلى غاية زهوق الباطـل واستقرار الـدين وانتشـاره . ثم أقسم أنه لـو لقيهم وحده وهم ملء الأرض لم يكترث بهم ولم يستوحش منهم لأمرين :

أحدهما : علمه اليقين بأنهم على الضلال وأنه على الهدى .

الثاني : اشتياقـه إلى لقاء ربـه وانتظاره ورجـاؤه لثوابـه . وهما يجـريان مجرى ضميرين تقدير كبراهما : وكل من كان كذلك فلا يباليهم ولا يستوحش منهم .

وقوله : ولكنني آسى .

يجـري مجرى جـواب سؤال مقـدر كـأنـه قيـل : فـإذا كنت تعلم أنـك وإياهم على الحالين المذكورين فلم تحـزن من فعلهم ؟ فكأنـه قال : إني لا أحزن من لقائهم وحربهم ولكن أحزن أن تلي أمّة محمد سفهاؤها وفجّـارها . إلى قوله : حرباً ، وعنى بالسفهاء بني أمية وأشياعهم . ثم نبه على أنهم مظنة أن يفعلوا ذلك لو ولّوا هذا الأمر بقوله : فإنّ منهم .

إلى قوله : الرضائخ . والذي شرب منهم في المسلمين الحرام إشارة إلى المغيرة بن شعبة لما شرب الخمر في عهد عمر حين كان والياً من قبله على الكوفة فصلّى بالناس سكران وزاد في الركعات وقاء الخمر فشهدوا عليه وجلد الحد ، وكذلك عنبسة [عتبة] ابن أبي سفيان جلده في الخمر خالد ابن عبيدالله بالطائف ، والذي لم يسلم حتى رضخت له الرضائخ قيل : هو أبو سفيان وابنه معاوية وذلك أنهما كانا من المؤلفة قلوبهم الذين يستمالون إلى الدين وجهاد عدوه بالعطاء . وقيل : هو عمرو بن العاص ولم يشتهر عنه مثل ذلك إلّا ما حكاه عليه السلام عنه من اشتراطه على معاوية طعمة مصر في مساعدته بصفين. كما مرّ ذكره . ثم نبههم على أن ما ذكره من الأسى هو السبب التام لتوبيخهم وتحريضهم على الجهاد ، ولولا ذلك لتركهم إذ أبوا وضعفوا . ثم نبههم على فعل عدوّهم بهم وافتتاحه لأمصارهم وغرورهم ليستثير بذلك حمية طباعهم . ولذلك أمرهم بعده بالنفور إلى قتال عدوهم ، ونهاهم عن التثاقل في ذلك ونفّرهم عنه بما يلزمه من الإقرار بالخسف والرجوع إلى الذل وخسة النصيب . ثم نبههم على من يكون أهلاً للحرب وهو الأرق ، وكنّى به عن كبير الهمة . إذ كان من لوازمه قلة النوم ونفّرهم عن ضعف الهمة والتواني في الجهاد بما يلزم ذلك من طمع العدو فيهم بسكوتهم عنه ، والرقدة عن مقاومته .

٦٢ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى أَبِي مُوسَى ٱلْأَشْعَرِيِّ ، وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى ٱلْكُوفَةِ ، وَقَدْ بَلَغَهُ عَنْهُ تَثْبِيطُهُ ٱلنَّاسَ عَنِ ٱلْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، لَمَّا نَدَبَهُمْ لِحَرْبِ أَصْحَابِ ٱلْجَمَلِ

مِنْ عَبدِ اللهِ عَلِيٍّ أمير المُؤمِنينَ إلى عَبد الله بْنِ قَيْسٍ .

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولِي عَلَيْكَ فَٱرْفَعْ ذَيْلَكَ ، وَٱشْدُدْ مِئْزَرَكَ ، وَٱخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ ، وَٱنْدُبْ مَنْ مَعَكَ ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَانْفُذْ ، وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَابْعُدْ ، وَأَيْمُ اللهِ ! لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ ، وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ ، وَحَتَّى تُعْجَلَ

فِي قِعْدَتِكَ ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ ، وَمَا هِيَ بِـالْهُوَيْنَا ٱلَّتِي تَـرْجُو ، وَلٰكِنَّهَـا ٱلدَّاهِيَـةُ ٱلْكُبْـرَى ، يُـرْكَبُ جَمَلُهَـا وَيُـذَلُّ صَعْبُهَـا ، وَيُسَهَّل جَبَلُهَا ، فَاعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَٱمْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُـذْ نَصِيبَكَ وَحَـظَّكَ ، فَإِنْ كَـرِهْتَ فَتَنَـحَّ إِلَى غَيْـرِ رَحْبٍ ، وَلاَ فِي نَجَـاةٍ فَبِـالْحَـرِيِّ لَتُكْفَيَنَّ وَأَنْتَ نَـائِمٌ حَتَّى لاَ يُقَالَ : أَيْنَ فُلاَنٌ ؟ وَٱللَّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ ، وَمَا نُبَالِي مَا صَنَعَ ٱلْمُلْحِـدُونَ ، وَٱلسَّلاَمُ .

أقول : روي عن أبي موسى أنه كان حين مسيـر علي عليه السلام إلى البصرة واستنفاره لأهل الكوفة إلى نصرته يثبط الناس عنه ويقول : إنها فتنة فلا يجـوز القيام فيها ، ويروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخباراً يتضمن وجـوب القعود عن الفتنـة والاعتزال فيها . فكتب إليه مع ابنه الحسن عليه السلام هذا الكتاب . والقول الذي بلغه عنه هو نهي الناس وتثبيطهم عن النهوض إليه ، وذلك قول هو له باعتبـار ظاهر الدين ونهيه عن الخوض في الفتن ، وهو عليه من وجوه :

الأول : كان معلوماً من همه أنه لم يقصد بذلك إلّا قعود النـاس عنه ، وفهم منه ذلك . وهو خذلان للدين في الحقيقة وهو عائد عليه بمضرة العقوبة منه عليه السلام ومن الله تعالى في الآخرة .

الثاني : أنه لمـا كان عليه السلام على الحق في حـربه كـان تثبيط أبي موسى عنـه جهلاً بحـاله ومـا يجب من نصرتـه والقول بـالجهل عـائـد على القـائـل بالمضرة .

الثالث : أنه في ذلك القول مناقض لغرضـه لأنه نهى عن الـدخول مـع النـاس ومشاركتهم في زمن الفتنـة وروى خبراً يقتضي أنـه يجب القعود عنهم حينئذ مع أنه كان أميراً يتهافت على الولاية، وذلك متناقض فكان عليه لا له .

ثم أمره عند قدوم رسوله عليه بأوامر على سبيل الوعيد والتهديد :

أحـدها : أن يـرفع ذيله ويـشـدّ مئزره . وهمـا كنـايتـان عن الاستعـداد للقيام بواجب أمره والمسارعة إلى ذلك .

الثاني : أن يخرج من جحره . وأراد خروجه من الكوفـة . واستعار لـه

لفظ الجحر ملاحظة لشبهه بالثعلب ونحوه.

الثالث : أن يندب : أي يبعث من معه من العسكر ويدعوهم إلى الخروج .

وقوله : فإن حققت .

أي عرفت حقيقة أمري وأني على الحق فانفذ . أي فامض فيما آمرك به ، وإن تفشلت : أي جبنت وضعفت عن هذا الأمر ومعرفته فاقعد عنه . ثم توعّده على تقدير قعوده وأقسم ليأتيّنه بالمكان الذي هو به من لا يتركه حتى يخلط زبده بخاثره وذائبه بجامده ، وهما مثلان كني بهما عن خلط أحواله الصافية بالتكدير كعزّته بذلته وسروره بغمه وسهولة أمره بصعوبته ، وحتى يعجله عن قعدته وهي هيئة قعوده وأراد غاية الإعجال، وحتى يكون حذره من أمامه كحذره من خلفه . وهو كناية عن غاية الخوف . وإنما جعل الحذر من الخلف أصلاً في التشبيه لكون الإنسان من ورائه أشد خوفاً . وقيل : أراد حتى يخاف من الدنيا كما يخاف من الآخرة .

وقوله : وما هي بالهوينا .

أي وما القصة المعهودة لك بالهيّنة السهلة التي ترجو أن تكون فيها على اختيارك ولكنها الداهية الكبرى من دواهي الدهر ومصائبه .

وقوله : يركب جملها . أي يركب فيها ، ويذلّ صعبها : أي يسهل الأمور الصعاب فيها . وهو كناية عن شدتها وصعوبتها .

ثم أردف وعيده وتحذيره بنصيحته وأمره بأوامر :

أحدها : أن يعقل عقله . وعقله يحتمل النصب على المصدر وهو أمر له أن يراجع عقله ويعتبر هذه الحال العظيمة دون هواه . وقيل : هو مفعول به : أي اضبط عقلك واحبسه على معرفة الحق من الباطل ولا تفرقه فيما لا ينبغي .

الثاني : أن يملك أمره : أي شأنه وطريقته ، ويصرفها على قانون العدل والحق دون الباطل .

الثالث : أن يأخذ نصيبه وحظه من طاعته والقيام بأمره في نصرته والذب عن دين الله . وقيل : أراد خذ ما قسّم لك من الحظ ولا تتجاوز إلى ما ليس لك .

ثم أردف ذلك بأمره بالتنحي عن الولاية على تقدير كراهته لما ذكر وعدم امتثاله لما أمر .

وقوله : فبالحريّ لتكفينّ .

أي فما أحذر أن يكفى هذه المؤونة وأنت نائم عن طاعة الله حتى لا يفتقد ولا يسأل عنك لعدم المبالاة بك . ثم أقسم أنه لحق : أي الأمر المعهود الذي فعله من حربه بالبصرة ، مع محق : أي صاحب محق لما يدعيه ، عالم به ، لا يكترث بما صنع الملحدون في دين الله من مخالفته لمعرفته أنه على الحقّ دونهم .

٦٣ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إِلى مُعَاوِيَةَ، جَوَاباً

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ ٱلْأُلْفَةِ وَٱلْجَمَاعَةِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ ، أَنَّا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَٱلْيَوْمَ أَنَّا ٱسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كُرْهاً ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ ٱلْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حِزْباً .

وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَٱلزُّبَيْرَ ، وَشَرَّدْتُ بِعَائِشَةَ ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ ٱلْمِصْرَيْنِ ، وَذٰلِكَ أَمْرٌ غِبْتَ عَنْهُ ، فَلَا عَلَيْكَ وَلَا ٱلْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ .

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَقَدِ ٱنْقَطَعَتِ ٱلْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَبُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهْ ، فَإِنِّي إِنْ أَزُرْكَ فَذٰلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ ٱللَّهُ إِنَّمَا بَعَثَنِي لِلنِّقْمَةِ مِنْكَ ! وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أَسَدٍ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَاحَ ٱلصَّيْفِ ، تَضْرِبُهُمْ
بِحَاصِبٍ ، بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلْمُودِ

وَعِنْدِي ٱلسَّيْفُ ٱلَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ ، وَخَالِكَ ، وَأَخِيكَ ، فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ ، وَإِنَّكَ وَٱللَّهِ مَا عَلِمْتُ ، ٱلأَغْلَفُ ٱلْقَلْبِ ، ٱلْمُقَارِبُ ٱلْعَقْلِ ، وَٱلأَوْلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ : إِنَّكَ رَقِيتَ سُلَّماً أَطْلَعَكَ مَطْلَعَ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ ، لأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ ضَالَّتِكَ ، وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ ، وَطَلَبْتَ أَمْراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَا فِي مَعْدَنِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ مِنْ فِعْلِكَ ، وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ حَمَلَتْهُمُ ٱلشَّقَاوَةُ ، وَتَمَنِّي ٱلْبَاطِلِ ، عَلَى ٱلْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ يَدْفَعُوا عَظِيماً ، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيماً بِوَقْعِ سُيُوفٍ مَا خَلَا مِنْهَا ٱلْوَغَى ، وَلَمْ تُمَاشِهَا ٱلْهُوَيْنَا .

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتَلَةِ عُثْمَانَ فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ ٱلنَّاسُ ، ثُمَّ حَاكِمِ ٱلْقَوْمَ إِلَيَّ أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ ٱللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا تِلْكَ ٱلَّتِي تُرِيدُ ؛ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ ٱلصَّبِيِّ عَنِ ٱللَّبَنِ فِي أَوَّلِ ٱلْفِصَالِ ؛ وَٱلسَّلَامُ لأَهْلِهِ .

أقول : أنف الإسلام : أوله . والتشريد : الإبعاد . واسترفه : أي نفّس عنك من الرفاهية وهي السعة . والأغوار : المنخفضة من الأرض . وأغصصت السيف بفلان : أي جعلته يغص به وهو من المغلوب لأن المضروب هو الذي يغص بالسيف : أي لا يكاد يسيغه . ويروى بالضاد المعجمة : أي جعلته عاضاً لهم . والمقارب ـ بالكسر ـ : الذي ليس بالتمام .

وقد كان معاوية كتب إليه عليه السلام يذكره ما كانوا عليه قديماً من الألفة والجماعة ، وينسب إليه بعد ذلك قتل طلحة والزبير والتشريد بعائشة ويتوعده بالحرب ويطلب منه قتلة عثمان . فأجابه عليه السلام عن كل من ذلك بجواب :

أما الأول : فسلّم دعواه من القدر المشترك بينهم وهو الألفة والجماعة قبل الإسلام ولكنه ذكر الفارق وهو من وجوه :

أحدها : أنه عليه السلام في أول الإسلام آمن في جملة من أهل بيته ، ومعاوية وأهل بيته حينئذ كانوا كفّاراً .

الثاني : أنه عليه السلام وأهل بيته في آخر الأمر لم يزالوا مستقيمين على الدين ومعاوية وأهل بيته مفتونين جاهلين بفتنتهم .

الثالث : أن من أسلم من أهل بيته عليه السلام أسلم طوعاً ، ومسلم أهل معاوية لم يسلم إلّا كرهاً بعد أن اشتد الإسلام وصار للرسول صلى الله عليه وآله وسلم حزب قوي من أشراف العرب ، واستعار لفظ أنف الإسلام لهم باعتبار كونهم أعزاء أهله . وممن أسلم كرهاً أبو سفيان ، وذلك أنه لما انتهى [أتى خ] رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة في غزوة الفتح أتى ليلاً فنزل بالبطحاء ، وما حولها فخرج العباس بن عبد المطلب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدور حول مكة في طلب من يبعثه إلى قريش ليخرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعتذروا إليه فلقي أبا سفيان فقال له : كن رديفي لتمضي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ونأخذ الأمان لك منه .

فلما دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرض عليه الإسلام فأبى . فقال عمر : إئذن لي يا رسول الله لأضرب عنقه . وكان العباس يحامي عنه للقرابة فقال : يا رسول الله إنه يسلم غداً . فلما جاء الغد دخل به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعرض عليه الإسلام فأبى فقال له العباس في السر : يا أبا سفيان اشهد أن لا إله إلّا الله واشهد أن محمداً رسول الله وإن لم يكن ذلك في قلبك فإنه يأمر الآن بقتلك إن لم تقل. فشهد الشهادتين على كره لخوف القتل وقد رأى أكثر من عشرة آلاف رجل حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تحزّبوا معه واجتمعوا إليه . فذلك معنى قوله : أما بعد . إلى قوله : حزبا .

الثاني : ما ادعاه عليه من قتل طلحة والزبير وتشريد عائشة ، والنزول بين المصرين البصرة والكوفة ؛ فأجاب عنه بقوله : وذلك . إلى قوله : إليك وهو في قوة ضمير تقدير كبراه : وكل من غاب عن أمر ولم يكن فيه مدخل فليس تكليفه عليه ولا العذر من التقصير والتفريط فيه إليه .

الثالث : ما توعده به من زيارته في المهاجرين والأنصار ؛ فأجابه بوجهين :

أحدهما : أنه أوهم في كلامه أنه من المهاجرين فأكذبه بقوله : وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أبوك : أي حين الفتح ، وذلك أن معاوية وأباه وجماعة من أهله إنما أظهروا الإسلام بعد الفتح وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : لا هجرة بعد الفتح فلا يصدق عليهم إذن اسم المهاجرين. وسمّى عليه السلام أخذ العباس لأبي سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير مختار وعرضه على القتل أسراً .

وروي يوم أسر أخوك . وقد كان أسر أخوه عمرو بن أبي سفيان يوم بدر . فعلى هذه الرواية يكون الكلام في معرض التذكرة له بأن من شأنه وشأن أهله أن يؤسروا أوّلا فيسلموا فكيف يدعون مع ذلك الهجرة فإن الهجرة بهذا الاعتبار منقطعة عنهم . ولا يكون ـ يوم أسر ـ ظرفاً لانقطاع الهجرة لأن الهجرة انقطعت بعد الفتح .

الثاني : مقابلة وعيده بوعيد مثله وهو قوله : فإن كان . إلى قوله : مقام واحد . وأراد إن كنت مستعجلاً في مسيرك إلي فاطلب الرفاهية على نفسك في ذلك فإنك إنما تستعجل إلى ما يضرّك ، ونبه على ذلك بقوله : فإني . إلى قوله: واحد، وهو في قوة صغرى ضمير ووجه التمثيل بالبيت أنّه شبه استقبال معاوية في جمعه باستقبالهم رياح الصيف ، وشبه نفسه برياح الصيف وجعل وجه المشابهة كونه عليه السلام يضرب وجوههم في الحرب بالسيوف والرماح كما تضرب رياح الصيف وجوه مستقبليها بالحصباء ، وقد بيّنا أنه عليه السلام قتل جد معاوية وهو عتبة ، وخاله الوليد بن عتبة ، وأخاه حنظلة ابن أبي سفيان . وتقدير الكبرى : وكل من كان كذلك فمن الواجب أن يحذر منه ولا يتوعد بحرب وقتال .

وقوله : وإنك والله . إلى قوله : الهوينا .

توبيخ مشوب بتهديد ، وما في قوله : وما علمت . موصولة ، واستعار لفظ الأغلف لقلبه ، ووجه الاستعارة أنه محجوب بالهيئات البدنية وأغشية الباطل عن قبول الحق وفهمه فكأنه في غلاف منها، ووصف المقاربة في عقله لاختياره الباطل . ثم أعلمه على سبيل التوبيخ بما الأولى أن يقال في حاله . واستعار لفظ السلّم للأحوال التي ركبها والمنزلة التي طلبها ، ورشّح بذكر الارتقاء والاطلاع. المطلع مصدر، ويجوز أن يكون اسم الموضع

واحتج لصحة قوله بقوله : لأنك. إلى قوله: معدنه، واستعار الضالة والسائمة لمرتبته التي ينبغي له ان يطلبها ويقف عندها. وما هو غيرها هو أمر الخلافة. إذ ليس من أهلها. ورشح بذكر النشيد والرعي. ثم تعجّب من بعدما بيّن قوله وفعله وذلك أن مدار قوله في الظاهر على طلب قتلة عثمان وإنكار المنكر كما ادّعاه، ومدار فعله وحركاته على التغليب في الملك والبغي على الامام العادل وشتان ما هما. ثم حكم بقرب شبهه بأعمامه وأخواله. وما مصدرية والمصدر مبتدأ خبره قريب. فمن أهل الشقاوة من جهة عمومته حمّالة الحطب ومن جهة خؤولته الوليد بن عتبة.

وإنما أنكر الأعمام والأخوال لأنه لم يكن له أعمام وأخوال كثيرون والجمع المنكر جاز أن يعبر به عن الواحد والإثنين للمبالغة مجازاً في معرض الشناعة ، ولا كذلك الجمع المعرّف ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله : حملتهم . إلى قوله : الهوينا . وموضع قوله : حملتهم . الجر صفة لأخوال وأراد الشقاوة المكتوبة عليهم في الدنيا والآخرة التي استعدوا لها بجحود محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتمني الباطل هو ما كانوا يتمنّونه ويبذلون أنفسهم وأموالهم فيه من قهر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإطفاء نور النبوة وإقامة أمر الشرك .

وقوله : بوقع .

متعلق بقوله : فصرعوا . وما خلا صفة لسيوف . ولفظ المماشاة مستعار . والمراد أن تلك السيوف لم يلحق ضربها ووقعها هون ولا سهولة ولم يجر معها . وروي لم يماسها بالسين المهملة من المماسة : أي لم يخالطها شيء من ذلك .

الرابع : طلبه لقتلة عثمان وأجابه بقوله : فادخل. إلى آخره ، وأراد فيما دخل فيه الناس من الطاعة والبيعة . وصدق الجواب ظاهر لأنه لا بد للمتحاكمين من حاكم وهو عليه السلام يومئذ الحاكم الحق فليس لمعاوية أن يطلب منه إذن قوماً منهم المهاجرون والأنصار ليسلّمهم إليه حتى يقتلهم من غير محاكمة. بل يجب أن يدخل في طاعته ويجري عليه أحكامه ليحاكم القوم إليه فإمّا له وإما عليه .

وقوله : وأما تلك التي تريد .

أي الخـدعة عن الشـام لغرض إقـراره على إمارتهـا . ووجه مشـابهتهـا بخدعة الصبي ضعفها وظهور كونها خدعة لكـل أحد . وإنمـا قال : والسـلام لأهله . لأن معاوية لم يكن في نظره من أهله . وبالله التوفيق .

٦٤ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إلَيْــهِ أيْضــاً

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمْحِ ٱلْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ ٱلْأُمُورِ ، فَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلاَفِكَ بِادِّعَائِكَ ٱلْأَبَاطِيلَ ، وَإِقْحَامِكَ غُرُورَ ٱلْمَيْنِ وَٱلْأَكَاذِيبِ ، وَبِانْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلاَ عَنْكَ ، وَٱبْتِزَازِكَ لِمَا ٱخْتُزِنَ دُونَكَ ، فِرَاراً مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَجُحُوداً لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمْعُكَ ، وَمُلِىءَ بِهِ صَدْرُكَ ، فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلاَّ ٱلضَّلاَلُ ٱلْمُبِينُ ، وَبَعْدَ ٱلْبَيَانِ إِلاَّ ٱللَّبْسُ ؟ فَاحْذَرِ ٱلشُّبْهَةَ وَٱشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا ، فَإِنَّ ٱلْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَفَتْ جَلاَبِيبَهَا ، وَأَعْشَتِ ٱلْأَبْصَارَ ظُلْمَتُهَا .

وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ ذو أَفَانِينَ مِنَ ٱلْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ ٱلسِّلْمِ ، وَأَسَاطِيرَ لَمْ يَحُكْهَا مِنْكَ عِلْمٌ وَلاَ حِلْمٌ ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ فِي ٱلدَّهَاسِ ، وَٱلْخَابِطِ فِي ٱلدِّيمَاسِ ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بَعِيدَةِ ٱلْمَرَامِ ، نَازِحَةِ ٱلْأَعْلاَمِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا ٱلْأَنُوقُ ، وَيُحَاذَى بِهَا ٱلْعَيُّوقُ .

وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدِي صَدَراً ، أَوْ وِرْداً ، أَوْ أُجْرِيَ لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْداً ، أَوْ عَهْداً !! فَمِنَ ٱلآنَ فَتَدَارَكْ نَفْسَكَ ، وَٱنْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَّطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ ٱللَّهِ أُرْتِجَتْ عَلَيْكَ ٱلْأُمُورُ ، وَمُنِعْتَ أَمْراً هُوَ مِنْكَ ٱلْيَوْمَ مَقْبُولٌ ، وَٱلسَّلاَمُ .

أقـول : المدارج : المسـالك والمـذاهب جمع مـدرجة : والإقحـام : الدخول في الشيء بسرعة من غير روية . وانتحل الكلام : ادعاه لنفسه وليس له . والابتزاز : الاستلاب . وأغدفت المرأة جلبابها : أرسلته على وجههـا .

والتفنّن : التخليط والتنويع . والأساطير : الأباطيل جمع أُسطورة بالضم وإسطارة بالكسر . والدهاس : المكان السهل الليّن دون الرمل . والديماس : المكان شديد الظلمة ، وكالسراب ونحوه . والمرقبة : موضع مشرف يرتفع عليه الراصد والأنوق : الرخمة . والعيوق : نجم معروف . وتنهد : تنهض . وأُرتجت : أُغلقت .

والكتاب جواب أيضاً .

فقوله : أما بعد . إلى قوله : الأمور .

تنبيه له على وجوب الاتعاظ والانزجار عن دعوى ما ليس له . والمراد أنه قد حضر وقت انتفاعك من عيان الأمور ومشاهدتها بلمحك الباصر . ولفظ اللمح مستعار لدرك الأمور النافعة بخفة وسرعة ، وروي عيون الأمور : أي أنفسها وحقائقها التي هي موارد اللمح والاعتبار ، ووصفه بالباصر مبالغة في الإبصار كقولهم : ليل أليل .

وقوله : فقد سلكت . إلى قوله : اللبس .

إشارة إلى سبب حاجته إلى التنبيه المذكور وهو سلوكه طرائق أسلافه بالأمور الأربعة المذكورة فادّعاؤه الأباطيل ادّعاؤه ما ليس له بحق حقاً من دم عثمان وطلحة والزبير وغير ذلك ، واقتحامه لغرور الأكاذيب دخوله في الغفلة عن سوء عاقبتها . وأكاذيبه في دعاويه ظاهرة . وما قد علا عنه هو أمر الخلافة ، وما اختزن دونه فابتزّه هو مال المسلمين وبلادهم التي يغلب عليها . وأراد أنه اختزن بالاستحقاق من الله . وفراراً وجحوداً مصدران سدّا مسدّ الحال ، وما هو ألزم له من لحمه ودمه مما قد وعاه سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وامتلأ به صدره علماً في مواطن كغدير خم وغيره، هو وجوب طاعته ، وإنما كان ألزم له من لحمه ودمه لأنهما دائماً في التغيّر والتبدل ووجوب طاعته أمر لازم لنفسه لا يجوز تغيّره وتبدله ، وتجوز بلفظ الصدر في القلب إطلاقاً لاسم المتعلق على المتعلّق ، وأشار بالآية إلى أن الحق الذي علمته لي ليس وراءه لمن تعدّاه إلّا الضلال والهلاك لأن الحق

حدّ من تجاوزه وقع في أحد طرفي الإفراط والتفريط ، وكذلك ليس بعد البيان الذي بيّن لك في أمري إلاّ اللبس .

ثم حذره الشبهة واشتمالها على لبستها . والشبهة دم عثمان . ولفظ اللبسة مستعار للداخلين فيها ملاحظة لشبهها بالقميص ونحوه ، وعلل تحذيره إياه ووجوب وقوفه دونها بقوله : فإنّ الفتنة . إلى قوله : ظلمتها . وهو صغرى ضمير . واستعار لفظ الجلابيب لأمورها المغطية لبصائر أهلها عن الحق كما لا تبصر المرأة عند إرسال جلبابها على وجهها . وكذلك استعار لفظ الظلمة باعتبار التباس الأمور فيها وعدم التهدي إلى الحق كالظلمة التي لا يهتدى فيها ، ورشح بذكر الإغداف والإعشاء. ثم شرع في أحوال كتابه فبدأ بذمه . ولما كان مداره على اللفظ والمعنى أشار الى ذم اللفظ بأنه ذو أفانين من القول : أي أنه أقوال ملفّقة لا يناسب بعضها بعضاً.

وقوله : ضعفت قواها عن السلم .

أي ليس لها قوة أن يوجب صلحاً . وأشار إلى ذم المعنى بأنه أباطيل غير محكمة النسج لا من جهة العلم إذ لا علم له ولا من جهة الحلم لأن الكتاب كان فيه خشونة وتهوّر ، وذلك ينافي الحلم وينافي غرضه من الصلح . ولفظ الحوك مستعار لسبك الكلام .

وقوله : أصبحت منها.

صفة لأساطير ، ووجه شبهه بالخائض والخابط ضلاله وعدم هدايته إلى وجه الحق كما لا يهتدي خائض الدهاس ، وخابط الديماس فيهما . ثم شرع في جوابه وكان مقصوده في كتابه أن ينص عليه بالخلافة بعده ليبايعه فوبخه أولاً على طلبه أمراً ليس من أهله بقوله : وترقيت . إلى قوله : العيوق . ولفظ المرقبة مستعار لأمر الخلافة . ورشح بلفظ الترقي والأوصاف الأربعة بعدها لأنها من شأن المرقبة التامة .

وإنما خصّ الأنوق لأنها تقصد الأماكن العالية الصعبة من رؤوس

الجبال فتبني أوكارها هناك . ثم صرفه عن المطلوب بتنزيه الله سبحانه أن يلي من بعده للمسلمين خروجاً أو دخولاً في أمر من أمورهم ، أو أن يجري على أحد منهم له عقداً أو عهداً . والعقد كالنكاح والبيوع والإجارة ، والعهد كالبيعة والأمان واليمين والذمة : أي لا يمكنه من ذلك ، ولما آيسه من المطلوب أمره بتدارك نفسه بالنظر لها فيما هو مصلحتها من طاعته ، وتوعده على تقصيره في ذلك بما يلزم تقصيره من نهوض عباد الله إليه وانغلاق الأمور حينئذ ومنعه العذر الذي هو منه الآن مقبول . وبالله التوفيق .

٦٥ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى عَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ بِخِلَافِ هٰذِهِ ٱلرِّوَايَةِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ ٱلْمَرْءَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَحْزَنُ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلُ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، بُلُوغَ لَذَّةٍ ، أَوْ شِفَاءَ غَيْظٍ ، وَلٰكِنْ إِطْفَاءَ بَاطِلٍ ، أَوْ إِحْيَاءَ حَقٍّ !! وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ ، وَأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ .

أقول : قد سبق شرحه إلّا كلمات يسيرة فيه :

منها : أنه نبهه على لزوم فضيلتي العفة والحلم بالنهي عن أن يجعل بلوغ لذته من دنياه أو شفاء غيظه اللذين هما طرفا الإفراط والتفريط من الفضيلتين المذكورتين أفضل ما نال منها في نفسه . ثم نبهه على ما ينبغي أن يكون أفضل في نفسه من دنياه وهو إطفاء الباطل وإحياء الحق . وإطفاء الباطل تنبيه على وجه استعمال قوتي الشهوة والغضب وهو أن يكون الغرض من فعلها دفع الضرورة وبقدر الحاجة .

ومنها : أنه أمره في الرواية الأولى أن يكون فرحه بما نال من آخرته ، وأمره هنا أن يكون سروره بما قدم لنفسه من زاد التقوى وهو أمر بمقدمة الآخرة . وأمره في الرواية الأولى أن يكون أسفه على ما فات من آخرته ، وأمره هنا أن يكون أسفه على ما خلّف : أي ترك من العمل . وبالله التوفيق .

٦٦ - ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى قُثَمِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى مَكَّةَ

أَمَّا بَعْدُ : فَأَقِمْ لِلنَّاسِ ٱلْحَجَّ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ ، وَٱجْلِسْ لَهُمُ ٱلْعَصْرَيْنِ : فَأَفْتِ ٱلْمُسْتَفْتِيَ ، وَعَلِّمِ ٱلْجَاهِلَ ، وَذَاكِرِ ٱلْعَالِمَ ، وَلاَ يَكُنْ لَكَ إِلَى ٱلنَّاسِ سَفِيرٌ إِلَّا لِسَانُكَ ، وَلاَ حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهُكَ ، وَلاَ تَحْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا ، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا ، لَمْ تُحْمَدْ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا .

وَٱنْظُرْ إِلَى مَا ٱجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ ٱللَّهِ ، فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قِبَلَكَ مِنْ ذَوِي ٱلْعِيَالِ وَٱلْمَجَاعَةِ ، مُصِيباً بِهِ مَوَاضِعَ ٱلْفَاقَةِ وَٱلْخَلاَّتِ ، وَمَا فَضَلَ عَنْ ذٰلِكَ ، فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا ، لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا .

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ لاَ يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْراً ، فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ فَالْعَاكِفُ : ٱلْمُقِيمُ بِهِ ، وَٱلْبَادِي : ٱلَّذِي يَحُجُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَفَّقَنَا ٱللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابِّهِ ، وَٱلسَّلاَمُ .

أقول : ذيدت : ردّت . والخلّة : الحاجة .

وفيه مقاصد :

أحدها : أمره بإقامة الحج للناس . وإقامته القيام بأعماله ، وتعليم الجاهلين كيفيته ، وجمعهم عليه .

الثاني : أن يذكرهم بأيام الله : أي عقوباته التي وقعت بمن سلف من المستحقين لها كي يحترزوا بطاعته من أمثالها . وعبّر عنها بالأيام مجازاً إطلاقاً لاسم المتعلق على المتعلّق .

الثالث : أن يجلس لهم العصرين : أي الغداة والعشي لكونهما أطيب الأوقات بالحجاز ، وأشار إلى أعظم فوائد جلوسه في الوقتين وهي فائدة العلم ، وحصره وجوه حاجة أهلها إليها وأمره بسد تلك الوجوه ، بيان الحصر

أن النـاس إما غيـر عالم أو عـالم ، وغير العـالم إمـا مقلد أو متعلّم طـالب ، والعالم إما هو أو غيره . فهـذه أقسام أربعـة . فوجـه حاجـة القسم الأول وهو الجاهل المقلّد أن يستفتي فأمره أن يفتيه ، ووجه حاجة الثـاني ، وهو المتعلّم الجاهل أن يتعلم فـأمره أن يعلّمـه ، ووجه حـاجة الثـالث هو مـع الرابـع وهو العالم أن يتذاكرا فأمره بالمذاكرة له .

الرابع : نهاه أن يجعل لـه إلى الناس سفيـراً يعبر عنـه إلّا لسانـه ، ولا حاجباً إلّا وجهه لأن ذلك مظنة الكبر والجهل بـأحوال النـاس التي يجب على الوالي الإحاطة بها بقدر الإمكان . وإلّا للحصر وما بعدها خبر كان .

الخامس : نهاه أن يحجب أحداً عن لقائه ، بحاجته مؤكداً لمـا سبق ، ورغبه في ملاقاة ذي الحاجة بضمير صغراه قوله : فإنها إلى قوله : قضائهـا : أي لم تحمد فيما بعد وإن قضيتها له ، وتقدير الكبرى : وكل أمر كان كذلـك فلا ينبغي أن يحجب صاحبه عن لقائك به ويذاد عن أبوابك في أول ورده .

السادس : أمره أن يعتبر مال بيت المسلمين ويصرفه في مصارفه متوخّياً بذلك الأحوج فالأحوج ويحمل الباقي إليه . ومصيباً حال . وروي : مـواضع المفاقر . والإضافة لتغاير اللفظين .

السـابع : أمـره بنهي أهـل مكـة عن أخـذ الأجـرة ممن يسكن بيـوتهم واحتج لذلك بالآية مفسراً لها ، وهي صغرى ضميـر . وتقديـر كبراه : وكلمـا قال الله فيه ذلك لم يجز مخـالفته . ثم ختم بـالدعـاء لنفسه ولـه أن يوفقهمـا لمحابه . وبالله التوفيق لذلك.

٦٧ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلى سَلْمَانَ ٱلْفَارِسِيِّ ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، قَبْلَ أَيَّامِ خِلاَفَتِهِ

أَمَّـا بَعْدُ : فَـإِنَّمَا مَثَـلُ ٱلدُّنْيَـا مَثَلُ ٱلْحَيَّـةِ : لَيِّنٌ مَسُّهَا ، قَـاتِلٌ سُمُّهَـا ، فَأَعْرِضْ عَمَّـا يُعْجِبُكَ فِيهَـا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُـكَ مِنْهَا ، وَضَـعْ عَنْكَ هُمُـومَهَا لِمَـا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ،وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا،فَإِنَّ صَاحِبَهَا

كُلَّمَا ٱطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ ، أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ .

أقول : أشخصته : أذهبته .

ومدار الفصل على الموعظة وذم الدنيا ، وضرب لها مثلاً ، وذكر من وجوه الشبه من جانب الممثل به أمرين :

أحدهما : ليّن المس وتماثله من جانب الدنيا رفاهية العيش ولذاته .

والثاني : قتل سمها ويماثله من الدنيا هلاك المنهمكين في لذاتها يوم القيامة ثم أمره في مقامه بها بأوامر :

أحدها : أن يعرض عما يعجبه منها . وعلل وجوب إعراضه بقوله : لقلة ما يصحبك منها ، وهي صغرى ضمير تقديرها : ما يصحبك منها قليل ، وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك فينبغي أن يعرض عنه .

الثاني : أن يضع عنه هموم طلبها ، وعلل وجوب ذلك بضمير صغراه قوله : لما أيقنت من فراقها : أي لأنك متيقن لفراقها . وتقدير كبراه : وكلما تيقّنت فراقه فواجب أن تضع همك عن طلبه .

الثالث : أن يكون آنس ما يكون بها أحذر ما يكون منها . وما مصدريّة ، وآنس ينصب على الحال ، وأحذر خبر كان : أي في حال كونك آنس بها كن أحذر ما تكون منها . والغرض أن يحذر منها بقدر جهده ولا يأنس بها . وعلّل وجوب الحذر منها بقوله : فإن صاحبها . إلى آخره . وهو صغرى ضمير تقديرها : فإنها كلما اطمأن صاحبها فيها . إلى آخره . وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر صاحبه منه ولا يأنس إليه ينتج فالدنيا يجب أن يحذر صاحبها منها .

٦٨ ـ ومن كتاب له عليه السلام

إِلَى ٱلْحَارِثِ ٱلْهَمَدَانِيِّ

وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ ٱلْقُرْآنِ وَٱنْتَصِحْهُ ، وَأَحِلَّ حَلاَلَهُ ، وَحَرِّمْ حَرَامَهُ ،

وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ ٱلْحَقِّ ، وَٱعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ ٱلدُّنْيَا ، مَا بَقِيَ مِنْهَا ، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضاً ، وَآخِرَهَا لاَحِقٌ بِأَوَّلِهَا ! وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ ، وَعَظِّمِ ٱسْمَ ٱللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلاَّ عَلَى حَقٍّ ، وَأَكْثِرْ ذِكْرَ ٱلْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ ٱلْمَوْتِ ، وَلاَ تَتَمَنَّ ٱلْمَوْتَ إِلاَّ بِشَرْطٍ وَثِيقٍ ، وَٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ ، وَيُكْرَهُ لِعَامَّةِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، وَٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي ٱلسِّرِّ ، وَيُسْتَحَى مِنْهُ فِي ٱلْعَلاَنِيَةِ ، وَٱحْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ ، أَوِ ٱعْتَذَرَ مِنْهُ ، وَلاَ تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضاً لِنِبَالِ ٱلْقَوْلِ ، وَلاَ تُحَدِّثِ ٱلنَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِباً ، وَلاَ تَرُدَّ عَلَى ٱلنَّاسِ كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلاً ، وَٱكْظِمِ ٱلْغَيْظَ وَٱحْلُمْ عِنْدَ ٱلْغَضَبِ ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ ٱلْمَقْدِرَةِ ، وَٱصْفَحْ مَعَ ٱلدَّوْلَةِ تَكُنْ لَكَ ٱلْعَاقِبَةُ ، وَٱسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَهَا ٱللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلاَ تُضِيعَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ ٱللَّهِ عِنْدَكَ ، وَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ ٱللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ .

وَٱعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَهْلِهِ ، وَمَالِهِ ، فَإِنَّكَ مَا تُقَدِّمْ مِنْ خَيْرٍ يَبْقَ لَكَ ذُخْرُهُ ، وَمَا تُؤَخِّرْهُ يَكُنْ لِغَيْرِكَ خَيْرُهُ ، وَٱحْذَرْ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ ، وَيُنْكَرُ عَمَلُهُ ، فَإِنَّ ٱلصَّاحِبَ مُعْتَبَرٌ بِصَاحِبِهِ ، وَاسْكُنِ ٱلْأَمْصَارَ ٱلعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَٱحْذَرْ مَنَازِلَ ٱلْغَفْلَةِ ، وَٱلْجَفَاءِ ، وَقِلَّةِ ٱلْأَعْوَانِ ، عَلَى طَاعَةِ ٱللَّهِ ، وَٱقْصُرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَعْنِيكَ ، وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ ٱلْأَسْوَاقِ ، فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ ٱلشَّيْطَانِ ، وَمَعَارِيضُ ٱلْفِتَنِ ، وَأَكْثِرْ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فُضِّلْتَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ ٱلشُّكْرِ ، وَلاَ تُسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ ٱلصَّلاَةَ ، إِلاَّ فَاصِلاً فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، أَوْ فِي أَمْرٍ تُعْذَرُ بِهِ ، وَأَطِعِ ٱللَّه فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ ، فَإِنَّ طَاعَةَ ٱللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى مَا سِوَاهَا ، وَخَادِعْ نَفْسَكَ فِي ٱلْعِبَادَةِ ، وَٱرْفُقْ بِهَا وَلاَ تَقْهَرْهَا ، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا ، إِلاَّ مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ ٱلْفَرِيضَةِ ، فَإِنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا ، وَتَعَاهُدِهَا عِنْدَ مَحَلِّهَا ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ ٱلْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ ٱلدُّنْيَا ، وَإِيَّاكَ وَمُصَاحَبَةَ ٱلْفُسَّاقِ ، فَإِنَّ ٱلشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ ، وَوَقِّرِ ٱللَّه وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ ، وَٱحْذَرِ ٱلغَضَبَ

فَإِنَّهُ جُنْدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ ، وَٱلسَّلاَمُ .

أقول : هذا الفصل من كتاب طويل إليه . وقد أمره فيه بأوامره وزجره بزواجره مدارها على تعليم مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

أحدها : أن يتمسك بحبل القرآن . ولفظ الحبل مستعار كما سبق . وأراد لزوم العمل به .

الثاني : أن ينتصحه : أي يتخذه ناصحاً له بحيث يقبل أمره وشوره لأنه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

الثالث : أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وذلك أن يعتقد ما فيه من الحلال والحرام حلالاً وحراماً ويقف عند اعتقاده ويعمل بمقتضاه .

الرابع : أن يصدق بما سلف من الحق مما حكاه القرآن الكريم من أحوال القرون الماضية وأحوال الأنبياء مع أُممهم ليصح منه الاعتبار .

الخامس : أن يعتبر ماضي الدنيا بباقيها ويقيسه به فيجعل ما مضى أصلاً وما يبقى فرعاً ويحذر القدر المشترك بينهما من العلة وهو كونها مظنة التغيّر والزوال فيحكم في الفرع بحكم الأصل من وجوب الزوال ، وقد نبه على المشترك بقوله : فإن بعضها يشبه بعضاً . وعلى ما يلزم ذلك في الفرع بقوله : وآخرها لا حق بأولها وكلها حائل : أي زائل مفارق .

السادس : أن يعظم اسم الله ويكبره أن يذكره حالفاً إلا على حق .

السابع : أن يكثر ذكر الموت وما بعده فإن في ذكرهما أعظم واعظ وأشد زاجر عن الدنيا .

الثامن : نهاه أن يتمنى الموت إلاّ بشرط وثيق من نفسه يطمئن إليه في طاعة الله وولايته فإن تمنّيه بدون ذلك سفه وحمق .

التاسع : أمره أن يحذر كل عمل يرضاه لنفسه ويكره للمسلمين وهو في المعنى نهي عن الاستئثار عليهم بالمكاره ولنفسه بالخيرات وهو كقوله : رُدْ للناس ما تريد لنفسك واكره لهم ما تكرهه لها .

العاشر : أن يحذر ما يعمله في السر ويستحيي منه في العلانية . والإشارة إلى معاصي الله ومفارقة الدنايا من المباحات ، وكذلك كل عمل من شأنه أن ينكره إذا سئل عنه ويعتذر منه .

الحادي عشر : أن يحفظ عرضه ونهاه أن يجعله غرضاً . واستعار لفظ الغرض والنبال لما يرمى به من القول : وقد سبق وجه الاستعارة .

الثاني عشر : أن يحدث الناس بكل ما سمع على وجه أن يقول : كان كذا وكذا دون أن يقول : سمعت فلاناً يقول: كذا. فإن بينهما فرقاً . ولذلك قال : وكفى بذلك كذباً . لأنه جاز أن يكون ما سمع في نفس الأمر كذباً فيكون قد كذب في قوله : كان كذا . وقوله : سمعت كذا . لا يكون كذباً إلّا على وجه آخر .

الثالث عشر : أن لا يرد كل ما يحدث به الناس ويقابله بالتكذيب والإنكار لأنه جاز أن يكون حقاً فيحصل من إنكاره جهل بحق ، وقوله : فكفى . في الموضعين صغرى ضمير تقدير كبرى الأول : وكلما كفى به كذباً فينبغي أن لا يتحدث به . وتقدير كبرى الثاني : وكلما كفى برده جهلاً وجب أن لا يرد .

الرابع عشر : أمره بكظم الغيظ . والحلم والتجاوز والصفح هي فضائل تحت ملكة الشجاعة وشرطها بوجود الغضب والقدرة والدولة فيسمى حلماً وتجاوزاً وصفحاً وإلّا لم يصدق عليها الاسم .

وقوله : تكن لك العاقبة .

أي العاقبة الحسنة من ذلك ، وهي صغرى ضمير تقديرها : فإن فاعل هذه الخصال تكون له العاقبة منها ، وتقدير الكبرى : وكلما كانت له العاقبة الحسنة منها فيجب أن يفعلها .

الخامس عشر : أن يستصلح كل نعمة لله تعالى عليه بمداومة الشكر .

السادس عشر : أن لا يضيّع من نعمة الله تعالى نعمة : أي بالقصور عن الشكر والغفلة عنه .

السابع عشر : أن يظهر أثر نعمة الله تعالى عليه بحيث يراها الناس . فظهور أثرها عليه بإظهارها على نفسه وذويه وصرف فاضلها إلى أهل الاستحقاق . وأعلمه بدليل وجوب ذلك من وجهين :

أحدها : قوله : إن أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمة : أي صدقة تقدمها من نفسه بأقواله وأفعاله وأمواله ، ومن أهله كذلك . وهو جذب له أن يجعل نفسه من أفضل المؤمنين بالصدقة .

الثاني : قوله : وإنك . إلى قوله : خيره : أي ما تقدمه وتؤخره من المال وتخلّفه ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما إذا قدمته كان لك ذخراً وإذا أخرّته كان لغيرك خيره . فواجب عليك تقديمه .

الثامن عشر : أن يحذر صحابة من يفيل رأيه : أي يضعف ، وينكر عمله لسوئه . وعلّل ذلك الحذر بقوله : فإن . إلى قوله : بصاحبه : أي فإنك تقاس به لتنسب فعلك إلى فعله ، ولأن الطبع مع الصحبة أطوع للفعل منه للقول فلو صحبه لشابه فعله فعله .

التاسع عشر : أن يسكن الأمصار العظام . والغرض الجمعية على دين الله كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : عليكم بالسواد الأعظم ولذلك علّل بكونها جماع المسلمين : أي مجمعهم . وأطلق اسم المصدر على المكان مجازاً ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فينبغي أن يخص بالسكنى .

العشرون : أن يحذر منازل الغفلة والجفاء لأهل طاعة الله .

الحادي والعشرون : أن يقصر رأيه على ما يعنيه فإن فيه شغلاً عما لا يعنيه فتجاوزه إليه سفه .

الثاني والعشرون : أن يحذر مقاعد الأسواق . وأشار إلى وجه المفسدة بقوله : فإنها . إلى قوله : الفتن . ومعنى كونه محاضر الشيطان كونها مجمع الشهوات ومحل الخصومات التي مبدؤها الشيطان . ومعاريض : جمع معرض وهو محل عروض الفتن . والكلام صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فلا يجوز القعود فيه .

الثالث والعشرون : أن يكثر نظره إلى من هو دونه ممن فضل عليه في النعمة . وعلل ذلك بقوله : فإن . إلى قوله : الشكر . ووجه كونه باباً للشكر أنه يكون سبباً للدخول إليه منه . وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان من أبواب الشكر فواجب ملازمته .

الرابع والعشرون : أن لا يسافر في يوم الجمعة إلّا أن يكون في جهاد أو عذر واضح . وسرّه أن صلاة الجمعة عظيمة في الدين وهو محل التأهب لها والعبادة . فوضعه للسفر وضع للشيء في غير موضعه .

الخامس والعشرون : أن يطيع الله في جميع أموره . ورغب فيها بضمير صغراه قوله : فإن . إلى قوله : سواها . وتقدير كبراه : وكلما فضّل ما سواه فالأولى لزومه وإيثاره على ما سواه .

السادس والعشرون : أن يخادع نفسه في العبادة . فإنه لما كان شأن النفس اتباع الهوى وموافقة الطبيعة فبالحري أن تخادع عن مألوفها إلى غيره تارة بأن يذكر الوعد ، وتارة الوعيد ، وتارة بالاستشهاد بمن هو دونها ممن شمر في عبادة الله ، وتارة باللوم لها على التفريط في جنب الله . فإذا سلك بها فينبغي أن يكون بالرفق من غير قهرها على العبادة لكون ذلك داعية الملال والانقطاع ، كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغّض فيه إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ؛ بل تأخذ منها عفوها ونشاطها في العبادة إلّا الفريضة فإنه لا يجوز المساهلة فيها .

السابع والعشرون : حذره أن ينزل به الموت حال ما هو آبق من ربه . واستعار له الآبق باعتبار خروجه عن أمره ونهيه في طلب الدنيا .

الثامن والعشرون : أن يحذر صحبة الفساق ، ونفّر عن ذلك بضمير صغراه قوله : فإن الشر بالشر ملحق : أي فإنه يصير لك شراً كشرهم لأن القرين بالمقارن يقتدي . وتقدير كبراه : وكل ما صيّر لك كذلك فلا يجوز فعله .

التاسع والعشرون : أن يجمع بين توقير الله وتعظيمه وبين محبة أحبائه وأوليائه ، وهما أصلان متلازمان .

الثلاثون : أن يحذر الغضب . ونفّر عنه بقوله : فإنه . إلى آخره ، ومعنى كونه جنداً له لأنه من أعظم ما يدخل به على الإنسان فيملكه ويصير في تصريفه كالملك الداخل بالجند العظيم على المدينة ، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فواجب أن يحذر منه . وبالله التوفيق.

٦٩ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ٱلْأَنْصَارِيِّ وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى ٱلْمَدِينَةِ (فِي مَعْنَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِهَا لَحِقُوا بِمُعَاوِيَةَ

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالاً مِمَّنْ قِبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ ، فَكَفَى لَهُمْ غَيّاً ، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِياً ، فِرَارُهُمْ مِنَ ٱلْهُدَى ، وَٱلْحَقِّ ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى ٱلْعَمَى ، وَٱلْجَهْلِ ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا ، مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا ، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا ، وَقَدْ عَرَفُوا ٱلْعَدْلَ ، وَرَأَوْهُ ، وَسَمِعُوهُ ، وَوَعَوْهُ ، وَعَلِمُوا أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَنَا فِي ٱلْحَقِّ أُسْوَةٌ ، فَهَرَبُوا إِلَى ٱلْأَثَرَةِ ، فَبُعْداً لَهُمْ وَسُحْقاً !!

إِنَّهُمْ ـ وَٱللَّهِ ـ لَمْ يَنْفِرُوا مِنْ جَوْرٍ ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هٰذَا ٱلْأَمْرِ أَنْ يُذَلِّلَ ٱللَّهُ لَنَا صَعْبَهُ ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ ، وَٱلسَّلَامُ .

أقول : التسلل : الذهاب واحداً بعد واحد . والإيضاع : الإسراع . وكذلك الإهطاع . والأثرة : الاستبداد .

فقوله : أما بعد إلى قوله : معاوية .

إعلامه بعلمه بحالهم .

وقوله : فلا تأسف . إلى قوله : مددهم .

تسلية له عما فاته من عددهم ومددهم .

وقوله : فكفى . إلى قوله : العدل .

استدراج له عن الأسف على فرارهم بذكر معائبهم في ضميرين صغرى الأول منهما قوله : فكفى . إلى قوله : الجهل . وتقدير كبراه : وكل من كان كذلك فلا يجوز الأسف عليه . وفرار فاعل كفى ، وغياً وشافياً تمييز . وصغرى الثاني قوله : وإنما هم أهل الدنيا : أي لما كان شأنهم ذلك وعرفوا العدل عندنا وعلموا تساوي الناس عندنا في الحق هربوا إلى الاستئثار والاستبداد عند معاوية . وتقدير كبراه : وكل من كان بهذه الحال فلا يجوز الأسف عليه ، ولذلك دعا عليهم بالبعد والسحق وهما مصدران وضعا للدعاء . ثم أقسم أنهم لم يفروا من جور منه ولم يلحقوا بعدل من معاوية ليتأكد حصره لأحوالهم التي هربوا لأجلها . ثم وعده بما يطمع من الله تعالى من تذليل ما صعب من أمر الخلافة لهم ، وتسهيل حزنه بمشيئته سبحانه .

٧٠ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى ٱلْمُنْذِرِ بْنِ ٱلْجَارُودِ ٱلْعَبْدِيِّ
(وَقَدْ خَانَ فِي بَعْضِ مَا وَلَّاهُ مِنْ أَعْمَالِهِ)

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ صَلاَحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ ، لاَ تَدَعُ لِهَوَاكَ ٱنْقِيَاداً ، وَلاَ تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عَتَاداً ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ ، وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقّاً لَجَمَلُ أَهْلِكَ ، وَشِسْعُ نَعْلِكَ ، خَيْرٌ مِنْكَ ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ ، فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْر ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى خِيَانَةٍ ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هٰذَا إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ .

قال الرضي : والمنذر هذا هو الذي قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : « إِنَّهُ لَنَظَّارٌ فِي عِطْفَيْهِ ، مُخْتَالٌ فِي بُرْدَيْهِ ، تَفَّالٌ فِي شِرَاكَيْهِ » .

أقـول : العتـاد : العـدة ، والشسـع : سيـر بين الإصبعين في النعـل العربي .

ومدار الفصل على توبيخه بسبب خيانته . فذكر سبب غروره وهو قياسه في الصلاح على أبيه الجارود العبدي في أنـه يتبع مـا كان عليـه من الهدى . ثم ذكر ما رقّي إليه عنه من الفارق من أربعة أوجه :

أحدها : انقياده لهواه في كل ما يقوده إليه .

الثاني : إعراضه عما يعتدّ به لآخرته من صالح الأعمال .

الثالث : كونه يعمر دنياه بما يستلزم خراب آخرته من تناول الحرام .

الرابع : كونه يصل عشيرتـه بما يقـطع دينه من ذلـك . وراعى السجع في القرينتين . ثم أخذ في توبيخه والحكم بنقصانه وحقارته إن حق مـا نسب إليه ذلك بتفضيل جمل أهله وشسع نعله عليه . وجمـل الأهل ممـا يتمثل بـه في الهوان . وأصله فيما قيل : أن الجمل يكون لأب القبيلة فيصير ميراثاً لهم يسـوقه كـل منهم ويصرفـه في حاجتـه فهـو ذليـل حقير بينهم . ثم حكم في معرض توبيخه على من كان بصفته أنه لا يصلح لولاية عمل يراد لـه الوالي . وراعى في القرائن الأربع السجع المتوازي . فالقدر بإزاء الأمر والخيانة بـإزاء الأمانة . وإنما قال : أو يشرك في أمانة . لأن الخلفاء أمناء الله في بلاده فمن ولّوه من قبلهم فقد أشركوه في أمانتهم .

وقوله : أو يؤمن على خيانة .

أي حـال خيـانتـك . لأن كلمـة على تفيـد الحـال . ثم بعـد تـوبيخـه استقـدمه عليـه عزلاً لـه . والذي حكـاه السيد ـ رحمـه الله ـ من وصف أميـر المؤمنين عليه السلام له فكناية عن تكبّره . والتفـل في الشراك : نفـخ الغبار عنـه . والحكاية مناسبة للكتاب لاشتمالها على الذم . وبالله التوفيق .

٧١ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسابِقٍ أَجَلَكَ ، وَلاَ مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ ، وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلدَّهْرَ يَوْمانِ : يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ .

أقول : الفصل موعظة . ونبهه فيها على دقائق :

إحديها : أنه لا يسبق أجله . ولما كان الأجل هو الوقت الذي علم الله أن زيداً يموت فيه لم يمكن أن يموت زيد دونه لأن ذلك يستلزم انقلاب علم الله جهلاً وأنه محال .

الثانية : ولا مرزوق ما ليس له : أي ما علم الله أنه ليس رزقاً له فمحال أن يرزق إيّاه لما بيّناه .

الثالثة : أعلمه أن الدهر يومان : يوم له وهو اليوم الذي فيه المنافع كاللذة وكمالاتها ، ويوم عليه وهو ما يكون عليه فيه المضرة كالألم وما يستلزمه وذلك معنى كون الدنيا دار دول كما قال تعالى : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[1] .

الرابعة : أعلمه بأن ما كان له من خير الدنيا أتاه على ضعفه وإن كان أمراً كبيراً لعلم الله سبحانه بأنه يصل إليه ، وكذلك ما كان عليه من شرها لم يتمكن من دفعه وإن كان قوياً . وذكر الضعف والقوة ليعلم استناد الأمور والأرزاق إلى مدبّر حكيم هو مفيضها ومبدىء أسبابها وناظم وجودها ومقسم كمالاتها ومعطي كلاً منها ما استعد له من خير أو شر . فقد يحصل الضعف للحيوان ويرزق رزقاً واسعاً ويكون ضعفه من الأسباب المعدة لسعة رزقه . وبالعكس قد تحصل له القوة فتكون من أسباب الحرمان . والله من ورائهم محيط وهو الرازق ذو القوة المتين .

---

(١) ٣ ـ ١٣٤ .

٧٢ ـ ومن كتاب له (عليه السلام) إلَى مُعَاوِيَةَ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي عَلَى ٱلتَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ ، وَٱلْإِسْتِمَاعِ إلَى كِتَابِكَ ، لَمُوهِنُ رَأْيِي ، وَمُخْطِىءٌ فِرَاسَتِي ، وَإِنَّكَ إذْ تُحَاوِلُنِي الأُمُورَ، وَتُرَاجِعُنِي ٱلسُّطُورَ ، كَالْمُسْتَثْقِلِ ٱلنَّائِمِ تَكْذِبُهُ أَحْلاَمُهُ ، وَٱلْمُتَحَيِّرِ ٱلْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ ، لاَ يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ ! وَلَسْتَ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَوْلاَ بَعْضُ ٱلإِسْتِبْقَاءِ ، لَوَصَلَتْ إلَيْكَ مِنِّي قَوَارِعُ تَقْرَعُ ٱلْعَظْمَ ، وَتَهْلِسُ اللَّحْمَ ،وَٱعْلَمْ: أَنَّ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ نَصِيحَتِكَ .

أقول : موهن : مضعف . وبهظه : أثقله . والقوارع : الشدائد . وتهلس اللحم . تذهب به ، وتسحبه ، وتقرب منه النهس . وثبّطه عن كذا : شغله .

ومدار الفصل على منافرته وتوبيخه .

فقوله : أما بعد . إلى قوله : فراستي : أي مضعف رأيي وفراستي فيك لغلبة ظني أن مكاتبتك وجوابك لا فائدة فيه . ثم شبهه في محاولته أمر الشام وما يخدعه من جعل أمر الخلافة فيه بعده ومراجعته السطور أي الكتب في ذلك بالمستثقل في النوم ، الغريق فيه ، وانتصب السطور بحذف الجار إما في أو الباء ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله : تكذبه أحلامه . وأراد أن تخيّلاته وأمانيه في وصول هذا الأمر إليه تخيّلات كاذبة صادرة عن جهل غالب كالأحلام الكاذبة للمستغرق في نومه إذا استيقظ لم يجدها شيئاً ، وكذلك شبّهه بالمتحيّر القائم، وأشار إلى وجهه بقوله : يبهظه . إلى قوله : عليه . وبيانه أن معاوية مجد في هذا الأمر متحيّر في تحصيله متهور في طلبه مع جهله بعاقبة سعيه هل هي خير أو شر كالقائم المتحيّر في الأمر يتعب بطول مقامه ولا يعرف غايته من قيامه . ثم لم يرض له بذلك التشبيه بل زاد مبالغة

في غفلته ونومه في مرقد طبيعته وحيرته وقال : ولست به : أي ولست بهذا شبيهاً فيكون هو أصلاً لك في الشبه غير أنه بك شبيه : أي إنك أصل له في ذلك الشبه . ثم أقسم لولا بعض الاستبقاء : أي للأمور المصلحية لوصلت إليه منه قوارع . وأراد شدائد الحرب ، وكنّى عن شدتها بكونها تقرع العظم وتهلس اللحم .

ثم أعلمه في معرض توبيخه أن الشيطان قد ثبطه عن مراجعة أحسن أموره وهو الدخول في طاعته وترك الفتنة وأن يأذن أي يصغي أُذنه لمقال نصيحة . وهو جذب له إليهما بنسبة تركه لهما إلى تثبيط الشيطان وبالله التوفيق .

٧٣ ـ ومن حلف له (عليه السلام)

كَتَبَهُ بَيْنَ رَبِيعَةَ وَٱلْيَمَن
ونُقِلَ مِنْ خَطِّ هِشَامِ بْنِ ٱلْكَلْبِيِّ

هٰذَا مَا ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْيَمَنِ : حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ : حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ ٱللَّهِ ، يَدْعُونَ إِلَيْهِ وَيَأْمُرُونَ بِهِ ، وَيُجِيبُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ ، لَا يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً ، وَلَا يَرْضَونَ بِهِ بَدَلاً ، وَأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ وتَرَكَهُ ، أَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِمَعْتَبَةِ عَاتِبٍ ، وَلَا لِغَضَبِ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِذْلَالِ قَوْمٍ قَوْماً ، وَلَا لِمَسَبَّةِ قَوْمٍ قَوْماً ، عَلَى ذٰلِكَ شَاهِدُهُمْ ، وَغَائِبُهُمْ ، وَسَفِيهُهُمْ ، وَعَالِمُهُمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذٰلِكَ عَهْدَ ٱللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، إِنَّ عَهْدَ ٱللَّهِ كَانَ مَسْؤُولاً ، وَكَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

أقول : الحلف : العهد . وفيه نكت :

الأولى : قوله : هذا . مبتدأ وما موصولة وهي صفة المبتدأ ، وخبره أنهم . ويجوز أن يكون هذا مبتدأ خبره ما اجتمع عليه ، ويكون قوله : أنهم . تفسيراً لهذا . كأنه قال : ما الذي اجتمعوا عليه ؟ فقيل : على أنهم

على كتـاب الله : أي اجتمعـوا على ذلـك ، وخبـر أنهم على كتـاب الله ، ويدعون حال ، والعامـل متعلّق الجار . وحـاضرهـا وباديهـا من أهل اليمن ، وكذلك من ربيعة .

الثانية : كونهم لا يشترون به ثمناً كناية عن لزومهم له وللعمل به .

الثالثة : قوله : وأنهم يد واحدة : أي يتعاونون على من خالفه . فأطلق اسم اليـد على المتعاون مجـازاً إطلاقـاً لاسم السبب على المسبب ، وأنصار خبر ثان لأن وبعضهم فاعله . ويجوز أن يكون بعضهم مبتدأ خبره أنصار .

الرابعة : قوله : ولا لاستذلال قوم قوماً : أي لا ينقضون عهدهم لكون القبيلة الأخـرى استـذلّت قـومهم أو سبتهم . وروي لمشيئـة قـوم قـومـاً : أي لإرادتهم . وفي روايـة ـ كتب علي بن أبو طـالب ـ وهي المشهورة عنـه عليه السلام ووجهها أنه جعل هذه الكنية علماً بمنزلة لفظ واحدة لا يتغيّر إعرابها .

٧٤ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إلَـى مُعَاوِيَةَ فِي أَوَّلِ
(مَا بُويِعَ لَهُ ، ذَكَرَهُ ٱلْوَاقِدِيُّ فِي كِتَابِ ٱلْجَمَلِ)

مِنْ عَبْدِ ٱللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ : ـ

أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ ، حَتَّى كَانَ مَا لاَ بُدَّ مِنْهُ ، وَلاَ دَفْعَ لَهُ ، وَٱلْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَٱلْكَلاَمُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ ، فَبَايِعْ مَنْ قِبَلَكَ ، وَأَقْبِلْ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ .

أقول : الوفد : الواردون على الملك .

وأعلمه أوّلاً ، إعـذاره فيهم إلى الله : أي إظهـار عذره وذلـك باجتهـاده في نصيحة عثمـان أوّلا ، ونصرة بني أمية بالذب عنـه ثانيـاً ، وإعراضـه عنهم بعد إياسه من قبول عثمان لنصيحته وعجزه عن نصرته والدفع عنه حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له من قبله . ثم قال : والحديث طويل والكـلام كثير : أي في أمره ومن قبله .

وقوله : وقد أدبر . إلى قوله : أقبل .

يحتمل أن يكون إخباراً له بأن بعض الناس أدبر عنه كطلحة والزبير ومن تابعهما وبعضهم أقبل عليه ، ويحتمل أن يكون إنشاءً أي قد دخل في الإدبار من أدبر عنّي ودخل في الإقبال من أقبل عليّ . ثم أمره أن يبايع له من قبله من الجماعة ويقبل إليه ، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله : فيكم وعنكم خطاباً لمعاوية وسائر المسلمين على سبيل التعتّب والتشكي : أي قد علمت أني أعذرت فيكم حيث لم أُعاجل مسيئكم بالعقوبة وأعرضت عنكم حتى كان ما كان من خروج طلحة والزبير ومن تابعهم مما لا بد من وقوعه منهم ولا دفع له . والحديث في شأنهم طويل ، والكلام في شبهتهم كثير ، وقد أدبر من أدبر : أي هؤلاء الخارجون ، وأقبل من أقبل . وتمام الكلام بحاله . والله أعلم .

٧٥ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

لِعَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ ٱلْعَبَّاس
(عِنْدَ ٱسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُ عَلَى ٱلْبَصْرَةِ)

سَعِ ٱلنَّاسَ بِوَجْهِكَ ، وَمَجْلِسِكَ ، وَحُكْمِكَ ، وَإِيَّاكَ وَٱلْغَضَبَ ، فَإِنَّهُ طِيَرَةٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ، وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ ٱللَّهِ ، يُبَاعِدُكَ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ ٱللَّهِ ، يُقَرِّبُكَ مِنَ ٱلنَّارِ .

أقول : الطيرة : فعلة من الطيران ، ويستعمل في الخفة وما لا ثبات له . وروي : طيرة من التطير وهو التشأم .

وقد أمره بفضائل من الأخلاق .

أحدها : أن يسع الناس بوجهه ، وكنّى بذلك عن البشر والطلاقة ، وبمجلسه . وهو كناية عن التواضع ، وبحكمه . وكنّى به عن العدل لأن الحكم العدل يسع كل أحد ، والجور ضيق لا يحتمله الكل .

الثانية : حذّره من الغضب وهو أمر بفضيلة الثبات والحلم ، ونفّره

بقوله : فإنه طيرة من الشيطان : أي خفة ينشأ من الشيطان ، أو أنه مما يتشأم الناس بصاحبه ويكرهه . ونسبه إلى الشيطان لينفر عنه ، وأراد الغضب المذموم . وهو صغرى ضمير تقدير كبراه : وكلما كان كذلك فواجب أن يحذر . ثم رغبه فيما يقرّبه من الله بما يستلزمه من كونه مباعداً له من النار ، ونفّره عما يبعده من الله بما يستلزمه من كونه مقرّباً له إلى النار . وهما صغريا ضميرين تقدير كبرى الأول منهما : وكل ما باعدك من النار فواجب أخذه ، وتقدير كبرى الثاني : وكل ما يقربك من النار فواجب أن يحذره . وبالله التوفيق .

٧٦ ـ ومن وصية له (عليه السلام)

لِعَبْدِ ٱللَّهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ (لَمَّا بَعَثَهُ لِلْإِحْتِجَاجِ إِلى ٱلْخَوَارِجِ)

لَا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ ، فَإِنَّ ٱلْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ ، تَقُول وَيَقُولُونَ ، وَلكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً .

أقول : المحيص : المعدل .

وقد نهاه أن يحاجهم بالقرآن . ونبهه على ذلك بضمير صغراه قوله : فإن القرآن . إلى قوله : ويقولون : أي إن الآيات التي يمكنه الاحتجاج بها غير ناصة في المطلوب بل لها ظاهر وتأويلات محتملة يمكنهم أن يتعلقوا بها عند المجادلة. وتقدير الكبرى : وكل ما كان كذلك فلا يتم الغرض به في مخاصمتهم . ثم أمره أن يحاجهّم بالسنّة . ونبه على ذلك بضمير صغراه قوله : فإنهم لا يجدون عنها معدلاً لكونها ناصة في المطلوب كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : حربك يا علي حربي . ونحوه. وتقدير الكبرى : وكل ما لم يجدوا عنه معدلاً فالأولى محاجتهم به . وقد أشرنا من قبل إلى مجادلة ابن عباس .

٧٧ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

إِلَى أَبِي مُوسَى ٱلأَشْعَرِيِّ جَوَاباً فِي أَمْرِ ٱلْحَكَمَيْنِ ذَكَرَهُ (سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى ٱلأُمَوِيُّ) فِي كِتَابِ (ٱلْمَغَازِي)

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُم عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ، فَمَالُوا مَعَ الدُّنْيَا، وَنَطَقُوا بِالهَوَى، وَإِنِّي نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَنْزِلاً مُعْجِباً ٱجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، فَإِنِّي أُدَاوِي مِنْهُمْ قَرْحاً أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَلَقاً ، وَلَيْسَ رَجُلٌ ـ فَاعْلَمْ ـ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَأُلْفَتِهَا مِنِّي ، أَبْتَغِي بِذلِكَ حُسْنَ ٱلثَّوَابِ ، وَكَرَمَ ٱلْمَآبِ وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنْ تَغَيَّرْتَ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ٱلشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلتَّجْرِبَةِ ، وَإِنِّي لأَعْبَدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ بِبَاطِلٍ ، وَأَنْ أُفْسِدَ أَمْراً قَدْ أَصْلَحَهُ ٱللَّهُ ، فَدَعْ مَا لاَ تَعْرِفُ ، فَإِنَّ شِرَارَ ٱلنَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقَاوِيلِ ٱلسُّوءِ ، وَٱلسَّلاَمُ .

أقول : العلق : الدم الغليظ . وأيت : وعدت . وأعبد : أستنكف وأغضب .

وقوله : فإن الناس . إلى قوله : حظهم .

أي الحظ الذي ينبغي لهم من الدين والهدى .

وقوله : فمالوا . إلى قوله : الهوى .

بيان لأنواع تغيّرهم .

وقوله : وإني نزلت من هذا الأمر .

أي أمر الخلافة منزلاً معجباً وهو الحال التي انتهى إليها مع الصحابة وصارت محل التعجب منها وكيف صار محكوماً لهم في قبول الحكومة والرضى بالصلح وغيره .

وقوله : اجتمع به أقوام .

صفة منزل : أي أن هذا المنزل الذي أنا فيه من هذا الأمر قد اجتمع معي وشاركني في رأيي فيه أقوام أعجبتهم أنفسهم وآراؤهم فأفسدوا عليّ الأمر فأنا أداوي منهم قرحاً ، واستعار لفظ القرح لما أفسد من حاله باجتماعهم على التحكيم . ولفظ المداواة لاجتهاده في إصلاحهم ، وروي : أداري . وكذلك استعار لفظ العلق لما يخاف من تفاقم أمرهم من حاله .

وقوله : وليس رجل أحرص منه على أُلفة جماعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم للغرض المذكور .

وقوله : فاعلم . اعتراض حسن بين ليس وخبرها. ورجل يفيد العموم وإن كان مفرداً نكرة لكونه في سياق النفي على ما بيّن في أُصول الفقه . ثم أخبر أنه سيفي بما وعد على نفسه من شرط الصلح على ما وقع عليه ، وتوعده بلزوم الشقاوة إن تغيّر عن صالح ما فارقه عليه من وجوب الحكم بكتاب الله وعدم اتباع الهوى والاغترار بمقارنة الأشرار .

وفسر الشقي بمن حرم نفع ما أُوتي من العقل والتجربة مشيراً بذلك إلى أنه إن خدع أو تغيّر بأمر آخر فقد حرم نفع عقله وسابقة تجربته فلزمته الشقاوة . ثم نبهه على أنه يأنف من قول الباطل ، وأن يفسد أمراً أصلحه الله به وهو أمر الدين ليحترز من غضبه بلزوم الحق والصدق وحفظ جانب الله في حقه ، وأكد ذلك بقوله : فدع ما لا تعرف : أي من الحكم في هذه القضية بالشبهة .

وقوله : فإن شرار الناس . إلى آخره .

أراد عمرو بن العاص ونحوه فيما كان يسرع بإلقائه إليه من الوساوس والشبه الكاذبة التي هي أقاويل السوء .

٧٨ ـ ومن كتاب له (عليه السلام)

لَمَّا ٱسْتُخْلِفَ إِلَى أُمَرَاءِ ٱلْأَجْنَادِ

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ : أَنَّهُمْ مَنَعُوا ٱلنَّاسَ ٱلْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ ، وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَاقْتَدَوْهُ .

أقول : نفّرهم عن منع الحق أهله ، ومعاملتهم الناس بالباطل ، يذكر أن ذلك هو سبب هلاك من كان قبلهم من أمثالهم .

وقوله : فاشتروه .

أي فباعوه وتعوضوا عنه بالباطل لما منعوا منه كقوله تعالى : ﴿ **وشروه بثمن بخس** ﴾(١)، وكذلك قوله : وأخذوهم بالباطل : أي جعلوا تصرفاتهم معهم بالباطل فاقتدوه : أي اقتدوا الباطل وسلكوا فيه مسلك من أخذهم به كقوله تعالى : ﴿ **فبهديهم اقتده** ﴾(٢) وبالله التوفيق .

تم باب الكتب والوصايا والعهود والحمد لله حق حمده .

باب المختار من حكم أمير المؤمنين (عليه السلام)

ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله
والكلام القصير الخارج في سائر أغراضه

١ ـ قال (عليه السلام) : كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ ، لاَ ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ ، وَلاَ ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ .

أقول : ابن اللبون ولد الناقة إذا استكمل سنتين ودخل في الثالثة لأن أمّه على الأغلب قد وضعت ولداً غيره فهي ذات لبن .

وقد أمر أصحابه في زمن الفتنة أن يتشبّه بابن اللبون ، وأشار إلى وجه الشبه بقوله لا ظهر إلى آخره. وأراد أنه يكون في زمانها خامل الذكر ضعيفاً غير مستكثر من المال كيلا يصلح لمعاونة الظالمين بنفسه ولا بماله ، ولا ينتفع به في الفتنة . كابن اللبون لا ينفع بظهره ولا لبنه . وظهر مبتدأ خبره محذوف تقديره: له . ويركب عطف على الجملة. وروي منصوباً بإضمار أن في جواب النفي، وكذا قوله: فيحلب.

٢ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ** : إحدى وعشرين كلمة من الأدب والحث على مكارم الأخلاق وهي قوله :

---

(١) ٢١ ـ ٢٠.
(٢) ٦ ـ ٩٠.

أَزْرَى بِنَفْسِهِ مَنِ ٱسْتَشْعَرَ ٱلطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مَنْ أَمَّرَ عَلَيْهَا لِسَانَهُ . وَٱلْبُخْلُ عَارٌ ، وَٱلْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ ، وَٱلْفَقْرُ يُخْرِسُ ٱلْفَطِنَ عَنْ حُجَّتِهِ ، وَٱلْمُقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلْدَتِهِ ، وَٱلْعَجْزُ آفَةٌ ، وَٱلصَّبْرُ شَجَاعَةٌ ، وَٱلزُّهْدُ ثَرْوَةٌ ، وَٱلْوَرَعُ جُنَّةٌ . وَنِعْمَ ٱلْقَرِينُ ٱلرِّضَى ، وَٱلْعِلْمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ ، وَٱلآدَابُ حُلَلٌ مُجَدَّدَةٌ ، وَٱلْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ . وَصَدْرُ ٱلْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَٱلْبَشَاشَةُ حُبَالَةُ ٱلْمَوَدَّةِ ، وَٱلْإِحْتِمَالُ قَبْرُ ٱلْعُيُوبِ (وَٱلْمُسَالَمَةُ خِبَاءُ ٱلْعُيُوبِ) ، وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ ٱلسَّاخِطُ عَلَيْهِ . وَٱلصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُنْجِحٌ ، وَأَعْمَالُ ٱلْعِبَادِ فِي عَاجِلِهِمْ نُصْبُ أَعْيُنِهِمْ فِي آجِلِهِمْ .

الأولى : أزرى بنفسه من استشعر الطمع . وهو تنفير عن الطمع المضاد لفضيلة القناعة بذكر ما يستلزمه من التهاون بالنفس والإزدراء بها ، وذلك أن الطمع بما في أيدي الناس يستلزم الحاجة إليهم والخضوع لهم وهو يستلزم الهون عليهم وسقوط المنزلة . واستعار وصف الاستشعار لملازمة الطمع ومباشرته للقلب كالشعر للجسد .

الثانية : قوله : ورضي بالذل من كشف عن ضره ، وهو أيضاً تنفير للإنسان عن شكاية فقره وضرّه للناس بذكر ما يلزم ذلك من المذلة والرضى به .

الثالثة : وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه . وهو تنفير للإنسان عن الإكثار في القول من غير تدبر ومراجعة لعقله بما يلزم ذلك من هوان نفسه عليه أما في الدنيا فلأن زيادة القول قد يكون سبباً للهلاك ، وإليه أشار القائل .

احفظ لسانك أيها الإنسان — لا يلدغنّك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه — كانت تهاب لقاءه الأقران

وأما في الآخرة فلقوله صلى الله عليه وآله وسلم : وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلّا حصائد ألسنتهم ؟ ولاهون لنفس الإنسان عليه أعظم من هلاكها . واستعار وصف التأمير لتسليط اللسان على ما يؤذي النفس من غير مراجعتها فكأنها صارت محكومة له .

الرابعة : قوله : والبخل عار . وذلك لأنه رذيلة التفريط من فضيلة الكرم . وبقدر حمد الإنسان على الكرم يكون ذمه وتعييره برذيلة البخل .

الخامسة : والجبن منقصة . لأنه رذيلة التفريط من فضيلة الشجاعة التي هي أصل من الكمالات النفسانية . فكان الجبن رذيلة ومنقصة .

السادسة : والفقر يخرس الفطن عن حجته . وذلك لكونه مذلة ، وله في النفس فعل عظيم بالقبض والفتور والانفعال عن الغير . ومبدأ كل ذلك تصور العجز وتوهم القصور بسبب عدم المال عن مقاومة الخصوم فيحصل التخوف من الكلام والعي عنه وإن كان صاحبه فطناً . واستعار لذلك وصف الخرس ملاحظة لشبهه به .

السابعة : والمقل غريب في بلدته : أي الفقير . واستعار له لفظ الغريب باعتبار عدم التفات الناس إليه وقلّة الأعوان ، والإخوان له لإقلاله فهو كالغريب الذي لا يعرف .

الثامنة : والعجز آفة . العجز لفظ مهمل يحتمل العجز البدني وهو عدم القدرة على التصرفات البدنية عما من شأنه أن يقدر ، ويحتمل العجز النفساني وهو عدم القدرة على مقاومة الهوى ودفعه . والأول آفة بدنيّة ونقصان فيه .

والثاني : آفة في العقل وعاهة فيه .

التاسعة : والصبر شجاعة الصبر فضيلة تحت العفة ترسم بأنها مقاومة الهوى لئلا يقود النفس إلى قبائح اللذات . وهو جهاد مع النفس الأمارة يستلزم فضيلة الشجاعة فلذلك حمل الشجاعة عليه حمل اللازم على ملزومه .

العاشرة : والزهد ثروة . وهو فضيلة تحت العفة ، ورسم بأنه إعراض النفس عن متاع الدنيا وطيباتها . ولما كانت الثروة في العرف عبارة عن الغنى بالمال وكثرته استعار لفظها للزهد لمشابهته إيّاها في استلزامهما للغنى وعدم الحاجة .

الحادية عشر : والورع جنة . وحقيقة الورع لزوم الأعمال الجميلة فلذلك استعار لفظ الجنة لمشابهتها في الوقاية من عذاب الله في الآخرة ومن أكبر المصائب الدنيوية كما تجنّن بالترس وغيره من الصلاح .

الثانية عشر : ونعم القرين الرضا . وقد علمت أن الرضا بقضاء الله وما نزل به القدر باب عظيم من أبواب الجنة وغاية من الملكات الفاضلة ، وظاهر أنه نعم القرين في الدنيا والآخرة .

الثالثة عشر : والعلم وراثة كريمة . وهو فضيلة النفس العاقلة وهو أشرف الكمالات التي يعتنى بها ، وبحسب ذلك كان وراثة كريمة من العلماء؛ بل كان أكرم موروث ومكتسب . وأراد الوراثة المعنوية كقوله تعالى : ﴿ **فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب** ﴾[1] أي العلم والحكمة .

الرابعة عشر : والآداب حلل مجددة . وأراد الآداب الشرعية ومكارم الأخلاق ، واستعار لها لفظ الحلل المجددة باعتبار دوام زينة الإنسان بها وتجدّد بهائه وحسنه وتهذيب نفسه على استمرار الزمان بلزومها واستخراج محاسنها كالحلل التي لا تزال تجدد على لابسها .

الخامسة عشر : والفكر مرآة صافية . الفكر قد يراد به القوة المفكرة ، وقد يراد به حركة هذه القوة مطلقاً أية حركة كانت ، وقد يراد به معنى آخر . وعنى هنا القوة نفسها ، واستعار لها لفظ المرآة باعتبار أنها إذا وجهت نحو تحصيل المطالب التصورية والتصديقية أدركتها وتمثلت بها كما يتمثل في المرآة صور ما تحاذي بها .

السادسة عشر : وصدر العاقل صندوق سره . استعار للصدر لفظ صندوق السر باعتبار حفظه كما يحفظ الصندوق ما فيه ؛ وهو في المعنى أمر للإنسان بكتمان سره . ورغّبه في ذلك بذكر العاقل . فكأنه قال : العاقل من جعل صدره صندوق سره وحفظه .

---

(١) ١٩ ـ ٥.

عبرة لمن اعتبر وكمال شهادة بوجود الصانع الحكيم لها ، ومن نظر في تشريح بدن الإنسان حضرته شواهد من الحكمة الإلهية يحار فيها لبّه ويدهش فيها عقله ، وقرأ الصادق عليه السلام قوله تعالى : ﴿ **وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾[1] ثم قال : وكيف لا يكون ضعيفاً وهو ينظر بشحم ويسمع بعظم وينطق بلحم ؟ وقد راعى في القرائن الأربع السجع المتوازي .

٤ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ** : إِذَا أَقْبَلَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ .

يريد أن الدنيا إذا أقبلت بجاهها ومالها على قوم بحسب توافق أسباب السعادة الدنيوية لهم استلزم ذلك إقبال الناس عليهم وتقرّبهم إليهم بكل ممكن لميلهم إلى الدنيا ومحبتهم لها وحسنوا في أعينهم فاستعاروا لهم الأوصاف الجميلة التي كانت في غيرهم وإن لم يكونوا في نفس الأمر كذلك حتى يصفوا بالعلم الجاهل ، وبالكرم المبذر ، وبالشجاعة المتهور ، وبالظرف ولطف الأخلاق الماجن .

وربما كان إقبال الدنيا عليهم أيضاً سبباً لاستعدادهم لتحصيل الكمالات النفسانية والملكات الفاضلة التي كانت محاسن لغيرهم قبلهم وإن كانوا قبل ذلك غير أهل لشيء منها . ويحتمل أن يريد بالمحاسن محاسن الدنيا من مركوب وملبوس وأبهة وحسن إيالة وتصرّف ، وذلك ظاهر . وكونه عارية باعتبار عدم دوامه . وكذلك إذا أدبرت عنهم بحسب توافق أسباب الشقاوة فيها قبحوا في أعين الناس حتى يكون أحدهم ذا فضيلة في نفسه فيجحدها الناس ويصفونه بضدها . فإن زهد في الدنيا نسبوه إلى الرياء والسمعة ، وإن حسنت أخلاقه نسبوه إلى الخلاعة والمجون ، وإن شجع نسبوه إلى التهور والجنون . وهو معنى سلبها لمحاسن أنفسهم ، وربما استعد ذو الفضيلة منهم بذلك لتركها وإهمالها والتخلق بضدها حتى تسلب عنه الفضيلة بالكلية .

---

(١) ٤ ـ ٣٣ .

٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : خَالِطُوا ٱلنَّاسَ مُخَالَطَةً : إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ .

نبه بذلك على حسن المعاشرة للناس ومعاملتهم بمكارم الأخلاق . وكنّى عن ذلك بقوله : إن متم . إلى آخره . إذ من لوازم حسن المعاشرة للمخالط الحنّة إليه في حياته وافتقاره . والبكاء عليه بعد وفاته . والجملة الشرطية في موضع نصب صفة المخالطة .

٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ ٱلْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ .

وهو تنبيه على فضيلة العفو وجذب إليه بكونه شكراً للقدرة : أي ملازم للشكر عليها ، وذلك أن القدرة على العدو نعمة من الله تعالى يجب شكرها والاعتراف لله والخضوع له، ويلزمه الرقة وفتور الغضب ويتبع ذلك العفو فأقامه مقام الشكر للملازمة بينهما. ولما كان الشكر واجباً كان العفو لازماً.

٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَعْجَزُ ٱلنَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْإِخْوَانِ ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ .

الإخوان جمع أخو كخرب وخربان ، وأراد الأصدقاء الصادقين ، وفي الكلمة حثّ على مكارم الأخلاق لأن الإخوان لا يكتسبون إلاّ بها ، وإنما جعل العاجز عن تحصيلهم أعجز الناس لأن ذلك لا يحتاج إلى إتعاب قوة بدنية ولا إعمال فكرة عقلية ، وإنما يفتقر إلى كرم الأخلاق وحسن المعاشرة والملاقاة بالبشر والطلاقة وهي أمور طبيعية في أكثر الناس وهو أهون الأشياء عليهم فكان العاجز عنها أعجز الناس عما هو مقدور لهم . وإنما جعل من ظفر به منهم ثم ضيّعه أعجز لأن المتكسب لا بدّ له من كلفةٍ ما في اكتسابهم .

وأما الظافر فهو غير محتاج إلى ذلك القدر من الكلفة فكان سبب حفظ الإخوان أسهل من سبب تحصيلهم فكان المضيّع لحفظهم أعجز عن اكتسابهم لعجزه عن حفظ الأمر الأسهل .

فإن قلت : فقد قال : إنّ المضيّع لهم أعجز من أعجز الناس فلا يكون أعجز الناس أعجز الناس . هذا خلف .

قلت : لفظ الناس لفظ مطلق وإنما يلزم الخلف أن لو كان للعموم .

٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ ٱلنِّعَمِ فَلَا تُنْفِرُوا أَقْصَاهَا بِقِلَّةِ ٱلشُّكْرِ .

نبه على وجوب الشكر على النعمة لغرض دوامها . ونفّر عن قلته بما يستلزمه من كونه تنفيراً لما يستقبل منها ، واستعار لفظ التنفير ملاحظة لشبهها بالطير المتصل إذا سقط أوّله اتصل به آخره ، وفيه إيماء إلى أن دوام الشكر مستلزم لدوامها وكثرتها كقوله تعالى : ﴿ **ولئن شكرتم لأزيدنكم**﴾[1] .

٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ ضَيَّعَهُ ٱلْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ ٱلْأَبْعَدُ .

أي قدّر . وأراد أن الله سبحانه جعل لكل شيء سبباً يجب معه وبه . ولما كانت منافع الإنسان وضروراته في الأغلب يقوم بها من كان أقرب إليه من أهله وعشيرته ولم يجب في الحكمة أن لا يكون له نفع له إلاّ من جهتهم لا جرم أنهم إذا ضيّعوه وأهملوه لا بدّ أن يقدر الله له من يقوم بمصالحه ومعاونته ممن هو أبعد عنه .

١٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ .

الفتنة قد تكون في الدين وقد تكون في الدنيا وقد تكون فيهما ، وعلى التقديرات فقد تلحق الإنسان بسبب منه من جهل بسيط أو مركب وقد تلحقه بأسباب قدرية خارجية معلومة وغير معلومة . والذي يعاتب على فتنته من هؤلاء من كانت أسباب فتنته منه أو بعضها كوقوع الفتنة لمصاحبة الفساق ونحوه . هذا إذا حملنا اللفظ على ظاهرة ، ويحتمل أن يريد ليس كل مفتون ينفع معه العتاب .

---

(١) ١٤ ـ ٧ .

١١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : تَذِلُّ ٱلْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ ٱلْحَتْفُ فِي ٱلتَّدْبِيرِ .

استعار ذلّ الأمور لمطاوعتها للقدر وجريانها على وفق القضاء . ولما كان الإنسان جاهلاً بأسرار القدر جاز أن يكون من غايات مطاوعة الأمور للقدر كون ما يعتقده الإنسان الجاهل مصلحة ويفعله تدبراً لمنفعة سبباً لحتفه وهلاكه . وفيه إيماء إلى وجوب إسناد الأمور إلى الله وعدم التوكل على التدبير ، والانقطاع إليه .

١٢ ـ وَسُئِلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، عَنْ قَوْلِ ٱلرَّسُولِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « غَيِّرُوا ٱلشَّيْبَ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ » ، فَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّمَا قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ وَٱلدِّينُ قُلٌّ ، فَأَمَّا ٱلْآنَ ، وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطَاقُهُ ، وَضَرَبَ بِجِرَانِهِ ، فَامْرُؤٌ وَمَا ٱخْتَارَ .

النطاق : شقة طويلة عريضة تنجرّ على الأرض إذا لبست. وجران البعير : صدره . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أول الإسلام يأمر أهل الشيب من المسلمين بتغيير شيبهم ويبدءهم إليه ، وكان ينفرهم عن تركه بكونه تشبهاً باليهود لأن اليهود لم يكونوا يفعلون ذلك . فكانوا يخضبون بالسواد . وقيل : بالحنّاء . والغرض أن ينظر إليهم الكفّار بعين القوة والشبيبة فينفعلون عنهم ولا يطمعون فيهم . فسئل عليه السلام عن ذلك في زمن خلافته فجعله من المباح دون المندوب ، وأشار إلى أن تلك السنّة إنما كانت حيث كان المسلمون قليلين فأما الآن وقد كثروا وضعف الكفّار فهو مباح ، وكنّى عن ذلك بقوله : فامرؤ وما اختار . واستعار لفظ النطاق لمعظمه وما انتشر منه . ولفظ الضرب بالجران لثباته واستقراره وملاحظة لشبهه بالبعير البارك . وقوله : فامرؤ مبتدأ وما اختار عطف عليه ، وما مصدرية وخبر المبتدأ محذوف تقديره مقرونان كقولهم كل امرىء وضيعته . وبالله التوفيق .

١٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي ٱلَّذِينَ ٱعْتَزَلُوا ٱلْقِتَالَ مَعَهُ : خَذَلُوا ٱلْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا ٱلْبَاطِلَ .

منهم عبدالله بن عمر وجماعة من القراء وغيرهم كأبي موسى الأشعري والأحنف بن قيس في حرب صفين . ويشبه أن يكون هذا إشارة إلى توسط درجتهم في الضلالة ويجري مجرى العذر لهم . فكأنه قال : إنهم وإن خذلوا الحق معنا لم ينصروا الباطل مع خصومنا .

١٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : مَنْ جَرىَ فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ .

وهو تنفير عن تطويل الأمل بذكر قطعه بالأجل ، واستعار لفظ العنان له ملاحظة لشبهه بالفرس ، ولفظ الجري للاندفاع في الأمل بحسب تطويله ولفظ العثار للامتناع عن ذلك الجري بعارض الأجل وقواطعه كعثار العادي بما يعرض له من حجر ونحوه .

١٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : أَقِيلُوا ذَوِي ٱلْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إلاَّ وَيَدُ ٱللَّهِ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ .

رغّب في إقالة ذوي المروّات عثراتهم التي يتفق وقوعها نادراً كبيعهم لما يلحقهم الندم عليه ونحوه بذكر كون يد الله بأيديهم يرفعهم ، واستعار لفظ العثرات لما يقع منهم خطأ ومن غير تثبّت . ولفظ اليد لعناية الله وقدرته . وكنّى عن تعلقاته وتدارك حاله بكون يده بيده يرفعه وذلك أن المروة فضيلة عظيمة يستجلب همم الخلق وقلوبهم ومساعداتهم، بحسب ذلك يكون استعداد العاثر من ذوي المروّات لعناية الله وقيامه من عثرته .

١٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : قُرِنَتِ ٱلْهَيْبَةُ بِٱلْخَيْبَةِ ، وَٱلْحَيَاءُ بِٱلْحِرْمَانِ ، وَٱلْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ، فَٱنْتَهِزُوا فُرَصَ ٱلْخَيْرِ .

أراد بالهيبة الخوف من المقابل . وظاهر أن ذلك يستلزم عدم قضاء الحاجة منه والظفر بالمطلوب لعدم الانبساط في القول معه وهو معنى اقترانها بالخيبة ، وكذلك الحياء بالحرمان لاستلزام الحياء ترك الطلب والتعرض له . وهو تنفير عن الهيبة والحياء المذمومين .ثم أمر بانتهاز فرص الخير : أي المبادرة إلى فعله عند حضور وقت إمكانه ، ورغب في ذلك بضمير صغراه قوله : الفرصة تمر مرّ السحاب : أي أنها سريعة الزوال ، وتقدير الكبرى :

وكلما كان كذلك فواجب أن يبادر إليه ويغتنم وقت إمكانه.

١٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ ٱلإِبِلِ وَإِنْ طَالَ ٱلسُّرَى .

قال الرضي : وهذا من لطيف الكلام وفصيحه ، ومعناه إنّا إن لم نعط حقنا كنا أذلاء ، وذلك أن الرديف يركب عجز البعير كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما .

وقال الأزهري في تهذيب اللغة : قال القتيبي : أعجاز الإبل : مآخيرها ـ جمع عجز ـ وهو مركب شاق . قال : ومعناه إن منعنا حقنا ركبنا مركب المشقة وصبرنا عليه وإن طال ، ولم نجز منه محلّين بحقنا . ثم قال الأزهري : لم يرد علي عليه السلام ركوب المشقة ولكنه ضرب أعجاز الإبل مثلاً لتأخره عن غيره في حقه من الإمامة وتقدّم غيره عليه فأراد إن منعنا حقنا منها وأُخّرنا عن ذلك صبرنا على الأثرة فيها وإن طالت الأيام . والسرى : سير الليل . وأقول : الذي ذكره الثلاثة احتمالات حسنة وهي متقاربة لأن ركوب الأعجاز مظنة الذلّة والمشقة وتأخر المنزلة . ويحتمل أن تكون كلها مرادة له . ولم يفرق الأزهري بين المثل والكناية فإن ركوب الأعجاز كناية عن الأمور المذكورة ، وكذلك طول السرى كناية عن طول المشقة لأنه مظنّتها وملزومها ، ويحتمل أن يكون كناية بالمثل .

١٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ .

أي من لم يكن له عمل صالح حسن فتأخّر بسبب ذلك عن معالى الرتب الدنيوية والأخروية لم يسرع به حسبه وشرف بيته إليها إن كان ذا حسب . وكنّى ببطءِ عمله عن عدم وصوله إلى الخير لعدم ما يوصله إليه من زكى العمل وجعل الإسراع في مقابلة البطء .

١٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مِنْ كَفَّارَاتِ ٱلذُّنُوبِ ٱلْعِظَامِ : إِغَاثَةُ ٱلْمَلْهُوفِ ، وَٱلتَّنْفِيسُ عَنِ ٱلْمَكْرُوبِ .

الملهوف : المظلوم يستغيث : والتنفيس : التفريج من الغم الذي

يأخذ بنفسه . وجعلها من كفارات الذنوب العظام لكونها فضيلة عظيمة تستلزم فضائل كالرحمة والعدل والسخاء والمروة وغيرها . وظاهر أن حصول هذه الملكات في النفس مما يستلزم ستر الذنوب ومحوها ومنافاة ملكات السوء التي يعبّر عنها بالسيئات والذنوب كما سبقت الإشارة اليه .

٢٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : يَا ٱبْنَ آدَمَ ! إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ .

نفّر الإنسان عن معصية الله حال متابعة نعمه عليه بتحذيره منه ، وذلك أنه لما كان دوام شكرها يعدّ للمزيد منها كان كفرانها ومقابلتها بالمعصية المستلزم لعدم الشكر مستلزماً لعدم الاستعداد للمزيد ومعداً للنقصان ونزول النقمة كما قال تعالى : ﴿ **ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** ﴾(١) وهو محل الحذر منه . والواو في قوله : وأنت . للحال .

٢١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَا أَضْمَرَ أَحَدُ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ .

الفلتة : الأمر يقع من غير تروٍّ . وصفحة الوجه : بشرته . ولما كان الإنسان إنما يضمر في نفسه أمراً مهماً عنده من عداوة أو بغض أو محبة إلى غير ذلك ، وكان الوجود اللساني عبارة عن الوجود النفساني ومظهراً له لم يتمكن المرء أن يحفظ ما أضمره يالكلية لأن مراعاة ذلك الحفظ إنما يكون للعقل بحسب ما يراه من المصلحة ، والعقل قد يشتغل بالتصرف في مهمّ آخر فيغفل عن ضبط ما أضمره فينفلت الخيال به من سرّ العقل فيبعثه في فلتات القول عن غير تروٍ ، وكذلك لما كانت التصورات والأمور النفسانية مبادىء للآثار الظاهرة كصفرة الوجل وحمرة الخجل لم ينفك بعض الأمور المضمرة عن ظهور ما يعرف به من الآثار في صفحات الوجه والعين . وشاهد ذلك التجربة .

٢٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِمْشِ بِدَائِكَ مَا مَشَى بِكَ .

---

(١) ١٤ ـ ٧ .

وفي رواية : ما حملك : أي ما دام المرض لا يبهظك ويعجزك فلا تنفعل عنه ولا تتعاجز به ؛ بل كن في صورة الأصحاء . وقيل : فيه إيماء إلى ما أمر به من كتمان المرض كماقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : من كنوز البر كتمان الصدقة والمرض والمصيبة . وربما كانت فائدة ذلك كونه نوع تجلد ، والتجلّد معاونة للطبيعة وتقوية لها على المرض ، ومن المرض ما يتحلل بالحركات البدنية . واستعاد للمرض وصف الماشي باعتبار أنه لا يلزمه الارض والفراش فهو كالحامل له والماشي به .

٢٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَفْضَلُ ٱلزُّهْدِ إِخْفَاءُ ٱلزُّهْدِ .

الزهد منه ظاهر ومنه خفي وهو الزهد الحقيقي المنتفع به كما قال صلى الله عليه وآله وسلم إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم. فلذلك كان أفضل. والمراد الزهد الخفي. فأضاف الصفة إلى الموصوف وقدمها لأنهاأهم ولأن الزهد الظاهر يكاد لا ينفك عن رياء وسمعة فكان مفضولاً .

٢٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارٍ وَٱلْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ فَمَا أَسْرَعَ ٱلْمُلْتَقَى .

وهو جذب بإقبال الموت ولقائه إلى الاستعداد له ولما بعده بالأعمال الصالحة ، والإدبار ، والإقبال أمران اعتباريّان لأن الإنسان باعتبار أجزاء مدته وقتاً فوقتاً في إدبار ، وبحسب ذلك يكون اعتبار فنائه في إقباله إليه ، وبحسبهما يكون سرعة التقائهما . والملتقى مصدر .

٢٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ٱلْحَذَرَ ٱلْحَذَرَ ، فَوَٱللَّهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

حذّر من سخط الله بسبب معصيته لطول إمهاله وستره إلى الغاية المذكورة . وقوله : فوالله . إلى آخره صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من ستر على عبده إلى الغاية المذكورة فواجب أن يحذر غضبه ويجتنب معصيته ويرجع إلى طاعته التي هي الغاية من عنايته بستره .

٢٦ ـ **وَسُئِلَ عَلَيهِ السَّلاَمُ عَنِ ٱلْإِيمَانِ فَقَالَ** : ٱلْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى ٱلصَّبْرِ ، وَٱلْيَقِينِ ، وَٱلْعَدْلِ ، وَٱلْجِهَادِ .

وَالصَّبْرُ مِنهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى ٱلشَّوْقِ ، وَٱلشَّفَقِ ، وَٱلزُّهْدِ ، وَٱلتَّرَقُّبِ ، فَمَنِ ٱشْتَاقَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ سَلاَ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ ٱلنَّارِ ٱجْتَنَبَ ٱلْمُحَرَّمَاتِ ، وَمَنْ زَهِدَ فِي ٱلدُّنْيَا ٱسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنِ ٱرْتَقَبَ ٱلْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ .

وَٱلْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى تَبْصِرَةِ ٱلْفِطْنَةِ ، وَتَأَوُّلِ ٱلْحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ ٱلْعِبْرَةِ ، وَسُنَّةِ ٱلْأَوَّلِينَ ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي ٱلْفِطْنَةِ تَبَيَّنَتْ لَهُ ٱلْحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ ٱلْحِكْمَةُ عَرَفَ ٱلْعِبْرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ ٱلْعِبْرَةَ فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي ٱلْأَوَّلِينَ .

وَٱلْعَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى غَائِصِ ٱلْفَهْمِ ، وَغَوْرِ ٱلْعِلْمِ ، وَزُهْرَةِ ٱلْحُكْمِ ، وَرَسَاخَةِ ٱلْحِلْمِ . فَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ غَوْرَ ٱلْعِلْمِ ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ ٱلْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ ٱلْحُكْمِ ، وَمَنْ حَلُمَ لَمْ يُفَرِّطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَ فِي ٱلنَّاسِ حَمِيداً .

وَٱلْجِهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى ٱلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، وَٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمَوَاطِنِ ، وَشَنَآنِ ٱلْفَاسِقِينَ ، فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ نَهَى عَنِ ٱلْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ ٱلْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي ٱلْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ ، وَمَنْ شَنِىءَ ٱلْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ ، غَضِبَ ٱللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: الكُفْرُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ : عَلَى ٱلتَّعَمُّقِ ، وَٱلتَّنَازُعِ ، وَٱلزَّيْغِ ، وَٱلشِّقَاقِ ، فَمَنْ تَعَمَّقَ لَمْ يُنِبْ إِلَى ٱلْحَقِّ وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ ٱلْحَقِّ ، وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ ٱلْحَسَنَةُ ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ ٱلسَّيِّئَةُ ، وَسَكِرَ سُكْرَ ٱلضَّلاَلَةِ ، وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ

أَمْرُهُ ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ .

وَٱلشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى ٱلتَّمَارِي ، وَٱلْهَوْلِ ، وَٱلتَّرَدُّدِ ، وَٱلْإِسْتِسْلَامِ ، فَمَنْ جَعَلَ ٱلْمِرَاءَ دَيْدَناً لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ . وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي ٱلرَّيْبِ وَطِئَتْهُ سَنَابِكُ ٱلشَّيَاطِينِ ، وَمَنِ ٱسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا .

قال الرضي : وَبَعْدَ هَذَا كَلَامٌ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الإِطَالَةِ وَالخُرُوجِ عَنِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ .

أقول : الدعائم : أعمدة البيت . والشعبة : الغصن . والتبصر : التعرف . والتأويل : التفسير . والزهرة : النور . والشنآن: البغض . والتعمق : التعسف في معنى الكلام . وأعضل : اشتد . والتماري : المماراة . والهول : الفزع . والديدن : العادة . والسنابك : جمع سنبك وهو طرف حافر الفرس .

واعلم أن هذا الفصل من لطائف الحكمة . ومداره على شرح قواعد الإيمان والإشارة إلى فروع تلك القواعد ثم إلى ثمرات تلك الفروع . ولما كان الكفر مضاداً للإيمان ، والشك مقابلاً له مقابلة العدم للملكة أشار إلى دعائم الكفر وشعب الشك لتبيّن بهما الإيمان . إذ ضدها يتبيّن الأشياء : أما الإيمان فاعلم أنه عليه السلام أراد الإيمان الكامل وذلك له أصل وله كمالات بها يتم أصله فأصله لهو التصديق بوجود الصانع تعالى وماله من صفات الكمال ونعوت الجلال وبما تنزلت به كتبه وبلغته ، وكمالاته المتممة هي الأقوال المطابقة ومكارم الأخلاق والعبادات .

ثم إن هذا الأصل ومتمماته هو كمال النفس الإنسانية لأنها ذات قوتين علمية وعملية وكمالها بكمال هاتين القوتين . فأصل الإيمان هو كمال القوة العلمية منها ومتمماته وهي مكارم الأخلاق والعبادات هي كمال القوة العملية .

إذا عرفت هذا فنقول : لما كانت أصول الفضائل الخلقية التي هي

كمال الإيمان أربعاً هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدل أشار إليها ، واستعار لها لفظ الدعائم باعتبار أن الإيمان الكامل لا يقوم في الوجود إلّا بها كدعائم البيت فعبّر عن الحكمة باليقين ، والحكمة منها علمية وهي استكمال القوة النظرية بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية بقدر الطاقة البشرية . ولا تسمى حكمة حتى يصير هذا الكمال حاصلاً لها باليقين البرهاني . ومنها عملية وهي استكمال النفس بملكة العلم بوجوه الفضائل النفسانية الخلقية وكيفية اكتسابها ، ووجوه الرذائل النفسانية وكيفية الاحتراز عنها واجتنابها ، وظاهر أن العلم الذي صار ملكة هو اليقين . وعبّر عن العفة بالصبر . والعفة هي الإمساك عن الشره في فنون الشهوات المحسوسة وعدم الانقياد للشهوة وقهرها وتصريفها بحسب الرأي الصحيح ومقتضى الحكمة المذكورة ، وإنما عبّر عنها بالصبر لأنها لازم من لوازمه . إذ رسمه أنه ضبط النفس وقهرها عن الانقياد لقبائح اللذات . وقيل : هو ضبط النفس عن أن يقهرها ألم مكروه ينزل بها ويلزم في العقل احتماله أو يغلبها حبّ مشتهى يتوق الإنسان إليه ويلزم في حكم العقل اجتنابه حتى لا يتناوله على غير وجهه . وظاهر أن ذلك يلازم العفة ، وكذلك عبر عن الشجاعة بالجهاد لاستلزامه إيّاها إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه . والشجاعة هي ملكة الإقدام الواجب على الأمور التي يحتاج الإنسان أن يعرض نفسه لاحتمال المكروه والآلام الواصلة إليه منها ، وأما العدل فهو ملكة فاضلة تنشأ عن الفضائل الثلاث المشهورة وتلزمها .

وقد علمت فيما سلف أن كل واحدة من هذه الفضائل محتوشة برذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط منها ومقابلة برذيلة هي ضدها . وأما شعب هذه الدعائم : فاعلم أنه جعل لكل دعامة منها أربع شعب من الفضائل يتشعب منها ويتفرع عليها فهي كالفروع لها والأغصان : أما شعب الصبر الذي هو عبارة عن ملكة العفة :

فأحدها : الشوق إلى الجنة ومحبة الخيرات الباقية .

الثاني : الشفق وهو الخوف من النار وما يؤدي إليها.

الثالث : الزهد في الدنيا وهو الإعراض بالقلب عن متاعها وطيباتها .

الرابع : ترقب الموت . وهذه الأربع فضائل منبعثة عن ملكة العفة لأن كلًّا منها يستلزمها .

وأما شعب اليقين :

فأحدها : تبصرة الفطنة وإعمالها . والفطنة هي سرعة هجوم النفس على حقائق ما تورده الحواس عليها .

الثاني : تأوّل الحكمة وهو تفسيرها واكتساب الحقائق ببراهينها واستخراج وجوه الفضائل ومكارم الأخلاق من مظانها ككلام يؤثر أو عبرة تعتبر .

الثالث : موعظة العبرة وهو أن يحصل من اعتبار العبر على اتعاظ وانزجار .

الرابع : أن يلحظ سنّة الأولين حتى يصير كأنه فيهم . وهذه الأربع هي فضائل تحت الحكمة كالفروع لها ، وبعضها كالفرع للبعض .

وأما شعب العدل .

فأحدها : غوص الفهم : أي الفهم الغائص فأضاف الصفة إلى الموصوف وقدمها للاهتمام بها . ورسم هذه الفضيلة أنها قوة إدراك المعنى المشار إليه بلفظ أو كتابة أو إشارة ونحوها .

الثاني : غور العلم وأقصاه وهو العلم بالشيء كما هو بحقيقته وكنهه .

الثالث : نور الحكم : أي تكون الأحكام الصادرة عنه نيّرة واضحة لا لبس فيها ولا شبهة .

الرابع : ملكة الحلم . وعبّر عنها بالرسوخ لأن شأن الملكة ذلك . والحلم هو الإمساك عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يجنى عليه جناية يصل مكروهها إليه . واعلم أن فضيلتي جودة الفهم وغور العلم وإن كانتا داخلتين تحت الحكمة وكذلك فضيلة الحلم داخلة تحت ملكة الشجاعة

إلاّ أن العدل لما كان فضيلة موجودة في الأصول الثلاثة كانت في الحقيقة هي وفروعها شعباً للعدل . بيانه : أن الفضائل كلها ملكات متوسطة بين طرفي إفراط وتفريط وتوسطها ذلك هو معنى كونها عدلاً . فهي بأسرها شعب له وجزئيات تحته .

وأما شعب الشجاعة المعبّر عنها بالجهاد :

فأحدها : الأمر بالمعروف .

والثاني : النهي عن المنكر .

والثالث : الصدق في المواطن المكروهة . ووجود الشجاعة في هذه الشعب. الثلاث ظاهر .

الرابع : شنآن الفاسقين ، وظاهر أن بعضهم مستلزم لعداوتهم في الله وثوران القوة الغضبية في سبيله لجهادهم وهو مستلزم للشجاعة .

وأما ثمرات هذه الفضائل فأشار إليها للترغيب في مثمراتها :

فثمرات شعب العفة أربع :

أحدها : ثمرة الشوق إلى الجنة وهو السلو عن الشهوات وظاهر كونه ثمرة له . إذ السالك إلى الله ما لم يشتق إلى ما وعد المتقون لم يكن له صارف عن الشهوات الحاضرة مع توفر الدواعي إليها فلم يسل عنها .

الثانية : ثمرة الخوف من النار وهو اجتناب المحرمات .

الثالثة : ثمرة الزهد وهي الاستهانة بالمصيبات لأن غالبها وعامها إنما يلحق بسبب فقد محبوب من الأمور الدنيوية فمن أعرض عنها بقلبه كانت المصيبة بها هينة عنده .

الرابعة : ثمرة ترقب الموت وهي المسارعة في الخيرات والعمل له ولما بعده .

وأما ثمرات اليقين فإن بعض شعبه ثمرة لبعض فإن تبيّن الحكمة وتعلّمها ثمرات لإعمال الفطنة والفكرة ومعرفة العبر ومواقع الاعتبار

بالماضين ، والاستدلال بذلك على صانع حكيم ثمرة لتبيّن وجوه الحكمة وكيفية الاعتبار .

وأما ثمرات العدل فبعضها كذلك أيضاً . وذلك أن جودة الفهم وغوصه مستلزم للوقوف على غور العلم وغامضه ، والوقوف على غامض العلم مستلزم للوقوف على شرائع الحكم العادل والصدور عنها بين الخلق من القضاء الحق .

وأما ثمرة الحلم فعدم وقوع الحليم في طرف التفريط والتقصير عن هذه الفضيلة وهو رذيلة الجبن ، وأن يعيش في الناس محموداً بفضيلته .

وأما ثمرات الجهاد :

فأحدها : ثمرة الأمر بالمعروف وهو شد ظهور المؤمنين ومعاونتهم على إقامة الفضيلة .

الثانية : ثمرة النهي عن المنكر . وهي إرغام أنوف المنافقين وإذلالهم بالقهر عن ارتكاب المنكرات وإظهار الرذيلة .

الثالثة : ثمرة الصدق في المواطن المكروهة وهي قضاء الواجب من أمر الله تعالى في دفع أعدائه والذب عن الحريم .

والرابعة : ثمرة بغض الفاسقين والغضب لله وهي غضب الله لمن أبغضهم وإرضاءه يوم القيامة في دار كرامته .

وأما الكفر فرسمه أنه جحد الصانع أو إنكار أحد رسله عليهم ، أو ما علم مجيئهم به بالضرورة . وله أصل هو ما ذكرناه ، وكمالات ومتممات هي الرذائل الأربع التي جعلها دعائم له وهي الرذائل من الأصول الأربعة للفضائل الخلقية :

فأحدها : التعمق وهو الغلو في طلب الحق والتعسف فيه بالجهل والخروج إلى حد الإفراط وهو رذيلة الجور من فضيلة العدل ويعتمد الجهل بمظان طلب الحق . ونفر عن هذه الرذيلة بذكر ثمرتها وهي عدم الإنابة إلى الحق والرجوع إليه لكون تلك الرذيلة صارت ملكة .

والثانية : التنازع وهو رذيلة الإفراط من فضيلة العلم ويسمى جربزة يعتمد الجهل المركب ولذلك نفّر عنه بما يلزمه عند كثرته وصيرورته ملكة من دوام العمى عن الحق .

والثالثة : الزيغ ويشبه أن يكون رذيلة الإفراط من فضيلة العفة وهو الميل عن حاق الوسط منها إلى رذيلة الفجور ويعتمد الجهل ، ولذلك يلزمه قبح الحسنة وحسن السيئة وسكر الضلالة ، واستعار لفظ السكر لغفلة الجهل باعتبار ما يلزمهما من سوء التصرف وعدم وضع الأشياء مواضعها ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة المسماة غباوة .

والرابعة : الشقاق وهو رذيلة الإفراط من فضيلة الشجاعة المسماة تهوراً أو مستلزماً له . ويلزمها توعر المسالك على صاحبها وضيق مخرجه من الأمور لأن مبدأ سهولة المسالك واتساع المداخل والمخارج في الأمور هو مسالمة الناس والتجاوز عما يقع منهم والحلم عنهم واحتمال مكروههم .

وأما الشك فعبارة عن التردد في اعتقاد أحد طرفي النقيض ، ويقابل اليقين كما سبق . وذكر له أربع شعب :

أحدها : التماري وظاهر أن مبدأ المراء الشك ونفر من اتخذه ملكة وعادة بكونه لا يصبح ليله ، وذلك كناية عن عدم وضوح الحق له من ظلمة ليل الشك والجهل .

الثاني : الهول لأن الشك في الأمور يستلزم عدم العلم بما فيها من صلاح أو فساد ، وذلك يستلزم الفزع والخوف من الإقدام عليها . وثمرتها النكوص والرجوع على الأعقاب .

الثالث : التردد في الشك : أي الانتقال من حالة إلى حالة ومن شك في أمر إلى شك في آخر من غير ثقة بشيء . وذلك دأب من تعوّد التشكك في الأمور . ونفر عن ذلك بما يلزمه مما كنّى عنه بوطىء سنابك الشياطين وهو ملك الوهم والخيال لأرض قلبه حتى يكون سلطان العقل بمعزل عن الجزم بما من شأنه الجزم به .

الرابعة : الاستسلام لهلكة الدنيا والآخرة . ولزومه عن الشك لأن الشاك في الأمور الدنيوية والأخروية المتعوّد لذلك غير عامل لشيء منها ولا مهتم بأسبابها وبحسب ذلك يكون استسلامه لما يرد منها عليه . ولزوم هلاكه فيهما لاستسلامه ظاهر . وبالله التوفيق .

٢٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : فَاعِلُ ٱلْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَفَاعِلُ ٱلشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ .

وإنما كان كذلك لأن العلة أقوى من معلولها فكان أقوى في خيريته وشريته وتأثيرهما مما صدر عنه من خير أو شر .

٢٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : كُنْ سَمْحاً وَلَا تَكُنْ مُبَذِّراً ، وَكُنْ مُقَدِّراً وَلَا تَكُنْ مُقَتِّراً .

وهو أمر بفضيلة السماحة والكرم ونهى عن الكون على طرفي الإفراط والتفريط منها فطرف الإفراط هو التبذير وطرف التفريط هو التقتير .

٢٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَشْرَفُ ٱلْغِنَى تَرْكُ ٱلْمُنَى .

المنى : جمع منية بمعنى التمني . ولما كان ذلك رذيلة تلزم عن رذائل كالشره والحرص ونحوهما . وأقلها أنها اشتغال عما يعني بما لا فائدة فيه رغب في تركها بأن فسر به أشرف الغنى حتى جعله هو هو ، وظاهر أن ترك المنى يستلزم القناعة . واستلزامها للغنى النفساني وعدم الحاجة ظاهر .

٣٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ أَسْرَعَ إِلَى ٱلنَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ .

لما كان من شأن الطبع النفرة عن الأذى وبغض المؤذي وعداوته كان من شأنه في غالب الخلق تقبيح ذكره بما يمكن من قول صادق أو كاذب أو محتمل لغرض أن يوافقهم السامعون على دفعه وأذاه .

٣١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ أَطَالَ ٱلْأَمَلَ أَسَاءَ ٱلْعَمَلَ .

لما كان طول الأمل في الدنيا مستلزماً للإقبال عليها والانهماك في العمل لها والغفلة عن الآخرة كان ذلك عملاً سيئاً بالنسبة إلى الآخرة .

٣٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : وَقَدْ لَقِيَهُ عِنْدَ مَسِيرِهِ إِلَى ٱلشَّامِ دَهَاقِينُ ٱلْأَنْبَارِ فَتَرَجَّلُوا لَهُ وَٱشْتَدُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ :

فَقَال : مَا هَذَا ٱلَّذِي صَنَعْتُمُوهُ ؟ فَقَالُوا : خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا . فَقَالَ : وَٱللَّهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ ! وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ ، وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ ، وَمَا أَخْسَرَ ٱلْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا ٱلْعِقَابُ ، وَأَرْبَحَ ٱلدَّعَةَ مَعَهَا ٱلْأَمَانُ مِنَ ٱلنَّارِ .

اشتدوا : عدوا بين يديه والشقاء في الآخرة بذلك لأنه تعظيم لغير الله . وحاصله تنفيرهم عما اعتمدوه معه بضمير صغراه قوله : والله . إلى قوله : آخرتكم . ونبه على الكبرى بقوله : وما أخسر المشقة وراءها العقاب وتقديرها : وكلما كانت مشقة على النفس ويتبعها العقاب في الآخرة فهو أشد الخسارة . وجذبهم إلى ترك ذلك بما يلزمه من الدعة والراحة في الدنيا مع الأمان من النار . فكأنه قال : فينبغي أن يتركوا ذلك التكلف فإنه دعة وراحة مع الأمان من النار وكلما كان كذلك فهو أعظم الأرباح . وإنما يلزمهم الشقاء بذلك في الآخرة لكونه تعظيماً لغير الله بما لا ينبغي إلا لله .

٣٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِابْنِهِ ٱلْحَسَنِ :

يَا بُنَيَّ ، إِحْفَظْ عَنِّي أَرْبَعاً، وَأَرْبَعاً، لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ : إِنَّ أَغْنَى ٱلْغِنَى ٱلْعَقْلُ ، وَأَكْبَرُ ٱلْفَقْرِ ٱلْحُمْقُ ، وَأَوْحَشُ ٱلْوَحْشَةِ ٱلْعُجْبُ ، وَأَكْرَمُ ٱلْحَسَبِ حُسْنُ الخُلُقِ .

يَا بُنَيَّ ، إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ ٱلْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ البَخِيلِ فَإِنَّهُ يَبْعُدُ عَنْكَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الفَاجِرِ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةَ الكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ عَلَيْكَ البَعِيدَ ، وَيُبْعِدُ عَلَيْكَ القَرِيبَ .

إنما قال : أربعاً وأربعاً لأن الأربع الأول من باب واحد وهو اكتساب الفضائل الخلقية النفسانية ، والأربع الثانية من باب المعاملة مع الخلق .

وقيل : لأن الأولى من باب الإثبات والثانية من باب النفي . أما الأربع الأولى :

فالأولى : العقل : وأراد المرتبة الثانية من مراتب العقل النظري المسمى عقلاً بالملكة وهو أن يحصل لنفسه من العلوم البديهية والحسية والتجربية قوة أن يتوصل بها إلى العلوم النظرية ، وغاية ذلك أن يحصل على ما بعد هذه المرتبة من مراتب العقل . ورغب فيه بكونه أغنى الغنى وذلك أن به يحصل الدنيا والآخرة فهو أعظم أسباب الغنى وفيه الغنى .

الثانية : الحمق وهو رذيلة الغباوة وطرف التفريط من العقل المذكور ونفر عنه بكونه أكبر الفقر لأنه سبب للفقر من الكمالات خصوصاً النفسانية التي بها الغنى التام فكان أكبر فقر .

الثالثة : العجب وهو رذيلة الكبر ، وتضاد التواضع . ونفر عنها بكونها أوحش الوحشة . وظاهرٍ كونها أقوى أسباب الوحشة ونفرة الأنيس لأن تواضع المتواضع لما استلزم أنس الخلق به، وشدة ميلهم إليه كان ضدّه مستلزماً لنفرتهم وتوحشهم التام منه .

الرابعة : حسن الخلق ورغب فيه بكونه أكرم الحسب لكونه أشرف الكمالات الباقية . وهذه المنفرات والمرغّبات صغريات ضمائر . وأما الأربع الثانية :

الأولى : الحذر من مصادقة الأحمق . ونفّر عنه بما يلزم حمقه من وضع المضرة موضع المنفعة عند إرادتها لعدم الفرق بينهما .

الثانية : الحذر من مصادقة البخيل . ونفر عنه بما يستلزم بخله من قعوده عن صاحبه عند الحاجة . و ـ أحوج ـ حال من الضمير في عنك .

الثالثة : الحذر من مصادقة الفاجر . والفجور رذيلة الإفراط من فضيلة العفة ونفّر عنه بما يلزم فجوره من قلة وفائه وبيعه بالتافه وهو القليل من المال .

الرابعة : الحذر من مصادقة الكذاب . ونفّر عنه بتشبيهه بالسراب .

وأشار إلى وجه الشبه بقوله : يقرّب . إلى آخره. وبيانه أن الكذاب يوهم حقيقة ما يقول فيسهل الأمور العسرة البعيدة ويجعلها قريبة المتناول ويبعد الأمور السهلة القريبة ويجعلها بعيدة المتناول بحسب أغراضه وكذبه مع أنه ليس كذلك في نفس الأمر كالسراب الذي يظن ماء وليس به . والتنفيرات الأربع المقرونة بقوله : فإنه . صغريات ضمائر تقدير كبرياتها : وكلما كان كذلك فيجب أن يحذر صحبته ويجتنب مصادقته . وبالله التوفيق.

٣٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا قُرْبَةَ بِالنَّوَافِلِ إِذَا أَضَرَّتْ بِالْفَرَائِضِ .

والإضرار بالفرائض : تنقيص بعض أركانها وشرائطها . وقد يفعل الإنسان ذلك لتعبه من الاشتغال بالنافلة أو لما يريد أن يستقبله منها . ولا قربة فيما يستلزم ترك الواجب لاستلزامه المعصية والعقاب ومتافاتهما للقربة .

٣٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَقَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ .

قَالَ الرضي : (وَهٰذَا مِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْعَجِيبَةِ ٱلشَّرِيفَةِ ، وَٱلْمُرَادُ بِهِ أَنَّ ٱلْعَاقِلَ لَا يُطْلِقُ لِسَانَهُ إِلَّا بَعْدَ مُشَاوَرَةِ ٱلرَّوِيَّةِ وَمُؤَامَرَةِ ٱلْفِكْرَةِ ، وَٱلْأَحْمَقُ تَسْبِقُ حَذَقَاتُ لِسَانِهِ وَفَلَتَاتُ كَلَامِهِ عَلَى مُرَاجَعَةِ فِكْرِهِ ، وَمُمَاخَضَةِ رَأْيِهِ. فَكَأَنَّ لِسَانَ ٱلْعَاقِلِ تَابِعٌ لِقَلْبِهِ ، وَكَأَنَّ قَلْبَ ٱلْأَحْمَقِ تَابِعٌ لِلِسَانِهِ) .

رُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ آخَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ : قَلْبُ ٱلْأَحْمَقِ فِي فِيهِ ، وَلِسَانُ ٱلْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ .

وأقول : إنه استعار لفظ الوراء في الموضعين لما يعقل من تأخر لفظ العاقل عن رويته ومن تأخر روية الأحمق وفكره فيما يقول عن بوادر مقاله من غير مراجعة لعقله . والمعنى ما أشار اليه السيد ـ رحمه الله ـ. وعلى الرواية الأخرى فأراد أن ما يتصوره الأحمق هو في فيه : أي يبرز على لسانه من غير فكر ، وأما نطق العاقل فمخزون في عقله لا يخرج إلّا عن روية صادقة . ولفظ القلب في الأول مجاز فيما يبرز من تصوراته في ألفاظه ، ولفظ اللسان مجاز في ألفاظه الذهنية .

٣٦ ـ وَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي عِلَّةٍ اعْتَلَّهَا : جَعَلَ ٱللَّهُ مَا كَانَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطّاً لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ ٱلْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيهِ ، وَلٰكِنَّهُ يَحُطُّ ٱلسَّيِّئَاتِ ، وَيَحُتُّهَا حَتَّ الأَوْرَاقِ . وَإِنَّمَا ٱلْأَجْرُ فِي ٱلْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَٱلْعَمَلِ بِالأَيْدِي وَٱلْأَقْدَامِ ، وَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ ٱلنِّيَّةِ وَٱلسَّرِيرَةِ ٱلصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْجَنَّةَ .

قال الرضي : وأقول صدق عليه السلام ، إن المرض لا أجر فيه ؛ لأنه من قبيل ما يستحق عليه العوض لأن العوض يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك ، والأجر والثواب يستحقان على ما كان في مقابلة فعل العبد ، فبينهما فرق قد بيّنه عليه السلام كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب .

وأقول : دعا عليه السلام لصاحبه بما هو ممكن وهو حط السيئات بسبب المرض ولم يدع له بالأجر عليه معللاً ذلك بقوله : فإن المرض لا أجر فيه . والسر فيه أن الأجر والثواب إنما يستحق بالأفعال المعدة له كما أشار إليه بقوله : وإنما الأجر في القول . إلى قوله : الأقدام : وكنّى بالأقدام عن القيام بالعبادة وكذلك ما يكون كالفعل من عدمات الملكات كالصوم ونحوه على ما بيّناه قبل فأما المرض فليس هو بفعل العبد ولا عدم فعل من شأنه أن يفعله فأما حطّه للسيئات فباعتبار أمرين .

أحدهما : أن المريض تنكسر شهوته وغضبه اللذين هما مبدأ للذنوب والمعاصي ومادتها .

والثاني : أن من شأن المرض أن يرجع الإنسان فيه إلى ربه بالتوبة والندم على المعصية والعزم على ترك مثلها كما قال تعالى : ﴿ **وإذا مسّ الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قائماً أو قاعداً** ﴾[1] الآية. فما كان من السيئات حالات غير متمكنة من جوهر النفس فإنه يسرع زوالها منها وما صار ملكة فربما يزول على طول المرض ودوام الإنابة إلى الله تعالى ، واستعار لزوالها

(١) ١٥ ـ ١٢ .

لفظ الحط وشبهه في قوة الزوال والمفارقة بحط الأوراق . ثم نبه عليه السلام بقوله : وإن الله إلى آخره على أن العبد إذا احتسب المشقة في مرضه لله بصدق نيته مع صلاح سريرته فقد يكون ذلك معداً لإفاضة الأجر والثواب عليه ودخوله الجنة . ويدخل ذلك في أعدام الملكات المقرونة بنية القربة إلى الله . وكلام السيد ـ رحمه الله ـ مقتضى مذهب المعتزلة .

٣٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي ذِكْرِ خَبَّابِ بن الأرت : يَرْحَمُ ٱللَّهُ (خَبَّابَ بْنَ ٱلأَرَتِّ) ؛ فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِباً ، وَهَاجَرَ طَائِعاً ، وَعَاشَ مُجَاهِداً. طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ ٱلْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَقَنِعَ بِٱلْكَفَافِ ، وَرَضِيَ عَنِ ٱللَّهِ .

خباب بالخاء المعجمة والباء المشددة كان من المهاجرين ومن أصحابه عليه السلام ومات بعد انصرافه من صفين بالكوفة وهو أول من قبره عليه السلام .

وقد مدحه بأوصاف ثلاثة من أوصاف الصالحين :

أحدها : إسلامه عن رغبة وهو الإسلام المنتفع به .

الثاني : مهاجرته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طائعاً وهي الهجرة التامة عن رغبة في الله ورسوله .

الثالث : كونه عاش مجاهداً أما مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فللكفّار ، وأما في وقته عليه السلام فللبغاة والخوارج والناكثين .

وقوله : طوبى . إلى آخره.

في معرض مدح خبّاب يشعر بأن خبّاباً كان كذلك . وطوبى فعلى من الطيب . قيل في التفسير : هي شجرة في الجنة . رغب بها في ذكر المعاد والحساب المستلزم للعمل لهما ولفضيلة القناعة والرضا عن الله في قضائه وقدره . والقناعة فضيلة تحت العفة ، والرضا فضيلة تحت العدل .

٣٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ ٱلْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هٰذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي ، وَلَوْ صَبَبْتُ ٱلدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى ٱلْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي ، وَذٰلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَٱنْقَضَى عَلَى لِسَانِ ٱلنَّبِيِّ ٱلأُمِّيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ ! لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » .

الخيشوم : أصل الأنف . والجمّات : جمع جمة وهو مجتمع الماء من

الأرض . ولما كان الإيمان الحق يوجب الاتحاد وصدق المحبة في الله بين المؤمنين لا جرم لم يجتمع معها البغض . ولما كان النفاق منافياً للإيمان كان منافياً لما يلزمه من المحبة في الله فلا يجتمع معه ولو ببذل أجزل مال للمنافق . واستعار لفظ الجمّات لمجامع أموال الدنيا ملاحظة لمشابهته المعقولة ، نعم قد يحصل بسبب ذلك محبة عرضية فانية بفناء مادتها من بذل المال ونحوه وليس الكلام في ذلك النوع من المحبة . وذلك سر قوله صلى الله عليه وآله وسلم : لا يبغضك . إلى آخره . وأحال عليه السلام ذلك على ما قضي فانقضى أي قدّر على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

٣٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : سَيِّئَةٌ تَسُوؤُكَ خَيْرٌ عِنْدَ ٱللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

أراد بالسيئة التي تسوؤه كذنب يصدر عنه فيندم عليه ويحزن لفعله ، وبالحسنة التي تعجبه كصلاة أو صدقة يحصل بها إعجاب . فأما أن تلك السيئة خير عند الله من هذه الحسنة فلأن الندم المعاقب للسيئة ماحٍ لها والحسنة المستعقبة للعجب مع إحباطها به يكون لها أثر هو سيئة ورذيلة تسود لوح النفس فكانت السيئة أهون فكانت خيراً عند الله .

٤٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : قَدْرُ ٱلرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنَفَتِهِ ، وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ .

أشار إلى أمور أربعة وجعلها مبادىء لأمور أربعة :

أحدها : الهمة وجعلها مبدءاً لقدر الرجل. وقدره هو مقداره في اعتبار الناس من رفعة رتبة وتبجيل أو خسة واحتقار وهو من لوازم علو همته أو دناءتها . فعلو الهمة هو أن لا يقتصر على بلوغ غاية من الأمور التي يزداد بها فضيلة وشرفاً حتى يسمو إلى ما وراءها مما هو أعظم قدراً وأجل خطراً ويلزم ذلك نبله وتعظيمه ومدحه ، وصغرها أن يقتصر على محقّرات الأمور وخسائسها ويقصر عن علياتها وبحسب ذلك يكون صغر خطره وقلة قدره .

الثانية : جعل مبدأ الصدق المروة . والمروة فضيلة يتعاطى معها

الإنسان الأفعال الجميلة واجتناب ما يعود إليه بالنقص وإن كان مباحاً فلذلك يلزمه الصدق في مقاله، وبقدر قوة هذه الفضيلة وضعفها يكون قوة لازمها وضعفها .

الثالثة : جعل الأنفة مبدءاً للشجاعة . والأنفة حمية الأنف وثوران الغضب لما يتخيّل من مكروه يعرض استنكاراً له واستنكافاً من وقوعه . وظاهر كونه مبدءاً للشجاعة والإقدام على الأمور وبحسبها تكون قوة الإقدام وضعفه .

الرابعة : جعل الغيرة مبدءاً للعفة . والغيرة نفرة طبيعية تكون من الإنسان عن تخيل مشاركة الغير في أمر محبوب له أو معتقد لوجوب حفظه . وبحسب شدة ذلك الاعتقاد والتخيّل وضعفهما وتصور وقوع مثل ذلك الفعل في نفسه أو حريمه ومثلاً يكون امتناعه عن مشاركة الغير وقوفه عن اتباع الشهوة في مشاركة الناس في الأمور المحبوبة لهم كزوجة ونحوها . وهو معنى العفة .

٤١ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلظَّفَرُ بِالْحَزْمِ ، وَٱلْحَزْمُ بِإِجَالَةِ الرَّأْيِ ، وَٱلرَّأْيُ بِتَحْصِينِ ٱلأَسْرَارِ .

الحزم أن يقدم العمل في الحوادث الواقعة في باب الإمكان قبل وقوعها بما هو أقرب إلى السلامة وأبعد من الغرور . وإجالة الرأي : إعماله . وتحصين الأسرار : كتمانها وحفظها . وأشار إلى المبدأ القريب للظفر وهو الحزم وإلى البعيد منها وهو كتمان السر وإلى الوسط منها وهو إجالة الرأي . فأما سببيّة كتمان السر للرأي الصحيح فلأن إظهار السر فيما يرى من الرأي في الحرب وغيرها يستلزم ظهور العدو على ذلك والعمل فيما يعارضه ويفسده وذلك من فاسد الرأي ، وأما سببيّة إجالة الرأي في اختيار المصلحة للحزم فلأنه لولاه لجاز أن يكون العمل المتقدم في الحوادث المستقبلة غير موافق فلا يحصل الحزم ، وأما أن الحزم سبب للظفر فظاهر .

٤٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِحْذَرُوا صَوْلَةَ ٱلْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَٱللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ .

أراد بالكريم شريف النفس ذا الهمة العلية . وجوعه كناية عن شدة حاجته وذلك مستلزم لثوران حميّته وغضبه عند عدم التفات الناس إليه ، وحمل نفسه على المبالغة في طلب أمر كبير يصول عليهم به ويتسلط بواسطته على قهرهم ومكافأتهم كالولاية عليهم ونحوها فلذلك أوجب الحذر منه والاحتراز من صولته بالالتفات إليه في حاجته وأوقات ضرورته بما يدفعها . وشبع اللئيم كناية عن غناه وعدم حاجته . وذلك يستلزم استمراره على مقتضى طباعه من اللؤم . وشبعه مؤكد لذلك ، وأما جوعه فربما كان سبباً لتغيّر أخلاقه وتجويدها لغرض . واستمرار ذي الشبع من اللئام على مقتضى طباعه من اللؤم مستلزم لأذى من كان تحت يده ومن يحتاج إليه من الناس فمن الواجب إذن أن يحذر صولته ويحسم أسباب شبعه عند التمكن من ذلك .

٤٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : قُلُوبُ ٱلرِّجَالِ وَحْشِيَّةٌ فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

جعل عليه السلام الوحشة هنا أصليّة وذلك باعتبار كون الألفة مكتسبة . والوحشة عدم الأُلفة عما من شأنه أن يألف . والمعنى ظاهر .

٤٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ .

سعادة الجد عبارة عن حسن البخت وتوافق أسباب لمصلحة في حق الإنسان ومن مصالحه ستر العيوب والرذائل وبحسب دوام ذلك يدوم سترهما

٤٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى ٱلْعُقُوبَةِ .

لما كانت فضيلة العفو إنما تطلق في العرف على من قدر على العقوبة ولم يعاقب وكان العفو والقدرة مقولين بالأشد والأضعف لا جرم كانت أو لويّة العفو تابعة لأولوية القدرة وأشديتها : أي من كان أشد قدرة على العقوبة وعدمها كان أولى بأن يسمى عفواً .

٤٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلسَّخَاءُ مَا كَانَ ٱبْتِدَاءً ، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ

مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ .

التـذمّم : الاستنكاف . والسخـاء : عبـارة عن ملكـة بـذل المـال لمن يستحقه بقدر ما ينبغي ابتداءاً عن طيب نفس وحسن المواساة لـذوي الحاجـة منـه ، وبهذا الـرسم يتبيّن أن ما كـان من البذل عن مسـألـة فخـارج عن رسم السخاء . وذكر له سببين :

أحدهما : الحياء من السائل أو من الناس فيتكلف البذل لذلك .

الثاني : الاستنكاف ممـا يصدر من السـائل من لجـاج أو مسبة بـالبخل ونحوه .

٤٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ :

أربع كلمات :

لَا غِنَى كَالْعَقْلِ ، وَلَا فَقْرَ كَالْجَهْـلِ ، وَلَا مِيْرَاثَ كَـالأَدَبِ ، وَلَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ .

إحديها : لا غنى كالعقل . لما سبق أنه أغنى الغنى وأنـه لا يكون غنى مثله .

الثـانية : ولا فقـر كالجهـل . وذلـك لمـا مـر أن أكبـر الفقـر الحمق ، والمراد بالجهل هنا ما يقابل العقل بالملكة وهو الحمق أو ما يلازمه .

الثالثة : ولا ميراث كالأدب . الأدب هـو التحلي بمكارم الأخـلاق وهو أفضل من كل موروث من مال وقنية .

الرابعة : ولا ظهير كالمشاورة . تنتج في غالب الأحوال الرأي الصحيح فيما يراد من الأمور ، والرأي الصحيح أنفع في التدبير من القـوة وكثرة العـدد كما قال أبو الطيب : الرأي قبل شجاعة الشجعـان . البيت . لا جرم لم يكن للمشاورة التي هي مظنة ما يساويها في المعونة على المنفعـة من الأمور التي يستظهر بها ويستعان .

٤٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : اَلصَّبْرُ صَبْـرَانِ : صَبْرٌ عَلَى مَـا تَكْرَهُ ، وَصَبْـرٌ

عَمَّا تُحِبُّ .

التعدد في الصبر هنا تعدّد وصفي لأن حقيقته في الموضعين واحدة على ما عرفت حقيقته .

٤٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْغِنَى فِي ٱلْغُرْبَةِ وَطَنٌ ، وَٱلْفَقْرُ فِي ٱلْوَطَنِ غُرْبَةٌ .

استعار لفظ الوطن للغنى في الغربة باعتبار أنه يسكن إليه ويؤنس فلا يرى أثر الغربة على الإنسان معه ، واستعار لفظ الغربة للفقر في الوطن باعتبار ضيق الخلق معهما وتعسّر الأمور فيهما .

٥٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْقَنَاعَةُ مَالٌ لاَ يَنْفَدُ .

القناعة هي ضبط قوة النفس عن الاشتغال بما يخرج عن مقدار الكفاية ومبلغ الحاجة من المعاش والأقوات وعدم ما يشاهد من ذلك عند الغير ، واستعار لها لفظ المال بوصف عدم النفاد باعتبار دوام الغنى معها كالمال الموصوف .

٥١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْمَالُ مَادَّةُ ٱلشَّهَوَاتِ .

أي منه يكون استمدادها وزيادتها ، والمادة هي الزيادة . وفي الكلمة تنفير عن الاستكثار من المال لما يلزمه من إمداد الشهوة وتقويتها على معصية العقل .

٥٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ حَذَّرَكَ كَمَنْ بَشَّرَكَ .

أراد من حذرك من الأمر كمن بشرك بالنجاة منه ، ووجه الشبه ظاهر . وهو ترغيب في الإقبال على المحذر واستماع تحذيره لغرض النجاة بتشبيهه بالمبشر .

٥٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَللِّسَانُ سَبُعٌ إِنْ خُلِّيَ عَنْهُ عَقَرَ .

استعار لفظ السبع للسان باعتبار أنه إن ترك عن ضبط العقل له نطق بما فيه هلاك صاحبه كالسبع إذا لم يحفظ .

٥٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوَةُ ٱللِّبْسَةِ .

اللبسة للعقرب : لسعها . واستعار للمرأة لفظ العقرب بالوصف المذكور باعتبار أن من شأنها الأذى لكن أذاها مشوب بما فيها من اللذة بها فلا يحس به وهو كأذى الجرب المشوب بلذته في زيادة حكته .

٥٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلشَّفِيعُ جَنَاحُ ٱلطَّالِبِ .

استعار له لفظ الجناح باعتبار كونه وسيلة له إلى مطلوبه كجناح الطائر .

٥٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَهْلُ ٱلدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

ووجه الشبه قوله : يسار بهم وهم نيام . وذلك أن الدنيا لأهلها طريق هم فيها سائرون إلى الآخرة حال ما هم في غفلة عن غايتهم والعمل لها حتى يوافوها . فأشبهوا الركب الذين يسيرون وهم نيام حتى يوافوا منزلهم .

٥٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : فَقْدُ ٱلْأَحِبَّةِ غُرْبَةٌ .

استعار لفظ الغربة لفقد الأحبة باعتبار ما يلزمهما من الوحشة وعدم الأنس .

٥٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : فَوْتُ ٱلْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا .

فغير أهلها هم اللئام ومحدثو النعمة وساقطو الأصول ، وإنما كانت أهون لأن فوتها يستلزم غماً واحداً وأما طلبها إلى غير أهلها فإنها لا تحصل غالباً فيستلزم غمّ فوتها ثم ثقل الاستنكاف والندم من رفعها إليهم ثم غمّ ذلّ الحاجة إلى اللئام وله ألم عظيم كما قال : الموت أحلى من سؤال اللئام . ثم غمّ ردهم لها . وهي غموم أربعة . وكذلك إن قضيت كان فيها غمّ ثقل الاستنكاف ثم ذلّ الحاجة إليهم فكان فوتها أهون على كل حال . وهذه الكلمة تجذب إلى فضيلتي القناعة وعلو الهمة .

٥٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا تَسْتَحِ مِنْ إِعْطَاءِ ٱلْقَلِيلِ ؛ فَإِنَّ ٱلْحِرْمَانَ أَقَلُّ مِنْهُ .

أراد بقوله : أقل منه : أي أحقر في الاعتبار وذلك أن الحرمان هو عدم العطاء عما من شأنه أن يعطى وليس ذلك العدد من باب الكم ليلحقه القلة والكثرة . ونفر عن الحياء من إعطاء القليل بضمير صغراه قوله : فإن الحرمان أقل منه . وتقدير كبراه : وكلما كان الحرمان أقل منه فينبغي أن لا يستحيى منه بل من الحرمان الذي هو أقل منه .

٦٠ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ** : ٱلْعَفَافُ زِينَةُ ٱلْفَقْرِ .

العفاف : العفة . وقد علمت أنها فضيلة القوة الشهوية . والفقير إذا ضبط شهوته بزمام عقله من ميولها الطبيعية كملت نفسه بفضيلة العفة وزان فقره بفضيلته . في أعين المعتبرين وإذا أهملها وأسلس قيادها تقحّمت به في موارد القبح وقادته إلى الهلع والحرص والحسد والمنى والكدية وحصل بسببها في أقبح صورة .

٦١ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ** : إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَلَا تُبَلْ مَا كُنْتَ .

أي إذا فاتك مرادك من الأمر فلا تبل بأي حال كنت عليه في ذلك الأمر . ومفهوم هذه الكلمة النهي عن الاهتمام والأسف على ما لم يقع من الأمور المطلوبة وذلك أن الأسف على فوات المراد يستلزم غماً وألماً وهو مضرة عاجلة لا يثمر فائدة فارتكابه سفه .

٦٢ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ** : لَا تَرَى ٱلْجَاهِلَ إِلَّا مُفْرِطاً أَوْ مُفَرِّطاً .

الجهل إما بسيط وهو طرف التفريط من فضيلة ويسمى غباوة وإما مركب وهو طرف الإفراط منها وذلك أن الجاهل جهلاً مركباً قد بالغ في طلب الحق وحصل من اجتهاده على شبهة غطت عين بصيرته من إدراكه مع جزمه بأنها برهان أصاب به الحق ، وقد يسمى هذا الطرف جربزة فكان أبداً على أحد الوجهين ، وبحسب جهله يكون حاله في أفعاله وأقواله على أحد طرفي الإفراط والتفريط .

٦٣ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ** : إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ .

تمام العقل يستلزم كمال قوته على ضبط القوى البدنية وتصريفها

بمقتضى الآراء المحمودة الصالحة ، ووزن ما يبرز إلى الوجود الخارجي عنها من الأقوال والأفعال بميزان الاعتبار وفي ذلك من الكلفة والشرائط ما يستلزم نقصان الكلام بخلاف ما لا يوزن ولا يعتبر من الأقوال .

٦٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلدَّهْرُ يُخْلِقُ ٱلْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ ٱلآمَالَ ، وَيُقَرِّبُ ٱلْمَنِيَّةَ ، وَيُبَاعِدُ ٱلْأُمْنِيَّةِ ، مَنْ ظَفِرَ بِهِ نَصِبَ ، وَمَنْ فَاتَهُ تَعِبَ .

إخلاقه للأبدان إعداده لضعفها وفسادها بمروره وما يلحق أجزاءه وفصوله من الحر والبرد والمتاعب المنسوبة إليه ، وتجديده للآمال بحسب الغرور الحاصل بالبقاء والصحة فيه وأكثر ما يعرض ذلك للمشايخ فإن طول أعمارهم وتجاربهم لما يعرض فيه من الحاجة والفقر يغريهم بالحرص على الجمع ومدّ الأمل فيه لتحصيل الدنيا ، وتقريبه للمنية بحسب إخلاقه للأبدان ، وتبعيده للأمنية بحسب تقريبه للمنية ، ومن ظفر به : أي بمواتاته وإعداده لما يراد فيه من متاع الدنيا نصب بها وشقي بضبطها وحفظها ، ومن فاته ذلك منه تعب في تحصيلها وشقي بعدمها . وراعى عليه السلام في القرينتين الأوليين السجع المتوازن وفي المتوسطتين السجع المطرف ، وفي الأخيرتين السجع المتوازي .

٦٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا ، أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ مِنْ مُعَلِّمِ ٱلنَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ .

أشار إلى آداب أئمة العلم ومكارم الأخلاق :

فالأول : وجب على الإمام البدأة بتعليم نفسه : أي برياضتها بما يعلم من الآداب ليكون أفعاله وأقواله موافقة لعلمه وذلك لأن الناس أقرب إلى الاقتداء بما يشاهد من الأفعال والأحوال منهم بالأقوال فقط خصوصاً مع مشاهدتهم لمخالفتها بالأفعال فإن ذلك يكون سبباً لسوء الاعتقاد في الأقوال المخالفة للفعل والجرأة على مخالفة ما اشتهر منها ، وإن كان ظاهر الصدق : وإلى مثل ذلك أشار القائل :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله　　　عار عليك إذا فعلت عظيم

الثاني : أرشده إلى البدأة في التعليم بالسيرة وحميدة الأفعال لما بيّنا أن الطباع لمشاهدة الأفعال أطوع وأسرع انفعالاً منها للأقوال ثم يطابقها بعد ذلك بالأقوال . ثم رغب في تأديب النفس بكون مؤدب نفسه أحق بالتعظيم والإجلال من مؤدب غيره وذلك لكمال مؤدب نفسه بالفضيلة وكون تأديب الغير فرعاً على تأديب النفس والأصل أشرف وأحق بالتعظيم من الفرع وهو في قوة صغرى ضمير تقدير كبراه : وكل من كان بالإجلال أحق وجب عليه أن يبدأ بما لأجله كان أحق بالتعظيم من غيره .

٦٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : نَفَسُ ٱلْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ .

استعار للنفس لفظ الخطا باعتبار أنه على التعاقب والتقضي فهو مقرب من الغاية التي هي الأجل كالخطا المتعاقبة الموصلة للإنسان إلى غايته من طريقه .

٦٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

والكليّتان من المشهورات الخطابية في معرض الموعظة ، والأولى إشارة إلى أنفاس العباد وحركاتهم . والثانية تخويف بما يتوقع من الموت وتوابعه .

٦٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ ٱلْأُمُورَ إِذَا ٱشْتَبَهَتْ ٱعْتُبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا .

أي إذا التبست في مبادئها معرفة وجه تحصيلها وتعسر الدخول فيها قيس على ذلك آخرها واستدل على أنه كذلك في العسر فيجب التوقف عنها وعدم التعسف فيها .

٦٩ ـ وَمِنْ خَبَرِ ضِرَارِ بْنِ حَمْزَةَ الضَّبَائي عِنْدَ دُخُولِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، وَمَسْأَلَتِهِ لَهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : فَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ وَقَدْ أَرْخَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ ، وَهُوَ قَائِمٌ فِي مِحْرَابِه ، قَابِضٌ عَلَى لِحْيَتِهِ ، يَتَمَلْمَلُ تَمَلْمُلَ السَّلِيمِ ، وَيَبْكِي بُكَاءَ الحَزِينِ ، وَيَقُولُ :

يَا دُنْيَا يَـا دُنْيَا ، إِلَيْـكِ عَنِّي ، أَبِي تَعَرَّضْتِ ؟ أَمْ إِلَيَّ تَشَوَّقْتِ ؟ لاَ حَانَ حَيْنُكِ هَيْهَاتَ! غُرِّي غَيْرِي ، لاَ حَـاجَةَ لِي فِيـكِ ، قَدْ طَلَّقْتُـكِ ثَلاَثـاً لاَ رَجْعَةَ فِيهَـا ، فَعَيْشُـكِ قَصِيـرٌ ، وَخَطَرُكِ يَسِيـرٌ ، وَأَمَلُكِ حَقِيـرٌ ، آهِ مِنْ قِلَّةِ آلـزَّادِ ، وَطُولِ آلطَّرِيقِ ، وَبُعْدِ آلسَّفَرِ ، وَعَظِيمِ آلْمَوْرِدِ .

أقول : كان هذا الرجل من أصحابه عليه السلام فدخل على معاوية بعد مـوته فقـال : صف لي علياً فقـال : أو تعفيني عن ذلـك . فقـال : والله لتفعلنّ . فتكلّم بهذا الفصل . فبكى معـاوية حتى اخضلّت لحيتـه . والضباء بـطن من فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . والسدول : جمع سدل وهو ما أُسيل على الهـودج . والتملمـل : التقلقـل من الألم والهم . والسليم : الملســوع . والوله : أشد الحزن . وقد نظر عليه السلام إلى الدنيا بصورة امرأة تزينت وتعرضت لوصوله إليها مع كونها مكروهة إليه . فخاطبها بهـذا الخطاب . وإليـك : من أسمــاء الأفعــال : أي تنحي . وعني متعلق بمــا فيــه من معنى الـفعــل . واستفهامه عن تعرضها به وتشوقها إليه استفهام استنكار لـذلك منهـا واستحقار لها واستبعاد لموافقته إياها على ما تريد ولا حان حينك : أي لا قرب وقتك : أي وقت انخداعي لك وغـرورك لي . وقولـه : هيهات : أي بعـد ما تـطلبين مني . ثم أمرها بغرور غيره وهو كناية عن أنه لا طمع لها في ذلـك منه لا أنـه أراد منها غرور غيره وهذا كمن يقول لمن يخدعـه وقد اطلع على ذلـك منه : اخدع غيري : أي أن خداعك لا يـدخل عليّ . ثم خـاطبها خـطاب الزوجـة المكرهة منافراً لها فأخبرها بعدم حاجته إليها .

ثم أنشأ طلاقها ثلاثاً لتحصل البينونة بها مؤكداً لذلك بقـوله : لا رجعـة فيها . وهو كناية عن غاية كراهيتها ، وأكد طلاقها لميله عليه السلام إلى ضرتها التي هي مظنة الحسن والبهاء . ثم أشار إلى المعائب التي لأجلها كـرهها وطلّقهـا وهي قصـر العيش : أي مدة الحيـاة فيهـا ، ويسيـر الخـطر : أي قلة قـدرهـا ومحلّها في نظره ، ثم حقارة ما يؤمل منها . ثم تأوّه من أمور :

أحـدها : قلّة الـزاد في السفر إلى الله تعـالى ، وقد علمت أنـه التقوى

والأعمال الصالحة . وهكذا شأن العارفين في استحقار أعمالهم .

الثاني : طول الطريق إلى الله ولا شيء في الاعتبار أطول مما لا يتناهى .

الثالث : بعد السفر ، وذلك لبعد غايته وعدم تناهيها .

الرابع : عظم المورد وأول منازله الموت ، ثم البرزخ ، ثم القيامة الكبرى . والله المستعان . وروي : وخشونة المضجع وهو القبر .

٧٠ - **وَمِنْ كَلَامٍ لَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ** : لِلسَّائِلِ الشَّامي لَمَّا سَأَلَهُ : « أَكَانَ مَسِيرُنَا إِلَى ٱلشَّامِ بِقَضَاءٍ مِنَ ٱللَّهِ وَقَدرٍ ؟ » بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ هٰذَا مُخْتَارُهُ :

وَيْحَكَ! لَعَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءً لَازِماً، وَقَدَراً حَاتِماً، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ، وَسَقَطَ الوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، إِنَّ الله سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْيِيراً، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيراً، وَكَلَّفَ يَسِيراً وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيراً، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيراً ، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً ، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً ، وَلَمْ يُرْسِلِ ٱلْأَنْبِيَاءَ لَعِباً ، وَلَمْ يُنْزِلِ ٱلْكُتُبَ لِلْعِبَادِ عَبَثاً ، وَلَا خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ﴿ **ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ .

أقول : روي أن السائل لما قال له عليه السلام : أخبرنا عن سيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره ؟ قال : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطأنا موطئاً ولا هبطنا وادياً إلّا بقضاء وقدر . فقال السائل : عند الله أحتسب : أي ما أرى لي من الأجر شيئاً . فقال : مه أيها الشيخ لقد أعظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين وإليها مضطرين . فقال الشيخ : وكيف والقضاء والقدر ساقانا ؟ فقال : ويحك . الفصل . إلّا أن بعد قوله : والوعيد قوله : والأمر والنهي ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن تلك مقالة عبدة الأوثان وجنود الشياطين وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب وهم قدريّة هذه الأمة ومجوسها لأن الله تعالى أمر عباده تخييراً إلى آخره . فقال الشيخ :

فما القضاء والقدر اللذين ما سرنا إلّا بهما ؟ فقال : هو الأمر من الله تعالى والحكم . ثم قرأ ﴿ **وقضى ربك ألّا تعبدوا إلّا إياه** ﴾(1) فنهض الشيخ مسروراً وهو يقول :

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته	يوم النشور من الرحمٰن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً	جزاك ربك عنا فيه إحسانا

والويح : كلمة ترحم . والحاتم : الواجب . وتقرير سؤال السائل : إن كان مسيرنا بقضاء من الله وبقدر لم يكن لنا في تعبنا ثواب وذلك أن القضاء قد يراد به في اللغة الخلق وما خلقه الله تعالى في العبد فلا اختيار له فيه وما لا اختيار له فلا ثواب له فيما فعله .

وقوله : ويحك . إلى قوله : الوعيد .

بيان لمنشأ وهمه وهو ما لعله يظنه من تفسير القضاء والقدر بمعنى العلم الملزم والإيجاد الواجب على وفقه .

وقوله : إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً .

إشارة إلى تفسير القضاء بالأمر كما صرح به في جواب السائل عن معناه مستشهداً في تفسيره بالأمر والحكم بقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك** ﴾ الآية. ومعلوم أن أمر الله ونهيه لا ينافي اختيار العبد في فعله . وهذا الجواب إقناعي بحسب فهم السائل . وربما فسّر القضاء بأنه عبارة عن إبداع الأول تعالى لجميع صور الموجودات الكلية والجزئية التي لا نهاية لها من حيث هي معقولة في العالم العقلي ثم لما كان إيجاد ما يتعلق منها بالمادة في مادته وإخراج ما فيها من قبول تلك الصور من القوة إلى الفعل واحداً بعد واحد كان القدر عبارة عن الإيجاد لتلك الأمور وتفصيلها واحداً بعد واحد كما قال تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم** ﴾(1) .

---

(1) ٢ - ١٨١ .
(1) ١٥ - ٢١ .

واعلم أنه على هذا التفسير يمكن تقرير الجواب عن السؤال المذكور أيضاً وذلك أن القضاء بالمعنى المذكور لا ينافي اختيار العبد وحسن تكليفه وثوابه وعقابه لأن معنى الاختيار هو علم العبد بأن له قوة صالحة للفعل والترك الممكنين مهيئة لهما إذا انضم إليها الميل إلى الفعل المسمى إرادة فعل أو النفرة المسمى كراهة ترك وذلك أمر لا ينافي في علم الله تعالى بما يقع أو لا يقع من الطرفين وإن حصل عنه وجوب فهو خارج عرضي .

ثم إن التكليف لم يرد على حسب ما في علم الله تعالى بل له مبدءان :

أحدهما : فاعلي وهو حكمته تعالى أعني إيجاده الموجودات على أحكم وجه وأتقنه ، وسوق ما هو ناقص منها من مبدئها إلى كمالها سوقاً ملائماً لها .

والثاني : قابلي وهو كون العبد بالصفة المذكورة من الاختيار ، ولذلك ذكر من لوازم الاختيار والتكليف المقصود من الحكمة لغايته أُموراً عشرة :

أحدها : أمره لعباده تخييراً . وتخييراً مصدر سدّ مسدّ الحال .

الثاني : نهيهم تحذيراً . وتحذيراً مفعول له .

الثالث : تكليفهم اليسير ليسهل عليهم العمل فيرغبوا فيه .

الرابع : عدم تكليفهم العسير لغرض أن يكونوا بحال الاختيار فلا يخرجون بالعسير إلى التكليف بما لا يطاق كما أشار إليه تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[1].

الخامس : من إعطائه على القليل كثيراً في العمل . وذلك من لوازم اختيارهم أيضاً .

السادس : أنه تعالى لم يعص حال كونه مغلوباً عنهم . إذ هو القاهر فوق عباده. بل لأنه خلّى بينهم وبين أفعالهم وهيّأهم لها وذلك من لوازم

---

(١) ١٧ ـ ٢٤ .

اختيارهم .

السابع : أنه لم يطع مكرهاً أي لم يكن طاعة مطيعهم له عن إكراه منه تعالى له عليها وذلك من لوازم اختيارهم .

الثامن : ولم يرسل الأنبياء لعباً بل ليكونوا مبشرين ومنذرين لمن أطاع بالجنة ولمن عصى بالنار وذلك من لوازم الاختيار .

التاسع : ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً بل ليعرفوا منه وجوه تكليفهم وأحكام أفعالهم التي أمروا أن يكونوا عليها وبيان حدود الله التي أمرهم بالوقوف عندها وكل ذلك من لوازم اختيارهم .

العاشر : ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً بل على وجوه من الحكمة . منها : أن يحصل لعباده بما وهب لهم من الفكر في آياتها اعتبار فيتنبّهوا من ذلك للطيف حكمته ويستدلوا على كمال عظمته كما قال تعالى : ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾(1) الآيات ، ونفّر عن اعتقاد غير ذلك ﴿ **بأنه ظنّ الذين كفروا** ﴾ والآية اقتباس .

٧١ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ** : خُذِ ٱلْحِكْمَةَ أَنَّى كَانَتْ ، فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ ٱلْمُنَافِقِ فَتَلَجْلَجُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ ٱلْمُؤْمِنِ .

أمر بتعلم الحكمة أين وجدت ولو من المنافقين ورغب من عساه ينفر من أخذها من بعض المواضع أن يأخذها من كل موضع وجدها بضمير صغراه قوله : فإن الحكمة . إلى آخره ، وكنّى بتلجلجها أو اختلاجها على الروايتين عن اضطرابها وعدم ثباتها في صدر المنافق وكونه ليس مظنة لها غير مستقرة فيه إلى أن تخرج إلى مظنتها وهي صدر المؤمن فيسكن إلى صواحبها من الحكم فيه . وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك فيجب على المؤمن أخذه إلى مظنته وإخراجه من غير مظنته .

---

(1) ١٧ ـ ٢٤ .

٧٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ آلسَّلاَمُ : آلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ آلْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ آلْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ آلنِّفَاقِ .

استعار الضالة للحكمة بالنسبة إلى المؤمن باعتبار أنها مطلوبه الذي يبحث عنه وينشده كما ينشد الضالة صاحبها .

٧٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ آلسَّلاَمُ : قِيمَةُ كُلِّ آمْرِىءٍ مَا يُحْسِنُهُ .

غرض هذه الكلمة الترغيب في أعلى ما يكتسب من الكمالات النفسانية والصناعات ونحوها . وقيمة المرء مقداره في اعتبار المعتبرين ومحله في نفوسهم من استحقاق تعظيم وتبجيل أو احتقار وانتقاص . وظاهر أن ذلك تابع لما يحسنه المرء ويكتسبه من الكمالات المذكورة فأعلاهم قيمة وأرفعهم منزلة في نفوس الناس أعظمهم كمالاً ، وأنقصهم درجة أخسهم فيما هو عليه من حرفة أو صناعة وذلك بحسب اعتبار عقول الناس للكمالات ولوازمها .

٧٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ آلسَّلاَمُ : أُوْصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ آلْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذٰلِكَ أَهْلاً : لاَ يَرْجُوَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلاَّ رَبَّهُ ، وَلاَ يَخَافَنَّ إِلاَّ ذَنْبَهُ ، وَلاَ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لاَ يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ « لاَ أَعْلَمُ » ، وَلاَ يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ آلشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ آلصَّبْرَ مِنَ آلْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ آلْجَسَدِ ، وَلاَ خَيْرَ فِي جَسَدٍ لاَ رَأْسَ مَعَهُ ، وَلاَ فِي إِيمَانٍ لاَ صَبْرَ مَعَهُ .

كنّى بضرب آباط الإبل عن الرحلة في طلبها وذلك أن الراكب للجمل يضرب إبطيه بكعبيه .

فإحدى الخمس : الرجاء لله دون غيره . ومن لوازم ذلك إخلاص العمل له ودوام طاعته .

الثانية : أن يخاف ذنبه دون غيره . وذلك أن أعظم مخوف هو عقاب الله ، ولما كان إنما يلحق العبد بواسطة ذنبه فبالأولى أن يجعل الخوف من الذنب دون غيره . وهو جذب إلى الهرب عنه بذكر الخوف منه .

الثالثة : عدم استحياء من لا يعلم الشيء من قول لا أعلم . فإنّ الاستحياء من ذلك القول يستلزم القول بغير علم وهو ضلال وجهل يستلزم إضلال الغير وتجهيله وفيه هلاك الآخرة . قال صلى الله عليه وآله وسلم : من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض . وقد يكون سبباً للهلاك الدنيوي أيضاً .

الرابعة : عدم استحياء من لا يعلم الشيء من تعلمه . لما في استحياء الجاهل عن التعلم من بقائه على جهله ونقصانه وهلاك آخرته .

الخامسة : فضيلة الصبر . وأمر باقتنائها لأن كل الفضائل لا يخلو عنها وأقل ذلك الصبر على اكتسابها ثم على البقاء عليها وعن الخروج عنها ولذلك شبهها من الإيمان بالرأس من الجسد في عدم قيامه بدونه . ثم أكد التشبيه والمناسبة بينهما بقوله : لا خير في جسد . إلى آخره .

وقوله : فإن الصبر . صغرى ضمير رغب به فيه ، وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك فواجب اقتناؤه وأخذه .

٨٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِرَجُلٍ أَفْرَطَ فِي ٱلثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَكَانَ لَهُ مُتَّهِماً : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ .

فقوله : أنا دون ما تقول : جواب إفراطه في المدح .

وقوله : وفوق ما في نفسك .

جواب لما في نفسه مما يتهمه به من عدم فضيلته .

٧٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : بَقِيَّةُ ٱلسَّيْفِ أَبْقَى عَدَداً وَأَكْثَرُ وَلَداً .

لا أرى ذلك إلّا للعناية الإلهية ببقاء النوع وحفظه وإقامته وبإخلاف من قتل ممن بقي . والله أعلم .

٧٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ تَرَكَ قَوْلَ « لَا أَدْرِي » أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ .

ترك هذا القول كناية عن القول بغير علم . وإصابة المقاتل كناية عن الهلاك الحاصل بسبب القول بالجهل لما فيه من الضلال والإضلال وربما يكون بسببه هلاك الدنيا والآخرة .

٧٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : رَأْيُ ٱلشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَلَدِ ٱلْغُلَامِ. وَرُوِيَ مِنْ مَشْهَدِ ٱلْغُلَامِ .

جلده قوته وقد مر أن الرأي مقدم على القوة والشجاعة لأصالة منفعته . وإنما خصّ الرأي بالشيخ والجلد بالغلام لأن كلاّ منهما مظنة ما خصه به فإن الشيخوخة مظنة الرأي الصحيح لكثرة تجارب الشيخ وممارساته للأمور والغلام مظنة القوة والجلد ، وعلى الرواية الأخرى فمشهده حضوره والمعنى ظاهر .

٧٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ ٱلْاسْتِغْفَارُ .

القنوط : اليأس من الرحمة . ولما كان الإستغفار بإخلاص مبدءاً للرحمة بشهادة القرآن الكريم كما سيأتي كان القنوط معه محل التعجب .

٨٠ ـ وَحَكَى عَنْهُ أَبُو جَعْفَرٍ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْبَاقِرُ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ :

كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمَانَانِ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ، وَقَدْ رُفِعَ أَحَدُهُمَا فَدُونَكُمُ ٱلآخَرَ فَتَمَسَّكُوا بِهِ . أَمَّا ٱلْأَمَانُ ٱلَّذِي رُفِعَ : فَهُوَ رَسُولُ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمَّا ٱلْأَمَانُ ٱلْبَاقِي فَالْإِسْتِغْفَارُ قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ .

قال الرضي : (وَهٰذَا مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْاسْتِخْرَاجِ وَلَطَائِفِ ٱلْاسْتِنْبَاطِ) .

كون وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين الأمة ورجوعه إلى الله في رحمة أمته وكون الاستغفار بإخلاص معدّين لنزول رحمة الله ورفع عذابه مما يشهد به البحث العقلي . وقد أكد ذلك بصادق الشاهد السمعي كما استخرجه عليه السلام .

٨١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱللَّهِ ، أَصْلَحَ ٱللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ ، وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ ، أَصْلَحَ ٱللَّهُ لَهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ ٱللَّهِ حَافِظٌ .

فإصلاح ما بينه وبين الله بتقواه المستلزم لرضاه ، ولما كان من تقواه إصلاح قوتي الشهوة والغضب اللذين هما مبدءا الفساد بين الناس ، ولزوم العدل فيهما كان من لوازم ذلك الإصلاح إصلاح ما بينه وبين الناس .

وكذلك من لوازم إصلاح أمر الآخرة عدم مجاذبة الناس دنياهم والكف عن الشره فيما بأيديهم منها، وذلك مع مسالمتهم ومعاملتهم بمكارم الأخلاق التي هي من إصلاح أمر الآخرة مستلزم انفعالهم وميلهم إلى من كان كذلك وإقبالهم عليه بالنفع والمعونة وكفّ الأذى وبحسب ذلك يكون صلاح دنياه ، ولأن الدنيا المطلوبة لمن أصلح أمر آخرته سهلة وهي مقدار حاجته على الاقتصاد وذلك أمر قد تكفلت العناية الإلهية بتهيئه وإصلاحه مدة الحياة الدنيا .

وأما الثالثة فلأن واعظ النفس باعث على تقوى الله ولزوم العدل في قوتي الشهوة والغضب اللذين هما مبدءا الشر المستلزم للهلاك في الدارين وذلك مستلزم لحفظ الله فيهما .

٨٢ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ** : أَلْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ .

كنّى بقوله : كل الفقيه عن تمامه : أي الفقيه الكامل في فقهه . وذلك أن من فقه وضع الكتاب العزيز علم أن غرضه الأول جذب الناس إلى الله في سبل مخصوصة بوجوه من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والبشارة والنذارة وغيرها فمن ضرورته إذن أن لا يقنط الناس من رحمة الله بآيات وعيده ونذارته ولا يؤيسهم بذلك من روحه لما يلزم اليأس من إغراء العصاة بالمعصية، واتباع الهوى الحاضر الذي لا يرجى من نهى النفس عنه ثمرة في الآخرة ولذلك قال تعالى : ﴿ **يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾(١) وقال : ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون** ﴾(٢)، وأن لا يؤمنهم من مكر

(١) ٣٩ ـ ٥٤.
(٢) ١٢ ـ ٨٧.

الله بالجزم بآيات وعده وبشارته لما يستلزم السكون إلى ذلك والاعتماد عليه من الانهماك في المعاصي واتباع الهوى ولذلك قال تعالى : ﴿ **أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون** ﴾[3] بل يكون تابعاً في وعظه وجذبه إلى الله مقاصد سنّته ووضع شريعته .

٨٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَوْضَعُ ٱلْعِلْمِ مَا وُقِفَ عَلَى ٱللِّسَانِ ، وَأَرْفَعُهُ مَا ظَهَرَ فِي ٱلْجَوَارِحِ وَٱلْأَرْكَانِ .

كنّى بالأول عن العلم الذي لا عمل معه وظهوره ووقوفه على اللسان فقط وهو أنقص درجات العلم وأراد بالثاني العلم المقرون بالعمل فإن الأعمال الصالحة لما كانت من ثمرات العلم بالله وما هو أهله كان العلم فيها ظاهراً على جوارح العبد وأركانه ظهور العلة في معلولها وذلك هو العلم المنتفع به في الآخرة .

٨٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ ٱلْأَبْدَانُ ، فَٱبْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ ٱلْحِكَمِ .

النفوس قد يقع لها انصراف عن العلم الواحد وملال للنظر فيه بسبب مشابهة بعض أجزائه لبعض فإذا اطلعت النفس على بعضه قاست ما لم تعلم منه على ما علمت ولم يكن الباقي عندها من الغريب لتلتذّ به وتدوم على النظر فيه ، ولما كان ذلك الملال والانصراف غير محمود لها أمر بطلب طرائف الحكمة لها . وأراد لطائفها وغرائبها المعجبة للنفس اللذيذة لها لتكون أبداً في اكتساب الحكمة والتذاذ في انتقالها من بعض غرائبها إلى بعض وأراد بالحكمة الحكمة العملية وأقسامها أو أعمّ منها .

٨٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ « ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ ٱلْفِتْنَةِ » لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَة ، وَلٰكِنْ مَنِ ٱسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ ٱلْفِتَنِ ، فَإِنَّ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ **وَٱعْلَمُوا إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ . وَمَعْنَى ذٰلِكَ أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ ، لِيَتَبَيَّنَ

(٣) ٧ ـ ٩٧ .

ٱلسَّاخِطَ لِرِزْقِهِ ، وَٱلرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلٰكِنْ لِتَظْهَرَ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ ٱلثَّوَابُ وَٱلْعِقَابُ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ ٱلذُّكُورَ وَيَكْرَهُ ٱلْإِنَاثَ ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ ٱلْمَالِ وَيَكْرَهُ ٱنْثِلَامَ ٱلْحَالِ .

قال الرضي : (وَهٰذَا مِنْ غَرِيبِ مَا سُمِعَ مِنْهُ فِي ٱلتَّفْسِيرِ) .

حاصل الكلام أن الفتنة أعم من الفتنة المستعاذ منها لصدقها على المال والبنين باعتبار ابتلاء الله تعالى عباده واختباره لهم بهما وهما غير مستعاذ منهما إذا راعى العبد فيهما أمر الله ولزم طاعته وأما الفتنة المستعاذ منها فهي التي يستلزم الوقوع فيها الضلال عن سبيل الله كالخروج في المال عن واجب العدل وصرفه في إمداد الشهوات واتباع الهوى .

٨٦ ـ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْخَيْرِ مَا هُوَ ؟

فَقَالَ : لَيْسَ ٱلْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ ، وَلٰكِنَّ ٱلْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ، وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وَأَنْ تُبَاهِيَ ٱلنَّاسَ بِعِبَادَةِ رَبِّكَ ؛ فَإِنْ أَحْسَنْتَ حَمِدْتَ ٱللَّهَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ ٱسْتَغْفَرْتَ ٱللَّهَ ، وَلَا خَيْرَ فِي ٱلدُّنْيَا إِلَّا لِرَجُلَيْنِ : رَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوباً فَهُوَ يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَرَجُلٌ يُسَارِعُ فِي ٱلْخَيْرَاتِ . وَلَا يَقِلُّ عَمَلٌ مَعَ ٱلتَّقْوَى ، وَكَيْفَ يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ .

أقول : الخير في العرف العامي هو كثرة المال والقينات الدنيوية ، وفي عرف السالكين إلى الله هو السعادة الأخروية وما يكون وسيلة إليها من الكمالات النفسانية . وربما فسره قوم بما هو أعم من ذلك . وقد نفى عليه السلام أن يكون الأول خيراً وذلك لفنائه ومفارقته ولما عساه أن يلحق بسببه من الشر في الآخرة وفسّره بالثاني وعد فيه كمال القوى الإنسانية فكثرة العلم كمال القوى النظرية للنفس العاقلة ، وعظم الحلم من كمال القوة العملية وهو فضيلة القوة الغضبية ، ومباهاة الناس بعبادة ربه : أي المفاخرة بها بالكثرة والإخلاص وحمد الله على توفيقه للحسنة واستغفاره للسيئة وذلك من فضائل القوة الشهوية وكمال القوة العملية . ثم حصر خير الدنيا في أمرين ، وذلك أن الإنسان إما أن يشتغل بمحو السيئات وإعدامها ويتدارك فارط ذنوبه فيعد

نفسه بذلك لاكتساب الحسنات أو يشتغل بإيجاد الحسنات فيها . ولا واسطة من الخير المكتسب بين هذين الأمرين . ثم حكم بعدم قلّة العمل المقرون بتقوى الله منبهاً بذلك على أن تدارك الذنوب بمحوها والمسارعة في الخيرات مستلزم للتقوى ، وإنما كان غير قليل لأنه مقبول عند الله والمقبول عنده مستلزم لثوابه العظيم . وذلك ترغيب في الأمرين المذكورين .

٨٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِالْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاؤُوا بِهِ ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ **إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ . **ثُمَّ قَالَ** : إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ، وَإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ ، وَإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى ٱللَّهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

ولما كان الغرض من الأنبياء عليهم السلام جذب الخلق إلى الله بطاعته فكل من كان أبلغ في الطاعة كان أشد موافقة لهم وأقرب إلى قلوبهم وأقوى نسبة إليهم . ولما لم يمكن طاعتهم إلاّ بالعلم بما جاءوا به كان أعلم الناس بذلك أقربهم إليهم وأولاهم بهم. وبرهان ذلك الآية المذكورة. وذكر حال الأنبياء ليعلم مراده الإجمالي ثم خصص الذكر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كما هو عادة الخطيب . والمراد بالولي هنا الأولى . وأشار إلى أن طاعة الله علّة للأولوية بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعصيته علّة لعداوته وإن بعدت قرابة المطيع أو قربت قرابة العاصي ليعلم أن الطاعة والمعصية علتان مستقلتان للأولوية بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والعداوة له فتحصل الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية .

٨٨ ـ وَقَالَ عَليه السَّلَامْ : وَقَدْ سَمِعَ رَجُلاً مِنَ ٱلْحَرُورِيَّةِ يَتَهَجَّدُ وَيَقْرَأُ فَقَالَ : نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ فِي شَكٍّ .

والحرورية فرقة من الخوارج نسبوا إلى حروراء ـ بمدّ وبقصر ـ قرية بالنهروان وكان أول اجتماعهم بها . والتهجد : السهر في العبادة . وإنما كان كذلك لأن نوم العالم على يقين منه بما ينبغي تيقنه وعلمه أيضاً مما ينبغي له ، وعبادة الجاهل على شك فيما ينبغي تيقّنه من أصول العبادة مما لا ينبغي لما فيه من إتعاب البدن من غير فائدة. فكان الأول أولى وخيراً من الثاني . وأراد ما هم عليه من الشك في إمامة إمام الوقت الذي هو مبدأ تعليم

العبادات وكيفيتها ، والعلم به ركن من أركان الدين فإن الشك فيه يستلزم عدم الاستفادة منه، والشك في كثير مما يحتاج إليه فيه كعلم التوحيد وأسرار العبادات وكيفية السلوك إلى الله تعالى بطاعته .

٨٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِعْقِلُوا ٱلْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ ، فَإِنَّ رُوَاةَ ٱلْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ .

عقل الرعاية : ضبطه بالفهم ورعاية العلم . وعقل الرواية : ضبط ألفاظها وسماعها دون تفهم المعنى . ورغّب في ذلك بضمير صغراه قوله : فإن رواة العلم . إلى آخره . وتقديره كبراه : وكلما كان كذلك فينبغي أن يعقل عقل رعاية لتكثر رعاته .

٩٠ ـ وَسَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . فَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ قَوْلَنَا : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْمُلْكِ . وَقَوْلَنَا : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إِقْرَارٌ عَلَى أَنْفُسِنَا بِالْهُلْكِ .

والكلمة بتفسيرها ظاهر .

٩١ ـ وَمَدَحَهُ قَوْمٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ : أَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ ، أَللَّهُمَّ ٱجْعَلْنَا خَيْراً مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَٱغْفِرْ لَنَا مَا لَا يَعْلَمُونَ .

هذا كسر لنفسه عليه السلام في مقابلة المدح الموجب للعجب . ثم سأل الله أن يعلي درجته في الخير فوق ما يظنونه فيه وأن يغفر له ما لا يعلمون من عيبه .

فإن قلت : إنه معصوم فكيف يصدر عنه عيب يطلب مغفرته ؟

قلت : قد بيّنا فيما سلف أن عيب مثله عليه السلام وما يسمى ذنباً في حقه إنما هو من باب ترك الأولى وليس هو من الذنوب المتعارفة التي عصم عنها .

٩٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ ٱلْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِٱسْتِصْغَارِهَا لِتَعْظُمَ ، وَبِٱسْتِكْتَامِهَا لِتَظْهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنُؤَ .

اشترط في استقامة قضاء الحوائج : أي كون قضائها على ما ينبغي من العدل ثلاث شرائط :

أحدها : استصغار قاضي الحاجة لها ليعرف بالسماحة وكبر النفس فيعظم عطاؤه ويشتهر .

الثانية : أن يكتمها فإن طباع الناس أدعى إلى إظهار ما استكتم وأكثر عناية به من غيره .

الثالث : أن يعجّلها لتهنأ : أي لتكون هنيئة يقال : هنأ الطعام يهنأ وذلك أن الإبطاء بقضاء الحاجة ينغّصها على طالبها فتكون لذتها مشوبة بتكدير بطئها .

٩٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : يَأْتِي عَلَى ٱلنَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا ٱلْمَاحِلُ ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا ٱلْفَاجِرُ ، وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا ٱلْمُنْصِفُ : يَعُدُّونَ ٱلصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْماً ، وَصِلَةَ ٱلرَّحِمِ مَنّاً ، وَٱلْعِبَادَةَ ٱسْتِطَالَةً عَلَى ٱلنَّاسِ ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ يَكُونُ ٱلسُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ ٱلنِّسَاءِ ، وَإِمَارَةِ ٱلصِّبْيَانِ ، وَتَدْبِيرِ ٱلْخِصْيَانِ .

وأقول : الماحل : الساعي بالنميمة إلى السلطان ، وأصل المحل الكيد والمكر . وروي الماجن مكان الفاجر وهو المتكلم بما يشتهي من الباطل والهزل والاستهزاء . والغرم : الدين . يريد أن ذلك الزمان لسوء أهله وبعدهم عن الدين وقوانين الشريعة تجعل فيه الرذائل مكان الفضائل ويستعمل ما لا ينبغي مكان ما ينبغي فيقرب الملوك السعاة إليهم بالباطل مكان أصحاب الفضائل ومن ينبغي تقريبه ، ويعدّ الفاجر وهو صاحب رذيلة الإفراط في قوته الشهوية صاحب فضيلة الظرف في حركاته .

وقوله : ولا يضعف . إلى آخره .

أي إذا رأوا إنساناً عنده ورع وإنصاف في معاملة الناس عدّوه عاجزاً ضعيفاً ، ويحتمل أن يريد بقوله : يضعف أي يستصغر عقله لتركه الظلم كأنه تارك حق ينبغي له أخذه ، وتعد فيه الصدقة التي ينبغي أداءها برغبة طلباً للثواب غرماً كأداء الدين في الثقل ، وكذلك تعدّ صلة الرحم منّا وفيه إبطال

للفضيلة المذكورة لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى** ﴾ ، ويستطال بالعبادة على الناس ويترفع بها كالمانّ عليهم بذلك . ثم جعل من علامات ذلك الزمان كون السلطان والملك يدبر بمشورة الإماء ، وإمارة الصبيان وتدبير الخصيان وهي علامات زماننا وقبله بمدة .

٩٤ ـ وَرُئِيَ عَلَيْهِ إِزَارٌ خَلِقٌ ، مَرْقُوعٌ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذٰلِكَ فَقَالَ : يَخْشَعُ لَهُ ٱلْقَلْبُ ، وَتَذِلُّ بِهِ ٱلنَّفْسُ ، وَيَقْتَدِي بِهِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

ذكر في لبس ذلك الخلق ثلاثة مقاصد : خشوع القلب : خضوع النفس العاقلة وانكسارها عن الفقر ، وذلّة النفس انكسار للنفس الأمارة بالسوء عنه ، واقتداء المؤمنين بذلك للقصدين الأولين .

٩٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ ٱلدُّنْيَا وَتَوَلَّاهَا أَبْغَضَ ٱلآخِرَةَ وَعَادَاهَا ، وَهُمَا بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَاشٍ بَيْنَهُمَا ، كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ ٱلآخَرِ ، وَهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ .

استعار لفظ العدو لهما باعتبار ما بينهما من البعد لطالبهما ، وظاهر كونهما سبيلين مختلفين . ومن لوازم ما بينهما من العداوة والاختلاف كون المحب لإحديهما مبغضاً للأخرى . ثم شبههما بالمشرق والمغرب، ووجه الشبه تباينهما واختلاف جهتيهما ، وشبه الطالب لهما بالماشي بينهما ووجه الشبه قوله : كلما قرب . إلى آخره فإن الطالب للدنيا بقدر توجهه في طلبها تكون غفلته عن الآخرة ، وانقطاعه عنها وكلما أمعن في تحصيلها ازداد غفلة وبعداً عن الآخرة، وبالعكس كالماشي إلى أحد جهتي المشرق والمغرب . ثم شبههما بعد ذلك بالضرتين ووجه الشبه أيضاً أن القرب من إحديهما يستلزم البعد عن الأُخرى كالزوج ذي الضرتين .

٩٦ ـ وَعَنْ نَوْفٍ ٱلْبَكَالِيِّ قَالَ : « رَأَيْتُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ فِي ٱلنُّجُومِ ، فَقَالَ لِي : « يَا نَوْفُ : أَرَاقِدٌ أَنْتَ

---

(١) ٢ ـ ٢٦٦ .

أَمْ رَامِقٌ ؟ » فَقُلْتُ : « بَلْ رَامِقٌ » قَالَ : « يَا نَوْفُ » :

طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي ٱلدُّنْيَا ٱلرَّاغِبِينَ فِي ٱلآخِرَةِ ، أُولٰئِكَ قَوْمٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً ، وَتُرَابَهَا فِرَاشاً ، وَمَاءَهَا طِيباً ، وَٱلْقُرْآنَ شِعَاراً ، وَٱلدُّعَاءَ دِثَاراً ، ثُمَّ قَرَضُوا ٱلدُّنْيَا قَرْضاً عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ .

يَا نَوْفُ ؛ إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ قَامَ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ مِنَ ٱللَّيْلِ فَقَالَ : إِنَّهَا سَاعَةٌ لاَ يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلاَّ ٱسْتُجِيبَ لَهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَشَّاراً ، أَوْ عَرِيفاً ، أَوْ شُرْطِيّاً ، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ (وَهِيَ ٱلطُّنْبُورُ) ، أَوْ صَاحِبَ كُوبَةٍ . (وَهِيَ ٱلطَّبْلُ) وَقَدْ قِيلَ أَيْضاً : إِنَّ ٱلْعَرْطَبَةَ : ٱلطَّبْلُ ، وَٱلْكُوبَةَ : ٱلطُّنْبُورُ .

أقول : البكالي بكسر الباء : منسوب إلى بكالة قرية من اليمن . والرامق : الناظر : والعريف : نقيب الشرطة .

وكان خروجه عليه السلام في ذلك الوقت لما نقله عن داود عليه السلام ولأنه محل الفراغ للاعتبار والفكر في خلق السماوات وزينتها . ثم عرف الزاهدين في الدنيا بستة أوصاف لغرض الاقتداء بهم :

أحدها : اتخاذهم الأرض بساطاً .

الثاني : وترابها فراشاً .

الثالث : وماءها طيباً ، وذلك من لوازم زهدهم في متاعها وتركها عن طيب نفس بذلك .

الرابع : اتخاذهم للقرآن شعاراً .

الخامس : والدعاء دثاراً ، واستعار لفظ الشعار للقرآن باعتبار ملازمتهم لدرسه وتفهم مقاصده كالشعار الملازم للجسد . ولفظ الدثار للدعاء باعتبار احتراسهم به من عذاب الله والشدائد النازلة بهم كالاحتراس بالدثار عن البرد ونحوه .

السادس : قرضهم للدنيا : أي قطعها عنهم بأيسر ما يدفع ضرورتهم

منها كما فعله المسيح عليه السلام من هذه الأوصاف . وكان قيامه عليه السلام في النصف الأخير من الليل وإنما كان مظنة الإجابة لخلو النفس فيه عن الاشتغال بشواغل النهار المحسوسة وتوفرها بعد النوم على الالتفات إلى حضرة الملأ الأعلى واستعدادها لقبول السوانح الإلهية . وإنما استثنى المذكورين لملازمتهم المعصية التي تحجب نفوسهم عن قبول رحمة الله تعالى .

٩٧ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ ٱللَّهَ ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمُ ٱلْفَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَنَهَاكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدَعْهَا نِسْيَاناً فَلاَ تَتَكَلَّفُوهَا .

فرائض الله : واجبات دينه . وحدوده : نهايات ما أباحه من نعمه ورخص فيه . والأشياء المنهيّ عنها : ما جاوز حدوده من المحرمات والرذائل . وما سكت عنه كتكليف دقائق علم لا نفع له في الآخرة فإنه لم يسكت عنه نسياناً لتقدسه عن ذلك بل لعدم فائدته الأخروية ، واستلزام الاشتغال به ترك الاشتغال بعلم نافع فيلزمه المضرة .

٩٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لاَ يَتْرُكُ ٱلنَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ .

لما كانت مطالب الناس في الدنيا إذا فتح باب الطلب لها غير متناهية لكون كل مطلوب يحصل معداً لطلب الزيادة فيه والاستكثار منه وتحصيل شرائطه ولوازمه، وكان بعد الانسان عن الله بقدر قربه من الدنيا وبعد أمله فيها كان كل أمر استصلحت به الدنيا لأنها دنيا معداً لفتح باب من أبواب طلبها وإصلاحها وهو أضرّ من الأول لكونه أشد إيغالاً فيها وإبعاداً عن الله .

٩٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ وَعِلْمُهُ مَعَهُ لاَ يَنْفَعُهُ .

أراد العلماء بما لا نفع فيه من العلوم كعلم السحر والنيرنجات بل كعلم النحو وغيره من العلوم العقلية مثلاً بمن جهل شرائع الإسلام فأفتى بغير علم أو تعدى حداً وارتكب منهياً فكان ذلك سبب هلاكه في الدنيا والآخرة ،

أو كعلم ما لا نفع فيه في الآخرة استلزم ترك علم مهم فيها فكان سبب هلاكه هناك مع عدم انتفاعه وخلاصه بما علم .

١٠٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَقَدْ عُلِّقَ بِنِيَاطِ هٰذَا ٱلْإِنْسَانِ بَضْعَةٌ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ ٱلْقَلْبُ . وَلَهُ مَوَادُّ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَأَضْدَادٌ مِنْ خِلَافِهَا ، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ ٱلرَّجَاءُ أَذَلَّهُ ٱلطَّمَعُ ، وَإِنْ هَاجَ بِهِ ٱلطَّمَعُ أَهْلَكَهُ ٱلْحِرْصُ ، وَإِنْ مَلَكَهُ ٱلْيَأْسُ قَتَلَهُ ٱلْأَسَفُ ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ ٱلْغَضَبُ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلْغَيْظُ ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ ٱلرِّضَى نَسِيَ ٱلتَّحَفُّظَ ، وَإِنْ نَالَهُ ٱلْخَوْفُ شَغَلَهُ ٱلْحَذَرُ ، وَإِنِ ٱتَّسَعَ لَهُ ٱلْأَمْنُ ٱسْتَلَبَتْهُ ٱلْغِرَّةُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَهُ ٱلْجَزَعُ ، وَإِنْ أَفَادَ مَالاً أَطْغَاهُ ٱلْغِنَى ، وَإِنْ عَضَّتْهُ ٱلْفَاقَةُ شَغَلَهُ ٱلْبَلَاءُ ، وَإِنْ جَهَدَهُ ٱلْجُوعُ قَعَدَ بِهِ ٱلضَّعْفُ ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ ٱلشِّبَعُ كَظَّتْهُ ٱلْبِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

أقول : النياط : عرق علق به القلب . وغاله : أخذه على غرة .

وأراد بالمواد من الحكمة الفضائل الخلقية فإنها بأسرها من الحكمة وهي العلم مما ينبغي أن يفعل وهو الأصلح في كل باب وهي مواد كمال القلب ، وأشار بأضدادها المخالفة لها إلى الرذائل المضادة للفضائل وهي التي أطراف التفريط والإفراط منها :

فالأولى : الطمع وهي رذيلة الإفراط من الرجاء ونفر عنها بما يلزمها من الذلة للمطموع فيه وبما يلزم اشتداد الطمع من الحرص المهلك في الدارين .

الثانية : اليأس وهو رذيلة التفريط من الرجاء ونفر عنها بما يلزمها من شدة الأسف القاتل .

الثالثة : رذيلة الإفراط من الغضب وهي اشتداد الغيظ المسمى طيشاً . والوسط من الغضب فضيلة الشجاعة وكظم الغيظ .

الرابعة : ترك التحفظ ونسيانه وهو رذيلة الإفراط من رضا الإنسان بما يحصل عليه من دنياه .

الخامسة : رذيلة الإفراط من عروض الخوف وهي الاشتغال بالحذر عما لا ينبغي عند عروضه والذي ينبغي فيه الأخذ بالحزم وترك الإفراط في الخوف والعمل للأمر المخوف .

السادسة : رذيلة التفريط في عروض ضده وهو الأمن وهي استلاب الغرة لعقل الأمن حتى لا يفكر في مصلحته وحفظ ما هو عليه من الأمن .

السابعة : رذيلة التفريط من فضيلة الصبر على المصيبة وهي الجزع ونفر عنه بما يلزمه من الافتضاح به.

الثامنة : رذيلة الإفراط من حصول المال وهو الطغو بكثرته والغنى منه . والطغو : تجاوز الحد .

التاسعة : رذيلة التفريط من الصبر على الجوع . وذكر لازمها وهو قعود الضعف به عما ينبغي . ونفّر به عنها .

الحادية عشر : رذيلة إفراط الشبع من فضيلة القصد فيه وما يلزم تلك الرذيلة من جهد البطنة. ونفّر عنها بما يلازمها . ثم ختم ذلك بالتنفير من طرف الإفراط والتفريط فيها إجمالاً بما يلزم التفريط من مضرة القلب بعدم الفضيلة ويلزم الإفراط فيها من إفساده بخروجه عنها . وبالله العصمة .

١٠١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : نَحْنُ ٱلنُّمْرُقَةُ ٱلْوُسْطَى ، بِهَا يَلْحَقُ ٱلتَّالِي ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ ٱلْغَالِي .

النمرقة : الوسادة الصغيرة . واستعار لفظها له ولأهل بيته بصفة الوسطى باعتبار كونهم أئمة الحق ومستنداً للخلق في تدبير معاشهم ومعادهم على وجه العدل المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ومن حق الإمام الحق المتوسط في الأمور أن يلحق به التالي أي المفرط المقصر ، وأن يرجع إليه الغالي أي المفرط المتجاوز لحد العدل .

١٠٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا يُقِيمُ أَمْرَ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ وَلَا يُضَارِعُ ، وَلَا يَتَّبِعُ ٱلْمَطَامِعَ .

المصانعة : المصالحة برشوة ونحوها . والمضارعة : مفاعلة من الضرع وهو الذلة كأن كُلّاً منهما يضرع للآخر . وظاهر أن مصانعة الغير يستلزم طلب رضاه وذلك يمنع من إقامة حدود الله وأمره في حقه ، وكذلك المضارعة واتباع المطامع من الغير فإنهما يستلزمان ترك مواجهته بما يشق عليه من أوامر الله وحدوده .

١٠٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : (وَقَدْ تُوُفِّيَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ٱلْأَنْصَارِيُّ بِالْكُوفَةِ بَعْدَ مَرْجِعِهِ مَعَهُ مِنْ صِفِّينَ وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ) :

لَوْ أَحَبَّنِي جَبَلٌ لَتَهَافَتَ .

قَالَ الرَّضِي : ومَعْنَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمِحْنَةَ تَغْلُظُ عَلَيْهِ فَتُسْرِعُ ٱلْمَصَائِبُ إِلَيْهِ ، وَلَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْأَتْقِيَاءِ ٱلْأَبْرَارِ وَٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ . وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ :

مَنْ أَحَبَّنَا ، أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ، فَلْيَسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْبَاباً .

وَقَدْ يُؤَوَّلُ ذٰلِكَ عَلَى مَعْنَى آخَرَ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ ذِكْرِهِ .

أقول : تهافت : سقط قطعة قطعة ، وذلك مبالغة في كثرة ما يلحقه ومحبيّه من المصائب والابتلاء .

وقوله : من أحبّنا فليستعد للفقر جلباباً .

أي يهيىء له ذلك . والجلباب مستعار لتوطين النفس على الفقر والصبر عليه ، ووجه الاستعارة كونهما ساترين للمستعد بهما من عوارض الفقر وظهوره في سوء الخلق وضيق الصدر والتحيّر الذي ربما يؤدي إلى الكفر كما يستر بالملحفة ، ولما كانت محبتهم عليهم السلام ، بصدق يستلزم متابعتهم والاقتداء بهم والاستشعار بشعارهم ومن شعائرهم الفقر ورفض الدنيا والصبر على ذلك وجب أن يكون كل محب لهم مستشعراً للفقر ومستعداً له جلباباً من توطين النفس عليه والصبر . وقد ذكر ابن قتيبة هذا المعنى بعبارة أخرى فقال : من أحبنا فليقصر على التعلل من الدنيا والتقنع فيها . قال : وشبه الصبر على الفقر بالجلباب لأنه يستر الفقر كما يستر الجلباب البدن ، قال : ويشهد بصحة هذا التأويل ما روي أنه عليه السلام رأى قوماً على بابه فقال : يا قنبر من

هؤلاء ؟ فقال : شيعتك يا أمير المؤمنين . فقال : ما لي لا أرى فيهم سيما الشيعة . قال : وما سيما الشيعة ؟ قال : خمص البطون من الطوى يبس الشفاه من الظماء عمش العيون من البكاء .

وقال أبو عبيد : إنه لم يرد الفقر في الدنيا ألا ترى أن فيمن يحبهم مثل ما في سائر الناس من الغنى ، وإنما أراد الفقر يوم القيامة . وأخرج الكلام مخرج الوعظ والنصيحة والحث على الطاعات فكأنه أراد من أحبنا فليعد لفقره يوم القيامة ما يجبره من الثواب والتقرّب إلى الله تعالى والزلفة عنده .

قال السيد المرتضى رحمه الله : والوجهان جميعاً حسنان وإن كان قول ابن قتيبة أحسن فذلك معنى قول السيد ـ رضي الله عنه ـ وقد يؤول ذلك على معنى آخر .

وذكر القطب الراوندي احتمالاً ركيكاً لا يصلح محملاً لهذا الكلام . فلم نطول بذكره .

١٠٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : سبع عشر كلمة .

لَا مَالَ أَعْوَدُ مِنَ ٱلْعَقْلِ ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ ٱلْعُجْبِ ، وَلَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ ، وَلَا كَرَمَ كَالتَّقْوَى ، وَلَا قَرِينَ كَحُسْنِ ٱلْخُلُقِ ، وَلَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ ، وَلَا قَائِدَ كَالتَّوْفِيقِ ، وَلَا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ ٱلصَّالِحِ ، وَلَا رِبْحَ كَالثَّوَابِ ، وَلَا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ عِنْدَ ٱلشُّبْهَةِ ، وَلَا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي ٱلْحَرَامِ ، وَلَا عِلْمَ كَالتَّفَكُّرِ ، وَلَا عِبَادَةَ كَأَدَاءِ ٱلْفَرَائِضِ ، وَلَا إِيمَانَ كَالْحَيَاءِ وَٱلصَّبْرِ ، وَلَا حَسَبَ كَالتَّوَاضُعِ ، وَلَا شَرَفَ كَالْعِلْمِ ، وَلَا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ ٱلْمُشَاوَرَةِ .

أحدها : لا مال أعود من العقل . أي أعود بالنفع على صاحبه واستعار لفظ المال للعقل باعتبار أن به غنى النفس وهو رأس مالها الذي به يكتسب الأرباح الباقية والكمالات المستعدة كالمال الذي به الكمال الظاهر ، ولما كان بين المالين من التفاوت في الشرف ما علمت لا جرم لم يكن مال أعود منه بالنفع .

الثانية : ولا وحدة أوحش من العجب وجعل الوحدة من جنس العجب باعتبار ما يستلزمانه من الوحشة الموحشة وقد سبق بيان استلزام العجب لها .

الثالثة : ولا عقل كالتدبير أراد بالعقل تصرف العقل العملي فأطلق عليه اسمه مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . وظاهر أن جملة تصرفاته التدبير واستخراج الآراء المصلحية في الأمور ، ولما كان المقصود منه التدبير لا جرم لم يكن له تصرف يشبهه فلا عقل مثله .

الرابعة : ولا كرم كالتقوى . والمفهوم من الكرم بذل ما ينبغي بذله ، ولما كانت تقوى الله عبارة عن خشيته وكان من لوازمها الزهد في الدنيا والإعراض عن متاعها كان ذلك في الحقيقة بذلاً لجميعها ، وإذا كان بذل بعض قيناتها يسمى كرماً فبذلها بأسرها ممن ينبغي له ذلك أولى أن يكون كرماً لا يشبهه كرم كما قال عليه السلام فيما سبق في وصفها : ورأيتها محتاجة فوهبت جملتها لها .

الخامسة : ولا قرين كحسن الخلق . قد عرفت الأخلاق الحسنة ، وظاهر أنه ليس فيما يعدّ قريناً أشرف منها لأن غاية سائر القرناء أن يستفاد من صحبتهم ومحبتهم حسن الخلق ، وكون حسن الخلق بنفسه الذي هو الغاية قريناً أشرف من ذي الغاية الذي عساه لا يحصل منه . فلا قرين إذن يشبهه .

السادسة : ولا ميراث كالأدب . وقد مر بيانه عن قرب .

السابعة : ولا قائد كالتوفيق : أي إلى المطالب . ولما كان التوفيق عبارة عن توافق الأسباب للشيء وشرائطه حتى يكون بمجموعها مستلزمة لحصوله لا جرم لم يكن للمرء قائد إلى مطالبه كالتوفيق في سرعة وصوله إليه .

الثامنة : ولا تجارة كالعمل الصالح . استعار لفظ التجارة له باعتبار كونه مستلزماً للخير كالتجارة المستلزمة للربح . ولما كان شرف التجارة بشرف ثمرتها وربحها فكلما كان الربح أشرف كانت التجارة أشرف . ولما كان ربح هذه التجارة الثواب الدائم الأخروي الذي لا ربح أعظم منه لم يكن لتجارة العمل الصالح ما يشبهها من التجارات .

التاسعة : ولا ربح كالثواب . وهو ظاهر .

العاشرة : ولا ورع كالوقوف عند الشبهة . قد يفسر الورع بأنه الوقوف عن المناهي والمحرمات . ولما كان الوقوف عما اشتبه من الأمور في حله وحرمته أبلغ أصناف الورع وأكثرها تحرزاً به لم يكن فيها ما يشبهه .

الحادي عشر : ولا زهد كالزهد في الحرام . ولما كان الزهد في الحرام هو المأمور به والواجب دون غيره من أصناف الزهد كان أفضل أفضلية الواجب على المندوب .

الثانية عشر : ولا علم كالتفكر : أي كالعلم الحاصل عن التفكر وذلك بالقياس إلى ما يدّعى علماً من حفظ المنقولات كالأحاديث والسير ونحوها وإلى العلوم الحاصلة عن الحواس لأن العلم الفكري كلي وهو أشرف وحكم الشارع والخطيب أكثري . وأراد التفكر فيما ينبغي من خلق السماوات والأرض وما خلق الله من شيء ، وتحصيل العبرة منه . وأطلق اسم التفكر على العلم الحاصل عنه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . ويحتمل أن يريد العلم بكيفية التفكر والقوانين التي تعصم مراعاتها الفكر من الضلال .

الثالثة عشر : ولا عبادة كأداء الفرائض . لكونها واجبة والواجب أشرف من غيره .

الرابعة عشر : ولا إيمان كالحياء والصبر . أي لا إيمان كإيمان كمل بالحياء والصبر ، وذلك أشرف هاتين الفضيلتين كما سبق وأطلقهما على الإيمان مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه .

الخامسة عشر : ولا حسب كالتواضع . لما كان الحسب ما يعد من المآثر والفضائل كان التواضع أشرف ما يعد بالقياس إلى كثير منها لما يستلزم من الخيرات كما سبق بيانه .

السادس عشر : ولا شرف كالعلم : أي كشرف العلم فأطلق اسم الملزوم على لازمه مجازاً ، وظاهر أن العلم أشرف الكمالات ولا شرف كشرفه .

السابعة عشر : ولا مظاهرة أوثق من مشاورة . أي أقوى . وقد مرّ بيانه في قوله : ولا ظهير كالمشورة .

واعلم أن الحكم في كثير من هذه الكمالات أكثري وغرضه الترغيب في العقل والتدبير والتقوى وحسن الخلق والأدب والتوفيق بالرغبة إلى الله فيه والعمل الصالح والثواب والوقوف عند الشبهة والزهد في الحرام والفكر والمحافظة على الفرائض واقتناء الحياء والصبر والتواضع والعلم والمشورة في الأمور .

١٠٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِذَا ٱسْتَوْلَى ٱلصَّلَاحُ عَلَى ٱلزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ ٱلظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرْ مِنْهُ خَزْيَةٌ فَقَدْ ظَلَمَ ، وَإِذَا ٱسْتَوْلَى ٱلْفَسَادُ عَلَى ٱلزَّمَانِ وَأَهْلِهِ فَأَحْسَنَ رَجُلٌ ٱلظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ .

قد مرّ أن الزمان من جملة الأسباب المعدة لتوافق أسباب صلاح الخلق في معاشهم ومعادهم فيسمى زمان الصلاح والخير ، كذلك هو من جملة الأسباب المعدة لعدم ذلك فيقال : فسد الزمان ، وزمان فاسد . والأول هو الزمان الذي استولى الصلاح عليه وعلى أهله وبحسب ذلك يكون مظنة فعل الخير أن يحسن الظن بأهله فمن أساء الظن حينئذ في أحد منهم لم يظهر منه ما يخزى به عند الناس من فعل رذيلة فقد وضع إساءة ظنه في غير موضعها وهو خروج عن العدل وظلم . وروي : حوبة : أي إثم .

والثاني : هو الزمان الذي استولى الفساد عليه وعلى أهله وبحسب ذلك يكون مظنة فعل الشر وسوء الظن بأهله فمن أحسن الظن في أحدهم حينئذ فقد غرر : أي أوقع نفسه في الغرة به والغفلة عن حاله .

١٠٦ ـ وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : «كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟» فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ ، وَيَسْقَمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ .

أجاب بصورة حاله على طريق الموعظة والتشكي . ولما كان البقاء عبارة عن استمرار زمان الوجود وكان استمرار الزمان وتعاقب أجزائه مقرباً

للأجل كان لبقائه سببيّة في فنائه وكذلك لمّا كان من غايات الصحة السقم كان لصحته سببية في سقمه وأما كونه يؤتى من مأمنه فيشبه أن يكون المأمن هنا مصدراً والمراد أن الداخل على المرء ونزول ما يكره به من الموت وأهوال الآخرة هو أمنه في الدنيا وسكونه اليها وغفلته عما وراءها مما لا بد منه .

ويحتمل أن يكون المأمن محل الأمن وهو الدنيا ، ومعنى كونه يؤتى من مأمنه : أي أن ما يدخل عليه من الأدواء التي تلحقه هو من أحوال الدنيا التي هي مأمنه وعوارضها التي يعرض له من مأمنه حال أمنه فيه بحيث لا يمكنه الاحتراز منه .

١٠٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ ٱلْقَوْلِ فِيهِ ، وَمَا ٱبْتَلَى ٱللَّهُ أَحَداً بِمِثْلِ ٱلْإِمْلَاءِ لَهُ .

المستدرج : المأخوذ على غرة . والإملاء : الإمهال وتأخير المدة .

وقد ذكر عليه السلام من الأمور التي ابتلى الله بها عباده أربعة :

أحدها : الإحسان إلى العبد بضروب النعم .

الثاني : ستر المعصية عليه .

الثالث : حسن القول فيه وثناء الخلق عليه .

الرابع : تأخير مدته وإمهاله . ولما كانت غاية الابتلاء بهذه الأمور التي كلها نعم في الحقيقة إما شكرها أو كفرها كما قال تعالى : ﴿ **ليبلوني أأشكر أم أكفر** ﴾(١) الآية . وكان الشكر هو الغاية الخيرية المطلوبة بالذات نبّه المبتلى بالنعمة الأولى على وجوب شكرها بأنه كثيراً ما يستدرج بها فينبغي أن لا يغفل عنها ، ونبه المبتلى بالثانية على أنها كثيراً ما تكون سبباً لغرته بالله والأمن من مكره فينهمك في المعاصي ، ونبه الثالث بكون نعمته قد تكون سبباً لفتنته وصرفه عن شكر الله وارتكابه لرذيلة العجب بنفسه ، ونبه الرابع

---

(١) ٢٧ ـ ٤٠ .

بكون نعمته أعظم ما يبتلى به من النعم .

١٠٨ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ : مُحِبٌّ غَالٍ ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ .

لما كانت محبة أولياء الله فضيلة نفسانية كان طرف التفريط والتقصير فيها إلى غاية مقابلتها بالبغض وطرف الإفراط إلى غاية الغلو وتجاوز ما ينبغي منها رذيلتين يستلزمان هلاك صاحبهما في الآخرة . أما رذيلة التفريط فلأن بغض أولياء الله مستلزم لعداوتهم ومن عادى ولياً من أولياء الله فقد عادى الله وكان من الهالكين ، وأما رذيلة الغلو والإفراط فلأن الغلاة أخرجوه عن حدّ البشرية إلى سماء الإلهية وهو صريح الكفر المستلزم للهلاك .

١٠٩ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِضَاعَةُ ٱلْفُرْصَةِ غُصَّةٌ .

أي إن تضييع الأمر وقت إمكانه من نفسه يستلزم الأسف والحزن على تفويته . وهو تنفير عن تضييع الفرصة بما يلزمه .

١١٠ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَثَلُ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ ٱلْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسُّهَا وَٱلسُّمُّ ٱلنَّاقِعُ فِي جَوْفِهَا ، يَهْوِي إِلَيْهَا ٱلْغِرُّ ٱلْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا ذُو ٱللُّبِّ ٱلْعَاقِلُ .

مثّل الدنيا بالحية ، ووجه التمثيل قوله : ليّن مسها . إلى آخره . وذلك أن الدنيا لذيدة المتناول سهلة في عين الناظر إليها مع أن فيما يشتهيه منها ويتناوله الشقاوة الأُخروية والعذاب الأليم . فيهوى إليها الجاهل بما فيها من سوء العاقبة ويحذرها العاقل العارف بها كما أن الحية ليّن مسها حسن منظرها يحسبها الجاهل سواراً من ذهب أو فضة يهوي إليها لغرته بما فيها من سم ويحذرها من يعرفه .

١١١ - وَسُئِلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ : أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ تُحِبُّ حَدِيثَ رِجَالِهِمْ ، وَٱلنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ ، وأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ : فَأَبْعَدُهَا رَأْياً ، وَأَمْنَعُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا ، وَأَمَّا نَحْنُ : فَأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِينَا ، وَأَسْمَحُ عِنْدَ ٱلْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ ، وَأَنْصَحُ ، وَأَصْبَحُ .

بنو مخزوم بطن من قريش وهو مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ابن لوي بن غالب . ومنهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة وآل المغيرة وكان لمخزوم ريح طيبة كالخُزامى ولون كلونه ، والولد يشبه الوالد غالباً ، ولذلك كانت هذه البطن تسمى بريحانة قريش ، وكان المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم تسمى بذلك . وقيل : لأنه كان في رجالهم كيس لذلك يحب الحديث إليهم وفي نسائهم لطف وتصنّع وتحبّب إلى الرجال ولذلك يحب نكاحهم .

وأما بنو عبد شمس بن عبد مناف فمنهم ربيعة وابناه شيبة وعتبة ، والأعياص ، وحرب بن أمية وابنه أبو سفيان ، وأسيد بن عتاب ، ومروان ابن الحكم . ووصف هذا البطن ببعد الرأي وهو كناية عن جودته يقال : فلان بعيد الرأي . إذا كان يرى المصلحة من بعيد لقوة رأيه ، ثم بكونها أمنع لما وراء ظهورها وهو كناية عن الحمية . ثم وصف أهل بيته وهم بنو هاشم بكونهم أبذل لما في أيديهم : أي أسخى ثم بكونهم أسمح عند الموت بنفوسهم : أي أشجع . ثم وصفهم بفضيلة خارجية ورذيلتين ووصف بني هاشم بثلاث فضائل بدنيّتين ونفسانية والفضيلة فيهم هي كثرة العدد والرذيلتان كونهم أمكر : أي أكثر حيلة وخداعاً وكونهم أنكر : أي أكثر نكراً . والنكر : المنكر ، وأما فضائل بني هاشم فكونهم أفصح وكونهم أصبح : أي أحسن وجوهاً وأجمل وهما فضيلتان يتعلق بالبدن ، ويحتمل أن يريد بالأصبح كونهم ألقى للناس بالطلاقة والبشر ومبدأ ذلك فضيلة نفسانية ، ثم كونهم أنصح . والنصيحة لمن ينبغي نصيحته فضيلة نفسانية تحت العفة .

١١٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : شَتَّانَ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ : عَمَلٌ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ ، وَعَمَلٌ تَذْهَبُ مَؤُونَتُهُ وَيَبْقَى أَجْرُهُ .

وشتّان : أي افترق بينهما .

والأول : العمل للدنيا . وتبعته هو ما يتبعه من الشقاوة الأُخروية .

والثاني : عمل الآخرة . وظاهر أن بينهما فرقاً عظيماً .

١١٣ ـ وَتَبِعَ جَنَازَةً فَسَمِعَ رَجُلاً يَضْحَكُ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : كَأَنَّ ٱلْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ ٱلْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ ، وَكَأَنَّ ٱلَّذِي نَرَى مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ، وَنَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ ؛ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَرُمِينَا بِكُلِّ جَائِحَةٍ !! طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ ، وَطَابَ كَسْبُهُ ، وَصَلُحَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَأَنْفَقَ ٱلْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ ٱلْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَوَسِعَتْهُ ٱلسُّنَّةُ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى ٱلْبِدْعَةِ .

قَالَ الرَّضِي : أَقُولُ : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْسُبُ هَذا الكَلاَم إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمْ .

الأجداث : القبور . والجائحة : الداهية المستأصلة .

وغرض الفصل التنفير عن وضع الضحك في غير موضعه والتذكير بأمر الآخرة .

وذكر تشبيهات ثلاث :

أحدها : تشبيه الموت بالمكتوب على غير الإنسان .

والثاني : تشبيه الحق الواجب عليه بما وجب على غيره دونه .

والثالث : تشبيه ما يشاهد من الأموات بالمسافرين الذين يقدمون عن قريب .

ووجه الشبه في الثلاثة قلة اهتمام الناس بالموت والتفاتهم إلى أداء واجب حق الله عليهم وعدم اعتبارهم بمن يموت .

وقوله : نبؤهم . إلى قوله : جائحة .

من تمام وجه التشبيه فإن الفاعل مثل هذا الفعل بالأموات كأنه لقساوة قلبه وعدم اتعاظه لم يكتب عليه ما كتب عليهم من الموت .

وقوله طوبى . إلى آخره . ترغيب في اقتناء الفضائل المذكورة بأن له

طوبى وهي في الحقيقة الحالة الشريفة التي لأولياء الله في الآخرة من طيب الحال واللذة الباقية . وذكر ثمان فضائل :

أحدها : ذلّة النفس لله عن ملاحظة حاجتها وفقرها إليه ، ونظرها إلى معادها .

الثانية : طيب الكسب بأخذه من وجوهه التي ينبغي .

الثالثة : صلاح السريرة لله وإخلاص الباطن من فساد النيات في المعاملات مع الخلق .

الرابعة : حسن الخلق واقتناء فضائله .

الخامسة : إنفاق الفاضل عن الحاجة من المال فيما ينبغي من وجوه القربات إلى الله وهي فضيلة السخاء .

السادسة : إمساك الفضل من المقال أي ما زاد منه مما لا ينبغي وهو السكوت في موضعه .

السابعة : عزل الشر عن الناس وهو العدل أو لازمه .

الثامنة : لزوم سنّة الله ورسوله وعدم الخروج عنها إلى ما يبتدع في الدين ولا ينبغي .

١٢٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : غَيْرَةُ ٱلرَّجُلِ إِيمَانٌ ، وَغَيْرَةُ المَرْأَةِ كُفْرٌ .

أما الأول : فلأن غيرة الرجل تستلزم سخطه لما سخط الله من اشتراك رجلين في امرأة . وسخط ما سخط الله موافق لرضاه ومؤيد لنهيه . وذلك إيمان .

وأما الثاني : فلأن المرأة تقوم بغيرتها في تحريم ما أحلّ الله وهو اشتراك مرأتين فما زاد في رجل واحد وتقابله بالرد والإنكار . وتحريم ما أحل الله وسخطه ما رضيه ردّ عليه وهو لا محالة كفر .

١١٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لأَنْسُبَنَّ ٱلإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي : أَلإِسْلَامُ هُوَ ٱلتَّسْلِيمُ ، وَٱلتَّسْلِيمُ هُوَ ٱليَقِينُ ، وَٱلْيَقِينُ هُوَ ٱلتَّصْدِيقُ ؛

وَٱلتَّصْدِيقُ هُوَ ٱلإِقْرَارُ ، وَٱلإِقْرَارُ هُوَ ٱلْأَدَاءُ ، وَٱلْأَدَاءُ هُوَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ .

هذا قياس مفصول مركب من قياسات طويت نتائجها . وينتج القياس **الأول** : أن الإسلام هو اليقين.

والثاني : أنه التصديق.

والثالث : أنه الإقرار .

والرابع: أنه الأداء .

والخامس : أنه العمل.

أما المقدمة الأولى : فلأن الإسلام هو الدخول في الطاعة ويلزمه التسليم لله وعدم النزاع في ذلك . وصدق اللازم على ملزومه ظاهر .

وأما الثانية : فلأن التسليم الحق إنما يكون عن تيقن استحقاق المطاع للتسليم له فكان اليقين بذلك من لوازم التسليم لله فصدق عليه صدق اللازم على ملزومه .

وأما الثالثة : فلأن اليقين باستحقاقه للطاعة والتسليم مستلزم للتصديق بما جاء به على لسان رسول الله ﷺ : من وجوب طاعته فصدق على اليقين به أنه تصديق له .

وأما الرابعة : فلأن التصديق لله في وجوب طاعته إقرار بصدق الله .

وأما الخامسة : فلأن الإقرار والاعتراف بوجوب أمر يستلزم أداء المقر المعترف لما أقرّ به فكان إقراره أداءاً لازماً .

وأما السادسة : وهو أن الأداء هو العمل فلأن أداء ما اعترف به لله من الطاعة الواجبة لا يكون إلاّ عملاً .

ويؤول حاصل هذا الترتيب إلى إنتاج أن الإسلام هو العمل لله بمقتضى أوامره وهو تفسير بخاصة من خواصه كما سبق بيانه .

١١٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَعْجِلُ ٱلْفَقْرَ ٱلَّذِي مِنْهُ

هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ ٱلْغِنَى ٱلَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ ، فَيَعِيشُ فِي ٱلدُّنْيَا عَيْشَ ٱلْفُقَرَاءِ ، وَيُحَاسَبُ فِي الآخِرَةِ حِسَابَ ٱلْأَغْنِيَاءِ ، وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ ٱلَّذِي كَانَ بِالأَمْسِ نُطْفَةً وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ ٱللَّهِ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ ٱلْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى ٱلْمَوْتَى ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَى ، وَعَجِبْتُ لِعَامِرِ دَارَ ٱلْفَنَاءِ وَتَارِكٍ دَارَ ٱلْبَقَاءِ .

تعجب عليه السلام من ستة هم محل العجب والغرض التنفير عن رذائلهم :

الأول : البخيل وجعل محل التعجب منه ثلاثة أمور :

أحدها : أنه إنما يبخل خوف الفقر في العاقبة لو أنفق المال . وتقتيره وعدم انتفاعه به في الحال صورة فقر حاضر فكان بذلك مستعجلاً للفقر الذي هرب منه إلى البخل .

الثاني : أنه طالب للغنى ببخله وبخله أبداً سبب لفقره الحاضر المنافي لغناه والمفوّت له . فما يعتقده سبب الغنى هو المفوّت للغنى .

الثالث : أنه يعيش في الدنيا عيش الفقراء لعدم انتفاعه بماله ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء لمشاركته إيّاهم في جمع المال ومحبّته اللذين هما مبدءا الحساب . فكان منهم بهذا الاعتبار.

الثاني : المتكبر ونبه على وجه العجب منه بذكر مبدأ كونه وهو كونه نطفة في غاية الحقارة والسخف المنافي للكبر ، وغايته وهو كونه جيفة في نهاية القذارة . فجمعه بين هذين الأمرين وبين التكبر من العجب العجيب .

الثالث : الشاكّ في الله وهو يرى خلقه وذلك جمع بين الشك في وجوده وبين رؤيته ظاهراً في وجود مخلوقاته وعجائب مصنوعاته وهو محل العجب .

الرابع : الناسي لموته مع رؤيته لمن يموت . وظاهر أن نسيان الموت مع رؤيته دائماً محل التعجب .

الخامس : منكر النشأة الأُخرى وإعادة الأبدان بعد عدمها . وظاهر أن

إنكاره لذلك مع اعترافه بالنشأة الأولى وهي الوجود الأول للخلق من العدم الصرف محل التعجب لأن الأخرى أهون كما قال تعالى : ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾[1] .

السادس : عامر الدنيا مع كونها فانية زائلة مع تركه لعمارة الآخرة الباقية والباقي ما فيها محل التعجب .

وغرض التعجّب من هؤلاء والإشارة إلى وجوه تنفير الخلق من الأمور المذكورة .

١١٧ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ** : مَنْ قَصَّرَ فِي ٱلْعَمَلِ ٱبْتُلِيَ بِالْهَمِّ ، وَلَا حَاجَةَ لِلَّهِ فِيمَنْ لَيْسَ لِلَّهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

المقصر في العمل لله يكون غالب أحواله متوفراً على الدنيا مفرطاً في طلبها وجمعها وبقدر التوفر عليها يكون شدة الهمّ في جمعها وتحصيلها أولاً ثم في ضبطها والخوف على فواتها ثانياً ، وفي المشهور : خذ من الدنيا ما شئت ومن الهم ضعفه . فنفر عن التقصير في الأعمال البدنية والمالية بقوله : ولا حاجة لله . إلى آخره . وكنّى بعدم حاجته فيه عن إعراضه عنه وعدم النظر إليه بعين الرحمة لعدم استعداده لذلك .

١١٨ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ** : تَوَقَّوا ٱلْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي ٱلْأَبْدَانِ كَفِعْلِهِ فِي ٱلْأَشْجَارِ ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ وَآخِرُهُ يُورِقُ .

إنما وجب اتقاؤه في أوله وهو أول الخريف لأن الصيف والخريف يشتركان في اليبس فإذا ورد البرد وحينئذ ورد على أبدان استعدت بحرارة الصيف ويبسه للتخلخل وتفتح المسام والجفاف فاشتد انفعال البدن عنه وأسرع تأثيره في قهر الحرارة الغريزية فيقوى بذلك في البدن قوّتا البرد واليبس اللتان هما طبيعة الموت فيكون بذلك يبس الأشجار واحتراق الأوراق وانحسارها وضمور الأبدان وضعفها ، وأما أمره بالتقائه في آخره، وهو آخر الشتاء وأول زمان الربيع فلأن الشتاء والربيع يشتركان في الرطوبة ويفترقان بأن

---

(١) ٣٠ ـ ٢٦ .

الشتاء بارد والربيع حار فالبرد المتأخر إذا امتزج بحرارة الربيع وانكسرت سورته بها لم يكن له بعد ذلك نكاية في الأبدان فقويت لذلك الحرارة الغريزية وانتعشت فكان من اعتدالها بالبرد مع الرطوبة استعداد لمزاج هو طبيعة الحياة، وكان منه النمو وقوة الأبدان وبروز الأوراق والثمار .

وقوله : فإنه. إلى آخره .

صغرى ضمير نبه به على توقيه وتلقيه . وتقدير كبراه : وكل ما كان كذلك فإنه يجب توقّي أوله وتلقي آخره .

وقوله : أوله يحرق وآخره يورق .

وهو وجه التشبيه .

١١٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عِظَمُ ٱلْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ ٱلْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ .

هذا أمر وجده العارفون بالله فإنّ من عرف عظمة الله وجلاله ولحظ جميع المخلوقات بالقياس إليه حتى علم مالها من ذواتها وهو الإمكان والحاجة وعدم استحقاق الوجود إلّا منه تعالى علم أنها في جنب عظمته عدم ولا أحقر من العدم . وشدّة صغر المخلوق في اعتبار العارف بحسب درجته في عرفانه . وقيل لبعض العارفين : فلان زاهد . فقال : فيما ذا ؟ فقيل : في الدنيا . فقال : الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة فكيف يعتبر الزهد فيها ؟ والزهد إنما يكون في شيء والدنيا عندي لا شيء .

١٢٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِفِّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى ٱلْقُبُورِ بِظَاهِرِ ٱلْكُوفَةِ :

يَا أَهْلَ ٱلدِّيَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْمَحَالِّ ٱلْمُقْفِرَةِ ، وَٱلْقُبُورِ ٱلْمُظْلِمَةِ ! يَا أَهْلَ ٱلتُّرْبَةِ . يَا أَهْلَ ٱلْغُرْبَةِ ، يَا أَهْلَ ٱلْوَحْدَةِ يَا أَهْلَ ٱلْوَحْشَةِ ! أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ ، أَمَّا ٱلدُّورُ فَقَدْ سُكِنَتْ ، وَأَمَّا ٱلْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ ، وَأَمَّا ٱلْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِمَتْ ، هٰذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ ؟

ثُمَّ آلْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ : أَمَا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي آلْكَلَامِ لأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ ﴿ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

الفرط : الذي يتقدم الواردة فيهيء الإرشاء والدلاء . وخاطبهم عليه السلام خطاب من يسمع إقامة لحالهم المعهودة مقام أشخاصهم الموجودة . والديار الموحشة والمحال المقفرة : القبور . وغرض الفصل ترقيق القلوب القاسية وتنبيه النفوس الغافلة عن غاية الدنيا ومتاعها لغاية العمل فيها كما ينبغي ، ولما كان الحق هو أن خير الزاد التقوى كما نطق به القرآن الكريم وكان ذلك أمراً شاهد المتقون في جزائهم بتقواهم والفجّار في حرمانهم بعدمه لا جرم لو أُذن لهم في الجواب وأُعطوا آلته لكان جوابهم ما عرفوا من الحق .

١٢١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ آلسَّلَامُ وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَذُمُّ آلدُّنْيَا : أَيُّهَا آلذَّامُّ لِلدُّنْيَا آلْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا ، آلْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا! أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا ؟ أَنْتَ آلْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ آلْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ؟ مَتَى آسْتَهْوَتْكَ أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ ؟ أَبِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ آلْبِلَى ؟ أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ آلثَّرَى ؟ كَمْ عَلَّلْتَ بِكَفَّيْكَ ؟ وَكَمْ مَرَّضْتَ بِيَدَيْكَ ؟ تَبْغِي لَهُمُ آلشِّفَاءَ وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ آلأَطِبَّاءَ ، غَدَاةَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ ، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاؤُكَ ، وَلَمْ يَنْفَعْ أَحَدَهُمْ إِشْفَاقُكَ ، وَلَمْ تُسْعَفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ! وَقَدْ مَثَّلَتْ لَكَ بِهِ آلدُّنْيَا نَفْسَكَ! وَبِمَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ .

إِنَّ آلدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنىً لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ آتَّعَظَ بِهَا ، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ آللَّهِ ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ آللَّهِ ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ آللَّهِ ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ آللَّهِ ، آكْتَسَبُوا فِيهَا آلرَّحْمَةَ ، وَرَبِحُوا فِيهَا آلْجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا ، وَأَهْلَهَا ، فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا آلْبَلَاءَ ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى آلسُّرُورِ ؟؟!! رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ ، وَآبْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً ، وَتَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً ، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ آلنَّدَامَةِ ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ

يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ، ذَكَّرَتْهُمُ ٱلدُّنْيَا فَتَذَكَّرُوا ، وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا ، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا .

أقول : المتجرم : المدعي جريمة واستهوتك : طلبت هواك إليها وهواك فيها . ومثّلت : صوّرت .

وقوله : أيها الذام ، إلى قوله : غرتك .

توبيخ له على الاغترار بها وذمها مع ذلك وكذب دعواه أنها هي ذات الجريمة عليه باستفهامه عن وقت استهوائها له استفهام منكر لذلك وموبّخ عليه وأكد ذلك باستفهام أن ذلك الغرور له منها بأي شيء كان أمن مصارع الآباء أم بمضاجع الأمهات،وذلك على وجه الاستهزاء منه والتنبيه له على ما يوجب النفرة منها وعدم الاغترار بها من سوء صنيعها بأهلها حتى كأنها قاصدة لذلك التنبيه والتنفير عنها .

وقوله : كم عللت . إلى قوله : مصرعك .

صغرى ضمير دلّ به على ما ادعاه لها من كونها منبهة من الغفلة وليس قصدها الغرور وتقديرها : قد صوّرت لك الدنيا نفسك بمن أكثرت تعليله وتمريضه من أهلك طالباً له الشفاء ومستوصفاً له الأطباء فلم ينفعه ذلك منك ، ومثّلت بمصرعه مصرعك . وتقدير الكبرى : وكل من مثل لك ذلك وصوّره لك فليس من أهل التلبيس عليك والغرور لك. بل من نصحائك ومنبّهيك من غفلتك . ثم لما نفى عنها الذم أخذ في مدحها وذكر لها أوصافاً ثمانية :

أحدها : أنها دار صدق لمن صدقها : أي فيما أخبر به بلسان حالها من فنائها وزوالها . وتصديقه لها اعترافه بذلك منها والعمل به .

الثاني : ودار عافية لمن فهم عنها ما أخبرت عنها من عظاتها حتى احترز من آفاتها وعوفي من عذاب الله بها .

الثالث : ودار غنى لمن اتخذ فيها التقوى زاداً لسفره إلى الله . وظاهر أن التقوى وثمرتها في الآخرة أعظم غنى للمتقين .

الرابع : ودار موعظة لمن اعتبر بها فعلم وصفها وغايتها .

الخامس : كونها مسجد أحباء الله من رسله وأوليائه .

السادس : كونها مصلى ملائكة الله الأرضية الذين سجدوا لآدم عليه السلام .

السابع : كونها مهبط وحي الله .

الثامن : كونها متجر أولياء الله الّذين اكتسبوا بعبادتهم فيها رحمته وربحوا جنته .

ثم استفهم بعد هذه الممادح عمّن يذمها منكراً عليه ومبيّناً لأحوال أُخرى لها ينافي ذمها أي فمن ذا يذمها ولها الصفات المذكورة وهي على هذه الأحوال ؟ وذكر منها ستة :

إحديها : كونها آذنت أهلها وأعلمتهم بفراقها . والواو في قوله : وقد للحال .

الثاني : ونادت بفراقها .

الثالث : ونعت نفسها . كل ذلك بلسان حالها من التغيّر والانتقال المؤذن . بالزوال .

الرابع : كونها مثّلت لهم ببلائها البلاء في الآخرة .

الخامس : وشوقتهم بسرورها إلى السرور في الجنة . وإنما كان كذلك لأن كل ما في هذا العالم فهو صورة ومثال لما في عالم الغيب ونسخة منه يعتبر به ويقاس إليه ولولا ذلك لانسد طريق الترقي إلى الحضرة الإلهية وتعذر الوقوف على شيء من أسرارها . فالسالكون إلى الله لما شاهدوا بلاء الآخرة من بلاء الدنيا عملوا للخلاص منه وشاهدوا سرورها من سرور الدنيا وعلموا أن بينهما فرقاً عظيماً وأن الأشرف لا يحصل إلّا برفض الأخس فاقتضت آراؤهم الصالحة بيع سرور الفاني بالباقي .

السادس : رواحها بعافية وابتكارها بفجيعة . وهو كناية عن سرعة انتقال أحوالها وتبدل أطوارها من رخاء إلى شدة ومن صحة إلى سقم ونسب

هذه الأفعال إليها لأن لها سببية ما في ذلك .

ولما نسب إليها الأفعال الاختيارية جعل لها منها غايات وهي ترغيب الناس إلى الله وترهيبهم منها . ثم أشار إلى سبب ذمها ممن ذمها وهو ندامة المفرطين في اتخاذ زاد التقوى إلى الآخرة منها فنسبوا ذلك التفريط إلى غرورها لهم وهو باطل كما بيّنه ، ثم إلى سبب مدحها ممن مدحها وهو ثلاثة :

أحدها : تذكّرها لهم بزوالها أن وراءها غاية باقية يجب العمل لها فتذكروا ما ذكرتهم وعملوا .

الثاني : حديثها لهم بذلك حتى صدقوا .

الثالث : وعظها لهم بعبرها حتى اتعظوا .

١٢٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ لِلَّهِ مَلَكاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لِدُوا لِلْمَوْتِ ، وَٱبْنُوا لِلْخَرَابِ ، وَٱجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ .

ذلك النداء على وفق ما لمّ من القضاء الإلهي في طبيعة الدنيا وغايتها ، والأمور الثلاثة وهي الموت والفناء والخراب غايات طبيعية . واللام فيها هي المسماة بلام العاقبة .

١٢٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ٱلدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ إِلَى دَارِ مَقَرٍّ ، وَٱلنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ بَاعَ فِيهَا نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا ، وَرَجُلٌ ٱبْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا .

أوبقها : أهلكها . وكون الدنيا دار ممر باعتبار أنها طريق إلى الآخرة التي هي دار المقر . واستعار لفظ البيع لبائع نفسه باعتبار تسليمه لها إلى الهلاك الأخروي واعتياضه عنها ما أصابه من اللذة الدنيوية ، وكذلك لفظ الابتياع لمشتري نفسه باعتبار إنقاذها من ذلك الهلاك ببذل ما قدر عليه من حاضر اللذات والإعراض عنه . وحصر المكلفين في الرجلين المذكورين ظاهر .

١٢٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا يَكُونُ ٱلصَّدِيقُ صَدِيقاً حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلَاثٍ : فِي نَكْبَتِهِ ، وَغَيْبَتِهِ ، وَوَفَاتِهِ .

جعل لصديق الصدق خاصة يعرف بها ، وهو أن يحفظ صديقه في الأمور الثلاثة . وحفظه بالقيام مقامه فيما ينبغي فعله في صلاح حاله بقدر الإمكان .

١٢٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعاً لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعاً : مَنْ أُعْطِيَ ٱلدُّعاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإجَابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ ٱلتَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ ٱلْقَبُولَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ ٱلإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ ٱلْمَغْفِرَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ ٱلشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ ٱلزِّيَادَةَ .

وَتَصْدِيقُ ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الله، قَالَ الله فِي الدُّعَاءِ: ﴿ **أُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ وَقَالَ فِي ٱلإِسْتِغْفَارِ : ﴿ **وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً** ﴾ وَقَالَ فِي ٱلشُّكْرِ : ﴿ **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ وَقَالَ فِي ٱلتَّوْبَةِ : ﴿ **إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ .

أقول : الأمور الأربعة الأولى إذا كانت بإخلاص كان كل منها سبباً في إعداد النفس لقبول صورة الرحمة الإلهية من واهبها . فالدعاء لإجابته ، والتوبة لقبولها وإسقاط ثمرة المعصية ، والاستغفار للمغفرة ، والشكر للزيادة . والشواهد الإلهية ناطقة بذلك على وفق مقتضى العمل .

١٢٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : أَلصَّلاَةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ ، وَٱلْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ، وَزَكَاةُ ٱلْبَدَنِ ٱلصِّيَامُ ، وَجِهَادُ ٱلْمَرْأَةِ حُسْنُ ٱلتَّبَعُّلِ .

التبعل : معاشرة البعل وصحبته والكلام إشارة إلى بعض أسرار هذه العبادات : فمن أسرار الصلاة كونها قرباناً إلى الله تعالى وقد علمت أنها أعظم ما يتقرب إليه المتقون به من العبادات ، ومن أسرار الحج كونه جهاداً في سبيل الله لما فيه من مشقة السفر ومجاهدة الطبيعة ومقاومة النفس الأمارة بالسوء، مع قوتها لشبهة عدم الاطلاع على أسرار الحج وفائدته مع ما في كيفيته من الأفعال التي يعجب منها الجاهلون . وإنما خصّ الضعيف بذلك جذباً له إليه ولأن للقوى جهاد آخر هو المشهور ، ومن أسرار الصوم كونه زكاة

للبدن لما فيه من تنقيص قوته وكسر شهوته لغاية طاعة الله والثواب الأخروي ، وكما أن الزكاة تنقيص في المال مستلزم لزيادة الثواب في الآخرة ، ومن أسرار التبعل حسن معاشرة البعل وطاعته في طاعة الله وفي ذلك كسر النفس الأمارة للمرأة وانقيادها في صراط الله .

١٢٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ٱسْتَنْزِلُوا ٱلرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية .

وفي الكلمة فائدتان :

إحديهما : الترغيب في الصدقة بذكر كونها سبباً لاستنزال الرزق . وقد مرّ أن الصدقة باب عظيم لذلك معدّ لحصوله ، ومن وجوه إعدادها كونها نفعاً متعدياً يستلزم تألّف قلوب أهل الله والصالحين من عباده واجتماع هممهم على دعاء الله لصلاح حال المتصدق .

الثانية : التنبيه على أقوى الأسباب الباعثة عليها وعلى البذل في أكثر الخلق ليعتمد فيسهل معه البذل وهو الثقة بالله واليقين بالخلف منه كما نطق به وعده تعالى ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم** ﴾[1] الآية .

١٢٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : تَنْزِلُ ٱلْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ ٱلْمُؤُونَةِ .

المؤونة : التعب والشدة وهي مفعلة من الأين . والمراد أن الشدة والثقل بالعيال ونحوهم معدّ لاستنزال معونة الله برزقه وقوته على القيام بأحوالهم ودفع المؤونة من جهتهم .

١٢٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَا أَعَالَ مَنِ ٱقْتَصَدَ .

العيلة : الفقر . والاقتصاد : الإنفاق بقدر الحاجة المتعارفة . وذلك معدّ لعدم الحاجة لأن قدر الحاجة من المال أمر قد تكفل الله بإدراره مدة البقاء وهو ما لا بد للمقتصد منه .

---

(١) ٦٤ ـ ١٧ .

١٣٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ أَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ ، وَٱلتَّوَدُّدُ نِصْفُ ٱلْعَقْلِ . وَٱلْهَمُّ نِصْفُ ٱلْهَرَمِ .

أما الأول : فلأن الغنى المتعارف يكون بحصول المال وللمال اعتباران :

أحدهما : حصوله .

والثاني : عدم إنفاقه . فحصوله يسار ، وعدم إنفاقه على العيال لقلتهم يسار ثان . وأطلق اليسار على قلة العيال مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

وأما الثاني : فأراد العقل العملي . ولفظه مجاز في تصرفاته إطلاقاً لاسم السبب على المسبب ومن جملة تصرفاته في التدبير التودد إلى الخلق . ولما كان الإنسان محتاجاً في إصلاح معاشه إلى غيره وكانت معاملته لهم في ذلك إما على وجه التودد وما يلزمه من جميل المعاشرة وحسن الصحبة والمسامحة والترغيب ، وإما على وجه القهر والغلبة والترهيب لا جرم كان التودد وما يلزمه نصف العقل : أي نصف تصرفه في تدبير أمر معاشه .

وأما الثالث : فلأن الهرم إما طبيعي ، وإما لسبب من خارج وهو الهم والحزن والخوف المستلزم له فهو إذن قسيم للسبب الطبيعي . وقسم من أسباب الهرم كالنصف له فاستعار له لفظ النصف وأراد : والهم نصف سبب الهرم .

١٣١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : يَنْزِلُ ٱلصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ ٱلْمُصِيبَةِ ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخذَيه عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبِطَ أَجْرُهُ.

إن الله سبحانه جعل للإنسان قوة استعداد لأن يصبر بمقدار مصيبته فمن تم استعداده أُفيض عليه ذلك المقدار من الصبر ومن قصر في الاستعداد لحصول هذه الفضيلة وارتكب ضدها وهو الجزع حبط أجره، وهو ثوابه على الصبر ، وكنّى عن الجزع بما يلزمه في العادة من ضرب اليدين على الفخذين . وقيل : بل يحبط ثوابه السابق لأن شدة الجزع يستلزم كراهية

قضاء الله وسخطه وعدم الالتفات إلى ما وعد به من ثواب الصابرين وهو معد لمحو الحسنات من لوح النفس وسقوط ما يلزمها من ثواب الآخر :

١٣٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ ، وَكَمْ مِن قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالعَنَاءُ ، حَبَّذَا نَوْمُ الأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ .

أراد بذلك من أخلّ بشرط من شرائط صيامه وقيامه ولم يأت على وجه الإجزاء ، وأعظم شرط لهما توجههما إلى المعبود الحق عزّ سلطانه ، وكثرة خلل العبادة وفسادها من كثير من الخلق إنما يكون للجهل بهذا الشرط . وكنّى بالقيام عن الصلاة . وإنما مدح نوم الأكياس لأن الكيس هو الذي يستعمل ذكاءه وفطنته في طرق الخير وعلى الوجه المرضي للشارع، ويضع كل شيء موضعه . ومن كان كذلك كان نومه وإفطاره وجميع تصرفاته في عباداته موضعةً موضعها من رضاء الله ومحبته .

١٣٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بَالزَّكَاةِ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ .

سوسوا : أي املكوا . وذلك أن الصدقة من الإيمان التام مملكه وحفظه لا يكون بدونها ، وأما تحصين المال بالزكاة فلأن منعها إنما يكون عن البخل وشدة الحرص، وذلك باعث لمستحقها على ذمه وداعٍ للخلق إلى التسبب في أذاه فكان مانعها متعرضاً بذلك لتلف ماله وبأدائها محصناً له . واستعار لفظ الأمواج للحوادث المتواترة وقد مر أن الدعاء بإخلاص مما يعد النفس للإجابة بالمطلوب . وغرضه الحث على الصدقة والزكاة والدعاء .

١٣٤ ـ وقال (عليه السلام) لكميل بن زياد النخعي رحمه الله، قال كميل:

أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَّانِ ، فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ ثُمَّ قَالَ :

يَا كُمَيْلُ إِنَّ هٰذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ :

أَلنَّاسُ ثَلاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ ٱلْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَأوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ .

يَا كُمَيْلُ ؛ أَلْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْمَالِ ، أَلْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ ٱلْمَالَ ،وَٱلْمَالُ تَنْقُصُهُ ٱلنَّفَقَةُ وَٱلْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى ٱلْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ ٱلْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ .

يَا كُمَيْلُ ؛ أَلْعِلْمُ دِينٌ يُدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ ٱلْإِنْسَانُ ٱلطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ ٱلْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَٱلْعِلْمُ حَاكِمٌ وَٱلْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ .

يَا كُمَيْلُ ؛ هَلَكَ خُزَّانُ ٱلْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، وَٱلْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ ٱلدَّهْرُ ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي ٱلْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . هَا إِنَّ هٰاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً (وَأَشَارَ عَلَيْهِ السَّلامُ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً ، بَلَى أُصِيبُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ ، مُسْتَعْمِلاً آلَةَ ٱلدِّينِ لِلدُّنْيَا ، وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ ٱللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، أَوْ مُنْقَاداً لَحَمَلَةِ ٱلْحَقِّ لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ، يَنْقَدِحُ ٱلشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ . أَلا لا ذَا وَلا ذَاكَ ، أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَلِسَ ٱلْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ، أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَٱلإِدِّخَارِ ، لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ ٱلدِّينِ فِي شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا ٱلْأَنْعَامُ ٱلسَّائِمَةُ ، كَذٰلِكَ يَمُوتُ ٱلْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ .

أَللَّهُمَّ بَلَى ، لا تَخْلُوا ٱلْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً ، أَوْ خَائِفاً مَغْمُوراً ، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ ٱللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ ، وَكَمْ ذَا ؟ وَأَيْنَ أُولٰئِكَ ، أُولٰئِكَ ـ وَٱللَّهِ ـ ٱلْأَقَلُّونَ عَدَداً ، وَٱلْأَعْظَمُونَ قَدْراً ، بِهِمْ يَحْفَظُ ٱللَّهُ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّىٰ يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ ، وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ ، هَجَمَ بِهِمُ ٱلْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ ٱلْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رُوحَ ٱلْيَقِينِ ، فَاسْتَلانُوا مَا ٱسْتَوْعَرَهُ ٱلْمُتْرَفُونَ ، وَأَنِسُوا بِمَا ٱسْتَوْحَشَ مِنْهُ ٱلْجَاهِلُونَ ، وَصَحِبُوا ٱلدُّنْيَا

بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ ٱلأَعْلَى ، أُولٰئِكَ خُلَفَاءُ ٱللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَٱلدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ . آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ ، إِنْصَرِفْ إِذَا شِئْتَ .

أقول : الجبّان : الصحراء . والصعداء : نوع من النفس يصعده المتلهف والحزين . والهمج : ذباب صغيرة كالبعوض . والرعاع : الأحداث والعوام . واللقن : سريع الفهم . والأحناء : الجوانب . والمنهوم باللذة : الشره فيها الحريص عليها . والمغرم بالجمع : شديد المحبة له . وهجم : دخل بغتة .

وفي الفصل نكت :

إحديهما : **أنه** عليه السلام أعده ونبهه للفهم عنه بقوله : إن هذه القلوب . إلى قوله : لك .

الثانية : قسم الناس إلى ثلاثة أصناف . ووجه القسمة أن الناس إما عالم أو ليس . والثاني : إما طالب للعلم أو ليس . ثم قيّد كلّاً من الأقسام الثلاثة بصفة أو صفات :

فالأول : العالم . ووصفه بالرباني نسبة الى الرب تعالى على غير قياس : أي العالم علم ربوبيّته وهو العارف بالله تعالى وزيدت الألف والنون للمبالغة في النسبة، قال الله تعالى: ﴿**كونوا ربّانيين**﴾[1] وقيل : سموا بذلك لأنهم يربّون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها . وقيل : لأنهم يربون العلم : أي يقومون بإصلاحه .

الثاني : المتعلّم . ووصفه بكونه على سبيل النجاة . ولما كان العلم سبباً للنجاة في الآخرة وكان المتعلم في طريق تحصيله كان على سبيل النجاة ليصل إليها بالعلم الذي هو غايته المطلوبة .

الثالث : العوام . ووصفهم بأوصاف :

أحدها : استعار لهم لفظ الهمج باعتبار حقارتهم .

---

(١) ٣ - ٧٣.

الثاني : وصفهم بالعامية والحداثة لكونهما مظنتي الجهل .

الثالث : كونهم أتباع كل ناعق ملاحظة لشبههم بالغنم في الغفلة والغباوة .

الرابع : كنّى بكونهم يميلون مع كل ريح عن ضعفهم عن التماسك في مذهب واحد والثبات عليه .

الخامس : كونهم لم يستضيؤوا بنور العلم وهو كونهم على ظلمة الجهل .

السادس : ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق . واستعار الركن الوثيق للاعتقادات الحقة البرهانية التي يعتمد عليها في دفع مكاره الآخرة .

الثالثة : في مدح العلم . وتفضله على المال من وجوه :

أحدها : أن العلم يحرس صاحبه من مكاره الدنيا والآخرة والمال يحرسه صاحبه ، والفرق بين ما يكون حارساً لصاحبه وبين ما يحتاج صاحبه إلى حراسته في الفضيلة والنفع ظاهر .

الثاني : أن العلم يزكو ويزيد بإخراجه وإفادته لطالبيه لتذكر العالم بتعليمه ومذاكرته لما غفل منه واستنباطه ما لم يكن عنده ، والمال تنقصه النفقة والإخراج منه .

الثالث : أن صنيع المال وهو الإحسان به يزول بزوال المال ، والإحسان بالعلم باق لبقائه . وصنيع : فعيل بمعنى مفعول .

الرابع : كون معرفة العلم ـ أي تحصيله ـ ديناً يدان به . وقد علمت كونه الأصل في الدين .

الخامس : كونه يكسب الإنسان طاعة الخلق له في حياته وجميل الأُحدوثة بعد وفاته . وهما من فضائله الخارجية .

السادس : كونه حاكماً على المال والمال محكوماً عليه : أي أن تصريفه في جمعه وإنفاقه إنما يكون على وفق العلم بوجوه تحصيله ومصارفه .

السابع : من أفضليته على المال كون خزّان المال هالكين في الآخرة محكوم عليهم بذلك في الدنيا وإن صدق عليهم أنهم أحياء كما قال تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾[1] الآية ، وأما العلماء فباقون أبداً ، وإن فقدت أعيانهم من الدنيا فصورهم في القلوب مشاهدة موجودة .

الرابعة : أشار بعد تقرير كمال هذه الفضيلة إلى أن في صدره منها شيئاً كثيراً . وإنما يمنعه عن إظهاره عدم وجدان من يحمله عنه و ـ ها ـ للتنبيه . وجواب ـ لو ـ محذوف تقديره لأظهرته .

الخامسة : استثبت من يجده ونبه على عدم صلاحيتهم لحمل ما عنده من العلم ، وأشار الى أربعة أصناف منهم ، ووجه القسمة أن غير أهل العلم من الناس إما طالبون له أو غير طالبين ، والطالبون إما قادرون على القيام بالحجة أو غير قادرين ، وغير الطالبين له هم المشغولون بغيره عنه فاشتغالهم إما بالانهماك في لذاتهم وسهولة الانقياد لشهواتهم ، وإما بمحبة جمع المال وادّخاره .

فالأول : هو الخبيث الموصوف برذيلة الجربزة ، وأشار إليه بقوله : بلى أُصيب لقناً . إلى قوله : على أوليائه .

وأشار إلى وجوه عدم صلاحيته لحمله :

أحدها : كونه غير مأمون عليه : أي هو مظنة أن يذيعه إلى غير أهله [أن يديغه ـ خ ـ] ويضعه في غير مواضعه . والضمير في قوله : عليه . للعلم .

الثاني : كونه مستعملاً لآلة الدين وهو العلم في الدنيا واستعماله فيها كالتكسب به ، ومستظهراً بنعم الله وهي العلم على عباده كالفخر عليهم ومغالبتهم واستعمال حجة الله وما علمه منها في مقابلة أوليائه وتلبيس الحق بالباطل .

---

(١) ٩ ـ ٣٤.

وأما الثاني : ممن لا يصلح لحمله فهو المقلد ، وأشار إليه بقوله : ومنقاداً . إلى قوله : شبهة . ومنقاداً عطف على لقناً ، وأراد بالانقياد للحق الإيمان به وتسليمه على سبيل الجملة ، وأشار إلى كونه غير صالح لحمله من وجهين :

أحدهما : كونه لا بصيرة له في جوانب العلم وتفاصيله .

الثاني : كونه ينقدح الشك في قلبه لأول عارض من شبهة . وذلك لعدم العلم وثباته في نفسه بالبرهان والحجة الواضحة .

وقوله : لا ذا ولا ذاك . أي من حملة العلم .

الثالث : هو المشار إليه بقوله : أو منهوماً . إلى قوله : للشهوة .

والرابع : هو المشار إليه بقوله : أو مغرماً بالجمع والادّخار . وأتبعهما في معرض الذم لهما بوصفين :

أحدهما : كونهما ليسا من رعاة الدين في شيء : أي لا تعلق لهما بالدين وأهله .

الثاني : كونهما أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة باعتبار غفلتهما عن الدين وثمرته في الآخرة . وقوله : كذلك : أي تقارب تلك الأحوال من عدم من يصلح لحمل العلم ووجدان من لا يصلح له موت العلم بموت حامليه لأن التشبيه يفيد مقاربة الأحوال ، وعنى بحامله نفسه ومن عساه يكون من أهله يومئذ . ثم استدرك بقوله : اللهم بلى . عدم خلوّ الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهراً أو مستتراً مغموراً في الناس . وأراد بالظاهر من عساه يتمكن من إظهار العلم والعمل به من أولياء الله وخلفاء أوليائه في موضع من الأرض ، وبالخائف المغمور إلى من لم يتمكن من ذلك.

قالت الشيعة : هذا تصريح منه عليه السلام بوجوب الإمامة بين الناس في كل زمان ما دام التكليف باقياً وأن الإمام قائم بحجة الله على خلقه ويجب بمقتضى حكمته . وهو إما أن يكون ظاهراً معروفاً كالذين سبقوا إلى الإحسان ووصلوا إلى المحل الأعلى من ولده الأحد عشر ، وإما أن يكون خائفاً مستوراً

لكثرة أعدائه وقلة المخلص من أوليائه كالحجة المنتظر لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وقوله : وكم ذا . استبطاء لمدة غيبة صاحب الأمر وتبرّم من امتداد دولة أعدائه .

وقوله : أين هم . استقلال لعدد أئمة الدين . ولذلك نبه بقوله : أولئك والله الأقلون عدداً . وذكر في معرض مدحهم أوصافاً :

أحدها : الأقلون عدداً الأعظمون قدراً عند الله .

الثاني : أن بهم يحفظ حججه وبيّناته المشتمل عليها دينه حتى يودعوها أمثالهم ويزرعوها في قلوب أشباههم بعدهم .

الثالث : كونهم : يهجم بهم العلم على حقيقة البصيرة : أي فاجأهم ودخل على عقولهم دفعة لأن علومهم لدنيّة حدسية ، وقيل : ذلك على المقلوب : أي هجمت بهم عقولهم على حقيقة العلم .

الرابع : وباشروا روح اليقين : أي وجدوا لذته .

الخامس : واستلانوا ما استوعر منه المترفون من الأمور الشاقة كجشوبة المطعم وخشونة المضجع والملبس ومصابرة الصيام والسهر . وذلك في جنب ما وجدوه من لذة اليقين وحلاوة العرفان هيّن ليّن عندهم .

السادس : وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وهو الأحوال التي ألفوها مما ذكرنا فإن الجاهل لجهله بثمرتها ينفر منها ويستوحش من أهلها .

السابع : وصحبوا الدنيا بأبدان أرواح معلقة بالمحل الأعلى عاشقة لما شاهدته من جمال حضرة الربوبية وصحبة الملإ الأعلى من الملائكة . ولما ميّزهم بالأوصاف المذكورة أشار في معرض مدحهم أيضاً إلى أن هؤلاء لما اشتملوا عليه من هذه الأوصاف هم خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه . ثم تأوّه شوقاً إلى رؤيتهم و ـ آه ـ كلمة توجع أصلها ـ أوه ـ والفصل من أفصح ما نقل عنه عليه السلام .

١٣٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

أي حاله مستورة في عدم نطقه فحذف المضاف للعلم به . وتحت لسانه كناية عن سكوته ، وذلك أن مقداره بمقدار عقله ومقدار عقله يعرف من مقدار كلامه لدلالته عليه فإذا تكلّم بكلام الحكماء ظهر كونه حكيماً أو بكلام السفهاء عرف كونه منهم وما بين المرتبتين بالنسبة .

١٣٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : هَلَكَ ٱمْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ .

قد علمت أن قدره هو مقداره في نفس الأمر ومنزلته من الفضيلة وعدمها ؛ ومن لم يعرف منزلته أوشك أن يتجاوزها فيهلك . مثلاً من لم يعرف محله من العلم أوشك أن يرفع به فوق محله أو يعنى بما لا يعرف لاعتقاده كماله فيقع في الهلاك الأُخروي وربّما تبعه هلاك دنياه ، ولزمه من تجاوزه تلعب ألسنة الناس وأيديهم به وهلاكه بذلك .

١٣٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِرَجُلٍ سَأَلَهُ أَنْ يَعِظَهُ :

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو ٱلآخِرَةَ بِغَيْرِ ٱلْعَمَلِ ، وَيُرَجِّي ٱلتَّوْبَةَ بِطُولِ ٱلْأَمَلِ ، يَقُولُ فِي ٱلدُّنْيَا بِقَوْلِ ٱلزَّاهِدِينَ ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ ٱلرَّاغِبِينَ ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي ، يُحِبُّ ٱلصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ ، وَيُبْغِضُ ٱلْمُذْنِبِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ، يَكْرَهُ ٱلْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يُكْرَهُ ٱلْمَوْتُ لَهُ ، إِنْ سَقِمَ وَإِنْ صَحَّ ظَلَّ نَادِماً ، أَمِنَ لَاهِياً ، يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوفِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ٱبْتُلِيَ ، إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ دَعَا مُضْطَرّاً ، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُغْتَرّاً ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ ، وَلَا يَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَسْتَيْقِنُ ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَدْنَى مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ عَمَلِهِ ، إِنِ ٱسْتَغْنَى بَطِرَ وَفُتِنَ ، وَإِنِ ٱفْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ ، يُقَصِّرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ ، إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ ٱلْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ ٱلتَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَتْهُ مِحْنَةٌ ٱنْفَرَجَ عَنْ شَرَائِطِ ٱلْمِلَّةِ ، يَصِفُ ٱلْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي ٱلْمَوْعِظَةِ وَلَا

يَتَّعِظُ ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ ، وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ ، يُنَافِسُ فِيمَا يَفْنَى ، وَيُسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى ، يَرَى الْغُنْمَ مَغْرَماً ، وَالْغُرْمَ مَغْنَماً ، يَخْشَى الْمَوْتَ، وَلاَ يُبَادِرُ الْفَوْتَ ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يَحْقِرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَاعِنٌ ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ ، أَللَّهْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلاَ يَحْكُمُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، يُرْشِدُ غَيْرَهُ وَيُغْوِي نَفْسَهُ ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصِي ، وَيَسْتَوْفِي وَلاَ يُوفِي ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلاَ يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

قال الرضي : ولو لم يكن في هذا الكتاب إلّا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة ، وحكمة بالغة ، وبصيرة لمبصر ، وعبرة لناظر مفكر .

أقول : يرجّيها : يؤخرها . ويروى : يزجيها ـ بالزا المعجمة ـ : أي يدفعها . القنوط : اليأس . وعرته : عرضت له . ومدل : أي واثق .

وحاصل الفصل نهى طالب الموعظة عن أربع وثلاثين رذيلة :

أحدها : رجاء الآخرة وثوابها بغير عمل فإن ذلك منى على الله ، وقد علمت أن المنى بضائع النوكى .

الثانية : ترجية التوبة أو إزجاؤها بطول الأمل فإن ذلك يستلزم البقاء على المعصية والعذاب بها في الآخرة .

الثالثة : أن يجمع بين قول الزاهدين في الدنيا وعمل الراغبين فيها ، وهو خداع لله . وعمله فيها عمل الراغبين يستلزم أن يصيبه ما أصابهم من عذاب الآخرة بها .

الرابعة : أن لا يشبع مما يعطى منها . وذلك رذيلة الشره والحرص .

الخامسة : أن لا يقنع إن منع . وذلك رذيلة التفريط من فضيلة القناعة .

السادسة : أن يجمع بين العجز عن شكر ما أُوتي من نعمة الله وبين

طلب الزيادة من فاضلها . وهو جمع بين رذيلة التفريط من فضيلة الشكر وبين رذيلة الحرص .

السابعة : أن يجمع بين نهيه عن المعاصي وعدم تناهيه عنها وهو نفاق وخداع لله .

الثامنة : أن يأمر بما قصر عن فعله . وهو كالذي قبله .

التاسعة : أن يحب الصالحين ويقصر عن عملهم. وتقصيره النقض على محبته لهم .

العاشرة : أن يبغض المذنبين وهو أحدهم . فيكون فعله كالنقض على بغضه لهم .

الحادية عشر : أن يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم على ما يكره الموت له من كثرة الذنوب فإقامته على ذنوبه كالنقض على كراهيته للموت لأجلها مع ما يلزمها من العذاب الأخروي .

الثانية عشر : أن يجمع بين ندمه حال سقمه على تفريطه في جنب الله وبين لهوه في لذته حال أمنه وهو أيضاً كالتناقض .

الثالثة عشر : أن يعجب بنفسه حين عافيته فإن العجب من المهلكات .

الرابعة عشر : أن يقنط إذا ما ابتلاه ربه وييأس من رحمته . وذلك كما قال تعالى : ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون** ﴾[1] .

الخامسة عشر : أن يجمع بين دعاء الله باضطرار إليه عند نزول البلاء به وبين الإعراض عنه والاغترار بالدنيا عند إصابته للرخاء فإن الأول رذيلة إفراط والثاني رذيلة تفريط .

السادسة عشر : أن يجمع بين الانقهار لنفسه والانقياد لها إلى ما يظنه فائدة من الأمور الدنيوية وبين عدم قهرها وغلبها إلى ما يستيقنه من ثواب

---

(١) ١٢ ـ ٨٧ .

الآخرة وعذابها فلا يلزمها العمل لذلك فإن ذلك عند العقل سفه وجنون .

السابعة عشر : أن يجمع بين الخوف على غيره من ذنوب هي أقل من ذنوبه وبين الرجاء لنفسه ثواباً أكثر مما يستحق على عمله فإن الحق من ذلك أن يخاف على نفسه أكثر من الخوف على غيره لأكثرية ذنوبه ويعمل لذلك الخوف .

الثامنة عشر : أن يبطر ويفتن إن أصاب غنى فإن ذلك فجور .

التاسعة عشر : أن يقنط ويضعف إن يفتقر وهو رذيلة تقصير وتفريط .

العشرون : أن يقصر في العمل .

الحادية والعشرون : أن يبالغ إذا سئل وهو رذيلة الإلحاف في السؤال .

الثانية والعشرون : أن يقدم المعصية إن عرضت شهوته ويؤخر التوبة منها .

الثالثة والعشرون : أن ينفرج عن شرائط الملة عند نزول المحنة به : أي يخرج من فضيلة الصبر على المصيبة الذي هو شرط الملة ويتركها .

الرابعة والعشرون : أن يجمع بين وصف العبرة وبين عدم الاعتبار .

الخامسة والعشرون : أن يبالغ في الموعظة حال ما لا يتعظ فإن ذلك يدخله في مقت الله تعالى لقوله : ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾[1] .

السادسة والعشرون : أن يجمع بين المنافسة فيما يفنى وهو الدنيا والمسامحة فيما يبقى وهو ثواب الآخرة وهو جهل وسفه ظاهر .

السابعة والعشرون : أن يرى الغنم مغرماً كالإنفاق في سبيل الله . والغرم مغنماً كالإنفاق في معصيته ، وهو عكس مقتضى العقل .

---

(١) ٦١ - ٣.

الثامنة والعشرون : أن يجمع بين خشية الموت وعدم مبادرته بالأعمال الصالحة المستلزمة للخلاص من أهواله وما بعده .

التاسعة والعشرون : أن يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه ، وكذلك يستكثر من طاعته ما يحقره من طاعة غيره . ويلزم من ذلك أن يكون طاعناً على الناس في أفعالهم ومداهناً لنفسه في فعلها .

الثلاثون : أن يكون اللهو مع الأغنياء أحب إليه من ذكر الله مع الفقراء . وذلك لفرط محبة الدنيا .

الحادية والثلاثون : أن يحكم لنفسه على غيره فيما يشتهيه وإن كان باطلاً ولا يحكم عليها لغيره في حق وهو ظلم .

الثانية والثلاثون : أن يجمع بين إرشاد غيره بالهادي من القول وبين إغواء نفسه بفعله : أي يعمل عمل الغاوين. ويلزم ذلك أن يطيعه غيره وهو يعصي الله .

الثالثة والثلاثون : أن يستوفي ما له على غيره ولا يوفي ما عليه من حق الله أو حق خلقه .

الرابعة والثلاثون : أن يجمع بين خشية الخلق في غير الله : أي في أمر ليس لله وبين عدم خشية الله في خلقه ، ويلزم الأول أن يرضيهم بما يسخط الله ، ويلزم الثاني أن يسخط الله بما يسخط خلقه ، وأكثر هذه مشتملة من علم الفصاحة على التقابل والتضاد وردّ العجز على الصدر .

١٣٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لِكُلِّ آمْرِىءٍ عَاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ .

وأشار إلى غايتيه من حركاته الخيرية والشرية . فغاية الخيرية الجنة ولذاتها وهي العاقبة الحلوة . وغاية الشرية النار وعذابها وهي العاقبة المرة . واستعار لفظي الحلوة والمرة للذيذ والمكروه .

١٣٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ ، وَمَا أَدْبَرَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ .

وأراد المقبل من لذات الدنيا في معرض التزهيد والمقبل من شدائدها

في معرض تهوينها وتسهيلها. وكأنَّ من أخوات إنّ مخففة واسمها محذوف.

١٤٠ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :** لَا يَعْدَمُ ٱلصَّبُورُ ٱلظَّفَرَ وَإِنْ طَالَ بِهِ ٱلزَّمَانُ .

فالصبور : كثير الصبر . ورغب فيه بما يلزمه من الظفر وإن تأخر . وذلك عند كمال استعداد الصبور بالصبر وقوته .

١٤١ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :** أَلرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ : إِثْمُ ٱلْعَمَلِ بِهِ ، وَإِثْمُ ٱلرِّضَى بِهِ .

ووجه التشبيه اشتراكهم في الرضا به المستلزم للميل إليه ومناسبته لطبعه . ونفّر عن الدخول في الباطل بما يلزمه من الإثمين : أما إثم العمل فظاهر ، وأما إثم الرضا فلأن الرضا بالباطل يستلزم محبته وهي رذيلة وإثم .

١٤٢ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :** إِعْتَصِمُوا بِالذِّمَمِ فِي أَوْتَادِهَا .

فالذمم : العهود والعقود والأيمان . واستعار لفظ الأوتاد لشرائط العهود وأسباب إحكامها كأنها أوتاد حافظة لها . وأراد امتنعوا من سخط الله وعذابه بحفظ الذمم في أوتادها فكأن العصمة منه تكون في أسباب حفظها و ـ في ـ متعلق باعتصموا . وروي : استعصموا.

١٤٣ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :** عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ بِجَهَالَتِهِ .

يريد الله تعالى . وقيل: هو إيجاب لطاعة من يجب طاعته من أئمة الحق الذين يجب العلم بحقيّة إمامتهم ولا يعذر الناس في الجهل بهم لتعلم قوانين الدين وأحكامه منهم .

١٤٤ ـ **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :** قَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدِيتُمْ إِنِ ٱهْتَدَيْتُمْ ، وَأُسْمِعْتُمْ إِنِ ٱسْتَمَعْتُمْ .

أي قد بصرتم سبيل الرشاد وهديتم إليها وأُسمعتم الدلالة عليها إن كان لكم استعداد أن تبصروها وتسمعوا وتهتدوا إليها . وقد مرّ مثله .

١٤٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَٱرْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

أي اجعل مكان عتابه بالقول والفعل الإحسان إليه والإنعام في حقه فإنهما أنفع في عطف جانبه إليك ودفع شره عنك . والعتاب مستعار للإحسان لاستلزامهما رجوع المعاتب .

١٤٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ ٱلتُّهْمَةِ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ ٱلظَّنَّ .

لأنه هو السبب في إساءة الظن بنفسه ولا لوم على من أساء به الظن لأن ظنه ذلك مستند إلى أمارة من شأنها توليد الظن .

١٤٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ثلاث كلمات :

مَنْ مَلَكَ ٱسْتَأْثَرَ ، وَمَنِ ٱسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَمَنْ شَاوَرَ ٱلرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عُقُولِهَا .

إحديها : من ملك استأثر : أي استبد . وأراد أن الملوك من شأنهم الاستبداد بالأمور المرغوب فيها والانفراد وذلك لتسلطهم وعدم المنازع لقواهم الأمارة بالسوء فيهم . وهي كالمثل يضرب لمن غلب على أمر فاختص به ومنعه غيره .

الثانية : ومن استبد برأيه هلك . لأن انفراد الإنسان برأيه وعدم قبوله للنصيحة واستشارته في الحرب ونحوها مظنة الخطأ فيه المستلزم للهلاك فكأنه قال : من استبد برأيه فهو في مظنة الهلاك فأقام الهلك مقام مظنته مجازاً إطلاقاً لما بالفعل على ما بالقوة .

الثالثة : ومن شاور الرجال شاركها في عقولها . وذلك أنه يستنتج فيها الرأي الأصلح ليعمل به فكان عقول الرجال بأسرها حاصلة لانتفاعه بثمرتها وهو ترغيب في الاستشارة .

١٤٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتِ ٱلْخِيَرَةُ بِيَدِهِ .

وهو ترغيب في كتمان السر : أي كان مختاراً في إذاعته وكتمانه بخلاف من أذاع سره فإنه لا يتمكن بعد ذلك من كتمانه .

١٤٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : أَلْفَقْرُ ٱلْمَوْتُ ٱلأَكْبَرُ .

استعار له لفظ الموت بوصف الأكبر . أما كونه موتاً فلانقطاع الفقير عن مشتهياته ومطلوباته التي هي مادة الحياة ، وتألمه لفقدها . وأما أنه أكبر فلتعاقب آلامه على الفقير مدة حياته ، وأما ألم الموت ففي وقت واحد . وهو مبالغة في شدته.

١٥٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لاَ يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبَدَهُ .

أراد قضاء الحق بين الإخوان . وإنما كان كذلك لأن قضاء الغير عنه لحق من لا يقضي حقه لا يكون لوصول نفع منه ولا دفع مضرة المرء ؛ بل يكون عملاً له لأنه هو أو خوفاً منه أو طمعاً فيه وذلك صورة عبادة .

١٥١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ ٱلْخَالِقِ .

وذلك كالوضوء بالماء المغصوب والصلاة في الدار المغصوبة . ويحمل النفي هنا على نفي جواز الطاعة كما هو المنقول عنه وعن أهل بيته عليهم السلام . وعند الشافعي قد يصح الطاعة والنفي لفضيلتها .

١٥٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : لاَ يُعَابُ ٱلْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ .

أخذ الحق قد يكون واجباً لمن هو له وقد يكون مندوباً ، وأقله أن يكون مباحاً ولا حرج في أمر المباح . وأما أخذ ما ليس له فظلم وهو من أقبح الرذائل التي يعاب بها المرء .

١٥٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : أَلإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ ٱلإِزْدِيَادِ .

إعجاب المرء بفضيلته الداخلة كعلمه أو الخارجة كغناه وقينته إنما يكون عن تصور كماله فيها واعتقاده أنه قد بلغ منها الغاية ، والاعتقاد يمنعه

عن طلب الزيادة منها .

١٥٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : ألأَمْرُ قَرِيبٌ ، وَٱلْإِصْطِحَابُ قَلِيلٌ .

أراد أمر الله وهو الموت والإصطحاب في الدنيا .

١٥٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : قَدْ أَضَاءَ ٱلصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ .

هو تمثيل . واستعار لفظ الصبح لسبيل الله ووصف الضياء لوضوحها وظهورها بوصف الشارع ودلالته عليها ، ويحتمل أن يكون ذلك تمام وصف سبق منه للحق . كأن سائلاً سأله عن أمر فشرحه له مرة أو مراراً ، وهو يستزيده فقال له هذا القول أي قد أوضحت لك الحق إن كنت تبصر .

١٥٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : تَرْكُ ٱلذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ ٱلتَّوْبَةِ .

الترك لا كلفة فيه لكونه عدماً وطلب التوبة من الله يحتاج إلى استعداد شديد يصلح معه العبد لقبولها منه وإفاضة العفو عليه .

١٥٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكَلاَتٍ .

وهو يجري مجرى المثل يضرب لمن يفعل فعلاً يكون سبباً لحرمانه ما كان يناله من خير سابق . وأصله أن الرجل يمتلىء من الطعام فيتخم ويمرض فيحتاج إلى الحمية والامتناع من الأكل . وفي معناه : من يعاشر ملكاً ويسعد بالانبساط معه فيكون ذلك سبباً لبعده عنه وزوال سعادته منه .

١٥٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : أَلنّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

الجهل بالشيء مستلزم لعدم تصور منفعة العلم به فيحصل الجاهل من ذلك على اعتقاد أنه لا فائدة في تعلّمه فيستلزم ذلك مجانبته له ، ثم يتأكد تلك المجانبة والبعد بكون العلم أشرف فضيلة يفخر بها أهله على الجهال ويكون لهم بها الحكم عليهم وانتقاصهم وحطهم عن درجة الاعتبار ، مع اعتقاد الجهال لكمالهم أيضاً لذلك . فيشتد لذلك مجانبتهم للعلم وأهله وعداوتهم لهذه الفضيلة .

١٥٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنِ ٱسْتَقْبَلَ وُجُوهَ ٱلآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ ٱلْخَطَإِ .

لا شك أن المتصفّح لوجوه الآراء والمفكر في أيها أصوب لا بد أن يعرف مواقع الخطأ في الأمور ومظانها . وهو ترغيب في الاستشارة والفكر في استصلاح الأعمال قبل الوقوع فيها .

١٦٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ ٱلْغَضَبِ لِلَّهِ قَوِيَ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ ٱلْبَاطِلِ .

لما كانَ تعالى هو العزيز المطلق كان استناد قوة الغضب والحمية له إلى عزته . وصولة الغاضب اعتزازاً به أشد بكثير من صولته بدون ذلك الاستناد وبحسب تأكد القوة بعزة الله يكون ضعفها بالاستناد إلى الباطل المضاد لدينه . ولذلك قهر أولياء الله على قلتهم في مبدأ الإسلام أعداءه على كثرتهم ، وأطاق هو عليه السلام قلع باب خيبر على شدته أو قتل جبابرة العرب . واستعار لفظ السنان لحدة الغضب باعتبار استلزامها للنكاية في العدو ، ورشح بذكر أحد .

١٦١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

إن للنفوس فيما يتوقع مكروهه انفعالاً كثيراً وفكراً عظيماً في كيفية دفعه والخلاص منه ، وذلك أصعب بكثير من الوقوع فيه لطول زمان الخوف هناك وتأكده بتوقع الأمر المخوف . ورغب في الوقوع فيه بضمير صغراه قوله : فإن . إلى آخره . وتقدير كبراه : وكلما كان أعظم مما يخاف من الشيء فينبغي أن يعدل عنه إلى الوقوع فيه . ينتج أن شدّة توقيه ينبغي أن يعدل عنها الى الوقوع فيه.

١٦٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : آلَةُ ٱلرِّيَاسَةِ سَعَةُ ٱلصَّدْرِ .

سعة الصدر فضيلة تحت الشجاعة وهي أن لا يدع الإنسان قوة التجلد عند ورود الأحداث المهمة عليه واعتلاجها ولا يحار أو يدهش فيها . بل يتحمّلها ويستعمل الواجب في معناها ، وقد يسمى ذلك رحب الذراع . وهي

من أعظم لوازم الرياسة الحقة التي ينبغي لها إذ الرياسة مظنة ورود الأحداث المهمة والخطوب العظيمة وأحوال الخلق المختلفة . فمن لم يكن محتملاً لهذه الأمور وسيع الصدر بها فلا بدّ أن يحار فيها ويدهش فيما يرد عليه منها فيعجز عن تدبيرها ويلزم ذلك فساد دولته وزوال رياسته .

١٦٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِزْجُرِ ٱلْمُسِيءَ بِثَوَابِ ٱلْمُحْسِنِ .

تصور المسيء جزاء المحسن بإحسانه يدعوه إلى الإحسان والرجوع عن الإساءة فكانت المجازاة بالإحسان كالزجر للمسيء في استلزامها ارتداعه وانزجاره . فاستعير لفظ الزجر لها .

١٦٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أُحْصُدِ ٱلشَّرَّ مِنْ صَدْرِ غَيْرِكَ بِقَلْعِهِ مِنْ صَدْرِكَ .

أغلب ما ينشأ الشر في صدر العدو بسبب ما يتخيّله في عدوه من إضمار الشر له وظن ذلك فيه ، وذلك التخيّل والظن لا بد أن يكون عن أمارة حركات عدوه وفلتات لسانه بالقول في حقه ما دامت عداوته وإضمار الشر له قائماً في صدره فإذا محا ما أضمر له من العداوة والشر زالت أمارات ذلك من لسانه ووجهه ، وبحسب ذلك ينقص تخيّل العداوة ويضعف سوء ظن العدو به ولا يزال يتأكد بعدم تلك الأمارات وبأمارات حالية أو مقالية تظهر منه إلى أن ينمحي ذلك الظن في حقه . واستعار لفظ الحصد لإزالته ملاحظة لشبهه بالزرع في زيادته بسقي تلك الأمارات من عدوّه وتواترها ، ونقصانه وعدمه بعدمها .

١٦٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَللَّجَاجَةُ تَسُلُّ ٱلرَّأْيَ .

أي تأخذه وتذهب به . وذلك أن الإنسان قد يطلب شيئاً والرأي الحق هو التأني في طلبه والتثبت فيه . فيحمله طبعه على اللجاجة فيه حتى يكون ذلك سبباً لفواته ، واستعار لفظ السل له ونسبه إلى اللجاجة مجازاً باعتبار أنها هي المعونة له فكأنها أخذته وغيبته .

١٦٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ .

استعار لفظ الرق للطمع باعتبار ما يستلزمه من التعبد للمطموع فيه والخضوع له كالرق ، وتأييده باعتبار دوام التعبّد بسببه فإن الطامع دائم العبودية لمن يطمع فيه ما دام طامعاً وهو في ذلك كالدائم من الرق .

١٦٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ثَمَرَةُ ٱلْحَزْمِ ٱلسَّلَامَةُ ، وَثَمَرَةُ ٱلتَّفْرِيطِ ٱلنَّدَامَةُ .

التفريط إضاعة الحزم في الأمور ، ولما عرفت أن الحزم عبارة عن تقديم العمل للحوادث الممكنة المستقبلة بما هو أقرب إلى السلامة وأبعد من الغرور لا جرم كان ذلك مظنة السلامه منها ، وكانت إضاعته والتفريط في العمل لما يستقبل من الحوادث مظنة الوقوع فيها وعدم السلامة من بلائها وهو مستلزم للندامة على التفريط فيها . فكانت الندامة من ثمراته .

١٦٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا خَيْرَ فِي ٱلصَّمْتِ عَنِ ٱلْحُكْمِ كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي ٱلْقَوْلِ بِالْجَهْلِ .

الصمت عن النطق بالحكمة طرف تفريط من فضيلة القول ، والنطق عن الجهل رذيلة مضادة لها ، والحق العدل هو النطق بالحكمة وهو الفضيلة النطقيّة .

١٦٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَا ٱخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً .

الاختلاف الحقيقي إنما يكون بين النقيضين . ولما كانت الدعوة إما إلى الحقّ وهو سلوك سبيل الله أو الى غيره . وكان كلّ ما عدا الحق مما يدعى اليه فهو ضلال عن الحق وعدول عن سبيل الله لا جرم لم يختلف دعوتان إلاّ كانت إحديهما حقاً والأُخرى ضلالة أو مستلزمة للضلال ، وهذا يستلزم بطلان كون كل مجتهد مصيباً . ومذهبه المنقول عنه عليه السلام أن الحق واحد وفي جهة والمصيب له واحد .

١٧٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَا شَكَكْتُ فِي ٱلْحَقِّ مُذْ أُرِيتُهُ .

من كان له استعداد درك الحق كمثله عليه السلام ، واستاذ كرسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم في إعداده وتربيته ، وطول صحبة لمثل ذلك الأستاذ كصحبته فمحال أن يعرض له شك في أمر يرى برهانه ويحرم من الحق .

١٧١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَا كَذَبْتُ ، وَلَا كُذِبْتُ ، وَلَا ضَلَلْتُ ، وَلَا ضُلَّ بِي .

أما عدم كذبه وضلاله فلتربيته من حين الطفولية بالصدق ومكارم الأخلاق حتى صار ذلك ملكة له تنافي الكذب والضلال وتعصم منهما . وأما كونه لم يكذب فيما أخبر به من الحوادث المستقبلة والعلوم الغيبية، ولم يضلّ به فلكون مخبره معصوماً وهو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والعصمة منافية للأمرين ومستلزمة لهداية المدلول وعدم زيغه .

١٧٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لِلظَّالِمِ ٱلْبَادِي غَداً بِكَفِّهِ عَضَّةٌ .

احترز بالبادي عن المجازي للظلم بمثله ، وكنّى بغد عن يوم القيامة وبعض كفّه عن ندامته على تفريطه في جنب الله كقوله تعالى : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه** ﴾ والغرض التنفير عن الظلم .

١٧٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ٱلرَّحِيلُ وَشِيكٌ .

أي قريب ، وأراد الرحيل إلى الآخرة في معرض الوعظ والتخويف بالموت .

١٧٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ .

أي من تجرد لنصرة الحق في مقابلة كل أحد هلك عند جهلة الناس لضعف الحق عندهم وغلبة حب الباطل على نفوسهم . وكنّى بإبداء صفحته عن إظهار نفسه ونصبها لذلك . وقد مرّ بيانه .

١٧٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ لَمْ يُنْجِهِ ٱلصَّبْرُ ، أَهْلَكَهُ ٱلْجَزَعُ .

قد تكون المصيبة عظيمة تستلزم الجزع المهلك بسببها وحينئذ يجب أن يقابل الجزع فيها بصبر ينجي من الهلاك ، والتقدير من لم يصبر على المصيبة لينجو فجزع هلك . ويحتمل أن يريد الهلاك الأخروي : أي من لم

ينجه فضيلة الصبر هلك برذيلة الجزع . وهو تنفير عن الجزع وحث على الصبر .

١٧٦ - **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ** : وَاعَجَبَاهُ أَتَكُونُ ٱلْخِلاَفَةُ بِالصَّحَابَةِ وَٱلْقَرَابَةِ .

قَالَ ٱلرَّضِي : وَرُوِيَ لَهُ شِعْرٌ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى :

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ فَكَيْفَ بِهٰذَا وَٱلْمُشِيرُونَ غُيَّبُ
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

روي هذا القول عنه بعد بيعة عثمان وهو صورة جواب ما كان يسمعه من تعليل استحقاق عثمان للخلافة تارة بالشورى وتارة بأنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

تقريره : أن استحقاقه للخلافة إما أن يكون معللاً بالشورى أو بصحبة رسول الله أو بقرابته . فإن كان الأول فكيف يملك عثمان أمور الناس للشورى وأكثر من يستحق الاستشارة منهم لم يكونوا حاضرين ؟ وذلك معنى إشارته بقوله : فإن كنت بالشورى . إلى تمام البيت ، وإن كان الثاني فكيف يملك أمورهم بالصحبة بوجود من له الصحبة التامة والقرابة معاً ؟ بل يكون هذا أولى ، وإن كان الثالث فغيره أولى منه بالنبي وأقرب إليه . وعنى نفسه في الوجهين . وقوله : فكيف بهذا . أي فكيف يملكه بهذا .

١٧٧ - **وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ** : إِنَّمَا ٱلْمَرْءُ فِي ٱلدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ ٱلْمَنَايَا ، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ ٱلْمَصَائِبُ ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غُصَصٌ ، وَلاَ يَنَالُ ٱلْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى ، وَلاَ يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، فَنَحْنُ أَعْوَانُ ٱلْمَنُونِ ، وَأَنْفُسُنَا نُصْبُ ٱلْحُتُوفِ ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو ٱلْبَقَاءَ وَهٰذَا ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً إِلَّا أَسْرَعَا ٱلْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا؟! .

الانتضال : الرمي . وهذا فصل لطيف من الموعظة وقد اشتمل على ثمان كلمات من الموعظة :

إحديها : استعار لفظ الغرض للإنسان باعتبار رميه بمقدمات المنايا وأسبابها من الأمراض والأعراض المهلكة . ووصف الانتضال لذلك الرمي كأن المنايا هي الرامية .

الثانية : استعار لفظ النهب بمعنى المنهوب باعتبار سرعة المصائب إلى أخذه .

الثالثة : كنّى عن تنغيص لذات الدنيا بما يشوبها ويخالطها من الأعراض والأمراض بقوله : مع كل جرعة . إلى قوله : غصص .

الرابعة : كون العبد لا ينال نعمة إلّا بفراق أُخرى . إذ النعمة الحقة هي اللذة وما يكون وسيلة إليها نعمة بواسطتها . وظاهر أن النفس في الدنيا لا يمكن أن تحصل على لذتين دفعة بل ما لم ينتقل عن لذة أُولى ويتوجه نحو اللذة الحادثة لا يحصل لها الالتذاذ بها .

الخامسة : ولا يستقبل يوماً من عمره إلّا بفراق آخر من أجله لأن طبيعة الزمان التقضي والسيلان .

السادسة : كوننا أعوان المنون باعتبار أن كل نفس وحركة من الإنسان فهي مقربة له إلى أجله فكأنه ساع نحو أجله ومساعد عليه .

السابعة : كون نفوسنا نصب الحتوف . ونصب بمعنى منصوبة كالغرض .

الثامنة : الاستفهام عن جهة رجاء البقاء استفهام إنكار لوجودها مع وجود الزمان الذي من شأنه أنه لم يرفع بشيء شرفاً ويجمع الأمر شملاً إلّا أسرع العود في هدم ما رفع وتفريق ما جمع : أي أعد للثاني كما أعد للأول .

١٧٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : يَا ٱبْنَ آدَمَ ! مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوتِكَ فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ .

إذ اكتساب الزيادة على القوت والمؤونة بقدر الحاجة وادّخاره غير نافع . بل مضر للمدخر . إذ من ضرورته مفارقة ما ادّخره ووصوله إلى الوارث

وغيره . فهو إذن يشبه الخازن فاستعار لفظه له . وهو تنفير عن البخل بالفضل من المال عن قدر الحاجة .

١٧٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إنَّ لِلْقُلُوب شَهْوَةً ، وَإقْبَالاً ، وَإِدْبَاراً فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتها وإقْبَالِهَا، فَإنَّ القَلْبَ إذَا أُكْرِهَ عَمِيَ .

أراد بالإقبال الميل ، وبالإدبار النفرة عن ملال ونحوه . وأمر بإعمال النفوس فيما ينبغي إعمالها فيه من فكر ونظر ، وحملها على ذلك حين ميلها إليه وإقبالها عليه لأن ذلك بنشاط في القوى النفسانية ومعاونة ومواتاة للنفس . ونفر عن حملها عليه مع النفرة عنه والكراهية له بضمير صغراه قوله : فإن القلب إذا أكره عمي : أي إن إكراه النفس على الفكر في الشيء حين نفرتها عنه عن ملال أو ضعف قوة ونحوه يزيدها كراهية له ونفرة ويقوم لها بذلك مانع من الوهم، والخيال عن إدراك ما تفكر فيه فلا يدركه وإن كان واضحاً حتى يكون كالأعمى ولذلك استعار له وصف الأعمى ، وتقدير كبراه : وكلما كان عماه في إكراهه على الشيء فلا يجوز كراهته .

١٨٠ ـ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ : مَتَى أُشْفِي غَيْظِي إذَا غَضِبْتُ ؟ أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ ٱلْانْتِقَامِ فَيُقَالَ لِي لَوْ صَبَرْتَ ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالَ لِي لَوْ عَفَوْتَ ؟! .

استفهم عن وقت جواز شفاء الغيظ استفهام إنكار لوجوده في معرض التنفير عن هذه الرذيلة : ونفّر عنها بقوله : أحين . إلى آخره ، وذلك أنه إما حين العجز عن الانتقام أو حين القدرة عليه . وشفاء الغيظ في الوقت الأول لا يجوز لأنه يكون بالسب والشناعة وتقطيع العرض ونحوه وذلك مستلزم للائمة الخلق وتعييبهم وقولهم في الحث على فضيلة الصبر : لو صبرت لكان أولى . وفي الثاني أيضاً لا يجوز لاستلزام الشروع في العقوبة لائمة الخلق والعدول عن فضيلة العفو التي هي أولى ، وقول الناس عليها : لو عفوت وأن العفو بك أولى .

١٨١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وَقَدْ مَرَّ بِقَذَرٍ عَلَى مَزْبَلَةٍ : هٰذَا مَا بَخِلَ بِهِ ٱلْبَاخِلُونَ .

وَرُوِيَ فِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ قَالَ : هٰذَا مَا كُنْتُمْ تَتَنَافَسُونَ فِيهِ بِالْأَمْسِ .

أشار إليه بذلك لأنه غاية ما بخل به الباخلون وتنافس الناس فيه من المال والطعام إقامة للغاية مقام ذي الغاية .

١٨٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ .

أي القدر الذي يذهب من مالك على طريق امتحان الله وابتلائه لك بأمر يذهبه فيحصل لك بذهابه موعظة لا يعدّ مالاً ذاهباً بل كأنه باق لبقاء منفعته وشرف ثمرته وهي الموعظة .

١٨٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ ٱلْخَوَارِجِ « لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ » : كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ .

وقد مرّ تفسيره .

١٨٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي صِفَةِ ٱلْغَوْغَاءِ : هُمُ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱجْتَمَعُوا غَلَبُوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا وَقِيلَ : بَلْ قَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : هُمُ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱجْتَمَعُوا ضَرُّوا ، وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا فَقِيلَ : قَدْ عَرَفْنَا مَضَرَّةَ ٱجْتِمَاعِهِمْ فَمَا مَنْفَعَةُ ٱفْتِرَاقِهِمْ ؟ فَقَالَ : يَرْجِعُ أَصْحَابُ ٱلْمِهَنِ إِلَى مِهْنَتِهِمْ فَيَنْتَفِعُ ٱلنَّاسُ بِهِمْ ، كَرُجُوعِ ٱلْبَنَّاءِ إِلَى بِنَائِهِ ، وَٱلنَّسَّاجِ إِلَى مَنْسَجِهِ ، وَٱلْخَبَّازِ إِلَى مَخْبَزِهِ .

المهنة : الحرفة والصناعة. والفصل ظاهر .

١٨٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَام : وَأُتِيَ بِجَانٍ وَمَعَهُ غَوْغَاءُ فَقَالَ : لَا مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لَا تُرَى إِلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوْأَةٍ .

أي لا ترى مجتمعة . إذ العوام لا تجتمع غالباً إلّا في مثل ذلك . فكلام الخطيب على أغلب الأحوال . والسوءة : فعلة من السوء .

١٨٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ ، فَإِذَا جَاءَ ٱلْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَإِنَّ ٱلْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ .

أي إذا جاء القدر بموته على وفق القضاء الإلهي وهو كقوله تعالى :

﴿ ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت ﴾[1] الآية : واستعار لفظ الجنة بوصف الحصينة للأجل ، وقد بيّنا ذلك في قوله : وإن علي من الله جنة حصينة .

١٨٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَقَدْ قَالَ لَهُ طَلْحَةُ وَٱلزُّبَيْرُ : نُبَايِعُكَ عَلَى أَنَّا شُرَكَاؤُكَ فِي هٰذَا ٱلأَمْرِ : لَا وَلٰكِنَّكُمَا شَرِيكَانِ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلإِسْتِعَانَةِ ، وَعَوْنَانِ عَلَى ٱلْعَجْزِ وَٱلأَوْدِ .

الأود : الاعوجاج .

وقوله : وعونان على العجز والأود .

أي دفع ما يعرض منهما أو حال وجودهما لأن كلمة على تفيد الحال .

١٨٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، إِتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي إِنْ قُلْتُمْ سَمِعَ ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ ، وَبَادِرُوا ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي إِنْ هَرَبْتُمْ [مِنْهُ] أَدْرَكَكُمْ ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ .

والمعنى ظاهر . رغب في تقوى الله والخشية منه باعتبار سمعه لما يقول العبد وعلمه بضميره . حذف المفعولين للعلم بهما : أي سمع مقالكم وعلم ضميركم . ورغب في مبادرة الموت ومسابقته بالأعمال الصالحة إلى حفظ النفوس بها من عذاب الآخرة وهول الموت، ونفر منه ليسارع إلى مبادرته بكونه لا ينجو منه أحد . واستعار لوروده على الإنسان لفظ الذكر في مقابلة النسيان ملاحظة لشبهه بالقاصد له عن علم به .

١٨٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي ٱلْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشيءٍ مِنْهُ ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الكَافِرُ، ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

نهى عن الزهد في المعروف بسبب عدم شكر المحسن إليه له ورغب فيه بضمائر ثلاثة : صغرى الأول قوله : فقد يشكرك عليه . إلى قوله : منه .

---

(١) ٦ - ٦١ .

وذلك لمحبة الناس للإحسان والمحسنين . وتقدير كبراه: وكلما يشكرك عليه من لم يستمتع بشيء منه فواجب أن تفعله ، وصغرى الثاني قوله : وقد تدرك . إلى قوله : الكافر : أي قد يحصل لك من شكر من لم تحسن إليه أكثر مما أضاعه كافر نعمتك ومن شكر إحسانك إليه . وتقدير كبراه : وكلما أدركت من شكر الشاكر بسببه أكثر مما أضاع الكافر فواجب أن تفعله ، وصغرى الثالث قوله : والله يحب المحسنين : أي لإحسانهم وتقدير كبراه : وكل من يحبه الله لفعل فواجب أن يدخل العاقل في زمرته ويتقرب إلى الله بمثل فعله .

١٩٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ إِلَّا وِعَاءَ ٱلْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ .

الأوعية المحسوسة لما كانت متناهية الاتساع فمن شأنها أن تضيق بما يجعل فيها ، وأوعية العلم معقولة وهي النفوس وقوة إدراك العلوم فيها غير متناهية وكل مرتبة من إدراكها تعدّ لما بعدها إلى غير النهاية فبالواجب أن يتسع بالعلم ويزيد بزيادته .

١٩١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَوَّلُ عِوَضِ ٱلْحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ أَنَّ ٱلنَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَى ٱلْجَاهِلِ .

ويحتمل أن يريد من عدم حلمه . إذ العوض يكون عن شيء فائت كالطيش ونحوه فحذف المضاف وفيه ترغيب في هذه الفضيلة بما يلزمه من نصرة الناس لصاحبها على الجاهل عند سفهه عليه .

١٩٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فَتَحَلَّمْ ، فَإِنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا وأَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ .

أمر بتعلم هذه الفضيلة فإنّ مبادىء الملكات الخلقية حالات مكتسبة عن التعلم ورغب في تعلّمها بضمير صغراه قوله : فإنه قل . إلى آخره ، والضمير في إنه ضمير الشأن . وتقدير الكبرى : وكل من أوشك أن يكون من أهل الحلم بتعلمه له فواجب أن يتعلّمه .

١٩٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : ثلاث كلمات :

مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ ، وَمَنِ ٱعْتَبَرَ أَبْصَرَ ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ .

إحديها : من حاسب نفسه ربح . لأن المحاسب لنفسه على أعمالها يعلم خسرانه من ربحه فيعمل للربح ويحترز من الترك المستلزم للخسران .

الثانية : ومن غفل عنها خسر ، وذلك أن قربها من اللذات الحاضرة يستلزم ميلها إليها ما لم يجذب عنها بالجواذب الإلهية من الزواجر والمواعظ المذكرة فالغفلة عن جذبها وتنبيهها من مراقد الطبيعة بتذكير وعد الله ووعيده يستلزم إهمالها للأعمال الصالحة التي يلزمها ربح السعادة الأُخروية والحصول على تركها ذلك هو الخسران .

الثالثة : ومن خاف أمن : أي أمن من عذاب الله ، وعمل للخلاص منه ليأمن لحوقه .

الرابعة : ومن اعتبر أبصر : أي من نظر مواقع العبرة بعين الفكر والاعتبار أبصر الطريق إلى الحق ، ومن أبصرها فهم المعبور منها إليها ، ومن فهم ذلك حصل له العلم النافع بالحق.

١٩٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : لَتَعْطِفَنَّ ٱلدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ ٱلضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا ، وَتَلاَ عَقِيبَ ذٰلِكَ ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلأَرْضِ ، وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ** ﴾ .

الضروس : الناقة سيئة الخلق تعضّ حالبها ليبقى لبنها لولدها، وذلك لفرط شفقتها عليه . واستعار لفظ الشماس للدنيا باعتبار إعدادها لمنعه عليه السلام منها ملاحظة لشبهها بالفرس الذي يمنع ظهره أن يركب . وشبه عطفها بعد ذلك عليهم وإعدادها لتمكنهم من الحكم فيها بعطف الضروس على ولدها ، ووجه الشبه شدة العطف . والاستشهاد بالآية ظاهر .

١٩٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : إِتَّقُوا ٱللَّهَ تَقِيَّةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً ، وَجَدَّ

تَشْمِيراً ، واكْمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ ٱلْمَوْئِلِ ، وَعَاقِبَةِ ٱلْمَصْدَرِ ، وَمَغَبَّةِ ٱلْمَرْجِعِ .

أكمش : أسرع . والمهل : الإمهال . والكرة : الرجعة . والموئل : المرجع . والمغبة : العاقبة . وأراد اتقوا الله كتقية من شمر عن ساق الجد في طاعة الله ، وجرّد نفسه لمرضاته تشميراً ، وسارع بالأعمال الصالحة ما دام في مهلة الحياة ، وبادر مغفرته في وجل من ثمرات سيئاته ، وفكر في عوده إلى الملجأ الأول الذي منه بدأ وهو حضرة الربوبية، وكذلك عاقبة المصدر الذي عنه صدر في ابتداء كونه وإليه يعود ، ومغبّة المرجع من خير للحصول عليه أو شر ليعمل للخلاص منه .

١٩٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ثلاث عشر كلمة :

أَلْجُودُ حَارِسُ ٱلْأَعْرَاضِ ، وَٱلْعِلْمُ فِدَامُ ٱلسَّفِيهِ ، وَٱلْعَفْو زَكَاةُ ٱلظَّفَرِ ، وَٱلسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ ، وَٱلْإِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ ، وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ ، وَٱلصَّبْرُ يُنَاضِلُ ٱلْحِدْثَانَ ، وَٱلْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ ٱلزَّمَانِ ، وَأَشْرَفُ ٱلْغِنَى تَرْكُ ٱلْمُنَى ، وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوى أَمِيرٍ ، وَمِنَ ٱلتَّوْفِيقِ حِفْظُ ٱلتَّجْرِبَةِ ، وَٱلْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ ، وَلَا تَأْمَنَنَّ مَلُولاً .

أحدها : الجود حارس الأعراض . واستعار له لفظ الحارس باعتبار أن الجود يقي عرض صاحبه من السب كالحارس .

الثانية : والحلم فدام السفيه . والفدام : ما يسدّ به المجوسي فمه . واستعار لفظه للحلم باعتبار أن الحليم إذا قابل السفيه بحمله عن عقوبته سكت عنه وأقلع عن سفه في حقه فأشبه الفدام له .

الثالثة : والعفو زكاة الظفر . استعار لفظ الزكاة للعفو باعتبار أنه فضيلة تستلزم زيادة الثواب في الآخرة . ولحظ في ذلك شبه الظفر بالمال الواجبة زكاته . وهو ترغيب في العفو .

الرابعة : والسلوّ عوضك ممن غدر . وهو أمر للإنسان بالسلوّ عن الهم بسبب غدر من يطلب وفاه . ورغّب فيه بكونه عوضاً منه ونعم العوض .

الخامسة : والاستشارة عين الهداية . الاستشارة طلب أصلح الآراء في الأمر وهي مستلزمة للهداية إليها ، وجعلها عينها تأكيداً لقوة استلزامها لها .

السادسة : وقد خاطر من استغنى برأيه : أي أشرف على الهلاك من استبد برأيه لأن ذلك مظنة الخطأ المستلزم للهلاك . وقد مرّ مثله .

السابعة : والصبر يناضل الحدثان. استعار لفظ المناضلة للصبر باعتبار دفعه الهلاك عن الجزع في المصائب .

الثامنة : والجزع من أعوان الزمان. الزمان معد للهرم والفناء ، والجزع معد لذلك فكان معيناً له .

التاسعة : وأشرف الغنى ترك المنى . لأن أشرف الغنى غنى النفس بالكمالات النفسانية من الحكمة ومكارم الأخلاق وهو مستلزم لترك المنى وإلّا لجاز اجتماعه مع المنى المستلزم للحمق إذ هو إشغال النفس بما لا ينبغي عما ينبغي وللإفراط في محبة الدنيا مع كثير من الرذائل كالحرص والحسد والشره ونحوها . فيلزم من ذلك اجتماع الضدين الفضيلة والرذيلة .

العاشرة : وكم من عقل أسير تحت هوى أمير . العقل إما أن يقوى على قهر النفس الأمارة بالسوء وبصرفها حسب ما يراه ، أو يقاومها كالمصارع لها فمرة له ومرة عليه ، أو يكون مقهوراً ومغلوباً لها . والأول هو العقل المطيع لله القوي بأمره ويلحقه الثاني من وجه .

وأما الثالث فهو العاصي بانقياده لهواه فهو كالأسير له وهو القسم الأكثر في عالم الإنسان لحضور اللذات الحسية دون العقلية فلذلك أخبر عنه بكم .

الحادية عشر : ومن التوفيق حفظ التجربة : أي لزومها ومداومتها لغاية الانتفاع بها ، وظاهر أن ذلك من توفيق الله : أي تسهيله لأسبابها وتقديره لتوافقها في حق العبد .

الثانية عشر : والمودة قرابة مستفادة لأن القرابة اسم من القرب وهو إما أن يكون أصلياً كقرب النسب أو مستفادة أُكتسب كقرب الصداقة والمودة .

الثالثة عشر : ولا تأمننّ ملولاً . لأن الملول يصرفه ملاله عن الثبات على الصداقة والعهد وكتمان السر ونحوها . فمن الحزم إذن أن لا يؤمن على شيء من ذلك .

١٩٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عُجْبُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِهِ .

استعار له لفظ الحاسد باعتبار أنه يؤثر في منع العقل من ازدياد الفضيلة والاستكثار منها كما يؤثر الحاسد بحسده في حال المحسود وتنقيصه .

١٩٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَغْضِ عَلَى ٱلْقَذَى وَٱلْأَلَم تَرْضَ أَبَداً .

الإغضاء على القذى كناية عن كظم الغيظ واحتمال المكروه وهو فضيلة تحت الشجاعة . ولما كانت طبيعة الدنيا معجونة بالمكاره لم يخل الإنسان في أكثر أحواله من ورودها عليه فما لم يقابلها بالاحتمال بل بالتسخط والغضب والتبرم بها لم يزل ساخطاً تاعباً بغضبه لدوام ورود المكاره عليه .

١٩٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ .

استعار لفظ العود للطبيعة ، وكنّى بلينه عن التواضع ، وكذلك استعار لفظ الأغصان للأعوان والأتباع ، وكنّى بكثافتها عن اجتماعهم عليه وكثرته وقوته بهم . والمراد أن من كانت له فضيلة التواضع ولين الجانب كثرت أعوانه وأتباعه وقوي باجتماعهم عليه .

٢٠٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْخِلَافُ يَهْدِمُ ٱلرَّأْيَ .

وأصله : أن رأي الجماعة يجتمع على أمر تكون المصلحة فيه فيقع من بعضهم خلاف فيه فيهدم ما اجتمعوا عليه ورأوه من المصلحة . كما رأى عليه السلام هو وجماعة من أصحابه عند رفع أهل الشام المصاحف صبيحة ليلة الهرير من إتمام القتال وهو المصلحة فهدم ذلك الرأي من خالف فيه من أصحابه حتى وقع بذلك ما وقع .

٢٠١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ نَالَ ٱسْتَطَالَ .

إن من نال ما يوجب الاستطالـة من جاه وسلطان أو مـال استطال بسبب ذلك : أي كان في مظنة أن يستطيل على غيره بما ناله . فأقام ما بالفعل مقام ما بالقوة ويصدق بالفعل أيضاً . لأن كلام الخطيب مطلق يصـدق ولو بمـرة . والكلمة تجري مجرى المثل .

٢٠٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : فِي تَقَلُّبِ ٱلْأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ ٱلرِّجَالِ .

أي تقلب أحـوال الدنيـا على المرء كـرفعته بعـد اتضاعـه وبـالعكس ، وكنزول الشدائد به يفيد العلم التجربي بأحوالـه الباطنـة من خير وشـر وجلادة وضعف وفضيلة ورذيلة . ونحوه ما قيل : الولايات مضامير الرجال .

٢٠٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : حَسَدُ ٱلصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ ٱلْمَوَدَّةِ .

المودة الخالصة تستلزم أن يريد الإنسان لمن يوده ما يريد لنفســه ويكره لـه مـا يكـره لهـا . والحسـد ينـافي ذلــك لاستلزامـه إرادة زوال الخيـر عن المحسود . فمودة الحاسد إذن مدخولة غير صحيحة وهو المراد بسقمها .

٢٠٤ ـ وَقَـالَ عَلَيْـهِ ٱلسَّـلَامُ : أَكْثَرُ مَصَـارِعِ ٱلْعُقُولِ تَحْتَ بُـرُوقِ ٱلْمَطَامِعِ .

العقـل من شـأنـه الـذي ينبغي لـه أن يقـاوم النفس الأمـارة ويكسـرهـا ويصـرفها بحسب آرائـه الصالحـة ، ومن شأن النفس مخـادعة العقـل وغروره بزينة الحياة الدنيا وقيناتها وإطماعه بها . فالعقول الضعيفة غير المؤيدة من الله أكثر ما تنخدع وتنصرع في حربها للنفوس الأمارة إذا لاح لها مطمع وهمي من الدنيا . فاستعار لفظ المصارع للعقول ملاحظة لقهرها عن النفوس وانفعالها . فأشبهت في الذلة والانقياد لها وترك مقـاومتها من أخـذ مصرعـه من الحرب ، وكذلك استعار لفظ البروق لما لاح من تصور المطموع فيـه . وكثيراً مـا تشبّه العلوم والخواطر الذهنية بالبروق للطفه وضيائه وسرعـة حركتـه . وإنما قـال : تحت . لأن المصارع من شأنها أن تكون تحت .

٢٠٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : لَيْسَ مِنَ ٱلْعَدْلِ ٱلْقَضَاءُ عَلَى ٱلثِّقَةِ بِٱلظَّنِّ .

أي من كان عندك ثقة معروفاً بالأمانة فحكمك عليه بـالخيانـة عن ظن

خروج عن العدل وهو رذيلة الجور .

٢٠٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : بِئْسَ ٱلزَّادُ إِلَى ٱلْمَعَادِ ، ٱلْعُدْوَانُ عَلَى ٱلْعِبَادِ .

لأن الظلم رذيلة عظيمة متعدية الأذى مستلزمة للشقاء الأشقى . فهي بئس الزاد إذن . ولفظ الزاد مستعار باعتبار حمل هذه الرذيلة في جوهر النفس إلى الآخرة كالزاد.

٢٠٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مِنْ أَشْرَفِ أَعْمَالِ ٱلْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ .

أي تغافله وإغضاؤه عما يعلم من معائب الناس ومن هفواتهم . لاستلزام ذلك فضائل كاحتمال المكروه والحلم والعفو والصفح . وكلها فضائل يلزم الكرم لأنه قد يراد به إمساك الإنسان عن المبادرة إلى قضاء وطر الغضب فيمن يغضبه وما استلزم هذه الفضائل فهو من أشرف الأفعال .

٢٠٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ كَسَاهُ ٱلْحَيَاءُ ثَوْبَهُ لَمْ يَرَ ٱلنَّاسُ عَيْبَهُ .

استعار لفظ الثوب لما يشمل الإنسان من الحياء ، ورشح بذكر الكسوة . والمراد أن فضيلة الحياء تستلزم ترك المعائب فلا يرى في صاحبه ، أو إن ارتكب ما يعاب به من الرذائل كان على غاية من التستر به والاجتهاد في إخفائه وهو بمظنة أن لا يراه الناس .

٢٠٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : بِكَثْرَةِ ٱلصَّمْتِ تَكُونُ ٱلْهَيْبَةُ ، وَبِالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ ٱلْمُوَاصِلُونَ ، وَبِالإِفْضَالِ تَعْظُمُ ٱلأَقْدَارُ ، وَبِالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ ٱلنِّعْمَةُ ، وَبِاحْتِمَالِ ٱلْمُؤَنِ يَجِبُ ٱلسُّؤْدَدُ ، وَبِالسِّيرَةِ ٱلْعَادِلَةِ يُقْهَرُ ٱلْمُنَاوِي ، وَبِالْحِلْمِ عَنِ ٱلسَّفِيهِ تَكْثُرُ ٱلأَنْصَارُ عَلَيْهِ .

أشار عليه السلام إلى سبع فضائل ورغب في كل منها بما يستلزمه من الخير .

إحديها : كثرة الصمت وما يلزمها كون الصامت مهاباً في أعين الناس لأن الصمت من توابع العقل غالباً ومهابة أهل العقل ظاهرة . فإن عرف أن

كثرة صمت الصامت عن عقل كانت مهابته أوكد ، وإن لم تعرف حاله كانت لتجويز أن تكون عن كمال عقله . وقد يعرف أنه لنقصان في غريزته وعيّه في الكلام ويحترم مع ذلك لعدم اختلاطه في القول .

الثانية : النصفة وهي فضيلة العدل . ورغب فيها بما يلزمها من كثرة الواصلين لأن قلة الإنصاف مستلزمة للفرقة وقطع الألفة كما قال أبو الطيب :

ولم تـزل قلة الإنصـاف قـاطعـة بين الرجـال وإن كـانـوا ذوي رحم

الثالثة : الإفضال على الخلق بما يحتاجون إليه . ويلزمه علو الأقدار وعظمها لتعيين الحاجة إلى المتفضل ومحبته .

الرابعة : التواضع ويلزم تمام النعمة بكثرة الإخوان وأهل المودة لأن فضيلة التواضع نعمة وما يلزمها كالتمام لها .

الخامسة : احتمال المؤن . ويلزمه السؤدد لأن احتمال مؤن الخلق يستلزمه فضيلة سعة الصدر واحتمال المكروه وبحسب ذلك تحصل مطالب الخلق من المتحمّل غير مشوبة بشيء من كدر المقابلة بردّ منّة ونحوهما . فيكثر تعبدهم له ، ويقوى أمره وسؤدده فيهم .

السادسة : السيرة العادلة . ويلزمها قهر المناوي . والمناواة : المعاداة ، وذلك أن العدو لا يجد لصاحب السيرة العادلة عيباً يستظهر به عليه ويسعى به في فساد أمره فيبقى مقهوراً مأموراً .

السابعة : الحلم عن السفيه . ويلزمه كثرة الأنصار عليه . وقد مرّ بيانه .

٢١٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : أَلْعَجَبُ لِغَفْلَةِ ٱلْحُسَّادِ عَنْ سَلاَمَةِ ٱلْأَجْسَادِ .

لأن الغالب أن الحسد إنما يكون بالغنى والجاه وسائر قينات الدنيا . فترك الحساد الحسد بصحة الجسد مع كونها أكبر نعم الدنيا محل التعجب . والفرق أن تلك نعم مشاهدة تقلّ الغفلة عنها وينفرد المحسود بها ، وأكثر الترفع على حسد الحاسد يكون بها . فأما نعمة الصحة فمعقولة تكثر الغفلة

عنها ومشتركة .

٢١١ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : أَلطَّامِعُ فِي وَثَاقِ ٱلذُّلِّ .

استعار لفظ الوثاق للذل المقيد له في طاعة المطموع فيه . وقد مرّ مثله في قوله : الطمع رقّ مؤبد .

٢١٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : أَلإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِـالْقَلْبِ ، وَإِقْرَارٌ بِـاللِّسَانِ ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ .

الأركان : هي المساجد الخمسة . وأراد الإيمان الكامل .

٢١٣ - وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : مَنْ أَصْبَحَ عَلَى ٱلدُّنْيَا حَزِيناً فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ ٱللَّهِ سَاخِطاً ، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَقَدْ أَصْبَحَ يَشْكُو رَبَّهُ ، وَمَنْ أَتَى غَنِيّاً فَتَوَاضَعَ [لَهُ] لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ ، وَمَنْ قَرَأَ ٱلْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ ٱلنَّارَ فَهُوَ مِمَّنْ كَانَ يَتَّخِذُ آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُواً ، وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ ٱلدُّنْيَا ٱلْتَاطَ قَلْبُهُ [مِنْهَا] بِثَلاَثٍ : هَمٍّ لاَ يُغِبُّهُ ، وَحِرْصٍ لاَ يَتْرُكُهُ ، وَأَمَلٍ لاَ يُدْرِكُهُ .

أشار إلى خمس خصال نفرّ عن كل منها بما يلزمه من الشرّ :

إحديها : الحزن على فائت الدنيا . ويلزمه سخط العبد لقضاء الله لأن فوت ذلك كان بقضاء منه وسخط قضائه كفر .

الثانية : شكوى المصيبة . ويلزمها الشكوى من الله لأن الله تعالى هو المتبلي بها .

الثالثة : التواضع للغني باعتبار غناه . ويلزمه ذهاب ثلثي دين المتواضع لوجوه :

أحدها : أن مدار الدين على كمال النفس الإنسانية بالحكمة ، وكمال القوة الشهوية بالعفة وقوة الغضب بالشجاعة . ولما كان التواضع للغنى من جهة غناه يستلزم زيادة محبة الدنيا والخروج عن فضيلة الشهوة إلى طلب الفجور حتى كأنه عابد لغير الله ، ويستلزم الخروج عن الحكمة التي مقتضاها وضع كل شيء موضعه وهي فضيلة النفس الناطقة كان خارجاً عن فضيلتي هاتين القوتين وهما ثلثا الدين .

الثاني : أن مدار الدين على الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان . ومن شأن المتواضع للغنى لغناه اشتغال لسانه بمدحه وشكره واشتغال جوارحه بخدمته عن طاعة الله والقيام بشكره فهو مهمل لثلثي دينه . قيل : إن التواضع للغني لغناه يستلزم حب الدنيا وحبها رأس كل خطيئة . فاستعمل عليه‌السلام لفظ الثلثين هنا في الأكثر مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه .

الرابعة : كون قراءة القرآن مع دخول النار مستلزماً لكون القارىء ممن كان يتخذ آيات الله هزواً ، وذلك أن قراءة القرآن لله بالإخلاص والعمل بمقتضاه يستلزم دخول الجنة فعدم دخولها ودخول النار يستلزم عدم الإخلاص في قراءة القرآن وعدم العمل به فيكون في قراءته إذن كالمستهزىء بآيات الله إذ شأن المستهزىء أن يقول ما لا يعتقده ولا يعمل به . فاستعار له لفظ المستهزىء .

الخامسة : ومن لهج قلبه بحب الدنيا التاط : أي لصق واختلط منها بثلاثة .ووجه لزوم الثلاثة للحرص والولوع بها أن حبها يستلزم الجد في طلبها وجمعها ، ولما كان حصولها مشروطاً بأسباب مقدورة للعباد وأسباب غير مقدورة والمقدورة منها قد لا تكون مقدورة للطالب، وإن كانت لكنها تكون متعسرة منه لتوقفها على أسباب كثيرة أو عسرة لا جرم يلزمه الحزن غالباً في تحصيلها والهم الذي لا يغبّه : أي لا يأتيه غباً وهو يوم لا ويوم نعم ثم في حفظها وخوف فوتها والحرص على استخراجها من وجوهها وطول الأمل في وجوه مكاسبها وأرباحها وتجاراتها وعماراتها . ونبه على طوله بقوله : لا يدركه . ونفر عنه بذلك .

٢١٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً ، وَبِحُسْنِ ٱلْخُلُقِ نَعِيماً .

استعار لفظ الملك للقناعة لأن غاية الملك الغناء عن الخلق والترفع عليهم بذلك والالتذاذ والقناعة مستلزمة لهذه الغايات ، وكذلك استعار لفظ النعيم لحسن الخلق باعتبار استلزامهما للالتذاذ .

٢١٥ ـ وَسُئِلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ فَقَالَ : هِيَ ٱلْقَنَاعَةُ .

ففسرها بلازمها وهو الحياة الطيبة .

٢١٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : شَارِكُوا ٱلَّذِي قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ٱلرِّزْقُ ، فَإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنَى ، وَأَجْدَرُ بِإِقْبَالِ ٱلْحَظِّ عَلَيْهِ .

أخلق وأجدر : أي أولى . ولما كان إقبال الرزق بتوافق أسبابه في حق من أقبل عليه كانت مشاركته مظنة إقبال حظّ الشريك وإقبال الرزق عليه بمشاركته . ورغب فيها بضمير صغراه قوله : فإنه . إلى آخره . والضمير في قوله : فإنه يعود إلى ما دلّ عليه شاركوا من المصدر . وتقدير كبراه : وكلما كان كذلك ففعله مصلحة .

٢١٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ ﴾ : أَلْعَدْلُ : ٱلْإِنْصَافُ ، وَٱلْإِحْسَانُ : ٱلتَّفَضُّلُ .

وهو تعريف لفظ بلفظ أوضح منه عند السائل .

٢١٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ ٱلْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ ٱلطَّوِيلَةِ .

وذلك إشارة إلى قوله تعالى : **﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾**(١) وقوله تعالى : **﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ﴾**(٢) واستعار لفظ اليد في الموضعين للنعمة والعطاء . وكنّى بالطول والقصر عن الكثرة والقلة .

٢١٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِابْنِهِ ٱلْحَسَنِ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ : لَا تَدْعُوَنَّ إِلَى مُبَارَزَةٍ وَإِنْ دُعِيتَ إِلَيْهَا فَأَجِبْ ، فَإِنَّ ٱلدَّاعِيَ بَاغٍ وَٱلْبَاغِي مَصْرُوعٌ .

نفر عن الدعوة إلى المبارزة بقياس كامل من الشكل الأول وهو قوله : فإن الداعي . إلى قوله : مصروع . وبيانه أن الدعاء إلى المبارزة خروج عن فضيلة الشجاعة إلى طرف الإفراط منها وهو التهور وهو بغي وعدوان لأنه

---

(١) ٦ ـ ١٦١ .
(٢) ٦٤ ـ ١١١ .

خروج عن فضيلة العدل في القوة الغضبية ، وأما أن الباغي مصروع ففي غالب الأحوال . لاستعداده ببغيه لذلك . لأن المجازاة واجبة في الطبيعة .

٢٢٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : خِيَارُ خِصَالِ ٱلنِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ ٱلرِّجَالِ : ٱلزَّهْوُ ، وَٱلْجُبْنُ ، وَٱلْبُخْلُ ، فَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا .

الأخلاق الثلاثة المذكورة رذائل للرجال وهي فضائل للنساء ، وبيان كونها فضائل هو ما ذكره عليه السلام . والمزهوة : المتكبّرة ، ولا يبنى الفعل من الزهو إلّا للمفعول . يقال : زهى الرجل وزهيت المرأة فهي مزهوة . والفرق : الخوف .

٢٢١ ـ وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : صِفْ لَنَا ٱلْعَاقِلَ ، فَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : هُوَ ٱلَّذِي يَضَعُ ٱلشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ فَقِيلَ : فَصِفْ لَنَا الجَاهِلَ ، فَقَالَ : قَدْ فَعَلْتُ .

قَالَ الرَّضِي : يَعْنِي أَنَّ الجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لاَ يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ ، فَكَأَنَّ تَرْكَ صِفَتِهِ صِفَةٌ لَهُ ، إِذْ كَانَ بِخِلاَفِ وَصْفِ العَاقِلِ .

عرف العاقل بخاصة من خواصه ، ولما كان الجاهل عديم ملكة العاقل كان تعريفه بما يقابل خاصة العاقل تعريفاً بالمناسب وهو خاصة أيضاً من خواص الجاهل .

٢٢٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : وَٱللَّهِ لَدُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عُرَاقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ .

عُراق : جمع عرق وهو جمع غريب كتؤام وتوأم وهو العظم الذي يسحت عنه اللحم ، وذلك مبالغة في هون الدنيا وحقارتها في عينه ونفرته عنها لأن العرق لا خير فيه فإذا تأكد بكونه من خنزير ثم بكونه في يد مجذوم بلغت النفرة منه الغاية .

٢٢٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمُ : إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا ٱللَّهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ

ٱلتُّجَّارِ ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا ٱللَّهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ ٱلْعَبِيدِ ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا ٱللَّهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ ٱلْأَحْرَارِ .

قسم عليه السلام عبادة العابدين بحسب أغراضها إلى ثلاثة وهي عبادة الرغبة وعبادة الرهبة وعبادة الشكر ، وجعل الأولى عبادة التجار باعتبار أنهم يستعيضون عنها ثواب الآخرة ويطلبونه بها فهم في حكم التجّار المكتسبين للأرباح ، والثانية عبادة العبيد في الدنيا لأن خدمتهم لساداتهم أكثر ما تكون رهبة ، والثالثة عبادة الشاكرين وهم الذين يعبدون الله لله لا لرغبة ولا لرهبة. بل لأنه هو مستحق العبادة وهي عبادة العارفين ، وأشار عليه السلام إليها في موضع آخر فقال عليه السلام : ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا طمعاً في ثوابك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك .

٢٢٤ ـ وقالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْمَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا ، وَشَرُّ مَا فِيهَا ، أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهَا .

وأراد أن أحوالها كلها شر على الرجل : أما من جهة مؤونتها فظاهر ، وأما من جهة لذتها واستمتاعه بها فلاستلزام ذلك البعد عن الله تعالى والاشتغال عن طاعته . وأسباب الشر شرور وإن كانت عرضية . ولما كان كونها لا بدّ منها أعني وجوب الحاجة إليها في طبيعة الوجود الدنيوي هو السبب في تحمّل الرجل للمرأة ووقوعه في شرورها وجب أن يكون ذلك الاعتبار أقوى الشرور المتعلّقة بها لأن السبب أقوى من المسبب .

٢٢٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ أَطَاعَ ٱلتَّوَانِيَ ضَيَّعَ ٱلْحُقُوقَ ، وَمَنْ أَطَاعَ ٱلْوَاشِيَ ضَيَّعَ ٱلصَّدِيقَ .

الانقياد في سلك التواني عن الحقوق المطلوبة يخرجها عن وقت الفرصة لحصولها وذلك يستلزم تضييعها وتفويتها ، وكذلك الواشي مظنة السعي بالفساد بين المتصادقين فطاعته فيما يقول مظنة وقوع الوحشة بينهما وتضييع كل منهما لصاحبه .

٢٢٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْحَجَرُ ٱلْغَصِيبُ فِي ٱلدَّارِ ، رَهْنٌ عَلَى

خَرَابِهَا .

استعار لفظ الرهن للحجر المغصوب في دار الظالم باعتبار كونه سبباً لخرابها كما أن الرهن سبب لأداء ما عليه من المال وهو كناية عن مطلق استلزام الظلم لهلاك الظالم وخراب ما يبنيه بظلم وإن تأخّر أمده ، وقد عرفت كون الظلم معداً لذلك . ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : اتقوا الحرام في البنيان فإنه أسباب الخراب .

٢٢٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : يَوْمُ ٱلْمَظْلُومِ عَلَى ٱلظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ ٱلظَّالِمِ عَلَى ٱلْمَظْلُومِ .

وأراد بيوم المظلوم يوم القيامة وخصصه به لأنه يوم إنصافه وأخذ حقه وكذلك تخصيص يوم الظالم بوقت ظلمه لأنه في الدنيا .

٢٢٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِتَّقِ ٱللَّهَ بَعْضَ ٱلتُّقَى وَإِنْ قَلَّ ، وَٱجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱللَّهِ سِتْراً وَإِنْ رَقَّ .

أمر بالتقوى لأنها الزاد إلى الله ، ولما كان الاستكثار منها مستلزماً للقرب من الله وسرعة الوصول إليه كان الأولى كثرتها وإلاّ فالبعض منها وإن قل لأن لها الأقلية والأكثرية والأشدية والأضعفية ولا يجوز ترك الزاد بالكلية في الطريق الصعبة الطويلة . واستعار لفظ الستر لحدود الله الساترة من عذابه وأمر أن يجعلها بينه وبين الله : أي يحفظ حدوده ولا يهتكها فيقع في مهاوي الهلاك فغلظ الستر شدة المحافظة على حدود الله وعدم استيفاء المباحات لخوف الوقوع في الحرام ورقته باستيفاء الأمور الجائزة من المباحات والمكروهات .

٢٢٩ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِذَا ٱزْدَحَمَ ٱلْجَوَابُ خَفِيَ ٱلصَّوَابُ .

أي إذا سئل عن مسألة فأجاب جماعة كل بما يخطر له في المسألة أو شخص بعدة من الأجوبة خفي الصواب فيها لالتباس الحق من تلك الأجوبة وأكثر ما يكون ذلك في المسائل الاجتهادية . وازدحامه : كثرته .

٢٣٠ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ حَقّاً ، فَمَنْ أَدَّاهُ زَادَهُ مِنْهَا ، وَمَنْ قَصَّرَ عَنْهُ خَاطَرَ بِزَوَالِ نِعْمَتِهِ .

حق الله في النعمة شكرها الواجب ، وأما استلزام أدائه للمزيد منها وكون التقصير مظنة زوالها فلقوله تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾[1] الآية . ورغب في الشكر ونفّر عن الكفران بذكر كون ذلك حقاً لله . وقد مرّ بيانه مراراً .

٢٣١ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِذَا كَثُرَتِ ٱلْمَقْدِرَةُ قَلَّتِ ٱلشَّهْوَة .

لأن قليل القدرة على ما يشتهيه لا يزال مستشعراً لخوف فواته عند حصوله . فيكون ذلك الخوف معاقباً للذته به فلا يزال في قلبه دغدغة نفسانية تحمله على مشتهاه وتبعث شهوته عليه . أما إذا تمت قدرته عليه فإنه يأمن فوته وبحسب ذلك يضعف الباعث للشهوة فيقل لجاجه عليه وشهوته له .

٢٣٢ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : إِحْذَرُوا نِفَارَ ٱلنِّعَمِ ، فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ .

استعار لفظ النفار والشرود لزوال النِّعم ملاحظة لشبهها بالنِّعم . وحذّر منه حثاً على تقييدها بالشكر ، ونبه على وجوب ذلك الحذر بقوله : فما كل . إلى آخره . وهو صغرى ضمير تقديرها : الشارد جاز أن لا يرد ، وتقدير كبراه : وكلما جاز أن لا يرد لم يجز تنفيره .

٢٣٣ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَلْكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ ٱلرَّحِمِ .

أي أشد عطفاً . ويفهم منه أحد معنيين :

الأول : أن الكريم بكرمه أعطف على المنعم عليه من ذي الرحم على ذي رحمه لأن عاطفة الكريم طبع وعاطفة ذي الرحم قد يكون تكلفاً وقد لا يكون أصلاً .

---

(١) ١٤ ٧.

الثاني : أن الكرم يستلزم عاطفة الخلق على الكريم ومحبتهم له أشد من عاطفة ذي الرحم على رحمه .

٢٣٤ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ .

أي افعل ما ظنه فيك من خير ، وتصديق الظن مطابقة الواقع الذي ظن وقوعه له بوقوعه. وذلك حثّ على فعل الخير .

٢٣٥ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : أَفْضَلُ ٱلأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ .

أراد من الأعمال الصالحة . وأفضلها أنفعها وأكثرها استلزاماً للثواب . وإنما كان كذلك لأن فائدة الأعمال الصالحة تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ورياضتها بحيث تصير مؤتمرة للعقل وإكراه النفس على الأمر يكون لشدته فكلما كان أشد كان أقوى في رياضتها وأنفع في تطويعها وكسرها، وبحسب ذلك يكون أكثر منفعة فكان أفضل ، ونحوه من الحديث قوله صلى الله عليه وآله وسلم : أفضل الأعمال أحمزها بالزاي المعجمة : أي أشقها.

٢٣٦ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : عَرَفْتُ ٱللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ ٱلْعَزَائِمِ ، وَحَلِّ ٱلْعُقُودِ .

أراد معرفة وجوده تعالى . ووجه الاستدلال أن الإنسان قد يعزم على أمر ويعقد ضميره على فعله بحسب ما يتصوره من المنفعة الداعية إليه . ثم عن قريب ينحلّ ذلك العزم وينفسخ ذلك العقد لزوال ذلك الداعي أو لخاطر معارض له .

إذا عرفت ذلك فنقول : تلك التغيّرات والخواطر المتعاقبة المرجحة لفعل الأمر المعزوم عليه أمور ممكنة محتاجة في طرفي وجودها وعدمها إلى المرجح والمؤثر . فمرجّحها إن كان من العبد كان الكلام فيه كالكلام في الأول ولزم الدور أو التسلسل وهما محالان فلا بد من الانتهاء إلى الله تعالى مقلب القلوب والأبصار . وذلك هو المطلوب .

٢٣٧ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَرَارَةُ ٱلدُّنْيَا حَلَاوَةُ ٱلآخِرَةِ ، وَحَلَاوَةُ ٱلدُّنْيَا مَرَارَةُ ٱلآخِرَةِ .

أي مستلزمة لها . واستعار لفظي الحلاوة والمرارة للذة والألم ، وظاهر أن آلام الدنيا اللازمة عن ترك لذاتها وعدم الالتذاذ بها طلباً للآخرة، وشوقاً إلى ثوابها مستلزمة لحلاوة الآخرة ولذّاتها، وكذلك الابتهاج للذّات الدنيا يستلزم الغفلة عن الآخرة وترك العمل لها وذلك مستلزم لعذابها ومستعقب لشقاوتها.

٢٣٨ ـ وَقَالَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : فَرَضَ ٱللَّهُ ٱلْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ ٱلشِّرْكِ ، وَٱلصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ ٱلْكِبْرِ ، وَٱلزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ ، وَٱلصِّيَامَ ٱبْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ ٱلْخَلْقِ ، وَٱلْحَجَّ تَقْرِبَةً لِلدِّينِ ، وَٱلْجِهَادَ عِزّاً لِلْإِسْلَامِ ، وَٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ ، وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ ، وَصِلَةَ ٱلرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ ، وَٱلْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ ، وَإِقَامَةَ ٱلْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ ، وَتَرْكَ شُرْبِ ٱلْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ ، وَمُجَانَبَةَ ٱلسَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ ، وَتَرْكَ ٱلزِّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ ، وَتَرْكَ ٱللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ ، وَٱلشَّهَادَةَ ٱسْتِظْهَاراً عَلَى ٱلْمُجَاحَدَاتِ ، وَتَرْكَ ٱلْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ ، وَٱلسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ ٱلْمَخَاوِفِ ، وَٱلْأَمَانَاتِ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ ، وَٱلطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ .

أقول : أشار عليه‌السلام إلى فرائض الله ، ونبه على عللها الغائية في الحكمة ليكون أوقع لذكرها في النفوس . وذكر منها تسع عشرة فريضة :

الأولى : بدأ بالإيمان . لأنه الأصل لجميع الفرائض والسنن ، وجعل من أغراضه التطهير عن الشرك ، ولما كان للتطهير من الشرك غاية مطلوبة للشارع وهي كمال النفس بمعرفة الله تعالى كان التطهير غاية غرضه من الإيمان .

الثانية : الصلاة . ولما كان وضعها لتطويع النفس الأمارة التي هي مبدأ الكبر للنفس المطمئنة ، ورياضتها ، وقهرها لا جرم كان من غاياتها تنزيه الإنسان عن الكبر .

الثالثة : الزكاة . وذكر من غايات فرضها كونها سبباً للرزق . إذ كان منها رزق الفقراء والمساكين ومن عيّنتها الشريعة حقاً له .

الرابعة : الصيام . ولـمّا كان من الشدائد الشاقة على الأبدان خصه

بأن غايته كونه ابتلاء من الله لإخلاص خلقه وإن كانت هذه غاية من كل العبادات .

الخامسة : الحج . وإنما جعل غايته كونه تقوية للدين لأنه عبادة تستلزم اجتماع أكثر أهل الملة في مجمع واحد على غاية من الذلة والخضوع والانقياد لله ، ومشاهدة كل من الخلق الحاضرين لذلك الجمع العظيم من الملوك وغيرهم فيتأكد في قلبه قوة الدين في عظمته دون سائر العبادات .

السادسة : الجهاد . وكون غايته عزّ الإسلام وقوته ظاهر .

السابعة : الأمر بالمعروف . وغايته إصلاح أحوال العوام في معاشهم ومعادهم . وخصّ العوام لأنهم أغلب الخلق ، ولأن من عداهم هم العلماء والولاة الآمرون بالمعروف الفاعلون له .

الثامنة : النهي عن المنكر . وكون غايته ردع السفهاء ظاهر . لأن السفيه ما لم يكن له ردع من سلطان الدين يكثر مفسدته المضادة لمصلحة العالم .

الثامنة : صلة الأرحام . ومن غايتها كونها منماة للعدد : أي عدد أولى الرحم . إذ زيادة عددهم باستقامة أمر معاشهم . وصلة الرحم سبب لذلك .

التاسعة : القصاص . وغايته حقن الدماء والكفّ عن سفكها لخوف المكافأة كقوله تعالى : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾[1]. وقولهم : القتل أنفى للقتل .

العاشرة: إقامة حدود الله . وغايتها حرمات محارم الله كي لا تنتهك وتنحرف الخلق إليها عن قصد السبيل فيضيّع غرض الشارع من وضع الدين.

الحادية عشر: ترك شرب الخمر. وغايته تحصين العقل من محاصرتها وإشغاله عمّا خلق له من طلب الاستكمال لكمال الحكمة.

الثانية عشر: مجانبة السرقة. وغايتها إيجاب العفّة. إذ السرقة تنشأ عن

---

(١) ٢ - ١٧٥.

كمال طاعة الشهوة والعبور فيها إلى حدّ الإفراط والفجور. فكان من غايات تحريمها وقوف من في طباعه ذلك على حدّ العفّة.

الثالثة عشر: ترك الزنا. ومن غاياته حفظ الأنساب وما يتبعها من المواريث. فإنّ الزنا يوجب اختلاط الأنساب وضياع الأموال التي هي قوام الخلق في الدنيا. وقد سبق سرّه.

الرابعة عشر: ترك اللواط. وغايته تكثير النسل وتوفير مادّته على محالّه لغاية كثرة النوع وبقائه.

الخامسة عشر: الشهادات. وغايتها استظهار المستشهد على مجاهدة خصمه كي لا يضيّع لو لم يكن بينهما شاهد.

السادسة عشر: ترك الكذب ومن غاياته تشريف الصدق وتعظيمه بتحريم ضدّه لبناء مصلحة العالم عليه ونظام أُمور الخلق به . وقد سبق بيان مفاسد الكذب الموجب لتحريمه .

السابعة عشر: الإسلام. ومن غاياته الأمن من مخاوف الدنيا لصولة الإسلام على سائر الأديان، ومن مخاوف الآخرة وهو ظاهر. وروى: السلام. ولمّا كان سبباً للتودّد إلى الخلق كان أمناً من مخاوفهم.

الثامنة عشر: الإمامة وغاية فرضها كونها نظاماً لأمر الأمّة. إذ الخلق متى كان لهم رئيس منبسط اليد قويّ الشوكة يردع الظالم عن ظلمه ويأخذ للمظلوم بحقّه كان بذلك صلاح أحوالهم ونظام أمورهم في معاشهم ومعادهم، ولا كذلك إذا لم يكن مثل ذلك الرئيس.

التاسعة عشر : طاعة الإمام وغاية فرضها تعظيم إمامة الامام لغاية امتثال الخلق لقوله ، والاقتداء به . وقد سبقت الاشارة الى أسرار كثيرٍ من هذه الفرائض مفصّلة.

٢٣٩ ـ وقال (عليه السلام) يقول:

أَحْلِفُوا الظَّالِمَ ـ إذا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ ـ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ فَإِنَّهُ إذَا

حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوجِلَ [الْعُقُوبَةَ]، وَإِذَا حَلَفَ بِآللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ ؛ لأَنَّهُ قَدْ وَحَّدَ اللهَ تَعَالَى .

قد يرى المجتهد تأكيد اليمين بمثل ما ذكر ﵇ لغاية نكول الكاذب عنها وأداء الحقّ، وذلك أنّ نفس الكاذب ينفعل عن مثل هذا اللفظ لعلمه بظلمه وتوهّمه تصديق الله تعالى ومطابقته لقوله بفعل المدعوّ به بخلاف اليمين المعتادة فيستعدّ بذلك لمعاجلته بالعقوبة. وروي أنّ واشياً سعى بالصادق ﵇ إلى المنصور فاستحضره وقال: إنّ فلانا ذكر عنك كذا وكذا. فقال ﵇ : لم يكن ذلك منّي. وأبى الساعي إلّا كونه منه. فحلّفه الصادق بالبراءة من حول الله وقوّته إن كان كاذباً. فحلف. فما انقطع كلامه حتى أصيب بالفالج فصار كقطعة لحم فجرّ برجله. ونجا الصادق منه.

٢٤٠ ـ وقال (عليه السلام) :

يَا ابْنَ آدَمَ؛ كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ فِي مَالِكَ، وَآعْمَلْ فِيهِ مَا تُؤْثِرُ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ مِنْ بَعْدِكَ.

أي كما توصي من بعدك أن يوضع مالك موضع القربات وانتفاع أهلك به فكن أنت ذلك الوصيّ وضعه تلك المواضع في حياتك. وهو حثّ على بذل المال في وجهه

٢٤١ ـ وقال (عليه السلام):

اَلْحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ، فَانْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ.

لمّا كان الجنون حالة مخصوصة تعرض للإنسان بسبب خروج القوى النفسانيّة عن قبول تصرّف العقل إلى طرفي الإفراط والتفريط كانت الحدّة خروج قوّة الغضب عن ضبط العقل لها على قانون العدل الإلهي إلى طرف الإفراط كانت قسماً من الجنون وتنفصل الحدّة بالرجوع في الغضب إلى طاعة العقل.

٢٤٢ ـ وقال (عليه السلام):

صِحَّةُ الْجَسَدِ، مِنْ قِلَّةِ الْحَسَدِ.

أي أنّ الحسد قد يكون أيضاً بالصحّة كما يكون بغيرها فيفعل فيها وذلك هو الحسد البالغ. فكانت صحّة الجسد دليلاً على أقليّة الحسد إذ لم يتعلّق بها.

٢٤٣ ـ وقال (عليه السلام):

لكميل بن زياد النخعي: يَا كُمَيْلُ، مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا فِي كَسْبِ الْمَكَارِمِ، وَيُدْلِجُوا فِي حَاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ! فَوَالَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ ٱلْأَصْوَاتَ مَا مِنْ أَحَد أَوْدَعَ قَلْباً سُرُوراً إلَّا وَخَلَقَ ٱللهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفاً؛ فَإذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي ٱنْحِدَارِهِ حَتَّى يَطْرُدَهَا عَنْهُ كَمَا تُطْرَدُ غَرِيبَةُ ٱلإِبِلِ.

الإدلاج: السير بالليل. والنائبة: المصيبة، وأراد أنّ إدخال السرور على قلب ذي الحاجة بقضائها يجعله الله سبباً يلطف به لقاضي الحاجة ويقيه بها من مصيبة تعرض له، ويشبه أن يكون ذلك اللطف هو إخلاص ذي الحاجة ومتعلّقيه في إمداده ومعونته بدعاء الله له وشكره وثنائه واستجلاب قلوب الخلق بذلك له وكلّ ذلك لطف يعدّه الله لوقايته له وطرد المصائب عنه، وشبّه جري ذلك اللطف إلى دفع المكروه عنه بجري الماء في انحداره، ووجه الشبه سرعة الانحدار للدفع والحفظ لأنّه من أمر الله. وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر، وكذلك دفع ذلك اللطف للنائبة بطرد غريبة الإبل، ووجه الشبه شدّة الطرد والإبعاد، وباقي الفصل ظاهر.

٢٤٤ ـ وقال (عليه السلام):

إذَا أَمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا ٱللهَ بِالصَّدَقَةِ.

والإملاق: الفقر. وقد مرّ أنّ الصدقة تعدّ للمزيد من فضل الله. فأمر

الفقراء أن يتصدقوا بما عساه يقع في ايديهم ولو بشقّ تمرة ليستعدوا بذلك لإفاضة فضل الله، ورغّبهم في ذلك بذكر التجارة وهي استعارة لاستعاضة ما يحصل عمّا يبذل . والفقراء أولى باستجلاب الرزق بالصدقة من الاغنياء لانفعال القلوب لهم ورقّتها عليهم ولما يسبق الى اذهان الخلق أنّ ذلك منهم عن إخلاص دون الأغنياء.

٢٤٥ ـ وقال (عليه السلام):

الْوَفَاءُ لأَهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ آللهِ؛ وَالْغَدْرُ بِأَهْلِ الْغَدْرِ وَفَاءٌ عِنْدَ آللهِ.

وذلك أنّ من عهد الله في دينه الغدر وعدم الوفاء لهم إذا غدروا لقوله تعالى: **﴿وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين﴾**(١) قيل نزلت في يهود بني قينقاع وكان بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عهد فعزموا على نقضه فأخبره الله تعالى بذلك وأمره بحربهم ومجازاتهم بنقض عهدهم فكان الوفاء لهم غدراً بعهد الله. والغدر بهم إذا غدروا وفاء بعهد الله.

فصل نذكر فيه شيئا من اختيار غريب كلامه المحتاج إلى التفسير

١ ـ في حديثه (عليه السلام)

فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِهِ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ.

قال الرضي : اليعسوب : السيد العظيم المالك لأمور الناس يومئذ، والقزع: قطع الغيم التي لا ماء فيها.

أقول: أومأ بقوله ذلك إلى علامات ذكرها في آخر الزمان لظهور صاحب الأمر، واستعار له لفظ اليعسوب وهو في الاصل أمير النحل ملاحظة لشبهه به فأما ضربه بذنبه فقيل فيه أقوال:

---

(١) ٨ ـ ٦٠.

أحدها: أنّ الضرب هو السير في الأرض، وذنبه استعارة في أعوانه وأتباعه والباء للاستصحاب.

الثاني: لمّا كان ضرب النحل بذنبه لسعه كنّى بذلك عن نصب سيوفه وسهامه في أعدائه لقتلهم وأذاهم.

الثالث: أنّه كناية عن ثورانه وغضبه لدين الله ملاحظة لشبهه بالسبع حال صولته وغضبه، وهذا الوجه أشبه الثلاثة.

وشبّه اجتماع المؤمنين وأهل طاعة الله باجتماع قطع الغيم المتفرّقة. ووجه الشبه سرعة الاجتماع لأنّ قزع الخريف سريع التأليف.

٢ - وفي حديثه (عليه السلام)

هَذَا الخَطِيبُ الشَّحْشَحُ.

يريد الماهر بالخطبة الماضي فيها، وكل ماض في كلام أو سير فهو شحشح؛ والشحشح في غير هذا الموضع: البخيل الممسك.

يروى أنّه رأى خطيباً يخطب فقال: ما هذا الخطيب الشحشح: أي الماهر في خطبته.

٣ - وفي حديثه (عليه السلام)

إنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَماً.

يريد بالقحم المهالك؛ لأنها تقحم أصحابها في المهالك والمتالف في الأكثر، ومن ذلك «قحمة الأعراب» وهو أن تصيبهم السنة فتتعرق أموالهم فذلك تقحمها فيهم. وقيل فيه وجه آخر، وهو أنها تقحمهم بلاد الريف، أي: تحوجهم إلى دخول الحضر عند محول البدو.

هذا ما قاله السيد ـ رحمه الله ـ وأقول: يروى أنّه عليه السلام وكّل أخاه في خصومة، وقال: إنّ لها لقحما وإنّ الشيطان يحضرها. والقحم: المهالك. وذلك أنّها مظنّة ثوران الفتنة الغضبيّة والخروج عن حدّ العدل فيها إلى رذيلة الإفراط التي هي مظنّة الهلاك.

٤ ـ وفي حديثه (عليه السلام)

إِذَا بَلَغَ النِّسَاءُ نَصَّ الْحِقَاقِ فَالْعَصَبَةُ أَوْلَى.

والنص: منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في السير لأنه أقصى ما تقدر عليه الدابة. وتقول: نصصت الرجل عن الأمر؛ إذا استقصيت مسألته عنه لتستخرج ما عنده فيه. فنص الحقاق يريد به الإدراك لأنه منتهى الصغر والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حد الكبير، وهو من أفصح الكنايات عن هذا الأمر وأغربها، يقول: فإذا بلغ النساء ذلك فالعصبة أولى بالمرأة من أمّها إذا كانوا محرماً مثل الأخوة والأعمام، وبتزويجها إن أرادوا ذلك والحقاق محاقة الأم للعصبة في المرأة وهو الجدال والخصومة وقول كل واحد منهما للآخر «أنا أحق منك بهذا» يقال منه: حاققته حقاقاً، مثل جادلته جدالا. وقد قيل: إن «نص الحقاق» بلوغ العقل، وهو الإدراك؛ لأنه عليه السلام إنما اراد منتهى الأمر الذي تجب فيه الحقوق والأحكام، ومن رواه «نص الحقائق» فإنما أراد جمع حقيقة.

هذا معنى ما ذكره أبو عبيد [القاسم بن سلام] والذي عندى أن المراد بنص الحقاق ههنا بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في حقوقها، تشبيها بالحقاق من الإبل، وهي جمع حقة وحق، وهو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة، وعند ذلك يبلغ إلى الحد الذي يتمكن فيه من ركوب ظهره، ونصه في السير، والحقائق أيضاً: جمع حقة. فالروايتان جميعا ترجعان إلى معنى واحد، وهذا أشبه بطريقة العرب من المعنى المذكور.

وأقول: الذي ذكره السيّد أنسب إلى كلام العرب كما قال. غير أنّ نصّ الحقاق استعارة لا تشبيه وإن كانت الاستعارة تعتمد التشبيه. والعصبة: بنو الرجل وقرابته لأبيه سمّوا بذلك لأنّهم عصبوا به وعلّقوا عليه. وقيل: يحتمل أن يراد بالنصّ الارتفاع. يقال: نصّت الضبّة رأسها: إذا رفعته، ومنه منصّة العروس لارتفاعها عليها. وتكون قد استعار لفظ الحقاق لأثداء الصغيرة

إذا انهدت وارتفعت لشبهها بالحقة صورة: أي إذا بلغن حدّ ارتفاع أثدائهنّ كانت العصبة أولى بهنّ من الأمّ لأنّه وقت إدراكهنّ وعلامة صلاحيّتهنّ للتزويج.

٥ - وفي حديثه (عليه السلام)

إنَّ الإيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً فِي الْقَلْبِ كُلَّمَا ٱزْدَادَ الإيمَانُ ٱزْدَادَتِ اللُّمْظَةُ.

واللمظة مثل النكتة أو نحوها من البياض. ومنه قيل: فرس ألمظ، إذا كان بجحفلته شيء من البياض. وأقول: أراد أنَّ الإيمان وهو التصديق بوجود الصانع تعالى أوّل ما يكون في النفس يكون حالة ثمّ لا يزال يتأكّد بالبراهين والأعمال الصالحة إلى أن يصير ملكة تامّة، ولفظ اللمظة استعارة لما يبدو من نور الايمان في النفس أوّل كونه ملاحظة لشبهه باللمظة من البياض والنكتة من نور الشمس. ونصب لمظة على التمييز. والجحفلة من الفرس هي المسمّاة من الإنسان شفة.

٦ - وفي حديثه (عليه السلام)

إنَّ الرجُلَ إذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَى إذَا قَبَضَهُ.

فالظنون الذي لا يعلم صاحبه أيقضيه من الذي هو عليه أم لا، فكأنه الذي يظن به فمرة يرجوه ومرة لا يرجوه. وهذا من أفصح الكلام؛ وكذلك كل أمر تطلبه ولا تدري على أي شيء أنت منه فهو ظنون وعلى ذلك قول الأعشى.

مَا يُجْعَلُ الْجُدُّ الظَّنُونُ الَّذِي ... جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ الْمَاطِرِ
مِثْلُ الْفُراتِّي إذا مَا طَمَا ... يَقْذِفُ بِالْبُوصِيِّ وَالْمَاهِرِ

الجد: البئر والظنون: التي لا يعلم هل فيها ماء أم لا.

قيل: يقول عليه السلام: إذا كان لك مثلاً عشرون ديناراً دينا على رجل، وقد أخذها منك ووضعها كما هي من غير تصرّف فيها وأنت تظنّ إن

استرددتها منه ردّها إليك فإذا مضى عليها أحد عشر شهراً واستهلّ هلال الثاني عشر وجبت زكاتها عليك. واللجب في قول الأعشى هو السحاب المصوّت ذو الرعد. وأراد بالفراتيّ الفرات، والياء للتأكيد كقولهم: والدهر بالإنسان دواريّ: أي دوّار. ويحتمل أن يريد نهر الفراتي. والبوصيّ: ضرب من صغار السفن. والماهر: السابح، ومراده أنّه لا يقاس البئر الذي يتشكّك هل فيه ماء أم لا لبعده بالفرات إذا ما طما. وهو كالمثل لعدم مساواة البخيل للكريم.

٧ ـ وفي حديثه (عليه السلام)

أنه شيع جيشاً يغزيه فقال: إعْذُبوا عَنِ النِّسَاءِ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.

ومعناه اصدفوا عن ذكر النساء وشغل القلب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأن ذلك يفت في عضد الحمية ويقدح في معاقد العزيمة، . ويكسر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو، وكل من امتنع من شيء فقد أعذب عنه. والعاذب والعذوب: الممتنع من الأكل والشرب.

قوله: يفتّ في عضد الحميّة كناية عن كسرها.

٨ ـ وفي حديثه (عليه السلام)

كَالْيَاسِرِ الْفَالِجِ يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ.

الياسرون: هم الذين يتضاربون بالقداح على الجزور، والفالج: القاهر والغالب، يقال: فلج عليهم، وفلجهم، وقال الراجز:

لما رأيت فالجا قد فلجا

وأقول: قد مرّ شرحه في قوله: أمَّا بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر.

٩ ـ وفي حديثه (عليه السلام)

كُنَّا إِذَا ٱحْمَرَّ الْبَأْسُ ٱتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلى العَدُوِّ مِنْهُ.

ومعنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو واشتد عضاض الحرب فزع المسلمون إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقوله «إذا احمر البأس» كناية عن اشتداد الأمر، وقد قيل في ذلك أقوال أحسنها: أنه شبه حمى الحرب بالنار التي تجمع الحرارة والحمرة بفعلها ولونها، ومما يقوي ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد رأى مجتلد الناس يوم حنين وهي حرب هوازن: «الآن حمي الوطيس» فالوطيس: مستوقد النار، فشبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما استحر من جلاد القوم باحتدام النهار وشدة التهابها.

وأقول: استعار وصف احمرار البأس لشدّته ملاحظة لشبهه بالنار الموقدة. وقد مرّ مثل ذلك في بعض كتبه عليه السلام.

٢٤٦ - وقال (عليه السلام)

لما بلغه إغارة أصحاب معاوية على الأنبار: فخرج بنفسه ماشياً حتى أتى النخيلة فأدركه الناس، وقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن نكفيكهم، فَقَالَ: مَا تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ؟ إنْ كَانَتِ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا، وَإِنَّنِي الْيَوْمَ لأَشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي، كَأَنَّنِي الْمَقُودُ وَهُمُ الْقَادَةُ، أَوِ الْمَوْزُوعُ وَهُمُ الْوَزَعَةُ!

فلما قال عليه السلام هذا القول في كلام طويل قد ذكرنا مختاره في جملة الخطب، تقدم إليه رجلان من أصحابه فقال أحدهما: إني لا أملك إلا نفسي وأخي فمر بأمرك يا أمير المؤمنين ننقد له فقال عليه السلام: وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ؟

أقول: هذا الفصل قد مرّ مشروحاً في الخطب.

وقيل إن الحارث بن حوت أتاه عليه السلام فقال: أتراني أظن أصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟.

فقال عليه السلام: يَا حَارِثُ، إنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ! إنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ؛ وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ، فقال الحارث: فإني أعتزل مع سعد بن مالك وعبد الله بن عمر؟ فقال عليه

السلام: إِنَّ سَعداً وَعَبْدَ آللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الْحَقَّ وَلَمْ يَخْذُلاَ الْبَاطِلَ.

قوله أتراني. استفهام إنكار لرؤيته كذلك. ورخّم حارث في بعض النسخ. وقيل في قوله: إنّك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك: أي نظرت في أعمال الناكثين من أصحاب الجمل المتمسّكين بظاهر الإسلام الذين هم دونك في المرتبة لبغيهم على إمام الحقّ فاغتررت بشبهتهم واقتديت بهم ولم تنظر إلى من هو فوقك وهو إمامك الواجب الطاعة ومن معه من المهاجرين والأنصار ولا سمعت حكمهم بكون خصومهم على الباطل فكان ذلك سبب حيرتك. ويحتمل أن يكون نظره تحته كناية عن نظره إلى باطل هؤلاء وشبهتهم المكتسبة عن محبّة الدنيا التي هي الجنبة السافلة، ونظره فوقه كناية عن نظره إلى الحقّ وتلقّيه من الله.

وقوله: إنّك: إلى آخره.

تفصيل لسبب حيرته وهو عدم معرفته للحقّ والباطل المستلزم لجهله بأهلهما ولو عرفهما لجزم باتّباع الحقّ واجتناب الباطل وهو في قوّة صغرى ضمير تقدير كبراه: كلّ من كان كذلك وقع في الحيرة والضلال. وسعد ابن مالك هو سعد ابن أبي وقاص فإنّه لمّا قتل عثمان اشترى أغناماً وانتقل إلى البادية وكان يتعيّش بتلك الأغنام حتّى مات ولم يشهد بيعة علي عليه السلام. وأمّا عبد الله بن عمر فالتجأ إلى أُخته حفصة زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بايع لأمير المؤمنين عليه السلام ولكنّه لم يشهد معه حرب الجمل، وقال: قد أعجزتني العبادة عن الفروسة والمحاربة فلست مع علي ولا مع أعدائه. فأمّا قوله في جوابه: إنّ سعداً، إلى آخره فهو صغرى ضمير نبّه فيه على أنّه لا يجوز له متابعتهما في الاعتزال وهي من المخيّلات المنفّرة التي في صورة الذمّ وإن كانت صادقة. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فلا يجوز متابعته.

٢٤٧ ـ وقال (عليه السلام)

صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الأَسَدِ: يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ.

أي يتمنّى موقعه وهو يعلم أنّه في غاية من المخاطرة بالنفس والتغرير

بها، وذلك هو وجه الشبه براكب الأسد.

٢٤٨ - وقال (عليه السلام)

أحْسِنُوا فِي عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فِي عَقِبِكُمْ.

العقب من يخلفه الإنسان من الولد وأولادهم. وإنّما كان كذلك لأنّ المجازاة واجبة في الطبيعة ولأنّ الذكر الجميل بذلك يعطف الناس على عقب المحسن من بعده.

٢٤٩ - وقال (عليه السلام)

إنَّ كَلاَمَ الْحُكَمَاءِ إذَا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً، وَإذَا كَانَ خَطَأً كَانَ دَاءً.

وذلك لقوّة اعتقاد الخلق فيهم وشدّة قبولهم لما يقولونه فإن كان حقّاً كان دواء من الجهل وإن كان باطلاً أوجب للخلق داء الجهل. ولذلك قيل: زلّة العالِم زلّة العالَم.

٢٥٠ - وسأله رجل أن يعرفه الإيمان فقال (عليه السلام)

إذَا كَانَ الْغَدُ فَأْتِنِي حَتَّى أُخْبِرَكَ عَلَى أَسْمَاعِ النَّاسِ، فَإنْ نَسِيتَ مَقَالَتِي حَفِظَهَا عَلَيْكَ غَيْرُكَ، فَإنَّ الْكَلاَمَ كَالشَّارِدَةِ يَنْقُفُهَا هٰذَا وَيُخْطِئُهَا هٰذَا.

وقد ذكرنا ما أجابه به فيما تقدم من هذا الباب وهو قوله «الايمان على أربع شعب».

وجه تشبيه الكلام بالشاردة من الإبل قوله: ينفقها: أي يجدها في ضلالها. إلى آخره. والفصل ظاهر.

٢٥١ - وقال (عليه السلام)

يَا ٱبْنَ آدَمَ، لاَ تَحْمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ الَّذِي قَدْ أَتَاكَ؛ فَإنَّه إنْ يَكُ مِنْ عُمُرِكَ يَأْتِ ٱللهُ فِيهِ بِرِزْقِكَ.

أي ينبغي أن يكون الاهتمام بحاجة كلّ يوم مخصوصاً بذلك اليوم. والكلمة صغرى ضمير نبّه به على ترك الاهتمام بما لم يأته من الأيّام، وتقدير

الكبرى: وكلّما كان كذلك فلا ينبغي الاهتمام له.

٢٥٢ ـ وقال (عليه السلام)

أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناًمّا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماًمّا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناًمّا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماًمّا.

فائدة هذه الكلمة الأمر بالاعتدال في المحبّة والبغض وعدم الإفراط فيهما لما في الإفراط من المفسدة. والهون: السكينة والوقار وهو صفة مصدر محذوف: أي حبّاً هيّناً معتدلاً. ـ وما ـ في الموضعين يفيد شيئاً ما في الهون واليوم، وإنّ الغرض منه مقدار الإفراط ووقت من الأوقات وإن لم يكن معيّناً. ونبّه على سرّ ذلك بقوله: عسى. في الموضعين وهما صغر يا ضميرين أمّا مفسدة إفراط المحبّة فلاستلزامه اطّلاع المحبّ لمحبوبه على أسراره وتوقيفه على أحواله فربّما ينقلب بعد ذلك عدوّاً له فيكون أقدر على هلاكه من غيره من الأعداء، وكذلك مفسدة إفراط البغيض وهو عدم الإبقاء على المبغوض وذلك يستلزم دوام المعاداة. فالاعتدال في ذلك أولى لأنّه ربّما عاد العدوّ إلى الصداقة فكان المبغض قد أبقى للصداقة موضعاً، وتقدير كبرى الأوّل: وكلّ حبيب جاز أن يكون عدوّاً في وقت ما فينبغي أن لا يفرط في محبّته. وتقدير كبرى الثاني: وكلّ عدوّ جاز أن يكون صديقاً يوماً ما فينبغي أن لا يفرط في بغضه.

٢٥٣ ـ وقال (عليه السلام)

أَلنَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَامِلاَنِ: عَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاه عَنْ آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يَخْلُفُهُ الْفَقْرَ وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ، وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ الْحَظَّيْنِ مَعاً، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ آللهِ لاَ يَسْأَلُ آللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعُهُ.

لمّا كان العمل في هذه الحياة لا بدّ منه فعمل العاقل إمّا لها أو لغيرها

وغيرها هو الآخرة فإذن الناس عاملان، وأشار إلى الأوّل في معرض ذمّه بقوله: قد شغلته دنياه. إلى قوله: غيره، ومعنى ذلك أنّه يشتغل بتحصيل الدنيا خوف الفقر على ولده من بعده فيفني عمره في منفعة يتخيّلها لغيره ولا يخشى الفقر الأكبر في الآخرة من الخيرات الباقية على نفسه. وذلك ضلال مبين. وأشار إلى الثاني في معرض مدحه بقوله: وعامل. إلى قوله: فجاءه الذي له من الدنيا: أي المكتوب له في اللوح المحفوظ من رزق ونحوه.

وقوله: بغير عمل.

أي للدنيا لأنّ العمل بقدر الضرورة من الدنيا ليس من العمل لها بل للآخرة وهو مقصود من الدنيا بالعرض، وبذلك يحرز حظّيه من الدنيا والآخرة، ويكون في الدنيا ملكا بقناعته وفي الآخرة بثمرة أعماله ووجاهته عند الله وعلوّ منزلته في استعداده بطاعته المستلزم لقبول دعوته وإجابتها فيما سأل.

وروي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حلي الكعبة وكثرته، فقال قوم: لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر وما تصنع الكعبة بالحلي؟ فهم عمر بذلك، وسأل أمير المؤمنين عليه السلام :

٢٥٤ ـ فقال (عليه السلام)

إنَّ القُرآن أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ (ص) وَالأموالُ أرْبَعَةٌ: أمْوالُ المُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الوَرَثَةِ في الفَرائِضِ ، والفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ ، وَالخُمْسُ فَوَضَعَهُ الله حَيْثُ وَضَعَهُ ، وَالصَّدَقَاتُ فَجَعَلَها الله حَيْثُ جَعَلَهَا، وَكَانَ حلي الكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ، فَتَرَكَهُ الله على حَالِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ نِسيَاناً، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَكَاناً، فأَقِرَّهُ حَيْثُ أقَرَّهُ الله وَرَسُولُهُ. فَقالَ له عمر: لولاك لافتضحنا، وترك الحلي بحاله.

القصّة مشهورة وخلاصة حجّته عليه السلام ضمير أشار إلى صغراه وتقديرها: إنّ حلي الكعبة قد أقرّه الله على حاله ورسوله من غير نسيان له ولا جهل

بمكانه مع تعرّضه لجميع الأموال. وتقدير الكبرى: وكلّما أقرّه الله ورسوله على حاله وجب الاقتداء بهما في إقراره. ولذلك أمره بصورة النتيجة وهو قوله: فأقرّه الله ورسوله. ونسياناً نصب على الحال، ومكاناً على التمييز.

وروي أنه عليه السلام رفع إليه رجلان سرقا من مال الله: أحدهما عبد من مال الله، والآخر من عرض الناس:

٢٥٥ ـ فقال (عليه السلام)

أَمَّا هٰذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ ٱللهِ وَلَا حَدَّ عَلَيْهِ، مَالُ ٱللهِ أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَلَيْهِ الْحدُّ فَقَطَعَ يَدَهُ.

عرض الناس سائرهم وعامّتهم. واحتجّ للعبد بضمير صغراه قوله: فهو مال الله أكل بعضه بعضاً. وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا قطع عليه. وأمّا المقطوع فإنّه قد كان سرق نصاباً من مال الغنيمة من حرز ولم يكن له نصيب منها، وأمّا إن كان له نصيب فإن كان المسروق فوق نصيبه نصاباً قطع وإلّا فلا.

٢٥٦ ـ وقال (عليه السلام)

لَوْ قَدِ ٱسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هَذِهِ الْمَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ.

المداحض: المزالق. واستواء قدميه كناية عن ثباته وتمكّنه من إجراء الأحكام الشرعيّة على وجوهها في المسائل الاجتهاديّة المشكلة التي يخفى حكم الشرع فيها على غيره، وذلك أنّه في خلافته لم يتمكّن من تغيير شيء من أحكام الخلفاء قبله وكان له في بعضها رأي غير ما رأوه. واستعار لتلك المسائل لفظ المداحض باعتبار أنّها مزالق أقدام العقول ومزالّها. وأومأ بقوله: لغيّرت أشياء. إلى ما كان يرى فساده من أحكام غيره في تلك المسائل وأنّ أقدام عقولهم قد زلقت فيها عن سواء الصراط.

٢٥٧ ـ وقال (عليه السلام)

اعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أَنَّ آللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ ـ وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَآشْتَدَّتْ طِلْبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ ـ أَكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ، وَبَيْنَ أَنْ يَبْلُغَ مَا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ. وَالْعَارِفُ لِهٰذَا الْعَامِلُ بِهِ أَعْظَمُ النَّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ، وَالتَّارِكُ لَهُ الشَّاكُّ فِيه أَعْظَمُ شُغُلاً فِي مَضَرَّةٍ؛ وَرُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَى؛ وَرُبَّ مُبْتَلىً مَصْنُوعٌ لَهُ بِالبَلْوى، فَزِدْ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ.

وفي هذا الفصل لطائف. لمّا قام البرهان على أنّ ما علم الله تعالى وجوده فهو واجب الوقوع وما علم عدمه فهو ممتنع الوقوع لا جرم لم يكن لكلّ من القويّ والضعيف من الرزق ونحوه إلّا ما علم الله تعالى وصوله إليه بقلم القضاء الإلهيّ في الذكر الحكيم واللوح المحفوظ ولم يبلغ عظيم الحيلة قويّ المكيدة بحيلته أكثر ممّا سمّي له، ولا قصر الضعيف بضعفه عن بلوغ ما سمّي له. ولأجل ثبوت ذلك بالبرهان أمرهم بتيقّنه، ورغّبهم في علمه والعمل به بضمير صغراه وقوله: والعارف. إلى قوله: في منفعة. أمّا راحته فلعلمه أنّ ما كتب له لا بدّ أن يصل إليه فيترك لذلك شدّة الاهتمام به والكدح له، ولمّا كانت راحته قلبيّة وبدنيّة كانت أعظم الراحات، ولمّا كانت مع منفعة بما يصل إليه تأكّد شرفها. وكذلك نفّر عن الشكّ في ذلك وترك العمل به بقوله: والتارك لهذا الشاكّ فيه. إلى آخره. وهو ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فلا ينبغي له الشكّ فيه وتركه، وإنّما كان أعظم الناس شغلاً لأنّه شغل قلبه وبدنه فيما لا فائدة فيه فيلزمه مضرّة خالصة.

فإن قلت: فهذا ينافي الأمر بالدعاء وبالسعي في طلب الرزق كقوله تعالى: ﴿**فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾[1] ونحوه.

---

(١) ٦٣ ـ ١٠.

قلت: قد بيّنا أنّه لا ينافي، وذكرنا سرّ الدعاء وفائدته. وحاصله أنّه قد يكون الدعاء سبباً لوجود الرزق فيعلم الله تعالى وجوده بواسطة سببه ولا تنافي بينهما.

الثانية: نبّه أهل النعمة والغنى وأهل الابتلاء على وجوب شكر الله تعالى على حاليهما أمّا أهل النعمة فنبّههم بأنّ نعمتهم قد تكون استدراجاً لهم ليشكروا الله عليها كيلا يستدرجهم بها، وأمّا أهل البلوى فنبّههم بأن بلواهم قد تكون صنعاً من الله في حقّهم ليعدّهم بها لثوابه الجزيل فيجب عليهم شكر ذلك الصنع. والمقدّمتان صغريا ضميرين تقدير الأولى منهما: بعض المنعم عليه مستدرج بالنعمى. وتقدير الكبرى: وكلّ مستدرج بالنعمى يجب عليه أن يحترز بشكر نعمة الله عليه من الاستدراج بها، وكذلك تقدير الثانية: وبعض المبتلى مصنوع له بالبلوى. وتقدير الكبرى: وكلّ مصنوع إليه فيجب عليه شكر صنع الله في حقّه. ولذلك أمر المستمعين مطلقا بزيادة الشكر مع أنّ فيهم المنعم عليهم والمبتلى، ثمّ أمر بالتقصير عن العجلة في طلب الرزق والوقوف دون حدّ الإفراط على حدّ العدل.

٢٥٨ ـ وقال (عليه السلام)

لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، وَيَقِينَكُمْ شَكّاً إذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا، وَإذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا.

نهاهم أن يجعلوا علمهم بما أهمّ علمه من أحوال الآخرة جهلا: أي في قوّة الجهل، ويقينهم شكّا: أي في قوّة الشكّ وبمنزلته لتركهم العمل على وفق ما علموه وتيقّنوه. ولذلك أمرهم بالعمل على وفق علمهم والإقدام عليه على وفق يقينهم.

٢٥٩ ـ وقال (عليه السلام)

إنَّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ، وَضَامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ، وَرُبَّمَا شَرِقَ شَارِبُ الْمَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ قَدْرُ الشَّيْءِ الْمُتَنَافَسِ فِيهِ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ،

وَالْأَمَانِيُّ تُعْمِي أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ، وَالْحَظُّ يَأْتِي مَنْ لَا يَأْتِيهِ.

نفّر عن الطمع في الدنيا والحرص في طلبها وتمنّيها واقتنائها بوجوه:

الأوّل: ضمير صغراه قوله: إن الطمع. إلى قوله: وفيّ: أي يورد الطامع موارد الهلكة ولا يصدره عنها. واستعار له لفظ الضامن غير الوفيّ باعتبار أنّه يرغب في الطلب ويدعو إليه مع أنّه قد يكون كاذباً كمن يضمن شيئاً ويخلف فيه، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا ينبغي أن يتّبع ويوثق به.

الثاني: قوله: وربّما. إلى قوله: ريّه. وهو تنبيه على أنّه لا يجوز الاسترسال في طلب الدنيا بضمير كنّى عن صغراه بذلك، وتقديرها: أنّ المسترسل في طلبها قد يخترم ويقتطع دون بلوغ أمله فيها. وتقدير الكبرى: وكلّ ما كان كذلك فلا ينبغي له الاسترسال في طلبها.

الثالث: نفّر عن المنافسة فيما عظم قدره من متاعها بضمير صغراه قوله: وكلّما. إلى قوله: لفقده. والرزيّة: المصيبة. وتقدير الكبرى: وكلّما عظمت الرزيّة لفقده فلا ينبغي اقتناؤه. إذ كان من ضرورته فقده وفناؤه.

الرابع: نفّر عن الأمانيّ بضمير صغراه قوله: والأمانيّ تعمي أعين البصائر وذلك أنّها تشغل الفكر بما لا يعنى عن طلب ما يعنى من الكمالات العقليّة. واستعار لفظ الأعين للأفكار باعتبار إدراكهما. وتقدير الكبرى: وكلّما كان كذلك وجب اجتنابه.

الخامس: نبّه على ترك طلب الحظّ من الدنيا بقوله: والحظّ يأتي من لا يأتيه: أي الحظّ لمن كان له حظّ يصل إليه وإن لم يسع في طلبه، وهو في قوّة صغرى ضمير، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا حاجة إلى طلبه وإتيانه.

٢٦٠ ـ وقال (عليه السلام)

اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ تُحَسِّنَ فِي لَامِعَةِ الْعُيُونِ عَلَانِيَتِي، وَتُقَبِّحَ فِيمَا

أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحَافِظاً عَلَى رِئَاءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي بِجَمِيعِ مَا أَنْتَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مِنِّي، فَأُبْدِي لِلنَّاسِ حُسْنَ ظَاهِرِي، وَأُفْضِي إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إِلَى عِبَادِكَ، وَتَبَاعُداً مِنْ مَرْضَاتِكَ.

أفضى: أصل. واستعاذ بالله أن يجتمع له حسن الظنّ في عيون الناس مع قبح باطنه عند الله بالرياء والتصنّع بالزهادة والعبادة الظاهرة لغاية طلب الدنيا. ولامعة العيون إضافة للصفة إلى الموصوف: أي العيون اللامعة. ومحافظاً حال. وتقرباً وتباعداً مصدران سدّا مسدّ الحال، ويحتمل نصبهما على المفعول.

٢٦١ ـ وقال (عليه السلام)

لَا وَالَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْهُ فِي غُبْرِ لَيْلَةٍ دَهْمَاءَ تَكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا.

فغبر الليل: بقاياه. والدهماء: السوداء. والتكشّر: التبسّم بحيث تبدو الأسنان. والأغرّ: الواضح. ولفظ التكشّر مستعار للّيلة باعتبار إسفارها عن ضوء يومها. فهي كالضاحكة. واليمين في غاية الفصاحة، وعن مثلها ينفعل الحالف والسامع.

٢٦٢ ـ وقال (عليه السلام)

قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ [مِنْهُ].

وأراد من الأفعال فإنّ القليل الدائم أكثر من الكثير المملول المنقطع وأقوى إعداداً للنفس فكان أنفع في الآخرة.

٢٦٣ ـ وقال (عليه السلام)

إِذَا أَضَرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا.

أي إذا أخلّت ببعض شرائط الفرائض وجب تركها وقد مرّ ذلك مشروحاً.

٢٦٤ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ آسْتَعَدَّ.

وأراد أنّ المتذكّر لبعد طريق الآخرة يلزمه الاستعداد لها بالتقوى.

٢٦٥ ـ وقال (عليه السلام)

لَيْسَتِ الرَّوِيَّةُ كَالْمُعايَنَةِ مَعَ ٱلإبْصَارِ فَقَدْ تَكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ.

هذا تنبيه على وجوب إعمال الفكر فيما ينبغي، وأنّ العقل هو مستند الحواسّ وهو الناقد البصير والناصح الشفيق الذي لا يغشّ من استنصحه. واستعار لفظ الاستنصاح لمراجعته وإعماله بصدق وتوجّهه إلى استخراج الآراء الصالحة، ولفظ الغشّ لكذبه: أي لا يكذب من استنصحه وجعله رائداً له وأمّا الحواسّ فقد تكذب أهلها. واعلم أنّ البصر وغيره من الحواسّ الظاهرة لا حكم له، وأمّا الحكم ببعض المحسوسات على بعض فحكم العقل بواسطة الخيال والوهم، وكلّما عرض في تلك الأحكام من الغلط فهو من أغلاط الوهم على ما تبيّن في موضعه، وحينئذ يكون قوله: وقد تكذب العيون أهلها: أي قد يكذب الأحكام الوهميّة على مدركات العيون كالحكم بكون القطرة النازلة خطّاً مستقيماً والشعلة التي تدار بسرعة كالدائرة ونحوه.

٢٦٦ ـ وقال (عليه السلام)

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ.

استعار لفظ الحجاب لما يعرض للنفوس من الهيئات البدنيّة المغفلة عن النظر في العبرة وقبول الموعظة والانتفاع بها.

٢٦٧ ـ وقال (عليه السلام)

جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ، مُسَوِّفٌ.

مزداد أي من الإثم. مسوّف: أي بالتوبة.. وروي: عالمكم مسوّف.

٢٦٨ ـ وقال (عليه السلام)

قَطَعَ الْعِلْمُ عُذْرَ الْمُتَعَلِّلِينَ.

أي العلم بالدين وما بلّغه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من البشارة والنذارة فإنّ ذلك قاطع لعذر من عساه يقول: إنّا كنّا عن هذا غافلين. كما قال تعالى: ﴿رسلاً مبشّرين ومنذرين﴾[1] الآية.

٢٦٩ ـ وقال (عليه السلام)

كُلُّ مُعَاجَلٍ يَسْأَلُ الإِنْظَارَ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ.

وهو توبيخ على ترك العمل الصالح للمعاجل والمؤجّل.

٢٧٠ ـ وقال (عليه السلام)

مَا قَالَ النَّاسُ لِشَيْءٍ «طُوبَى لَهُ» إلاَّ وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سُوءٍ.

أي ما استحسن الناس من الدنيا شيئاً إلّا وفي قوّة الدهر إعداد لفساده وإهلاكه يوماً ما. ولا بدّ من خروج ما فيه بالقوّة إلى الفعل.

٢٧١ ـ وسُئِل (عليه السلام)

عن القدر فقال: طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلاَ تَسْلُكُوهُ، وَبَحْرٌ عَمِيقٌ فَلاَ تَلِجُوهُ، وَسِرُّ الله فَلاَ تَتَكَلَّفُوهُ.

أقول: السؤال عن مهيّة القدر وكيفيّة وقوع الأفعال بحسبه. وهذه المسألة من مسائل العلم الإلهي وفيها خبط عظيم بين الحكماء والمتكلّمين، وقد نبّهنا على ما هو الحقّ فيها فيما سبق ولصعوبتها كان الخوض فيها مظنّة الضلال والتيه في بحر لا ساحل له فلذلك نفّر عليه السلام عن الخوض فيها بضمائر ثلاثة:

أحدها: أنّها طريق مظلم، وتقدير الكبرى: وكلّ طريق مظلم فلا يجوز

---

(١) ٢ ـ ٦٢.

سلوكه. وينتجه قوله: لا تسلكوه. واستعار لفظ المظلم له باعتبار كونه كثير الشبهات لا يهتدى فيه للحقّ.

الثاني: أنّه بحر عميق. واستعار لفظ البحر بصفة العمق له باعتبار غرق الأفكار فيه، وتقدير كبراه: وكلّ بحر عميق فلا يجوز ولوجه. وينتجه قوله: فلا تلجوه.

الثالث: أنّه سرّ الله: أي سرّ الله قد أحبّ كتمه ومنع من الخوض فيه، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فلا يجوز تكلّف الخوض فيه وهتكه. وفي معناه كلّ غامض من غوامض العلم لا يجوز كشفه إلّا للأولياء وأفراد العلماء فهو من أسرار الله.

٢٧٢ ـ وقال (عليه السلام)

إِذَا أَرْذَلَ ٱللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ العِلْمَ.

وحظر العلم بإعداده لغيره وتعويق أسبابه بحيث ينصرف عنه فلا يكون له استعداده، وظاهر أنّ الجهل من أشدّ الرذائل وأصعبها داء وهو طرف التفريط من فضيلة العلم والأدب كما سبقت الإشارة إليه غير مرّة.

٢٧٣ ـ وقال (عليه السلام)

كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي ٱللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ؛ وَكَانَ أَكْثَرُ دَهْرِهِ صَامِتاً، فَإِنْ قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ؛ وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً! فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ غَابٍ وَصِلُّ وَادٍ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِي قَاضِياً؛ وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ ٱعْتِذَارَهُ؛ وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعاً إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ؛ وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ وَلَا يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ، وَكَانَ إِذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ يَنْظُرُ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى

فَخَالَفَهُ، فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ فَالْزَمُوهَا وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ.

أقول: ذكر هذا الفصل ابن المقفّع في أدبه ونسبه إلى الحسن ابن عليّ عليه‌السلام وبد: غلب ونقع الغليل: سكن العطش. وأدلى بحجّته: أرسلها واحتجّ بها. وبدهه الأمر: أتاه من غير تأهّب له. والمشار إليه قيل: هو أبو ذرّ الغفاري. وقيل: هو عثمان بن مظعون. وقد وصفه باثنتي عشرة فضيلة:

إحديها: أنّه كان يستصغر الدنيا وينظر إليها بعين الاحتقار، وظاهر أنّ ذلك يستلزم عظمه في عيون أهل الله.

الثانية: أنّه كان خارجاً عن سلطان بطنه وهو كناية عن خروجه من أسر شهوته وخلاصه من رذيلة الفجور إلى فضيلة العفة. فكفّ شهوته عما لا يجد يستلزم عدم رذيلة الحرص والحسد ونحوهما، وعدم إكثاره مما يجد يستلزم نزاهته عن رذيلة الشره والنهم ونحوهما.

الثالثة: فضيلة العدل في الكلام والسكوت: أي أنّه ينطق بالحكمة في موضعها. وأمّا غلبة السكوت عليه فلقوّة عقله كما قال عليه‌السلام فيما قبل: إذا تمّ العقل نقص الكلام.

الرابعة: أنّه كان ضعيفاً مستضعفاً: أي فقيراً منظوراً إليه بعين الذلّة والفقر وذلك من لوازم فضيلة التواضع.

الخامسة: فضيلة الشجاعة عند الجدّ في الحرب والغضب لله، وكنّى عن ذلك بقوله: فإذا جاء الجدّ. إلى قوله: واد. واستعار لفظ الليث باعتبار سطوته وعدوانه ولفظ الصلّ باعتبار بأسه ونكايته في العدوّ، والمثل يضرب بحيّة الوادي في الشجاعة ونكاية السمّ.

السادسة: أنّه لا يدلي بحجّته حتى يجد قاضياً وهو من فضيلة العدل في وضع الأشياء مواضعها.

السابعة: كونه لا يلوم أحداً على أمر يحتمل العذر إلّا بعد سماع

الاعتذار فإن كان هناك عذر قبله. وذلك مع لوازم العدل والإنصاف وفضيلة الثبات واحتمال المكروه.

الثامنة: كونه لا يشكو ماينزل به من الأمراض لتسليمه أحكام الله ورضاه بها بل لعله يحكيها بعد برئه على سبيل الإخبار دون الشكاية. وإنّه كان يكتم مرضه كيلا يتكلّف الناس زيارته فيشقّ عليهم ذلك.

التاسعة: كان يطابق بفعله قوله، ويحترز عن الكذب والخلف.

العاشرة: كان يترك المماراة والمجادلة والمغالبة في الأقوال ويعدل إلى السكوت إذا غولب في القول، وذلك من فضيلة الحكمة. لعلمه بمواقع السكوت والكلام، ومن فضيلته. لقهره قوّته الغضبيّة في المغالبة.

الحادية عشر: وكان أحرص على الإسماع منه على الكلام ترجيحاً لجانب الاستفادة على الإفادة، والأوّل أهمّ من الثاني. وذلك من فضيلة الحكمة.

الثانية عشر: وكان إذا خطر بباله أمران دفعة من غير سابقة فكّر في أيّهما أصلح. مثلاً كالتزويج وعدمه فكّر في أيّهما أقرب إلى الهوى وميل الشهوة كالتزويج فخالفه إلى تركه. ولمّا كان غرض الفصل أن يقتدي السامعون بالفضائل المذكورة أمرهم عليه السلام بلزومها والتنافس فيها أو في بعضها إن لم يمكن الكلّ، ورغّب في ذلك بقوله: فاعلموا. إلى آخره. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان خيراً فينبغي لزومه والتنافس فيه.

٢٧٤ ـ وقال (عليه السلام)

لَوْ لَمْ يَتَوَعَّد آللهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَكَانَ يَجِبُ أَنْ لاَ يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ.

لمّا كان شكر النعمة بالاقوال والأفعال المطابقة لها واجباً عقلاً وجب ترك المعصية الذي هو لازم للطاعة الواجبة لأنّ الواجب واجب، ومقتضى الكلمة أنّه لو لم يتوعّد الله على معصيته لكان يجب تركها شكراً له: أي لأجل شكره فكيف وقد توعّد مع ذلك عليها فبالأولى أن يجب تركها.

٢٧٥ ـ وقال (عليه السلام)

وقد عزى الأشعث بن قيس عن ابن له: يَا أَشْعَثُ، إنْ تَحْزَنْ عَلَى ٱبْنِكَ فَقَدِ ٱسْتَحَقَّتْ مِنْكَ ذٰلِكَ الرَّحِمُ؛ وَإنْ تَصْبِرْ فَفِي ٱللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ. يَاأَشْعَثُ، إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ ٱلْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ؛ وَإنْ جَزَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ ٱلْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأزُورٌ [يَا أَشْعَثُ] ٱبْنُكَ سَرَّكَ وَهْوَ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ وَحَزَنَكَ وَهُوَ ثَوَابٌ وَرَحْمَةٌ.

استدرجه عليه السلام أوّلاً بتحسين الحزن وأنّه في موضعه باعتبار أنّ الرحم يستحقّ من ذي رحمه ذلك. ثمّ عقّبه بما يدلّ على قبح الجزع والحزن بأنّ الصبر به أولى وذلك من وجوه:

أحدها: قوله: وإن تصبر. إلى قوله: خلف. وهي متّصلة صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان في الله خلف عنه فالصبر عنه أولى. والنتيجة إن تصبر على مصيبتك فالصبر عليها أولى.

الثاني: قوله: إن صبرت. إلى قوله: وأنت مأجور: أي على صبرك وهو صغرى ضمير أيضاً تقدير كبراه: وكلّ من جرى عليه القدر وهو مأجور على صبره فالصبر به أولى.

الثالث: نفّره عن الجزع بقوله: وإن جزعت: إلى قوله: مأزور: أي على جزعه. وأصله موزور فهمّز لمناسبة القرينة الأولى. وهو ضمير أيضاً تقدير كبراه: وكلّ من جرى عليه القدر فهو مأزور، على جزعه دخل النار.

الرابع: قوله: سرّك وهو بلاء وفتنة. وهو تنفير عن إفراط السرور به. ووجه كونه بلاءاً أنّ الإفراط في محبّته يستلزم رذائل خلقيّة كالجبن عمّا ينبغي من الجهاد خوف مفارقته، وكالبخل خوف فقره ونظراً له في عاقبته، وكالحزن في امراضه وأعراضه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: الولد محزنة مجبنة مبخلة. وكذلك بغضه يستلزم رذيلة العقوق وقطع الرحم وصرف المال عنه في غير وجهه. فبالحري أن يبتلي الله الوالد بولده ويطلب منه الوقوف على حدّ العدل في

حقّه. والواو في قوله: وهو. للحال، وهوصغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فينبغي أن لا يأسف على ما فات من السرور.

الخامسة: قوله: وحزنك. إلى آخره: تنفير عن الحزن عليه بما يلزم تركه من الصبر على المصيبة به من ثواب الله ورحمته وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما هو صبر عن الحزن وهو ثواب ورحمة فينبغي أن يصبر عن الحزن عليه.

٢٧٦ ـ وقال (عليه السلام)

على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساعة دفن: إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إلاَّ عَنْكَ، وَإنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إلاَّ عَلَيْكَ، وَإنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجلِيلٌ، وَإنَّهُ قَبْلَكَ وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ.

الجلل: الأمر الهيّن والأمر العظيم وهو من الأضداد، وإنّما كان الصبر غير جميل في المصيبة به صلى الله عليه وآله وسلم، والجزع عليه غير قبيح لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم أصل الدين والقدوة فيه فالجزع في المصيبة به يستلزم دوام تذكّره المستلزم لدوام ذكر أخلاقه وسننه وسيرته فكان غير قبيح من هذا الوجه، أو لأنّ المصيبة به مصيبة عظيمة وهو أعظم فائت فيستحسن الجزع عليه، وأمّا الصبر فإنّه يؤول إلى سلوانه والغفلة عنه فكان غير جميل من هذا الوجه. وقد تعرّض لفضيلة القبح من بعض الاعتبارات ولرذيلة الحسن من وجه، وظاهر أنّ المصاب به أعظم مصاب بأحد من الناس وأنّ كلّ مصاب بأحد من قبله أو بعده فهو سهل هيّن بالنسبة إليه. وقيل: أراد أنّ المصاب به قبله عظيم على المسلمين لحذرهم منه، وبعده كذلك لاختلال أمرهم وأمر الدين بفقده. والأوّل أظهر.

٢٧٧ ـ وقال (عليه السلام)

لاَ تَصْحَبِ الْمَائِقَ؛ فَإنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ، وَيَوَدُّ أنْ تَكُونَ مِثْلَهُ.

المائق: الأحمق. ونفّر عنه بضمير صغراه قوله: فإنّه. إلى آخره. وذلك لأنّه لحمقه يعتقد كمال نفسه وحسن أفعاله ووجوب الاقتداء بها فهو يزيّنها يحبّ لمن يصحبه أن يكون مثله فيها، ويدعوه إلى ذلك. وتقدير كبراه: وكلّ

من كان كذلك فلا تجوز صحبته.

وقد سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب.

٢٧٨ ـ فقال (عليه السلام)

مَسيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ.

وهو جواب واضح مقنع وغرض الخطابة الإقناع. فأمّا تحقيق ما بينهما باعتبار تعيين مساحة الأرض أو الفلك فأمر يرجع إلى علم الهيئة، ولعلّه عليه السلام إنّما عدل عن الجواب بشيء من ذلك لاستبعاد بعض العوامّ له. ولا نقول: إنّه عليه السلام ما كان يعلم ذلك.

٢٧٩ ـ وقال (عليه السلام)

أَصْدقاؤُكَ ثَلاَثَةٌ: صَدِيقُك، وَصَديقُ صَدِيقك، وَعَدُوّ عَدُوِّكَ. وأعْدَاؤُكَ ثَلاَثَةٌ: عدُوُّكَ، وَعَدُوُّ صَدِيقكَ، وَصَديقُ عَدُوِّكَ.

الحكم بأن صديق الصديق وعدوّ العدوّ صديق من القضايا المظنونة لاحتمال كون الصديق غير عالم بأنّ لصديقه صديقاً وكون العدوّ غير عالم بأنّ لعدوّه عدوّاً فضلاً أن يعاديه أو يصادقه، وكذلك الحكم بأنّ عدوّ الصديق وصديق العدوّ عدوّ للاحتمال المذكور.

٢٨٠ ـ وقال (عليه السلام)

لرجل رآه يسعى على عدو له بما فيه إضرار بنفسه: إنما أنْتَ كَالطَّاعِنِ نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ.

ووجه الشبه قصده لأذى غيره بما يستلزم أذى نفسه.

٢٨١ ـ وقال (عليه السلام)

مَا أَكْثَرَ العِبَرَ وَأَقَلَّ الإعْتِبَارَ!

أراد بالعبر محالّ الاعتبار وهو في معرض التوبيخ للسامعين على ترك الاعتبار.

٢٨٢ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أن يَتَّقِي اللهَ مَنْ خَاصَمَ.

نفّر عن طرفي الإفراط والتفريط في المجادلة والمخاصمة بما يلزم رذيلة الإفراط فيها وهو الظلم من الإثم وطرف التفريط فيها من رذيلة الانظلام، وأشار إلى صعوبة الوقوف فيها على حد العدل بقوله: ولا يستطيع. إلى آخره، وهو كالتنفير عن أصل المخاصمة لما أنّها مظنّة الرذائل.

٢٨٣ ـ وقال (عليه السلام)

مَا أَهَمَّنِي ذَنْبٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ حَتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ.

أي لم أحزن من ذنب أمهلني الله بعده إلى أن أصلّي ركعتين وذلك لأنّ الصلاة تكفّر الذنب فإذا أمهل إلى أن يصلّيها لم يحزن بسببه.

٢٨٤ ـ وسئل (عليه السلام)

كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ فقال عليه السلام: كَمَا يَرْزُقُهُم عَلَى كَثْرَتِهِمْ، فقيل: كيف يحاسبهم ولا يرونه؟ فقال عليه السلام: كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلاَ يَرَوْنَهُ.

شبّه كيفيّة محاسبته تعالى للخلق على كثرتهم بكيفيّة رزقه لهم على كثرتهم وجعل هذا أصلاً في التشبيه لظهوره، وعلم السائل به. وكذلك تشبيه كيفيّة محاسبته لهم مع عدم رؤيتهم له بكيفيّة رزقه لهم من غير رؤية. ووجه الشبه في الموضعين إمكان ذلك منه تعالى لشمول قدرته وعدم حاجته في شيء إلى شيء.

٢٨٥ ـ وقال (عليه السلام)

رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ!

استعار للرسول لفظ الترجمان للعقل باعتبار أنه ينبىء عنه، وأمّا أنّ الكتاب أبلغ من ينطق عن صاحبه فلضبط مراده فيه دون لسان الرسول لأنّه ربّما لم يؤدّ الرسالة على وجهها سهواً أو لغرض فيقع الخلل بسبب ذلك حتى ربّما كان فيها هلاك المرسل.

٢٨٦ ـ وقال (عليه السلام)

مَا الْمُبْتَلى الَّذِي قَدِ اشْتَدَّ بِهِ البَلاَءُ بأحوَجَ إِلى الدُّعَاءِ مِنَ المُعَافَى الَّذي لا يأمَنُ البَلاَءَ!

أي أنهما سواء في الحاجة إلى دعاء الله فذاك لحاجته إلى الخلاص من بلائه وهذا لبقاء عافيته وأمنه من لحوق البلاء. وهو حث لأهل العافية على دعاء الله لغرض الالتفات اليه ودوام قصده.

٢٨٧ ـ وقال (عليه السلام)

النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيا، وَلاَ يُلاَمُ الرَّجُلُ عَلى حُبِّ أُمِّهِ.

وهو توبيخ للناس على حبّ الدنيا. ولفظ الأبناء مستعار لهم باعتبار تولّدهم منها وميلهم إليها بالطبع.

وقوله: ولا يلام. إلى آخره.

لوم لهم. وهذا كما تقول لمن توبّخه مثلاً على اللؤم: إنّ طبيعتك اللؤم ولا لوم عليك فيما جبلت عليه.

٢٨٨ ـ وقال (عليه السلام)

إنَّ الْمِسْكِينَ رَسُولُ آلله فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ آلله، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى آلله.

رغّب في إعطاء المسكين بضمير صغراه ما ذكر، واستعار له لفظ رسول الله باعتبار أنّه طالب لله وبأمر الله. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فيجب إعطاؤه وإرضاؤه.

٢٨٩ ـ وقال (عليه السلام)

ما زَنَى غَيُورٌ قَطُّ.

أي البتّه. وذلك أنّ الغيور الحق إذا همّ بالزنا تخيّل مثل ذلك في نفسه من الغير فيعارض خياله داعيه فيحجم عنه.

٢٩٠ ـ وقال (عليه السلام)

كَفَى بَالأَجَلِ حَارِساً.

استعار له لفظ الحارس باعتبار أنّ الإنسان لا يهلك ما دام أجله كالحارس.

٢٩١ ـ وقال (عليه السلام)

يَنَامُ الرَّجُلَ عَلَى الثُّكْلِ وَلاَ يَنَامُ عَلَى الْحَرَبِ!!

قال الرضى: ومعنى ذلك أنه يصبر على قتل الأولاد ولا يصبر على سلب الأموال.

وأقول: الحرب: سلب الأموال. وإنّما كان كذلك وإن كان المال والولد محبوبين للطمع في استخلاص المال بالنهوض له والحرب عنه؛ دون الثكل.

٢٩٢ ـ وقال (عليه السلام)

مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الْأَبْنَاءِ وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ.

استعار لفظ القرابة للمودّة المتأكّدة بين الأبناء فهي كالقرابة، وأخبر بها عن مودّة الآباء إخباراً باللازم عن ملزومه. إذ كانت صداقة الآباء والمودّة بينهم يستلزم تأكّدها بين الأبناء وشدّة اتّصالهم. ثمّ أشار إلى تفضيل المودّة على القرابة بكون القرابة أكثر حاجة إلى المودّة في الانتفاع بها بين الخلق

والمودّة أكثر استغناء عن القرابة في الانتفاع بها.

٢٩٣ ـ وقال (عليه السلام)

إِتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

المؤمن لا يكاد يخطأ لصفاء نفسه وكمال استعدادها للفكر الصحيح القريب من الحدس والانتقاش بنور الحق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: اتّقوا فراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله. فيفيض الله سبحانه صورة ذلك الحقّ على لسانه فينطق به.

وقوله: فإنّه. إلى آخره.

صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يتّقى ظنّه. وهو تنبيه لمن عساه ينوي شرّاً للرجوع عنه خوف ظنون المؤمنين.

٢٩٤ ـ وقال (عليه السلام)

لَا يَصْدُقُ إيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ.

صدق الإيمان بالشيء يقينه وكماله. ومن كماله حسن الرجاء لله والتوكّل عليه حتى يكون أوثق بما في يد الله منه بما في يده. وذلك لتيقّن وصول رزقه من الله وجزمه بذلك الاقوى من جزمه ووثوقه بما في يده لجواز تلفه وعدم ثباته. وهي مرتبة عالية من مراتب التوكّل.

٢٩٥ ـ وقال (عليه السلام)

لأنس بن مالك، وقد كان بعثه إلى طلحة والزبير لما جاء إلى البصرة يذكرهما شيئا ممّا سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معناهما، فلوى عن ذلك، فرجع إليه، فقال إنّي أُنْسِيتُ ذٰلِكَ الْأَمْرَ فقال عليه السلام: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَضَرَبَكَ اللهُ بِهَا بَيْضَاءَ لامِعَةً لَا تُوَارِيهَا الْعِمَامَةُ.

قال الرضي: يعني البرص، فأصاب أنساً هذا الداء فيما بعد في وجهه فكان لا يرى إلى مبرقعا.

أقول: ما كان بعثه إليهما ليذكّرهما به هو ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لطلحة والزبير: إنّكما ستقاتلان عليّاً وأنتما له ظالمان. فلمّا بعثه لقى من صرفه ولوى رأيه عن ذلك فرجع. فدعا عليه واستجيبت دعوته. وبيضاء في محلّ الجرّ بدلاً من الضمير في بها.

٢٩٦ ـ وقال (عليه السلام)

إنَّ لِلْقُلُوبِ إقْبَالاً وَإِدْبَاراً: فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ.

وقد مر معنى إقبالها وإدبارها. وخصّ إقبالها بالنوافل لاتّساعها فيه لها وللفرائض دون الإدبار.

٢٩٧ ـ وقال (عليه السلام)

وَفِي الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَابَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ.

فنبأ ما قبلهم أخبار القرون الماضية، وخبر ما بعدهم ذكر أحوال الموت والقيامة والوعد والوعيد، وحكم ما بينهم بيان الأحكام الخمسة المتعلّقة بأفعالهم. وهو في معرض مدح القرآن والحثّ على قراءته وفهمه.

٢٩٨ ـ وقال (عليه السلام)

رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ؛ فَإِنَّ الشَّرَّ لَا يَدْفَعُهُ إلَّا الشَّرُّ.

فالحجر كناية عن الشرّ. وردّه من حيث جاء كناية عن مقابلة الشرّ بمثله. ورغّب في ذلك بضمير صغراه: قوله: فإنّ الشرّ: إلى آخره، وتقدير الكبرى: وكلّ ما لا يقطع إلّا بالشرّ فواجب أن يقطع به. وليس هذا أمراً عامّا. لأمره عليه السلام بالحلم في مواضع كثيرة.

٢٩٩ ـ وقال (عليه السلام)

لكاتبه عبيد الله ابن أبي رافع: أَلِقْ دَوَاتَكَ، وَأَطِلْ جِلْفَةَ قَلَمِكَ، وَفَرِّجْ

بَيْنَ السُّطُورِ، وَقَرْمِطْ بَيْنَ الْحُرُوفِ فَإِنَّ ذٰلِكَ أَجْدَرُ بِصَبَاحَةِ الْخَطِّ.

كان أبو رافع مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وألقت الدواة ولقتها: أصلحتها بالمداد. وجلفة القلم: سنانه. والقرمطة بين الحروف: تقريب بعضها من بعض. والصباحة: الحسن. وفائدة القيد الأوّل ظاهرة، وفائدة الثاني: أنّ الجلفة الطويلة تقبل مداداً أكثر فيستمرّ القلم في كتابة كلمات كثيرة على نهج واحد من غير تقطيع بين المدّات بخلاف الجلفة القصيرة فإنّ مدادها أقلّ والمقاطع بين مدّاتها أكثر فيكثر التفاوت بين الكلمات في أواخر كلّ مدّة وأوّل الأخرى بعدها، وفائدة الثالث: ظهور الفصل بين السطور وتمييز بعضها عن بعض، وفائدة الرابع: كون الكلمة حسن الهيئة والحسن لها أقرب قسطا، ولعلّ بعض هذه القيود أو كلّها شرط في حسن جنس ليس بشرط في حسن بعض أجناس الخطّ المحدثة بعده. ورغّب في ذلك بقوله: فإنّ ذلك: أي فإنّ هذه الشرائط وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان أولى بصباحة الخطّ ففعله أولى.

٣٠٠ ـ وقال (عليه السلام)

أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَعْسُوبُ الْفُجَّارِ. قال الرضي: ومعنى ذلك أن المؤمنين يتبعونني والفجار يتبعون المال كما تتبع النحل يعسوبها، وهو رئيسها.

أقول: استعار لنفسه لفظ اليعسوب، ووجه المشابهة ما ذكره السيّد ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقال له بعض اليهود: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه؟

٣٠١ ـ فقال (عليه السلام)

إِنَّمَا اخْتَلَفْنَا عَنْهُ لاَ فِيهِ، وَلٰكِنَّكُمْ مَا جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: (اِجْعَلْ لَنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ فَقَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ).

أراد أنّا لم نختلف في نبوّته ولم نشكّ في ذلك وإنّما وقع خلافنا عنه: أي بسبب اشتباه بعض ما جاء عنه من كتاب وسنّة على من لا يعلم ذلك منّا، وأما أنتم فقد اختلفتم في أنّ لكم صانعاً أم لا حتى قلتم لنبيّكم: اجعل لنا إلهاً. وذلك يستلزم الشكّ منكم في نبوّة نبيّكم بالأولى.

٣٠٢ ـ وقيل له (عليه السلام)

بأي شيء غلبت الأقران؟ فقال عليه السلام: مَا لَقِيتُ رَجُلاً إلاَّ أعانَني عَلَى نَفْسِهِ.

قال الرضي: يومىء بذلك إلى تمكن هيبته في القلوب.

أراد أنّ سابق هيبته، وتخيّل الأقران ما جرت به عادته من الظفر بأمثالهم وقتلهم يوجب لنفوسهم انفعالات وضعفاً عن مقاومته. وذلك ممّا يعينه عليهم.

٣٠٣ ـ وقال (عليه السلام)

لابنه محمد بن الحنفية: يَا بُنَيَّ، إنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ الْفَقْرِ فَاسْتَعِذْ بِآللهِ مِنْهُ فَإنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ.

أمره بالاستعاذة من الفقر لما فيه من المكاره الثلاثة: أمّا كونه منقصة للدين فللاشتغال بهمّه وتحصيل قوام البدن عن العبادة، وكونه مدهشة للعقل: أي محلّ دهشة العقل وحيرته وضيق الصدر به ظاهر، وكذلك كونه داعية مقت الخلق لصاحبه. ورغّب في الاستعاذة منه بضمير صغراه، قوله: فإنّ الفقر. إلى آخره، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فيجب الاستعاذة بالله منه.

٣٠٤ ـ وقال (عليه السلام)

لسائل سأله عن معضلة: سَلْ تَفَقُّهاً، وَلاَ تَسْأَلْ تَعَنُّتاً؛ فَإنَّ الْجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالعَالَمِ، وَإنَّ العَالِمَ الْمُتَعَسِّفَ شَبِيهٌ بِالجَاهِلِ الْمُتَعَنِّتِ.

المعضلة: المسألة المشكلة. والتعنّت: طلب الأمر الشاقّ على من يطلب منه. والتعسّف: الأخذ على غير الطريق. وقد كان عليه السلام فهم من السائل أنّ غرضه الامتحان فأعرض عن جوابه إلى تأديبه وإرشاده إلى ما ينبغي من وضع السؤال وغرضه وهو التفقّه دون التعنّت لحصول الفائدة بالسؤال الأول. وتفقّهاً وتعنّتاً مفعولان له أو مصدران سدّا مسدّ الحال؛ ورغّب في السؤال على وجه التعلّم بضمير صغراه قوله: فإنّ الجاهل المتعلّم شبيه بالعالم، ووجه الشبه اشتراكهما في طلب العلم وقصده. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان شبيهاً بالعالم فينبغي أن يسلك مسلكه. ثمّ نفّر عن سلوك غير طريق الحقّ في السؤال والعدول به إلى غير المقصود الأصلّي بضمير ثان صغراه قوله: فإنّ العالم. إلى قوله: بالجهل، ووجه الشبه كون ذلك العالم يضع سؤاله في غير موضعه ويطلب ما لا ينبغي كالجاهل بوضع الأسئلة ومواقعها، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان شبيهاً بالجاهل فينبغي أن يجتنب طريقه ليخلص من هذا الشبه.

٣٠٥ ـ وقال (عليه السلام)

لعبد الله بن العباس، وقد أشار عليه في شيء لم يوافق رأيه: لَكَ أنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى؛ فَإنْ عَصَيْتُكَ فَأطِعْنِي.

روي أنّه أشار عليه عند انصرافه من مكّة حاجّاً وقد بايعه الناس، وقال: يا أمير المؤمنين إنّ هذا أمر عظيم يخاف غوائل الناس فيه. فاكتب لطلحة بولاية البصرة وللزبير بولاية الكوفة واكتب الى معاوية وذكّره القرابة والصلة وأقرّه على ولاية الشام حتى يبايعك فإن بايعك وجرى على سنّتك وطاعة الله فاتركه على حاله وإن خالفك فادعه إلى المدينة وأبدله بغيره، ولا تموج بحار الفتنة. فقال عليه السلام: معاذ الله أن أفسد ديني بدنيا غيري، ولك يا ابن عباس أن تشير، وأرى. وحذف مفعول أرى للعلم به: أي أنظر في وجه المصلحة. وأوجب طاعة نفسه لأنه الإمام ولأنّه أفضل رأياً فإذا رأى المصلحة في شيء فرأيه أرجح.

٣٠٦ - وروي أنه (عليه السلام)

لما ورد الكوفة قادما من صفين مر بالشباميين فسمع بكاء النساء على قتلى صفين وخرج إليه حرب بن شرحبيل الشبامي وكان من وجوه قومه فقال عليه السلام له: أَتَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ؟ أَلاَ تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذا الرَّنِينِ، وأقبل يمشي معه وهو عليه السلام راكب فقال له: إِرْجَعْ فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ.

شبام بكسر الشين: حيّ من العرب. وقادماً حال، والاستفهام للإنكار دخل على النفي، وقد علمت ما في الجزع من الرذيلة فلذلك نهى عنه، ولأنّه يجبن الرجل ويثبّطهم عن الحرب وهو في محلّ الحاجة، ونفّره عن المشي معه بضمير صغراه قوله: فإنّ مشى مثلك. إلى آخره، وتقدير الكبرى: وكلّما كان فتنة ومذلّة وجب تركه.

٣٠٧ - وقال (عليه السلام)

وقد مر بقتلى الخوارج يوم النهروان: بُؤْساً لَكُمْ لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ، فقيل له: من غرهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ وَالأَنْفُسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، غَرَّتْهُمْ بِالأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ بِالْمَعَاصِي، وَوَعَدَتْهُمُ الإِظْهَارَ فَاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ.

البؤس: الشدّة. ويفهم من تفسيره لمن ضرّهم وغرّهم بالشيطان المضلّ والأنفس الأمّارة بالسوء أنّ الشيطان قد يراد به النفس الأمّارة. وإنّ العطف إنّما يقتضي التغاير في العبارة. والأماني التي غرّتهم بها هي أماني الغلبة والقهر، وفسحها لهم في المعاصي ترخيصها لهم وتوسيعها وتزيينها، وكذلك ما وعدتهم به من إظهارها لهم على من غالبهم. وظاهر أنّ ذلك مستلزم لدخول النار. ولفظ الاقتحام مستعار لسرعة إدخالها لهم النار.

٣٠٨ ـ وقال (عليه السلام)

إِتَّقُوا مَعَاصِيَ الله فِي الخَلَوَاتِ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الحَاكِمُ.

أمر بالخشية من معاصي الله ونفّر عنها بضمير صغراه قوله: فإنّ الشاهد هو الحاكم. وتقدير كبراه: وكلّ من كان الشاهد عليه هو حاكمه وجب عليه أن يتّقيه.

٣٠٩ ـ وقال (عليه السلام)

لما بلغه قتل محمد ابن أبي بكر: إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً وَنَقَصْنَا حَبِيباً.

قد بيّنا فيما سلف مكانه منه عليه السلام.

وقوله: فإنّ حزننا عليه على قدر سرورهم به.

أي بفقده. أراد أنّه يناسبه في الشدّة، وأشار إلى الفرق بين اعتبار نقصانه منهم ونقصانه منه وذلك في معرض التألم لفقده.

٣١٠ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْعُمْرُ الَّذِي أَعْذَرَ ٱلله فِيهِ إِلَى ٱبْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً.

أعذر إليه: أتاه بالعذر، وإعذار الله إليه: إمهاله إيّاه المدّة المذكورة التي هي مظنّة تحصيل الزاد ليوم المعاد فإنّ ما بعد الستّين يضعف فيه القوى النفسانيّة والبدنيّة وتكلّ عن العمل فمن قصّر إلى تلك الغاية فقد توجّه اللوم عليه وانقطعت حجّته بالإعذار إليه.

٣١١ ـ وقال (عليه السلام)

مَا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ ٱلإِثْمُ بِهِ، وَٱلْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ.

وهو تنفير عن الظلم والبغي وذلك أنّ الظافر الحقّ هو من قهر خصمه على وجه العدل فمن لا يكون كذلك يلزمه الظلم ويقهره عند الله الإثم فيكون

مغلوباً بظلمه وهو في صورة غالب، واستعار وصف الظفر لأسره في ربقة الإثم وإحاطته به.

٣١٢ - وقال (عليه السلام)

إنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ ٱلْأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ: فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَٱللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ.

أراد بذلك الفرض الزكاة، وظاهر أنّ جوع الفقير إنّما يكون بما يمنعه الغنيّ من القوت أو ما هو وسيلة إليه. ورهّب الأغنياء بقوله: والله سائلهم عن ذلك. وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من سائله الله فينبغي أن يحذر سؤاله.

٣١٣ - وقال (عليه السلام)

أَلِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعُذْرِ أَعَزُّ مِنَ الصِّدْقِ بِهِ.

أراد أنّ ترك ما يحتاج فيه إلى العذر فيستغنى بتركه عن العذر أعزّ عليك وأنفع لك من أن تأتيه ويكون لك فيه عذر صادق، ويحتمل أن يريد بقوله: أعزّ: أي أكثر عزّة لك. إذ الإتيان بالعذر يحتاج إلى ذلّة ومهانة.

٣١٤ - وقال (عليه السلام)

أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لله أَنْ لاَ تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

وذلك أنّ العدل أن تستعينوا بنعمته على طاعته فإن لم تفعل ذلك فلا أقلّ من أن تستعمل في الأمور المباحة، دون الاستعانة بها على معصيته فإنّ ذلك ممّا يعد لسخطه.

٣١٥ - وقال (عليه السلام)

إنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ ٱلْأَكْيَاسِ عِنْدَ تَفْرِيطِ الْعَجَزَةِ.

طاعته تعالى غنيمة الأكياس باعتبار استلزامها للنعيم المقيم في الآخرة

وسبب الغنيمة غنيمة، والأكياس هم الذين استعملوا فطنهم وحركاتهم في تحصيل ما ينبغي من علم وعمل، وخصّهم الله سبحانه بهذه الغنيمة عند تفريط العجزة وهم المقصّرون عمّا ينبغي لهم. وهو في معرض ذمّهم على التقصير البالغ المشبه للعجز.

٣١٦ ـ وقال (عليه السلام)

أَلسُّلْطَانُ وَزَعَةُ ٱللهِ فِي أَرْضِهِ.

الوزعة: الوازع وهو الرادع المانع: أي أنّ الله تعالى وضعه في أرضه ليمنع به ما يريد منعه. وأراد السلطان العادل.

٣١٧ ـ وقال (عليه السلام)

في صفة المؤمن: أَلْمُؤْمِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً، يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ، طَوِيلٌ غَمُّهُ، بَعِيدٌ هَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ، مَشْغُولٌ وَقْتُهُ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ. ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ الخَلِيقَةِ، لَيِّنُ العَرِيكَةِ! نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ العَبْدِ.

يشنأ: يبغض. وذكر له في معرض التعريف والمدح ستّة عشر وصفاً:

أحدها: أنّ بشره في وجهه. وذلك من تمام فضيلة التواضع ولين الجانب.

الثاني: وحزنه في قلبه. وذلك من خشية الله ونظره إلى ما عساه فرّط في جنب الله.

الثالث: أوسع صدراً. وقد علمت أنّ سعة الصدر فضيلة للقوّة الغضبيّة، وقد يعبّر عنها برحب الذراع. أراد أنّه مستكمل لهذه الفضيلة.

الرابع: وأذلّ شيء نفساً: أي لتواضعه لله ونظر نفسه إلى محلّها ومقدارها من الحاجة إلى الله. وصدراً ونفساً تمييزان.

الخامس: كراهيّته للرفعة. لأنّها مبدأ الرذائل كالعجب والكبر، وكذلك

بغضه للسمعة احتراز من تلك الرذائل.

السادس: طول غمّه. لنظره دائماً إلى ما بين يديه من الموت وما بعده.

السابع: وبحسب ذلك كان بعد همّته وعلوّها عن دنايا الدنيا ونظره إلى المطلوب الأكمل من السعادة الأخرويّة الباقية.

الثامن: كثير صمته. وذلك لكمال عقله فهو لا ينطق إلاّ بما يحتاج إليه ممّا فيه حكمة وصلاح.

التاسع: قد شغل وقته: أي بعبادة ربّه.

العاشر: كونه شكوراً: أي كثير الشكر لله.

الحادي عشر: صبور: أي على بلاء الله

الثاني عشر: مغمور بفكرته في ملكوت السماوات والأرض واستنباط آيات الله وعبره منها.

الثالث عشر: ضنين بخلّته. لترصّده مواقع الخلّة وأهلها الذين هم إخوان الصدق في الله وهم قليلون فلا يضعها كيف اتّفق ومع كلّ من طلب مودّته وخلّته، ويحتمل أن يريد أنّه إذا خالّ أحداً ضنّ بخلّته أن يضيّعها أو يهمل خليله. وروي بفتح الخاء. والخلّة: الحاجة: أي إذا عرضت له حاجة ضنّ بها أن يسأل أحداً فيها.

الرابع عشر: سهل الخليقة: أي لا جفاوة في طباعه ولا خشونة.

الخامس عشر: ليّن العريكة. وهو كناية عن سهولة تناول ما يراد منه. وأصله الجلد من الأديم يكون ليّناً عند العرك من الدباغ، سهلاً على دابغه.

السادس عشر: نفسه أصلب من الصلد بشجاعته وثباته في طاعة الله، وهو أذلّ من العبد لتواضعه ومعرفته بقدره عند قدرة باريه. والواو للحال.

٣١٨ ـ وقال (عليه السلام)

لَوْ رَأَى ٱلْعَبْدُ ٱلأَجَلَ وَمَصِيرَهُ لأَبْغَضَ ٱلأَمَلَ وَغُرُورَهُ.

استعـار لفظ المسير لـلأجل وهـو زمان الحيـاة بـاعتبـار تقضّي أجـزائـه وانتهائه بفنائها كمـا يقطع السـائر أجزاء المسافـة وينتهي الى غايتـه بفنائهـا، ويحتمل أن يريد بالاجل غايـة الحياة، واستعـار لفظ المسير لـدنوّهـا المعقول منه، وأراد أنّه لو كان الأجل بصورة سائر محسوس فشاهـد العبدُ سيره به الى الموت، وعلم غايته لقطع آماله الدنيوية ولم يغترر بها.

٣١٩ ـ وقال (عليه السلام)

لِكُلِّ آمْرِىءٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: الْوَارِثُ، وَالْحَوَادِثُ.

نفّر عن ادّخار المال بذكر الشريكين المكروهين.

٣٢٠ ـ وقال (عليه السلام)

الدَّاعِي بِلاَ عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلاَ وَتَرٍ.

ووجه الشبه عدم إمكان الانتفـاع. ونحوه قـول الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم: أحمق الناس من ترك العمل وتمنّى على الله.

٣٢١ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْعِلْمُ عِلْمَـانِ: مَـطْبُـوعٌ وَمَسْمُـوعٌ، وَلاَ يَنْفَـعُ الْمَسْمُـوعُ إذَا لَـمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ.

أراد بالمطبوع العقل بالملكة وهو الاستعداد بالعلوم الضروريّة للانتقـال منهـا إلى العلوم المكتسبة والمسمـوعة من العلمـاء فإنّ من لا يكـون له ذلـك الاستعداد لا ينتفع بما يسمعه من العلوم ولا يتمكّن من اكتسـابه. وقيـل: أراد بالمطبوع ما يعلم من الأصول بطبيعـة العقل كـالتوحيـد والعدل، وبـالمسموع العلوم الشرعيّة التي هي فرع العقليّة. إذ لا ينتفع بفرع من دون أصله.

٣٢٢ ـ وقال (عليه السلام)

صَوَابُ الرَّأْيِ بِالدُّوَلِ: يُقْبِلُ بِإقْبَالِهَا، وَيَذْهَبُ بِذَهَابِهَا.

أي أنّ الدولة مستلزمة لصواب الرأي. إذ كان من تمام السعادة المقتضية للدولة أن يلزمها رأي صواب يكون به تدبيرها. وتلك السعادة والدولة معدّة لاختيار أصلح الآراء وقائدة إليه فهو يقبل بإقبالها لإعدادها له وعند ذهابها يذهب الرأي الصواب وإن عدّ في الظاهر صواباً.

٣٢٣ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى.

العفّة: فضيلة القوّة الشهويّة. وظاهر كونها زينة للإنسان وهي مع الفقر أجمل فإنّها تفيد الفقير بهاءاً محبّة في قلوب الخلق ويكسبه المدح والثناء منهم ويظهر أثرها عليه بسرعة. وإن فقدها الفقير خسر الدنيا والآخرة، وكذلك الشكر من فضائل القوّة الشهويّة أيضاً وقبيح بالغنيّ مقابلة نعم الله بالكفران. فزينة غناه وتمامه إذن شكره له.

٣٢٤ ـ وقال (عليه السلام)

يَوْمُ الْعَدْل عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَومِ الْجَوْرِ عَلَى الْمَظْلُومِ!

فيوم العدل يوم القيامة، ويوم الجور وقت الظلم. وقد مرّ بيانه.

٣٢٥ ـ وقال (عليه السلام)

أَلأَقَاوِيلُ مَحْفُوظَةٌ، وَالسَّرائِرُ مَبْلُوَّةٌ و (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)، وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إلاَّ مَنْ عَصَمَ آللهُ: سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الْكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ! مَعَاشِرَ النَّاسِ، آتَّقُوا آللهَ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مَا لاَ يَبْلُغُهُ، وَبَانٍ مَا لاَ يَسْكُنُهُ، وَجَامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ، ولَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ: أَصَابَهُ حَرَاماً، وَآحْتَمَلَ بِهِ آثَاماً، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ، وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ آسِفاً لاَهِفاً، قَدْ (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

مدخول ومدخل: أي في عقله دخل وعلّة. وتنكؤه: أي تؤثر فيه. وتستحيله: تغيّره. وباء بثقله: رجع به وحصل عليه. واللاهف: المتحسّر.

والفصل في معرض الوعظ فنبّه السامعين أوّلاً على أنّ أقوالهم محفوظة وسرائرهم مختبرة بما كلّفوا به من طاعة الله. والسرائر ما أضمر في القلوب من العقائد والنيّات وغيرها. وعن معاذ بن جبل قال: سألت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى: ﴿**يوم تبلى السرائر**﴾[1] ما هذه السرائر التي تبلى يوم القيامة؟ فقال: سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكلّ مفروض لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفيّة فإن شاء قال: صلّيت ولم يصلّ، وإن شاء قال: توضّأت ولم يتوضّأ. واستعار لفظ الرهينة للنفس باعتبار وثوقها في الأسر بما كسبت من الشرّ كما يوثق الرهن بما عليه من مال. واللفظ من القرآن المجيد. وغرض ذلك التنبيه على العدل في القول وإضمار الخير واكتساب الأعمال الصالحة.

ثمّ نبّه على ما فيهم من النقصان الطبيعي المحتاج إلى التكميل المكتسب ووصف سائلهم بأنّ سؤاله خارج عمّا ينبغي لأنّ غرضه به الامتحان دون العلم، ومجيبهم بالتكلّف في جوابه لقلّة علمه، وأفضلهم رأياً بأنّه يكاد أن يردّه عن فضل رأيه ما يعرض له من أمر يرضى به أو يسخط له ويرجع عنه وإن كان يشاهد فيه المصلحة، وأصلبهم عوداً: أي أشدهم في الله وأقواهم في طاعته يؤثّر فيه اللحظة: أي ممّن ينظر اليه نظر الهيبة وتستحيله الكلمة الواحدة منه فتغيّره عن الحقّ. ويجوز أن يريد اللحظة والكلمة ممّن يستهويه للدنيا ولذّاتها. ثمّ أمرهم بتقوى الله ونفّر عن تقبيح الأمل جذباً إلى التقوى بذكر كثرة من يؤمّل ما لا يبلغه ويبني ما لا يسكنه ويجمع ما لا بدّ من تركه مع احتمال أن يكون من باطل جمعه ومن حقّ منعه أهله فأصابه حراماً وحمل ثقل وزره وقدم به على ربّه حزيناً متحسّراً على ما فرّط في جنبه قد خسر الدنيا بموته والآخرة بتفريطه في اكتساب خيرها وذلك هو الخسران المبين.

---

(١) ٨٦ - ٩.

٣٢٦ ـ وقال (عليه السلام)

مِنَ الْعِصْمَةِ تَعَذُّرُ المَعَاصِي.

أي من أسباب العصمة، وذلك أنّ الإنسان يتعوّد بتركها حين لا يجدها حتى يصير ذلك ملكة له وهي المراد بالعصمة.

٣٢٧ ـ وقال (عليه السلام)

مَاءُ وَجْهِكَ جَامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤَالُ، فَانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ.

استعار لفظ ماء الوجه للحياء ونوره على الوجه الذي يذهب من وجه السائل بسؤاله، ورشّح بذكر الجمود والتقطير. ويحتمل أن يكون كناية عمّا يعرض من العرق عند خجل السائل بسؤاله واستحيائه. وغرض الكلمة وضع السؤال موضعه من أهل المروّة والبيوتات، وروي: وجهك ماء جامد. فيكون استعارة للماء في الوجه باعتبار بذله فكأنه ذاب وقطر كالماء الجامد.

٣٢٨ ـ وقال (عليه السلام)

أَلثَّنَاءُ بِأَكْثَرَ مِنَ الإِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الاسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ.

فالملق: هو التلطّف الشديد بالقول والإفراط في المدح. ونفّر عن طرفي الإفراط والتفريط في الثناء فالإفراط بما يلزمه من رذيلة الملق، والتفريط بما يلزمه من العيّ عن المدح أو الحسد بالفضيلة الممدوح عليها.

٣٢٩ ـ وقال (عليه السلام)

أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا آسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ.

وذلك أنّ استهانته به يستلزم انهماكه فيه واستكثاره منه وعدم إقلاعه عنه حتى يصير ملكة بخلاف ما يستصعبه من الذنوب.

٣٣٠ ـ (وقال عليه السلام: أربع عشر كلمة:

مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ؛ وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ ٱللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ؛ وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ؛ وَمَنْ كَابَدَ ٱلْأُمُورَ عَطِبَ؛ وَمَنْ اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ؛ وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ؛ وَمَنْ كَثُرَ كَلاَمُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ؛ وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ؛ وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ؛ وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ؛ وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ؛ وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذٰلِكَ ٱلْأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ؛ وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ؛ وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلاَمَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلاَمُهُ إلاَّ فِيمَا يَعْنِيهِ.

أحدها: من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره. لأنّه إنّما يذكر عيب الغير غالباً في معرض الافتخار عليه بالبراءة من ذلك العيب فإذا نظر إلى مثله من نفسه شغله اعتبار ذلك النقصان فيها عن الاشتغال بنقصان غيره والنظر فيه.

الثانية: ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاته. وذلك أنّ الحزن على ما فات مستلزم لعدم القناعة والرضى بالحاصل من الرزق فعدم ذلك اللازم مستلزم لعدم ملزومه وهو الحزن على الفائت

الثالثة: ومن سلّ سيف البغي قتل به. وهو كناية عن الظلم، وظاهر أنّ الظلم سبب لهلاك الظالم. وقد سبق بيانه مراراً.

الرابعة: ومن كابد الأمور عطب: أي من قاساها بنفسه استعدّ بها للهلاك.

الخامسة: ومن اقتحم اللجج غرق. استعار لفظ اللجج للأمور العظام كالحروب وتدبير الدول، ولفظ الغرق للهلاك.

السادسة: ومن دخل مداخل السوء اتّهم. لأنّها مظنّة التهمة ودخولها من الأمارات الموجبة للظنّ كمعاشرة الفسّاق ونحوه.

السابعة: ومن كثر كلامه كثرخطؤه. لأنه قد مرَّ أن كمال العقل مستلزم

لقلة الكلام فيكون كثرة الكلام مستلزماً لنقصان العقل المستلزم لكثرة الخطأ والقول من غير تروّ وتثبّت.

الثامنة: ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه لأنّك علمت أنّ الحياء هو أن يحسّن الارتداع عن الأمور التي يقبح تعاطيها والإقدام عليها لملاحظته ما ينتج من ارتكابها من قبح الأحدوثة. والإقدام على الخطأ بكثرة الكلام ينافي الارتداع عن تلك الأمور وهو من جملتها.

التاسعة: ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه. لأنّ الورع هو لزوم الأعمال الجميلة والوقوف على حدودها دون الرذائل. والحياء منها. فقلّة الحياء مستلزم لقلّة الورع. وربّما فسّر الورع بالوقوف عن المحارم، وظاهر أنّ قلّة الحياء أيضاً مظنّة للإقدام على المحارم فكانت مظنّة لقلّة الورع فأقام الشيء مقام مظنّة الشيء وحكم به.

العاشرة: ومن قلّ ورعه مات قلبه: أي لمّا كانت الفضيلة هي حياة القلب استعار لعدمها أو قلّتها فيه لفظ الموت باعتبار عدم انتفاعه بها كخروج الميّت عن الانتفاع بالحياة.

الحادية عشر: ومن مات قلبه دخل النار. لأنّ المزحزح له عنها إلى الجنّة هو استكماله بالفضيلة فإذا فقدها فالنار موعده، والكلام في صورة قياس مفصول نتيجته أنّ من كثر كلامه دخل النار. وهو تنفير عن كثرة الكلام.

الثانية عشر: ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثمّ رضيهالنفسه فذلك الأحمق بعينه. ووجه الحمق أنّ كونه منكراً لها من غيره يستلزم كون الرأي الحقّ أن لا يفعلها، ورضاه بها لنفسه مخالفة للرأي الحقّ له وخروج عن المصلحة لنفسه وذلك حمق ونقصان ظاهر في العقل. والألف واللام في الحمق يفيد حصره في المشاركة إليه، ولذلك أكّده بعينه.

الثالثة عشر: ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير. لأنّ الغرض من طلب الكثير منها الاستمتاع والالتذاذ به وذكر الموت كاسر لذلك الالتذاذ مبغّض له.

الرابعة عشر: ومن علم أنّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه.

وذلك أنّ العالم بذلك يرتّب قياساً هكذا: الكلام عمل، والأعمال مؤاخذ على ما لا يعني منها. فينتج أنّ الكلام مؤاخذ على ما لا يعني منه. وذلك موجب للاقتصار على ما يعني منه.

٣٣١ ـ وقال (عليه السلام)

لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلاَثُ عَلاَمَاتٍ: يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ دونهُ بِالْغَلَبَةِ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ.

فظلمه لمن فوقه عصيان الله وتعدّيه لحدوده العادلة. والثانية مستلزمة للأولى والثالثة مستلزمة للأوليين.

٣٣٢ ـ وقال (عليه السلام)

عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ الْبَلاَءِ يَكُونُ الرَّجَاءُ.

تناهي الشدَّة مستلزم للخلاص منها وهو المراد بالفرج وكذلك تضايق الحلق وهو وقت الفزع الخالص إلى الله والرجاء الحقّ له وذلك معدّ للفرج منه، واستعار لفظ الحلق للأمور الشديدة المحيطة بالإنسان لا يجد عنها محيصاً ملاحظة لشبهها بالحلقة في البطان والحزام.

٣٣٣ ـ وقال (عليه السلام)

لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لاَ تَجْعَلَنَّ أَكْثَرَ شُغْلِكَ بِأَهْلِكَ وَوَلَدِكَ: فَإِنْ يَكُنْ أَهْلُكَ وَوَلَدُكَ أَوْلِيَاءَ الله فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَوْلِيَاءَهُ، وَإِنْ يَكُونُوا أَعْدَاءَ الله فَمَا هَمُّكَ وَشُغْلُكَ بِأَعْدَاءِ الله ؟!

نهى عن كثرة الاشتغال بالأهل والولد لصرف ذلك عن طاعة الله، ونبّه على عدم جوازه بما هو في قوّة قياس شرطيّ منفصل تقديره: أنّ أهلك لا يخلو إمّا أن يكونوا من أولياء الله أو أعدائه وعلى التقديرين لا يجوز الاشتغال بهم أمّا الأولياء فلأنّ الله تعالى يكفيهم مؤونتهم فلا حاجة بهم إلى اهتمام

غيره، وأمّا أَعداؤه فلا يجوز الاهتمام بحالهم. وـ ما ـ في قـوله: فمـا همّك. استفهام على سبيل التقريع والتوبيخ.

٣٣٤ ـ وقال (عليه السلام)

أَكْبَرُ الْعَيْبِ أنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ.

وقد مرّ أن ذلك حمق وهو أكبر العيوب.

٣٣٥ ـ وهنأ بحضرته رجل رجلاً

بغلام ولد له فقال له لِيُهْنِئْكَ الفَـارِسُ فقال عليه السلام: لَا تَقُـلْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ قُلْ شَكَرْتَ الوَاهِبَ، وَبُورِكَ لَكَ فِي المَوْهُوبِ، وَبَلَغَ أَشُدَّهُ، وَرُزِقْتَ بِرَّهُ.

وهذا إرشاد منه للتهنئة بالولد فيها أربع فوائد:

أحدها: تذكير الوالد بشكر الله وإلفاته إليه.

والثانية: استنزال البركة منه بالدعاء فيما وهب له.

والثالثة: الدعاء للمـوهوب بـالبقاء وبلوغ الأشـدّ وهو كمـال القوّة لغـاية الانتفاع به.

الرابعة: الدعـاء بثمرته والانتفاع به وهي أن يرزقه برّه ونفعه.

٣٣٦ ـ وبنى رجل من عماله بناء فخما فقال (عليه السلام)

أَطْلَعَتِ الْوَرِقُ رُؤُوسَهَا إنَّ الْبِنَاءَ يَصِفُ لَكَ الْغِنَى.

الفخم: العظيم. وكنّى بطلوع الورق لرؤوسها عن ظهور أثرها في البناء ملاحظة لشبهها بالحيـوانات في ظهـوره، وكذلـك استعار لفظ الـوصف ونسبه إلى البناء باعتبار أنّه ينبىء عن الغنى كما ينبىء الوصف عن موصوفه.

٣٣٧ ـ وقيل له (عليه السلام)

لـو سـد على رجـل بـاب بيتـه وتـرك فيـه من أين كـان يـأتيـه رزقـه؟ فقال عليه السلام: مِنْ حَيْثُ يَأْتِيهِ أَجَلُهُ.

قاس الرزق على الأجل لاشتراكهما في مبدإ واحد وهو قدرة الصانع تعالى. وأشار إلى ذلك بقوله: من حيث.

٣٣٨ ـ وَعَزَّى قوماً عن ميت مات لهم فقال (عليه السلام)

إنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ لَيْسَ بِكُمْ بَدأَ، وَلاَ إِلَيْكُمُ ٱنْتَهَى؛ وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هٰذَا يُسَافِرُ فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلاَّ قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ.

فعدّوه: أي افترضوا أنّه كذلك. والتعزية فصيحة العبارة جزيلة المعنى مفيدة للاقناع والسلو.

٣٣٩ ـ وقال (عليه السلام)

أَيُّهَا النَّاسُ، لِيَرَكُمُ ٱللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ! إنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذٰلِكَ ٱخْتِبَاراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً.

الاستدراج: الأخذ على غرّة. وأمر بالوجل من نعمة الله حال إفاضتها خوف الاستدراج بها كما يخاف من النقمة وذلك أنّ النعمة بلاء يجب مقابلته بالشكر كما أنّ النقمة بلاء يجب مقابلته بالصبر. والغرض الحثّ على فضيلتي الشكر والصبر. وحذّر من الركون إلى النعم والغفلة عن الله بقوله: إنّه. إلى قوله: أمن مخوفاً، وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من أمن مخوفاً فهو مغرور. وكذلك تضييع المأمول، وذلك أنّه يستعدّ باعتقاد أنّه اختبار من الله للصبر عليه ويؤمل منه تعالى الأجر الجزيل في الآخرة وإذا لم يعتقد ذلك بطل استعداده به فيضيّع مأموله منه.

٣٤٠ ـ وقال (عليه السلام)

يَا أَسْرَى الرَّغْبَةِ أَقْصِرُوا؛ فَإِنَّ الْمُعَرِّجَ عَلَى الدُّنْيَا لاَ يَرُوعُهُ مِنْهَا إلاَّ صَرِيفُ أَنْيَابِ الْحِدْثَانِ. أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَلَّوْا مِنْ أَنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا، وَٱعْدِلوا بِهَا عَنْ ضَرَاوَةِ عَادَاتِهَا.

الضراوة: الجرأة على الصيد والولوع به. والضراية - بالفتح - لغة. والضراية - بالكسر -: مصدر ضرى به. والثلاث نسخ وردت بها الرواية، واستعار لفظ الأسرى لمن ملكته رغبته في الدنيا وحبّه لها. وأمرهم بالإقصار عن الإفراط في طلبها ونفّر عن التعريج والانعطاف عليها بقوله: فإنّ المعرّج، إلى قوله: والحدثان، واستعار لفظ الصريف والأنياب ملاحظة لشبهه الموت عند قدومه بالبعير الهائج. ثمّ أيّه بالناس وأمرهم أن يتولّوا من أنفسهم تأديبها ورياضتها والوقوف بها على حدّ العدل من الحركات والأفعال وأن يعدلوا بها عن جرأتها وإقدامها على الانهماك في المشتهيات. وقد عرفت معنى الرياضة.

٣٤١ - وقال (عليه السلام)

لَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءاً وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلاً.

أي ما دمت تجد لكلام الغير محملاً وتأويلا فلا تظنّنّ به سوءً فإنّ النفوس السليمة أقرب إلى الله من غيرها. والواو للحال.

٣٤٢ - وقال (عليه السلام)

إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللهِ، سُبْحَانَهُ، حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ فَإِنَّ اللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الْأُخْرَى.

أمر بتقديم سؤال الصلاة على النبيّ ﷺ في طلب الحاجة للاستعداد به، ورغّب فيه بقوله: فإنّ الله سبحانه. إلى آخره: أي أنّ المسألة الأولى مجابة من الله بالاتّفاق فيجب من كرمه إجابة الثانية وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّ من كان أكرم من ذلك فينبغي أن يسأل المسألتين ليقضي الحاجة.

٣٤٣ - وقال (عليه السلام)

مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ الْمِرَاءَ.

وذلك أنّه داعية ثوران القوّة الغضبيّة، من الممارين ومبدأ المشاتمة والمسابّة.

٣٤٤ ـ وقال (عليه السلام)

مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الامْكَانِ وَالأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ.

الخرق: الحمق. ومعاجلة طلب الحاجة والإسراع إليها قبل وقت إمكانها إفراط في طلبها، والأناة فيها إذا أمكنت تفريط فيه وهما مذمومان وصاحبهما واضع للطلب في غير مواضعه وهو حمق ظاهر ونقصان في عقل وجوه التدبير. والحقّ العدل هو وضع الطلب في وقت الإمكان والفرصة.

٣٤٥ ـ وقال (عليه السلام)

لاَ تَسْأَلْ عَمَّا لاَ يَكُونُ فَفِي الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغْلٌ.

أمر بالسلو عن ما لا يكون من زيادة رزق ونحوه من المطالب الدنيويّة بما قد كان ووقع من المطالب التي أعطيها الإنسان. ورغّب فيما أمر به من السلو بقوله: ففي الذي. إلى آخره: أي ففي ذلك شغل لك عمّا تتوقّع من غيره، وأراد الشغل بضبط ما في يده من النعمة وما ينبغي من الاشتغال بشكرها واستعمالها في طاعة الله وهو صغرى ضمير تقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فينبغي أن يشتغل به عمّا وراءه ولا يطلب الزيادة عليه.

٣٤٦ ـ وقال (عليه السلام)

ثلاث كلمات: الْفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ، وَالاِعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ، وَكَفَى أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ.

إحديها: الفكر مرآة صافية.

واستعار له لفظ المرآة باعتبار أنّه يرى به المعقولات كما يرى الأشباح في المرآة. وقد سبق بيانه.

الثانية: الاعتبار منذر ناصح. استعار لفظ المنذر الناصح للاعتبار،

وذلك أنّه يذكّر الآخرة ويفيد الانزجار والاتّعاظ عن المناهي كالمنذر الناصح.

الثالثة: وكفى أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك. أشار أنّ تجنّب المرء لما يكره لغيره من الرذائل المهلكة أدب كاف له. ونفّر عنه بكونه مكروهاً للغير ورغّب في تجنّبه بكونه أدباً كافياً للنفس.

٣٤٧ - وقال (عليه السلام)

أَلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ: فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ: فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ٱرْتَحَلَ عَنْهُ.

أراد أنّه مقرون به في الوضع الذي ينبغي بمقتضى الحكمة الإلهيّة، وذلك أنه تعالى جعل للنفس العاقلة قوّتين علميّة وعمليّة وجعل كمالها باستكمال هاتين القوتين بالعلم والعمل ولا كمال لها بالعلم دون اقترانه بالعمل.

وقوله: فمن علم عمل.

أي من علم ما ينبغي لزمه في الحكمة أن يعمل بمقتضى العلم وكان ذلك داعياً له إلى العمل مستلزماً لوجوده منه، ويحتمل أن يكون قوله: عمل. خبراً في معنى الأمر: أي فمن علم فليعمل.

وقوله: والعلم يهتف بالعمل. إلى آخره.

فالهتف النداء وإن لم يرى المنادي، واستعار لفظه للمعقول من طلب العلم لمقارنة العمل الذي ينبغي له وجذبه الطبيعي له فكأنّه يصيح به ويدعوه إلى مقارنته ليكون منهما كمال الإنسان. ومعنى قوله: فإن أجابه وإلاّ ارتحل. أنّ العلم الذي ينبغي إذا قارنه العمل تأكّد به حتى يصير العلم كأنّه برز إلى عالم الحسّ في صورة الفعل. مثلا إذا علم الإنسان وجود الصانع وما ينبغي من طاعته ثمّ قرن ذلك بعبادته استلزمت تلك العبادة منه دوام ملاحظته تعالى وإخطار ذكره بالبال حتى لا يصير منسياً له في وقت. فأمّا إذا ترك العمل لله فلا بدّ أن يشتغل بغيره عن ذكره وينقطع ملاحظته له حتى يكون ذلك سبباً لنسيانه والغفلة عنه. واستعار لفظ الارتحال لزوال العلم باعتبار عدم استعداد تلك

النفس وصلاحيّتها، كالراحل عن وطن لا يصلح لاستيطانه. وقيل: أراد بالارتحال عدم المنفعة مجازاً إطلاقاً لاسم ذي الغاية على غايته. إذ كانت الغاية من الارتحال عدم المنفعة بالمرتحل.

٣٤٨ - وقال (عليه السلام)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ فَتَجَنَّبُوا مرعاهُ! قُلْعَتُهَا أَحْظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِهَا؛ وَبُلْغَتُهَا أَزْكَى مِنْ ثَرْوَتِهَا.

حُكِمَ عَلَى مُكْثِرِيهَا بِالْفَاقَةِ، وَأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ. وَمَنْ رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أَعْقَبَتْ نَاظِرَيْهِ كَمهاً. وَمَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّعَفَ بِهَا مَلأَتْ ضَمِيرَهُ أَشْجَاناً لَهُنَّ رَقْصٌ عَلَى سُوَيْدَاءِ قَلْبِهِ. هَمٌّ يَحْزُنُهُ حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بِالْفَضَاءِ مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ، هَيِّناً عَلَى اللهِ فَنَاؤُهُ، وَعَلَى الإِخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ؛ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ الْمُؤْمِنُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الاِعْتِبَارِ؛ وَيَقْتَاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الاِضْطِرَارِ، وَيَسْمَعُ فِيهَا بِأُذُنِ الْمَقْتِ وَالإِبْغَاضِ إِنْ قِيلَ أَثْرَى قِيلَ أَكْدَى!! وَإِنْ فُرِحَ بِالْبَقَاءِ حُزِنَ عَلَيْهِ بِالْفَنَاءِ! هٰذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ فِيهِ يُبْلِسُونَ.

أقول: القلعة: الرحلة. والحظوة: المنفعة. وراقه: أعجبه والكمه: العمى خلقة. والأشجان: العوارض المهمّة. والرقص: الغليان والاضطراب. والأبهران عرقان متعلّقان بالقلب. وأكدى: قلّ خيره. والإبلاس: اليأس من الرحمة.

وفي الفصل فائدتان:

إحديهما نفّر عن الدنيا بأمور:

أحدها: أنّ حطامها موبىء: أي مهلك، واستعار لفظ الحطام لمتاعها باعتبار سرعة زواله وقلّة الانتفاع به كما قال تعالى: ﴿**إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء**﴾[1] الآية. وكونه موبئا استلزم اقتناءه والاعتناء بجمعه

---

(١) ١٠ - ٣.

للهلاك في الآخرة ولذلك أمر بتجنّب مرعاه: أي رعيه أو محلّ رعيه وهو الدنيا.

الثاني: قلعتها وعدم القرار بها أنفع من الطمأنينة إليها لما يستلزمه من الشقاوة في الآخرة بمحبّتها والسكون إليها.

الثالث: أنّ الاقتصار على البلغة من العيش فيها أزكى من الثروة بها لما تستلزمه من الثروة بها من الشقاء الأخرويّ. فالاقتصار على القدر الضروريّ منها أطهر وأسلم من غوائلها.

الرابع: حكم بالفاقة على مكثرها. أمّا فيها فلأنّ كلّ زيادة منها موجبة للحاجة إلى أخرى فلذلك كان أكثر الناس حاجة فيها الملوك ثمّ من دونهم على اختلاف درجاتهم فيها، وأمّا في الآخرة فلفقر المكثر فيها المشتغل بها من ملكات الخير والفضائل.

الخامس: أنّ من غنى عنها بزهده فيها أعين من الله بالراحة منها.

السادس: أنّ من أعجبته زينتها فأنصب إليها عمي عمّا فيها من العبر عمّا وراءها من أحوال الآخرة، واستعار لفظ الكمه للمعقول من عمى البصيرة عن الاعتبار لأنّ ذلك أشدّ من العمى كما قال تعالى: ﴿**فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[٢].

السابع: أنّ من اتّخذ محبّتها شعاراً ملأت قلبه هموماً وغموماً وأحزانا على ما لم يحصل منها بطلبه، وعلى ما فات منها بالأسف عليه. واستعار لفظ الرقص لتعاقب تلك الأحزان والهموم، واضطرابها في قلبه إلى غاية الأخذ بكظمه، وكنّى به عن الموت، وبإلقائه بالفضاء عن دفنه. ومنقطعاً وهيّناً حالان.

والفائدة الثانية. أنّه أرشد إلى صفات المؤمن في صحبة الدنيا:

إحديها: أنّه إنّما ينظر إليها بعين الاعتبار ليحصل منها عبرة، وذلك هو

---

(٢) ٢٧ ـ ٣٥.

الذي خلق لأجله.

الثانية: ويقتات منها ببطن الاضطرار. وكنّى به عن كونه لا يتناول منها إلّا بلغته ومقدار ضرورته.

الثالثة: ويسمع فيها بأذن المقت والإبغاض. وكنّى به عن بغضه لها فهو لا يسمع ما تمدح به؛ بل معايبها.

وقوله: إن قيل أثرى. إلى قوله: الفناء. أراد أنّ الإنسان فيها منغّص اللذّة مكدّر العيشة بينا هو مثر إذ لحقه الإكداء والفقر، وفرح ببقاء حبيب إذ لحقه الحزن عليه. وهذا الكلام لاحق بالفائدة الأولى في وصف حال الإنسان في الدنيا ومن تمامه، ووصف المؤمن هنا اعتراض.

وقوله هذا ولم يأتهم: أي هذا البلاء ولم يأتِ الناس يوم القيامة الذي لشدّة هوله ييأسون فيه من الرحمة.

٣٤٩ ـ وقال (عليه السلام)

إِنَّ آللهَ سُبْحَانَهُ وَضَعَ الثَّوَابَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْعِقَابَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ؛ ذِيَادَةً لِعِبَادِهِ عَنْ نِقْمَتِهِ، وَحِيَاشَةً لَهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ.

الذودة: الدفع والمنع. وأشار إلى غايتي الحكمة الإلهيّة من وضع الثواب والعقاب وهما ردّ عباد الله عن نقمته وجمعهم إلى جنّته.

٣٥٠ ـ وقال (عليه السلام)

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ وَمِنَ ٱلإِسْلَامِ إِلَّا آسْمُهُ، وَمَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبِنَاءِ، خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، سُكَّانُهَا وَعُمَّارُهَا شَرُّ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ: مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وَإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا، يَقُولُ آللهُ سُبْحَانَهُ: فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ إِلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً أَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ وَقَدْ فَعَلَ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ آللَّهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ.

رسم القرآن: أثره، وهو تلاوته. ولا يبقى من الإسلام إلّا اسمه: أي دون العمل. وسكّان المساجد وعمّارها: القرّاء السوء وأئمّة الضلال الذين وصفهم عليه السلام في صدر الكتاب بقوله: إنّ أبغض الخلائق إلى الله رجلان. إلى آخره وبقوله في فصل آخر ذامّاً لاختلاف الناس في الفتيا: ترد على أحدهم القضيّة. إلى آخره. وظاهر أنّ أولئك وأمثالهم شرّ أهل الأرض لكونهم مبدأ الفتنة في الدين وإليهم ترجع خطايا الخلق. إذ بهم يقتدون وعنهم يأخذون. ومن كان كذلك فقد استعدّ للفتنة التي يحار فيها الحليم رزين العقل، وروي: الحكيم. وإذا سأل عليه السلام من الله تعالى إقالة عثرة الغفلة فيجب الاقتداء به في ذلك السؤال. أللّهم أقلنا من عثرة الغفلة.

٣٥١ - وروي أنه (عليه السلام)

قلما اعتدل به المنبر إلا قال أمام الخطبة: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ فَمَا خُلِقَ امْرُؤٌ عَبَثاً فَيَلْهُو؛ وَلَا تُرِكَ سُدىً فَيَلْغُوَ! وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الآخِرَةِ الَّتِي قَبَّحَهَا سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ؛ وَمَا الْمَغْرُورُ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْلَى هِمَّتِهِ كَالآخَرِ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الآخِرَةِ بِأَدْنَى سُهْمَتِهِ.

أقول: السدى: المهمل. والسهمة: النصيب. ولمّا كان تقوى الله والتزوّد بها إليه هو المطلوب من خلق الإنسان لا جرم صدّر عليه السلام بالأمر بها عامّة خطبه، ونبّه على ذلك المطلوب وأنّ الغاية هو الآخرة منه، وأنّه ليست الدنيا وإن تحسّنت له بخلف من غايته وإن قبّحها سوء نظره لها ومعرفته بها، على أنّه لا مناسبة بين من ظفر من الدنيا بأعلى مطالبه منها وبين من ظفر من الآخرة بأدنى نصيب لشرف متاع الآخرة فكيف من يظفر منها بأعلى قسط. ونفّر طالب الدنيا والمدّعي للظفر بها بكونه مغروراً. والفصل ظاهر.

٣٥٢ - وقال (عليه السلام) عشر كلمات:

لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ؛ وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى؛ وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ؛ وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ؛ وَلَا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ؛ وَلَا مَالَ

أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَا بِالْقُوتِ؛ وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ؛ وَالرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ؛ وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالحَسَدُ دَوَاعٍ إلى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنوبِ؛والشَّرُّ جَامِعُ مَسَاوِي العُيُوبِ.

إحديها: لا شرف أعلى من الإسلام لاستلزامه شرف الدنيا والآخرة.

الثانية: ولا عزّ أعزّ من التقوى لأن التقوى تستلزم جميع مكارم الأخلاق الجامعة لعزّ الدنيا والآخرة فكان عزّها أكبر عزّاً من غيرها.

الثالثة: ولا معقل أحصن من الورع. واستعار له لفظ المعقل باعتبار تحصّن الإنسان به من عذاب الله، ولمّا كان عبارة عن لزوم الأعمال الجميلة فلا معقل أحصن منه.

الرابعة: ولا شفيع أنجح من التوبة. وذلك لاستلزامها العفو عن جريمة التائب قطعاً دون سائر الشفعاء بشفاعتهم. ولفظ الشفيع مستعار لها.

الخامسة: ولا كنز أغنى من القناعة. وذلك لكونها فضيلة مستلزمة لسكون نفس الإنسان، ورضاه بما قسم له، وغناه عمّا وراءه. ولا شيء من سائر الكنوز لأبناء الدنيا كذلك. ولفظ الكنز مستعار لها.

السادسة: ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت. وهو قريب ممّا قبله.

السابعة: ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة: أي في سلك الراحة من الهمّ بطلب الدنيا ومجاذبة أهلها وتبوّأ خفض الدعة: أي اتّخذ لين السكون مباءة ومرجعاً.

الثامنة: والرغبة مفتاح النصب ومطيّة التعب. استعار للرغبة في الدنيا لفظ المفتاح باعتبار فتحه لباب التعب على الراغب، وكذلك لفظ المطيّة باعتبار استلزامها له كالمطيّة المتعب ركوبها.

التاسعة: والحرص والكبر والحسد دواع إلى التقحّم في الذنوب. التقحّم: الدخول بسرعة فالحرص على الدنيا داع إلى الظلم والكذب

والفجور والجبن والبخل ونحوها من الرذائل، والكبر داع إلى قلّة الإنصاف وعدم التواضع والعجب والتهوّر وعدم الاحتمال ونحوها، والحسد داع إلى الظلم والكذب والفساد في الأرض وغيرها من الآثام.

العاشرة: والشرّ جامع لمساوىء العيوب الشرّ كلّي كالجنس لمساوىء العيوب ومقابحها. إذ كلّ منها يصدق عليه أنّه شرّ مخصوص وهو المعنيّ بكون الشرّ جامعاً لها.

٣٥٣ ـ وقال (عليه السلام)

لجابر بن عبد الله الأنصاري: يَا جَابِرُ، قِوَامُ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٍ مُسْتَعْمِلٍ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لاَ يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لاَ يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لاَ يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ؛ فَإِذَا ضَيَّعَ الْعَالِمُ عِلْمَهُ آسْتَنْكَفَ الْجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ؛ وَإِذَا بَخِلَ الْغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ آللهِ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَمَنْ قَامَ للهِ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فِيهَا عَرَّضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ.

الدنيا إنّما تقوم بالمال، ثمّ بالعلم لوضعه في مواضعه ومعرفة وجوه اكتسابه التي ينبغي أو لا ينبغي من حلال وحرام وهو علم الفقه وأصوله وتفسير كتاب الله وسنّة رسوله اللذين منهما تعلم الأحكام، ثمّ ما يلزم ذلك من علم العربيّة ونحوه. ولمّا كان العلم لا بدّ له من حال والمال لا بدّ له من قان وجب أن يكون من شرط الأوّل أن يعمل بعلمه، ومن شرط الثاني أن يستعمل ماله في مصارفه التي ينبغي وإلاّ لم يكن لهما فائدة ولا قامت بهما أحوال الخلق التي هي الدنيا، ولمّا كان الموت ضرورياً للعلماء وغيرهم ووجب قيام الدنيا وبقاء نظامها أن يدوم العلم في قرن من الناس بعد قرن وجب أن يكون هناك جهّال لا يستنكفون عن تعلّمه ولمّا كانت حاجة البعض الى البعض في قوام الدنيا ضرورية ولم تجرِ في نظامها أن يستغني كلّ عن كلّ لأسباب معلومة وغير معلومة وجب أن يكون هناك من لا مال له ليحصل الانتفاع به فيما هو بصدده ومرشّح له من الأعمال الضرورية بالجود عليه فإذن قوام الدنيا لا يحصل بدون

الأربعة. وإنما شرط في الفقير أن لا يبيع آخرته بدنياه لأن بايع آخرتـه بدنيـاه ظالم خارج عن العدل فلا تقوم به الدنيا ولا يصلح لعمارتها.

ثمّ لمّا بيّن ما به قوام الدنيا أشار إلى ما يلزم ضدّ ذلك من الفساد تنفيراً عنه بقولـه: فإذا ضيّـع. إلى قولـه: بدنيـاه فـلأنّ تضييـع العلم يستلزم عـدم الانتفـاع به واستنكـاف الجاهـل عن تعلّمه لسـوء اعتقاده في العلم وأهله لمـا يراه من تضييعهم لـه وعـدم عملهم على وفقـه فيبقى على الجهـل بمنفعتـه، وبخل الغني بمعروفه مستلزم لعدم المنفعة بالمال ويلزم من ذلك شـدّة حاجـة الفقير وبيع آخرته بدنياه فيلزمه الفساد المنافي لمصلحة المعـاش والمعاد. ثمّ أشار إلى ما يلزم كثرة نعمة الله على العبد من كثرة حوائج الخلق إليه ليوضـح له وجوب الشكر عليها والقيام بما يجب لله فيها من الإحسان إلى المحتـاجين إليه. ورغّب في ذلك بما يلزمه من تعريض العبد بذلك نعمة الله عنده للدوام والمزيد. ونفّر عن تضييع ذلك بما يلزمه من تعريضها لزوالها.

٣٥٤ ـ وروى ابن جرير الطبري في تـاريخه عن عبـد الرحمن ابن أبي ليلى الفقيه ـ وكان ممن خرج لقتال الحجـاج مع ابن الأشعث ـ انـه قال فيمـا كـان يحض به النـاس على الجهـاد: إني سمعت أميـر المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) يقول يوم لقينا أهل الشام:

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْواناً يُعْمَلُ بِهِ وَمُنْكَـراً يُدْعَى إِلَيْـهِ فَأَنْكَـرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِىءَ؛ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَى فَذَلِـكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَى، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينُ.

لمّا كان إنكار المنكر واجباً على كلّ مكلّف بحسب تمكّنه وكان لتمكّنـه من ذلك طرف أدنى وهو الإنكار بـالقلب لإمكانـه من كلّ أحـد، وطرف أعلى وهو الإنكار باليد وهو الغايـة، ووسط وهو الإنكـار باللسـان كانت درجـاته في استحقـاق الأجربـه مترتّبـة على درجات إنكـاره. وإنّما خصّص المنكـر بقلبـه بالسلامـة والبراءة: أي من عـذاب الله لأنه لم يحمـل إثماً وإنّمـا لم يذكـر له

أجراً وإن كان كلّ واجب يثاب عليه لأنّ غاية إنكار المنكر دفعه والإنكار بالقلب ليس له في الظاهر تأثير في دفع المنكر فكأنّه لم يفعل ما يستحقّ به أجراً وإنّما قال: لتكون كلمة الله هي العليا. لأنّه إن لم يكن ذلك مقصود المنكر بل كان مقصوده مثلاً الرياء أو الغلبة الدنيويّة لا يكون قد أصاب سبيل الهدى، واستعار لفظ التنوير لوضوح الحقّ في قلبه وجلائه من شبه الباطل.

٣٥٥ ـ ومن كلام آخر له يجري هذا المجرى

فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ، وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ فَذَلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ، وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ فَذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ. وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ، وإِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ.

أقول: إنّه عليه السلام جرى في هذه القسمة على الوجه الطبيعي المعتاد، وذلك أنّ العادة جارية بأن ينكر الإنسان أوّلاً بقلبه، ثمّ بلسانه، ثمّ بيده إذا تمكّن وقد يرد القسمة على غير هذا الوجه فيكون الناس على أقسام ستّة وهي المنكر بقلبه فقط أو بلسانه فقط أو بيده فقط أو بقلبه ولسانه أو بقلبه ويده أو بلسانه ويده.

واعلم أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متلازمان لأنّ المعروف والمنكر قد يكونان نقيضين أو في قوّتهما فيكون النهي عن المنكر مستلزماً للأمر بالمعروف والأمر بالمعروف مستلزماً للنهي عن المنكر. واستجماعهما لخصال الخير ظاهر لأنّ كلّ خصلة منه معروف فالأمر بالمعروف مطلقا أمر بها وترك كلّ واحدة من خصال الخير منكر فإنكاره يستلزم الأمر بها. ولمّا كانت هذه الأنواع الثلاثة من إنكار المنكر فضائل تحت فضيلة العدل وجب عدادها

من خصال الخير، ولمّا كانت مستلزمة لسائر الفضائل كما أشرنا اليه وجب أن يكون المنكر للمنكر مطلقاً مستكملاً لجميع خصال الخير وأن يكون التارك له بيده تاركاً لخصلة ومتمسكاً بخصلتين، والتارك بيده ولسانه مضيّعاً لأشرف الخصلتين من الثلاث وإنما كانتا أشرف لكونهما يستلزمان دفع المنكر أو بعضه غالباً بخلاف الثالثة، ووجب أن يستحقّ تارك الثلاث اسم الميّت في حياته لخلوّه عن جميع الفضائل. ولفظ الميّت استعارة.

وقوله: وما أعمال البرّ. إلى قوله: لجّي. تعظيم لهاتين الفضيلتين، وشبّه أعمال البرّ كلّها بالنسبة إليهما بالنفثة في البحر اللجيّ، ووجه الشبه أنّ كلّ خصلة من أعمال البرّ جزئيّ بالنسبة إليهما كالنفثة بالنسبة إلى البحر وعموم الخير منهما [فيهما ـ خ ـ].

وقوله: فإنّ الأمر. إلى قوله: رزق.

صغرى ضمير رغّب به فيهما، وتقدير الكبرى: وكلّما لا يقرّب من أجل ولا ينقص من رزق فلا ينبغي أن يحذر منه. ثمّ أشار إلى أفضل أصنافهما وهو كلمة العدل عند الإمام الجائر لغرض ردّه عن جوره.

٣٥٦ ـ وعن أبي جحيفة قال: سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول:

أَوَّلُ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الجِهَادِ بِأَيْدِيكُمْ ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلاَهُ أَسْفَلَهُ وَأَسْفَلُهُ أَعْلاَهُ.

الجهاد باليد واللسان والقلب هو إنكار المنكر بها. وإنّما كان باليد أوّل مغلوب عليه لأن الغرض الأول للعدوّ إزالة سلطان اليد ومقاومته فإذا تمكّن من ذلك كان زوال سلطان اللسان سهلاً.

فإن قلت: لم قال: ثمّ بقلوبكم. ومعلوم أنّ القلب لا يطّلع عليه العدوّ ولا يتمكّن من إزالة الجهاد به؟.

قلت: أراد أنّهم إذا غلبوا على الجهاد باليد واللسان وطالت المدّة عليهم ألفوا المنكر وتكرّر على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم فلم يبق إنكاره

وهو معنى غلبهم عليه.

وقوله: فمن لم يعرف بقلبه إلى آخره.

نفّر عن ترك الخصلتين بما يلزمه من قلب أعلى التارك أسفله، واستعار لفظ القلب للانتكاس في مهاوي الرذائل ودركات الجحيم. وإنّما خصّص إنكار القلب بذلك لإمكانه في كلّ وقت وخلوّه عن المضارّ المخوّفة التي يخشى في الإنكار باليد واللسان.

٣٥٧ـ وقال (عليه السلام)

إنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وإنّ البَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ.

استعار للحقّ وصف الثقل باعتبار صعوبته على من يكون عليه فيؤخذ منه، ولفظ المريء باعتبار استلزامه للراحة في الآخرة. وللباطل وصف الخفّة باعتبار سهولته على أهله، ولفظ الوبيء باعتبار استلزامه لأهلاكهم في الآخرة.

٣٥٨ـ وقال (عليه السلام)

لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ عَذَابَ الله لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (فَلَا يَأمنُ مَكْرَ الله إلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ) وَلَا تَيْأسَنَّ لشَرِّ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ رَوْحِ الله لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إنَّهُ لَا يَيْأسُ مِنْ رَوْحِ الله إلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ).

أدّب السامع بهذين الأدبين محتجّاً بعموم الآيتين، ولفظ المكر مستعار لإمهال الله، ثمّ أخذه فهو في صورة المكر والخداع. والمراد ظاهر.

٣٥٩ـ وقال (عليه السلام)

أَلْبَخِيلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِىءِ الْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إلَى كُلِّ سُوءٍ.

البخل: رذيلة التفريط من فضيلة السخاء وهي مستلزمة للجهل لأنّ البخيل غير عالم بوضع المال موضعه، وللفجور لعبوره في شهوته ومحبّته للدنيا إلى طرف الإفراط فيها، وللجبن لأنّ من بخل بماله فهو بنفسه أبخل،

وللانظلام والظلم لقصوره عن فضيلة العدل في ماله، ثمّ للحرص والحسد والشره ودناءة الهمّة والكذب والغدر والخيانة وقطع الرحم وعدم المواساة. وكلّ طرف تفريط لفضيلة من الفضائل فإنّه من توابع البخل ولواحقه وهي مساوىء العيوب التي أخبر عن استجماعه لها، وأنّه زمام إلى كلّ منها. واستعار له لفظ الزمام باعتبار أنّه يدعو إلى هذه المساوىء ويقود إليها كالزمام.

٣٦٠ ـ وقال (عليه السلام)

أَلرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ! كَفَاكَ كُلُّ يَوْمٍ عَلَى مَا فِيهِ، فَإِنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَإِنَّ الله تَعالى جدّه سَيُؤْتِيكَ فِي كُلِّ غَدٍ جَدِيدٍ مَا قَسَمَ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالهَمِّ بِمَا لَيْسَ لَكَ، وَلَنْ يَسْبِقَكَ إِلَى رِزْقِكَ طَالِبٌ، وَلَنْ يَغْلِبَكَ عَلَيهِ غَالِبٌ، وَلَنْ يُبْطِىءَ عَنْكَ مَا قَدْ قُدِّرَ لَكَ.

قال الرضي: وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم من هذا الباب، إلا أنه هاهنا أوضح وأشرح، فلذلك كررناه على القاعدة المقررة في أول الكتاب.

وأقول: قد مضى تفسير أكثر هذا الكلام. وغرضه التنفير عن الاهتمام بالدنيا والاشتغال بما يرجى منها عن ذكر الله وطاعته. ونهاه أن يحمل همّ السنة على همّ اليوم لئلاّ يجتمع عليه أحزان متضاعفة يكفي واحد منها شغلاً. واحتجّ لذلك بضميرين صغرى الأوّل: قوله: فإن يكن السنة وتقديرها إنّ سنتك التي تهتمّ لها إمّا أن يكون من عمرك أو ليس، وتقدير الكبرى: وكلّما كان على هذين التقديرين فلا ينبغي الاهتمام به أمّا على التقدير الأول فإنّ الله يؤتيك في كلّ يوم منها ما قسم لك لا محالة وما لا بدّ منه لا يجوز الاهتمام به، وأمّا على التقدير الثاني فلأنّه ليس من العقل أن يهتمّ المرء بما ليس له. وصغرى الثاني: قوله: ولن يسبقك إلى قوله: قدّر لك. وتقديرها أنّ رزقك لن يسبقك إليه طالب، وتقدير الكبرى وكلّما كان كذلك فلا ينبغي أن يهتمّ به.

٣٦١ ـ وقال (عليه السلام)

رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ، وَمَغْبُوطٍ فِي أَوَّلِ لَيْلِهِ قَامَتْ بَوَاكِيهِ فِي آخِرِهِ.

وغرض الكلمة التنبيه من رقدة الغفلة عن الموت لغاية العمل ولما بعده والمعنى ظاهر.

٣٦٢ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْكَلَامُ فِي وِثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ؛ فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ وِثَاقَهُ، فَاخْزُنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً وَجَلَبَتْ نِقْمَةً.

الوثاق: الحبل، وأمر بخزن اللسان عمّا لا ينبغي من القول وفي غير موضعه وشبّه خزنه بخزن الذهب، ووجه الشبه شدّة الخزن. ونفّر عن قول ما لا ينبغي بضميرين صغرى أحدهما: الكلام. إلى قوله: وثاقه، وتقدير الكبرى: وكلّ كلام كان كذلك فلا ينبغي أن يتكلّم منه إلّا بما ينبغي، ولفظ الوثاق مستعار، وصغرى الثاني: قوله: فربّ كلمة سلبت نعمة: وتقدير الكبرى: وكلّ كلمة كذلك فيجب الاحتراز منها بقلّة القول والتثبّت فيه.

٣٦٣ ـ وقال (عليه السلام)

لَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ فَإِنَّ آللهَ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

نهى عن قول ما لا يعلم لأنّه كذب أو محتمل للكذب ولأنّه قول بالجهل فيجب الاحتراز فيه، وأمّا النهي عن قول كلّ ما يعلم فلجواز أن يكون فيه مضرّة لنفسه أو لغيره كإذاعة سرّ يستلزم أذاه أو أذى من أسرّه إليه، ونفّر عن ذلك بقوله: فإنّ الله. إلى آخره، وهو صغرى ضمير. والفرائض التي افترضها الله على كلّ جارحة هو ما أوجبه على اللسان مثلاً من قول ما ينبغي في موضعه وكذلك ما يتعلّق بالعين من النظر الذي ينبغي ونحو ذلك في سائر

الجوارح. وتقدير الكبرى: وكلّ من فرض الله على جوارحه فرائض كذلك يحتجّ بها عليه يوم القيامة في تركها والعمل بها فيجب عليه المحافظة عليها.

٣٦٤ ـ وقال (عليه السلام)

اِحْذَرْ أَنْ يَرَاكَ آللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ؛ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ آللهِ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ آللهِ.

حذّر من الأمرين بما يلزمه من دخوله في زمرة الخاسرين لثواب الله يوم القيامة. ثم أمر بالقوّة على طاعة الله ليتمّ الاستعداد بها لرحمته وبالضعف عن معصيته ليضعف الاستعداد بها عن قبول سخط الله ونقمته.

٣٦٥ ـ وقال (عليه السلام) ثلاث كلمات:

أَلرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا مَعَ مَا تُعَايِنَ مِنْهَا جَهْلٌ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حسْنِ الْعَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الاِخْتِبَار عَجْزٌ.

إحديها: الركون إلى الدنيا مع ما تعاين منها جهل: أي بما ينبغي أن يركن إليه ممّا لا ينبغي.

الثانية: والتقصير في حسن العمل إذا وثقت بالثواب عليه غبن: أي مستلزم للغبن وهو ترك ما يوفّق به من الثواب الكثير في مقابله العمل اليسير له، وفيه إيماء إلى أنّ مبدأ التقصير في حسن العمل عدم الوثوق بالثواب الموعود في الآخرة.

الثالثة: والطمأنينة إلى كلّ أحد قبل الاختبار عجز: أي عن البحث عمّن ينبغي السكون إليه وعن وضعه موضعه. ونفّر عن الركون إلى الدنيا بما يلزمه من الجهل، وعن التقصير في حسن العمل بما يلزمه من الغبن، ومن الطمأنينة إلى كلّ أحد بما يلزمها من العجز.

٣٦٦ ـ وقال (عليه السلام)

مِنْ هَوَانِ الدُّنْيا عَلَى آللهِ أَنَّهُ لاَ يُعْصَى إلاَّ فِيها، وَلاَ يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إلاَّ بِتَرْكِهَا.

نفّر عن الدنيا بذكر هوانها على الله من الوجهين المذكورين.

٣٦٧ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نَالَهُ أَوْ بَعْضَهُ.

كقولهم: من طلب شيئاً وجدّ وجد، ومن قرع باباً ولجّ ولج. وظاهر أنّ الطلب معدّ لحصول المطلوب فإنْ تمّ الاستعداد له نال الكلّ وإلاّ فبقدر نقصان الاستعداد يكون نقصان المطلوب.

٣٦٨ ـ وقال (عليه السلام)

مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الجَنَّةُ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ، وَكُلُّ بَلاَءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ.

نفى عمّا يقود إلى النار وإن عدّ في الدنيا خيراً ولذّة استحقاق اسم الخير تحقيراً له وتنفيراً عنه بما يلزمه من غايته التي هي النهاية في الشرّ وهي النار، وكذلك نفى عمّا يقود إلى الجنّة من الطاعات الشاقّة وإن عدّ في الدنيا شرّاً وألما استحقاق اسم الشرّ ترغيباً فيه بما يلزمه من غايته التي هي دخول الجنّة. والتقدير: ما خير بعده النار بخير، وما شرّ بعده الجنّة بشرّ.

وقوله: وكلّ نعيم دون الجنّة محقور.

تفسير للأوّل.

وقوله: وكلّ بلاء دون النار عافية.

تفسير للثاني. وأراد عافية نسبيّة.

٣٦٩ ـ وقال (عليه السلام)

أَلَا وَإِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ الْفَاقَةَ؛ وَأَشَدُّ مِنَ الْفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ؛ وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ. أَلَا وَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ سَعَةُ الْمَالِ؛ وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ صِحَّةُ الْبَدَنِ؛ وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ الْبَدَنِ تَقْوَى الْقَلْبِ.

أشار إلى درجات البلاء وتفاوتها بالشدّة والضعف وإلى ما يقابلها من درجات النعمة وتفاوتها كذلك. وإنّما كان مرض القلب بالرذائل أشدّ من مرض البدن لاستلزامه في الآخرة فوات أكمل السعادات وهو الموت الذي لا حياة معه وبحسب ذلك كان تقوى القلب واستكماله بالفضائل أفضل من صحّة البدن لاستلزامه السعادة الباقية والحياة الأبديّة.

٣٧٠ ـ وقال (عليه السلام)

لِلْمُؤْمِن ثلاثُ سَاعَاتٍ: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ؛ وَسَاعَةٌ يَرُمُّ مَعَاشَهُ؛ وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إلَّا فِي ثَلَاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ؛ أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

أقول: رمّ المعاش: إصلاحه. والشاخص: الذاهب من بلد إلى بلد. وقسّم زمان المؤمن العاقل إلى ثلاث أقسام بحسب ما ينبغي بمقتضى الحكمة العمليّة والرأي الحقّ. فقسم يتوفّر فيه على عبادة الله ومناجاته وهذا القسم هو المطلوب الأوّل، وقسم يصلح فيه ما لا بدّ منه في تحصيل القسم الأوّل من معاشه، وقسم يخلّي فيه بين نفسه ولذّاتها المباحة التي يجمل ويحسن دون المحرّمة والمباحة المستهجنة. وهذان القسمان مرادان للأوّل إذ لا يمكن بدونهما.

وقوله: وليس للعاقل. إلى آخره.

أي ليس له بحسب مقتضى العقل العمليّ أن يستعمل نفسه إلّا في الأمور الثلاثة.

٣٧١ ـ وقال (عليه السلام)

ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُبَصِّرْكَ آللهُ عَوْرَاتِهَا، وَلاَ تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ!

لمّا كانت محبّة الدنيا مستلزمة لاستتار عيوبها عن إدراك محبّيها كما قيل: حبّك الشيء يعمي ويصمّ. كان بغضها والزهد فيها رافعاً لذلك الستر كاشفاً لما تحته من عيوبها وعوراتها فأمر بالزهد فيها لهذه الغاية المنفّرة عنها. ثمّ نفّر عن الغفلة فيها عمّا وراءها بضمير صغراه قوله: فلست بمغفول عنك، وتقدير الكبرى: وكلّ من ليس بمغفول فلا ينبغي أن يغفل عمّا يراد به.

٣٧٢ ـ وقال (عليه السلام):

تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.

وقد مرّ تفسير هذه الكلمة؛ لكنّه جعلها هنا صغرى ضمير رغّب به في الكلام عند الحاجة لغاية أن يعرفها المتكلّم، وتقدير الكبرى: وكلّ من كان مخبوءاً تحت لسانه فينبغي أن يظهر نفسه في كلامه ليعرف.

٣٧٣ ـ وقال (عليه السلام)

خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ.

أمر بالقناعة أوّلاً بما تيسّر من الدنيا لمن تمكّن منها وقوى عليها، وبالإجمال في الطلب لمن لم يتمكّن منها. والإجمال في طلب الدنيا طلبها برفق من الوجه الذي ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي.

٣٧٤ ـ وقال (عليه السلام)

رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْلٍ.

أي قد يبلغ الإنسان بالقول ما لا يبلغه بالشدّة والصولة فيكون القول أنفذ في غرضه. ويصلح مثلاً يضرب للرفق واللين الذي يبلغ به ما لا يبلغ

بالعنف. وروي عوض أنفذ أشدّ. والمعنى: ربّ قول يقوله الإنسان فيكون ضرره عليه أشدّ من صولة عدوّه، أو ربّ قول يسمعه من غيره كقذف أو هجر يكون أشدّ عليه من صولة العدوّ. والمعنيان منقولان عن ابن آدم الهروي.

٣٧٥ ـ وقال (عليه السلام)

كُلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كَافٍ.

إنّه لا يقتصر الإنسان إلّا على مقدار يمكنه دفع الضرورة والحاجة به وذلك كاف ومغنٍ للقانع عمّا سواه. وفيه إيماء إلى الأمر بالاقتصار على اليسير من الدنيا.

٣٧٦ ـ وقال (عليه السلام) كلمات أربعا:

أَلْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّنِيَّةُ! وَالتَّقَلُّلُ وَلَا التَّوَسُّلُ، وَمَنْ لَمْ يُعْطَ قَاعِداً لَمْ يُعْطَ قَائِماً وَالدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ؛ فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ!

إحديها: المنيّة ولا الدنيّة. فالمنيّة مبتدأ دلّ على خبره بقوله: ولا الدنيّة. أي أسهل من الدنيّة، ويحتمل أن يكون التقدير يحتمل المنيّة ولا يحتمل الدنيّة وهي الخسيسة من الأمر ترتكب في طلب الدنيا. وكثير من الكرام يختارون الموت على ذلك.

الثانية: والتقلّل ولا التوسّل: أي القناعة بالقليل من العيش والتبلّغ به خير من التوسّل إلى أهل الدنيا في طلبها.

الثالثة: ومن لم يعط قاعداً لم يعط قائماً. كنّى بالقعود عن الطلب السهل وبالقيام عن الطلب الصعب بتعسّف: أي من لم يرزق بالطلب السهل لم ينفعه التشديد في الطلب. وهذا الحكم أكثريّ كما هو حكم الخطيب حثّ به على الإجمال في الطلب.

الرابعة: والدهر يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا

كـان عليك فـاصبر. فـاليوم الـذي هو زمـان الضيق والبلاء يجب فيـه الصبـر للاستعداد به لقبول رحمة الله تعالى كما قال: ﴿وبشّر الصابرين﴾[1] الآية.

٣٧٧ ـ وقال (عليه السلام)

مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلاَقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ.

الغايلة: الحقد، وذلك أنّ مباعدة الناس في أخـلاقهم تستلزم منافـرتهم وعداوتهم وأحقادهم. فالعدول عنها إلى المقاربة والمشاكلة لأخلاقهم يستلزم الأمن من ذلك منهم.

٣٧٨ ـ وقال (عليه السلام)

لبعض مخـاطبيـه ـ وقـد تكلم بكلمـة يستصغـر عن مثله ـ لَقَـدْ طِـرْتَ شَكِيراً، وَهَدَرْتَ سَقْباً.

فـالشكير: هـو الفرخ قبـل النهوض. واستعـار له لفظ الشكيـر والسقب بـاعتبار صغـر قدره عمّـا تكلّم به في حضـرته، ووصف الـطيران والهـدير لـه باعتبار نهـوضه إلى ذلـك الكلام الـذي هو فـوق محلّه وليس أهلاً لـه كما أنّ الطيران ليس من شأن الشكير، ولا الهدير من شأن السقب.

٣٧٩ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ أَوْمأَ إِلَى مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ الْحِيَلُ.

المتفـاوت: كالأمـور المتضادة أو التي يتعـذّر الجمـع منهـا في العـرف والعـادة. واستعار وصف الخـذلان للحيـل بـاعتبـار أنّهـا لا تؤاتيـه ولا يمكنـه الجمع بين ما يرومه من تلك الأمور.

٣٨٠ ـ وقال (عليه السلام)

وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ بِإِلاَّ بِـاَللهِ» إِنَّا لاَ نَمْلِكُ مَـعَ اَللهِ

(١) ٣ ـ ١٥٠.

شَيْئاً، وَلاَ نَمْلِكُ إلاَّ مَا مَلَّكَنا فَمَتَى مَلَّكَنا مَا هُوَ أمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفَنَا وَمَتَى أخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا.

برهان قوله: إنّا لا نملك مع الله شيئا. قوله تعالى: ﴿قل من يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعا﴾الآية، وظاهر أنّ التكليف تابع لما ملّكنا إيّاه من الجوارح والقوى والعقل وسائر متعلّقات التكليف وعند أخذه لشيء منها يضع التكليف المتعلّق به عنّا. وسئل الصادق عليه السلام عن هذه الكلمة فقال: لا حول على ترك المعاصي ولا قوّة على فعل الطاعات إلاّ بالله.

٣٨١ ـ وقال (عليه السلام)

لعمار بن ياسر، وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاما: دَعْهُ يَا عَمَّارُ، فَإنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنَ الدِّينِ إلاَّ مَا قَارَبَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَعَلَى عَمْدٍ لَبَّسَ عَلَى نَفْسِهِ لِيَجْعَلَ الشُّبُهَاتِ عَاذِراً لِسَقَطَاتِهِ.

أراد أنّه لا يعمل من الدين إلاّ بما يستلزم دنيا ويقرب به منها كعدل أو صدق يستلزم منفعة دنيويّة دون ما ليس كذلك. وهو صغرى ضمير نفّر به عن مخاطبته، تقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فينبغي أن يعرض عن مراجعته ومكالمته.

٣٨٢ ـ وقال (عليه السلام)

مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ ٱلأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ ٱللهِ! وَأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى ٱلأَغْنِيَاءِ ٱتِّكَالاً عَلَى ٱللهِ.

تيه الفقراء على الأغنياء أصعب عليهم وأشقّ من تواضع الأغنياء لهم. إذ كان تيههم يستدعى كمال التوكّل على الله وهو درجة عالية في الطريق إليه فلذلك كان أفضل وأحسن لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل الأعمال أحمزها.

٣٨٣ ـ وقال (عليه السلام)

مَا ٱسْتَوْدَعَ ٱللهُ ٱمْرَأً عَقْلاً إلاَّ ٱسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْماً مَّا!

إمّا من بلاء الدنيا بالحيلة، أو من بلاء الآخرة بالطاعة.

٣٨٤ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَعَهُ.

استعار لفظ المصارعة للمقاومة، وذلك أنّ الله سبحانه وملائكته وكتبه ورسله والصالحين من عباده أعوان الحقّ ولا مقاوم لهم.

٣٨٥ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَرِ.

أراد بالقلب النفس أو الذهن، واستعار له لفظ المصحف باعتبار أنّ كلّ تصوّر في الذهن أريد التعبير عنه فلا بدّ أن يتصوّر حروف العبارة عنه في لوح الخيال والحسّ البصريّ يشاهدها من هناك ويقرؤها. فالقلب إذن كالمصحف الذي يشاهد فيه الحروف والألفاظ ويقرء منه بالبصر فلذلك أضافه إلى البصر.

٣٨٦ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْتُّقَى رَئِيسُ الأخْلاَقِ.

استعار لفظ الرئيس للتقوى باعتبار أفضليّته في استلزامه لرضوان الله وحصول السعادة الباقية ولا شيء من الأخلاق بانفراده يستلزم ذلك.

٣٨٧ ـ وقال (عليه السلام)

لاَ تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ؛ وَبَلاَغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ.

ذرب اللسان: حدّته. وهو أدب يجري مجرى المثل يضرب لمن

يحصّل من إنسان علماً وفائدة فيستعين بها عليه. كأن يتفاصح على من علّمه الفصاحة.

٣٨٨ ـ وقال (عليه السلام)

كَفَاكَ أَدَباً لِنَفْسِكَ ٱجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ.

وأراد بما يكرهه من غيره الرذائل فإنّها مكروهة إلى كلّ أحد من غيره ومن نفسه أيضاً إذا عقل أنّها رذيلة ولذلك إذا عبّر بها أنف منها؛ إلّا أنّ بعض الرذائل قد يخفى على من هي فيه فلا يتصوّر قبحها من نفسه أو أنّه قد يتصوّر ذلك لكن يحمله عليها حامل آخر من شهوة أو غضب. ولمّا كان اجتناب الرذائل يستلزم الوقوف على فضيلة العدل في كلّ شيء لا جرم كان اجتنابها أدباً كافياً لمن يجتنبها.

٣٨٩ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ صَبَرَ صَبْرَ ٱلْأَحْرَارِ، وَإِلَّا سَلَا سُلُوَّ ٱلْأَغْمَارِ.

وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال للأشعث بن قيس معزياً:

إِنْ صَبَرْتَ صَبْرَ الأَكَارِمِ، وَإِلَّا سَلَوْتَ سُلُوَّ البَهَائِمِ.

والأغمار: الجهّال جمع غمر. وجذب إلى فضيلة الصبر في المصائب بإضافته إلى الأحرار والأكارم، وبما يلزم عدمه من الغاية وهي السلوّ المشبه لسلوّ الغافلين أو البهائم. وأصل إلّا ـ إن لا ـ أي وإن لا تصبر.

٣٩٠ ـ وقال (عليه السلام) في صفة الدنيا:

نفّر عنها بثلاثة ضمائر:

تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَاباً لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَا عِقَاباً لِأَعْدَائِهِ؛ وَإِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ بَيْنَاهُمْ حَلُّوا إِذْ صَاحَ سَائِقُهُمْ فَٱرْتَحَلُوا.

أحدها: الدنيا تضرّ: أي بمحنتها، وتغرّ: أي بزينتها. وتمرّ: أي بفراقها. إذ من طبيعتها ذلك. واستعار لها وصف الإمرار باعتبار ما يستلزمه فراقها من ألم الجزع والحزن كالمرارة. وروي: وتمرّ ـ بفتح التاء ـ أي تذهب.

الثاني قوله: إنّ الله. إلى قوله: لأعدائه. إذ لو رضيها كذلك لأعطاها أولياءه وحرمها أعداءه.

الثالث: قوله: وإنّ أهل الدنيا. إلى آخره فقوله: بيناهم. إلى آخره. في تقدير صفة لركب: أي كركب من شأنه كذا، ووجه الشبه بالركب الذي شأنه ذلك سرعة ارتحالهم إلى الآخرة كسرعة ارتحال الركب، وتقدير الكبرى في الضميرين الأوّلين: وكلّما كان كذلك فينبغي أن يجتنب ولا يحرص على طلبه، وتقديرها في الثالث: وكلّما كان كذلك فينبغي أن يستعدّ فيه للرحيل والسفر.

٣٩١ ـ وقال لابنه الحسن (عليهما السلام)

لَا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّكَ تُخَلِّفُهُ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ ٱللهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، وَإِمَّا رَجُلٍ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ ٱللهِ فَكُنْتَ عَوْناً لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ؛ وَلَيْسَ أَحَدُ هٰذَيْنِ حَقِيقاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ.

أدّبه عليه السلام بالنهي عن ادّخار المال، ونفّره عن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّك. إلى آخره.

وقوله: بما شقيت به.

أي شقاء الدنيا بجمعه، وشقاء الآخرة بادّخاره لقوله تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ الآية، وتقدير الكبرى وكل من يخلّف مالاً لأحد هذين وليس أحدهما حقيقياً يؤثره على نفسه فلا يجوز أن يخلّفه.

قال الرضي: ويروى هذا الكلام على وجه آخر وهو:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدِكَ مِنَ الدُّنْيَا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى أَهْلٍ بَعْدَكَ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطَاعَةِ اللهِ فِيهِ فَسُعِدَ وشَقِيتَ بِهِ؛ أو رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَشَقِيتَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، وَلَيْسَ أَحَدُ هذيْنِ أَهْلاً أن تُؤثِرَهُ عَلى نَفْسِكَ وَلاَ أَنْ تَحمِلَ لَهُ عَلى ظَهْرِكَ فَارجُ لِمَنْ قَدْ مَضَى رَحْمَةَ اللهِ، وَلِمَنْ بَقِيَ رِزْقَ اللهِ.

أقول: في هذه الرواية تنفير عن الدنيا بضميرين: أحدهما: قوله: فإنّ الذي في يدك. إلى قوله: بعدك، وتقدير كبراه: وكلّما كان كذلك فليس لك أن تحبّه وتعتمد عليه. الثاني: قوله: وإنّما أنت. إلى قوله: ظهرك، وكبراه ما مرّ في الرواية الأولى واستعار لفظ الحمل لاكتساب آثام جمع المال، ورشّح بذكر الظهر. ثمّ أرشده إلى ما هو خير من المال لمن مضى وهو رجاء رحمة الله، ولمن بقي وهو رجاء رزق الله الموعود لكلّ حيّ.

٣٩٢ - وقال (عليه السلام)

لقائل قال بحضرته «أَسْتَغْفِرُ آللهَ» ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ أَتَدْرِي مَا الاِسْتِغْفَارُ؟ الاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيهِ أَبداً، وَالثَّالِثُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى آللهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقُولُ: «أَسْتَغْفِرُ آللهَ».

أقول: ظاهر كلامه عليه السلام يقتضي أنّ اسم الاستغفار الحقّ الذي له درجة العلّيين ويستحقّها صاحبها به واقع على مجموع المعاني الستّة التي أشار إليها وذكرها ليتعرّف حقيقته منها. ويكون إرادة هذا المعنى من لفظ الاستغفار بعرف جديد شرعيّ إذ مفهومه اللغويّ أنّه طلب المغفرة؛ إلاّ أنه لمّا كان

طلبها مشروطاً بحصول المعاني المذكورة أطلق لفظ المشروط على الشرط واستعمله فيه، ويحتمل أن لا يكون غرضه تفسير مهيّة الاستغفار بل الإشارة إلى شرائطه التي لا ينبغي إيقاعه من دونها وهي المعاني الستّة ويكون معنى قوله: أتدري ما الاستغفار: أي الاستغفار التامّ بشرائطه وأعرض عن مهيّته للعلم بها، وأشار إلى تمامه من الشرائط وقصد بالإشارة إلى صدق لفظه على شرائطه تأكيد أنه لا يتم بدونها حتى كان مجموعها نفس حقيقة الاستغفار، واستعار لفظ الأملس لنقاء الصحيفة من الآثام.

٣٩٣ - وقال (عليه السلام)

أَلْحِلْمُ عَشِيرَةٌ.

استعار لفظ العشيرة للحلم باعتبار أنّه يحمي صاحبه ممّن ينافره ويعاديه كما تحميه عشيرته .

٣٩٤ - وقال (عليه السلام)

مِسْكِينُ ابْنُ آدَمَ: مَكْتُومُ الأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ.

ذكر كونه مسكيناً وبيّن ذلك بضمير عدّد فيه وجوه المسكنة والضعف صغراه قوله: مكتوم الأجل. إلى آخره. وهي ظاهرة، وتقدير كبراه: وكلّ من كان كذلك فهو مسكين. ومسكين خبر المبتدأ قدّم عليه لأنّ ذكره أهمّ، وحذف تنوينه تخفيفاً. وغرض الكلام كسر النفوس من سورة الكبر والعجب والفخر وأمثالها عن الرذائل.

٣٩٥ - وروي أنه (عليه السلام)

كان جالساً في أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه السلام: إِنَّ أَبْصَارَ هٰذِهِ الْفُحُولِ طَوَامِحُ، وَإِنَّ ذٰلِكَ سَبَبُ هَبَابِهَا، فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلَامِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كَامْرَأَةٍ، فقال رجل

من الخوارج «قاتله الله كافراً ما أفقهه» فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: رُوَيْداً إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ!

الرمق: النظر. وطموح البصر: ارتفاعه والهبيب والهباب: صوت التيس عند هياجه وطلبه للشاة. واستعار الفحول لهم، ولفظ الهباب لطلبهم للنكاح. وأرشدهم إلى الخلاص من فتنة النظر بملامسة الأهل. ورغّب في ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّما هي امرأة كامرأة: أي فإنّما أهل الرجل امرأة تشبه المرأة المرئيّة، وتقدير الكبرى: وكلّ من يشبهها ففيه عوض منها. وإنّما أطلق الخارجي لفظ الكافر عليه لأنه عليه السلام عند الخوارج مخطىء وكل خطيئة عندهم كفر. وقوله: إنما هو سبّ مقتضى فضيلة العدل.

٣٩٦ ـ وقال (عليه السلام)

كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ.

الغرض من العقل العمليّ هو ما ذكره عليه السلام . وكفى به.

٣٩٧ ـ وقال (عليه السلام)

إِفْعَلُوا الْخَيْرَ وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ، وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم إِنَّ إِحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الخَيْرِ مِنِّي فَيَكُونَ والله كذلك. إِنَّ لِلخَيْرِ وَالشَّرِّ أَهْلاً فَمَهمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُما كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ.

أمر بفعل الخير ونهى عن احتقار شيء منه وإن قلّ، ورغّب فيه بضمير صغراه قوله: فإنّ صغيره كبير وقليله كثير: أي في الاعتبار وبالنسبة إلى من يحتاج إليه. ثمّ نهى أن يقول أحد: إنّ غيره أولى بفعل الخير منه. وهو كناية عن ترك المرء الخير اعتماداً على أنّ غيره بفعله أولى.

وقوله: فيكون والله كذلك.

لأنّ ذلك القول من القائل التارك للخير يكون باعثاً لمن توسّم فيه فعل ذلك الخير ونسبه إليه. فيصدّق قوله وظنّه فيه بفعله له فيكون أولى به منه.

وقوله: إنّ للخير والشر أهلا. إلى آخره.

ترغيب في الخير وتنفير عن الشرّ بذكر أنّ لكلّ منهما أهلاً يكتفى فيه إن تركه من ليس أهله فيكون السامعون من أهل الخير يفعله ويترك الشرّ لأهله.

٣٩٨ - وقال (عليه السلام)

مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ ٱللهُ عَلاَنِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ كَفَاهُ ٱللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱللهِ أَحْسَنَ ٱللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.

فصلاح باطن الإنسان وسرّه بالأخلاق الفاضلة معدّ لإفاضة الله عليه صلاح أقواله وأفعاله الظاهرة لأنّها كالثمرات للباطن، وكذلك عمل الإنسان لدينه وإقامته لحدود الله معدّ لصلاح حاله في معاشه ومهيّىء لعواطف الخلق عليه لاشتغاله بالله عن مجاذبتهم للدنيا. وفي معناه الكلمة الثالثة فإنّ إخلاص العبودية لله وإصلاح معاملته قاطع عن محبّة الدنيا والحرص عليها الذي هو سبب الفساد بين الناس فكان معدّاً لرفع الفساد ودفعه.

٣٩٩ - وقال (عليه السلام)

أَلْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالْعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ.

استعار لفظ الغطاء للحلم باعتبار أنّه يستر سورة الغضب وقبيح ما يصدر عنه من الأفعال بسببها، ورشّح بذكر الساتر، وكذلك استعار لفظ الحسام للعقل باعتبار رفعه لبوادر النفس الأمّارة وإفراطها، ورشّح بذكر القاطع ولذلك أمر بمقاتلة هواه به

٤٠٠ - وقال (عليه السلام)

إنَّ لله عِبَاداً يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ.

أي من عباد الله من يكون مقصوداً بالعناية الإلهيّة بإفاضة النعمة عليه

وإقرارها في يديه لوصول النفع إلى الغير. ويكون ذلك شرطاً فيها فإذا لم يوجد ذلك ارتفعت تلك النعمة بارتفاع شرطها إلى غيرهم. وغرض الكلمة الحثّ على النفع المتعدّي لتجويز كلّ عاقل أنعم الله عليه أن تكون نعمته كذلك.

٤٠١ ـ وقال(عليه السلام)

لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْنِ: الْعَافِيَةِ، وَالْغِنى، بَيْنَا تَرَاهُ مُعَافىً إِذْ سَقِمَ، وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيّاً إِذِ افْتَقَرَ.

نهى عن الوثوق بالخصلتين المذكورتين لكونهما مع ما يقابلهما من السقم والفقر أموراً غير مقدورة للعبد ولا معلومة الأسباب وهي في معرض التعاقب فالوثوق بما كان كذلك جهل فلا ينبغي أن يثق بالخصلتين المذكورتين.

٤٠٢ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ شَكَا الْحَاجَةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكَأَنَّهُ شَكَاهَا إِلَى اللهِ، وَمَنْ شَكَاهَا إِلَى كَافِرٍ فَكَأَنَّمَا شَكَا اللهَ.

شكاية المؤمن إلى المؤمن شكاية في موضعها. إذ كانت ثمرة الشكاية المعاونة على دفع الأمر المشكوّ منه. والمؤمن شأنه ذلك؛ بخلاف الشكاية إلى الكافر. ورغب في الأوّل بتشبيهها بالشكاية إلى الله، ووجه الشبه أنّ المؤمن كالصديق لله فإذا شكى المؤمن إليه أمراً من الله فكأنّه جعله وسيلة إلى الله في شكواه فأشبه الشكوى إليه. ونفّر عن الثانية بتشبيهها بشكوى الله، ووجه الشبه أنّ الكافر عدوّ الله فمن شكى إليه أمراً فكأنّما شكى من الله إلى عدوّه.

٤٠٣ ـ وقال (عليه السلام) في بعض الأعياد:

إِنَّمَا هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللهُ صِيَامَهُ وَشَكَرَ قِيَامَهُ، وَكُلُّ يَوْمٍ لَا يُعْصَى اللهُ فِيهِ فَهُوَ عِيدٌ.

غرض الكلمة الجذب إلى عبادة الله وطاعته، وكسر النفوس عن الفرح بما ليس لله فيه نصيب سواء كان زماناً أو مكاناً أو غيرهما. ولمّا كان العيد عبارة عن يوم تسرّ فيه الناس وتفرح فيه فكلّ يوم لا يعصى الله فيه فهو أولى بالفرح والسرور فيه وأن يسمّى عيداً في عرف أولياء الله والطالبين لما عنده.

٤٠٤ ـ وقال (عليه السلام)

إنَّ أعْظَمَ الحَسَرَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مَالاً فِي غَيْرِ طاعة الله فَوَرِثَهُ رَجلٌ فأنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ الله سُبْحَانَهُ فَدَخَلَ بِهِ الجَنَّةَ وَدَخَلَ الأوَّلُ بِهِ النَّارَ.

غرض الكلمة الجذب عن الكسب الحرام، وادّخار المال والتنفير عنه بما ذكر.

وقوله: أعظم الحسرات.

لا يقتضي أن يكون كلّ ما هو أعظمها. وإنّما كان ذلك حسرة عظيمة لعدم منفعته بالمال في الدنيا، وعذابه في الآخرة، ومشاهدته لانتفاع الغير به هناك.

٤٠٥ ـ وقال (عليه السلام)

إنَّ أخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً، وَأخْيَبَهُمْ سَعْياً رَجُلٌ أخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ مَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ المَقَادِيرُ عَلى إرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَى الآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ.

استعار وصف الأخسر صفقة لمن ذكر باعتبار استعاضته للدنيا عن الآخرة ومع عدم موافقة القدر له في حصول آماله الدنيويّة. وظاهر أنّه أخسر من اتّجر. وتبعته ما يلحقه من عقوبات الآلام المكتسبة له من سعيه.

٤٠٦ ـ وقال (عليه السلام)

الرِّزْقُ رِزْقَانِ: طَالِبٌ، وَمَطْلُوبٌ؛ فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ الْمَوْتُ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْهَا، وَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ رِزْقَهُ مِنْهَا.

استعار للرزق وصف الطالب باعتبار أنّه لا بدّ من وصوله فهو كالطالب لصاحبه. ونفّر عن طلب الدنيا بما يلزمها من الغاية المقدّرة وهي الموت فكأنه طالب للمرء لغاية إخراجه من الدنيا بسبب طلبه لها، ورغّب في طلب الآخرة بما يلزمه من طلب الدنيا وأهلها لمن انقطع عنها حتى يصل اليه رزقه منها وهو محمود. وقد بيّنا فيما سلف وجه إقبال الناس على من ينقطع عنهم.

٤٠٧ ـ وقال (عليه السلام)

إنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللهِ هُمُ ٱلَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ ٱلدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ ٱلنَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَٱشْتَغَلُوا بِآجِلِهَا إِذَا ٱشْتَغَلَ ٱلنَّاسُ بِعَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمِيتَهُمْ؛ وَتَرَكُوا مِنهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ وَرَأَوُا ٱسْتِكْثَارَ غَيْرِهِمْ مِنْهَا ٱسْتِقْلاَلاً، وَدَرَكَهُمْ لَهَا فَوْتاً، أَعْدَاءُ مَا سَالَمَ ٱلنَّاسُ وَسَلْمُ مَا عَادَى ٱلنَّاسُ! بِهِمْ عُلِمَ ٱلْكِتَابُ وَبِهِ عَلِمُوا؛ وَبِهِمْ قَامَ ٱلْكِتَابُ وَهُمْ بِهِ قَامُوا؛ لاَ يَرَوْنَ مَرْجُوّاً فَوْقَ مَا يَرْجُونَ، وَلاَ مَخُوفاً فَوْقَ مَا يَخَافُونَ.

أقول: ميّز أولياء الله بصفات عشر:

إحداها: أنهم نظروا الى باطن الدنيا: أي حقيقتها، وغرض الحكمة الإلهية من وجودها فعملوا فيها على حسب علمهم إذا نظر الناس الى ظاهرها من زينتها وقيناتها.

الثانية: واشتغلوا بآجلها وهو ما جعله الله نصب أعينهم غرضاً مقصوداً منها ثمرة للاستعداد بها وهو ثواب الله ورضوانه إذا اشتغل الناس بعاجلها وحاضر لذّاتها.

الثالثة: فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم. وهو نفوسهم الأمّارة بالسوء التي يخشى من غلبتها واستيلائها على العقل موته وهلاكه في الآخرة، ويحتمل أن يريد بما أماتوه منها قيناتها استعارةً. فكأنّهم لمّا رفضوها ولم يلتفتوا إليها قد أماتوا ولم يبق لها حياة عندهم.

الرابعة: وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم. وهو زينتها وقيناتها التاركة

لهم بالموت عنها. و- من - في الموضعين لبيان الجنس.

الخامسة: ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً - ودركها لها فوتاً: أي استقلالاً من الخير الباقي وفوتاً له إذ كان دركها والاستكثار بها سبباً لذلك.

السادسة: أعداء ما سالم الناس وهي الدنيا، وسلم ما عادى الناس وهي الآخرة.

الثامنة: بهم علم الكتاب. لحفظهم إيّاه وتفقّههم له وإفادتهم به، وبه علموا لاشتهارهم به عند الناس.

التاسعة: وبهم قام الكتاب: أي صارت أحكامه قائمة في الخلق معمولاً بها، وبه قاموا: أي بأوامره ونواهيه وبما ينبغي له. ويحتمل أن يريد أنّ قيامهم في معاشهم ومعادهم ببركته.

العاشرة: لا يرون مرجوّاً فوق ما يرجون من ثواب الله، ولا يخافون مخوفاً فوق ما يخافون من عذاب الله والحجب عنه. وذلك لعلمهم بالمرجوّ والمخوف هناك.

٤٠٨ - وقال (عليه السلام)

أُذْكُرُوا ٱنْقِطَاعَ اللَّـذَّات، وَبَقَاءَ التَّبِعَاتِ.

والغرض التنفير عن الدنيا.

٤٠٩ - وقال (عليه السلام)

أُخْبُرْ تَقْلِهْ.

قال الرضي: ومن الناس من يروي هذا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومما يقوّي أنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي، قال المأمون: لولا أن عليا قال: «اخبر تقله» لقلت: أَقْلِهْ تَخْبُرْ.

قلاه يقليه قِلىً
بالكسر - وقلاءً - بالفتح - أبغضه. والهاء مزيدة للسكت وهو أمر في معنى

الخبر يجري مجرى المثل، والمعنى من خبرت باطنه قليته. والحكم أكثري لكثرة ما عليه الناس من حيث السريرة ورذائل الأخلاق. وما نقل عن المأمون من العكس يريد به أنّ إظهار البغض للشخص يكشف عنه باطنه لأنه إمّا أن يقابل بمثل ذلك أو يترك فيعرف خيره من شرّه. ونقل مثله عن أبي بكر الإصفهاني قال: لولا أنّ الاعتراض على السلف من الجهالة والسرف لقلت: القلى ثمّ الخبر؛ حتى لا يكون الإنسان مضيّعا وقته، واضعاً في غير موضعه مقته.

٤١٠ ـ وقال (عليه السلام)

مَا كَانَ ٱللهُ لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الشُّكْرِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الزِّيَادَةِ، وَلَا لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بَابَ الدُّعَاءِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الإجَابَةِ وَلَا لِيَفْتَحَ لِعَبْدٍ بَابَ التَّوْبَةِ وَيُغْلِقَ عَنْهُ بَابَ الْمَغْفِرَةِ.

أشار إلى استلزام أمور ثلاثة وهي الشكر للمزيد والدعاء للإجابة والتوبة للمغفرة. فمن فتح الله له باب إحدى هذه الملزومات فأعدّه له وألهمه إيّاه وجب في جوده أن يفتح له باب لازمه ويفيضه عليه. إذ لا بخل في وجوده ولا منع في سلطانه. ووصف فتح الباب مستعار لتيسير الله تعالى العبد لذلك وإعداده له.

٤١١ ـ وسئل (عليه السلام)

أيما أفضل: العدل، أو الجود؟ فقال عليه السلام: أَلْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا.

أشار إلى أفضليّة العدل بضميرين صغرى الأول: قوله: العدل إلى قوله: جهتها. يريد أنّ طليعة الجود يقتضي من صاحبها إخراج كلّ ما يملكه عن مواضعه ومواضع حاجته التي هي أولى به بمقتضى العدل. الثاني: قوله: والعدل. إلى قوله: خاص. واستعار له لفظ السائس باعتبار أنّ به نظام العالم

والجود عارض خاصّ بمن يصل إليه من بعض الناس. وتقدير الكبرى فيهما: وكلّ أمرين كانا كذلك فالعدل أشرفهما وأفضلهما.

وقوله: فالعدل. إلى آخره هو النتيجة.

٤١٢ ـ وقال (عليه السلام)

أَلنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

وقد مرّ بيانه.

٤١٣ ـ وقال (عليه السلام)

الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ: قَالَ آللهُ سُبْحَانَهُ. (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُم، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى المَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالآتي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ.

الأمران المذكوران في الآية غايتان من الزهد والإعراض عن الدنيا في قوة خاصّة مركّبة تلزم الزهد، ونبّه عليها لتعريفه بها، وكنّى بقوله: فقد أخذ الزهد بطرفيه. عن استكمال حقيقة الزهد وكمالاتها حينئذ وظاهر أنّ وجود الخاصّة المذكورة مستلزم للإعراض عن الدنيا وطيّباتها بالقلب وهو الزهد الحقيقيّ.

٤١٤ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْوِلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ.

أراد بالمضامير مظانّ معرفة جودة الفرس وهي الأمكنة التي يقرن فيها الخيل للسباق، واستعار لفظها للولايات باعتبار أنّها مظانّ ظهور جودة الوالي من خسّته ورداءته كما أنّ المضامير للخيل كذلك.

٤١٥ ـ وقال (عليه السلام)

مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ.

أقول: ـ ما ـ هاهنا للتعجّب. وهذه الكلمة تجري مجرى المثل يضرب لمن يعزم على أمر فيغفل عنه أو يتهاون فيه ويتراخى عن فعله حتى ينتقض عزمه عنه. وأصله أنّ الإنسان قدينوي السفر مثلاً أو الحركة بقطعة من الليل ليتوفّر في نهاره على سيره فيغلبه النوم إلى الصباح فيفوت وقت عزمه فينتقض ما كان عزم عليه في يومه.

٤١٦ ـ وقال (عليه السلام)

لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ الْبِلاَدِ مَا حَمَلَكَ.

أقول: ما حملك: أي ماوجدت فيه قيام حالك وصلاح معاشك فأمكنك الإقامة به. واستعار الحمل له باعتبار حمل مؤونته ملاحظة لشبهه بالجمل ونحوه. وإلى ذلك أو قريب منه أشار أبو الطيّب: وفي بلاد اختها بدل. وكذلك عليّ بن مقرب البحراني في قوله:

لي عن بلاد الأذى والهون متّسع ما بين حرّ وبين الدار من نسب

٤١٧ ـ وقال (عليه السلام)

وقد جاءه نعي الأشتر رحمه الله: مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكَانَ فِنْداً لاَ يَرْتَقِيهِ الْحَافِرُ، وَلاَ يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ.

قال الرضي: والفند: المنفرد من الجبال.

ومالك مبتدأ أو فاعل: أي مات مالك. وما استفهاميّة في معرض التعجّب من مالك ـ رحمه الله ـ وقوّته في الدين.

٤١٨ ـ وقال (عليه السلام)

قَلِيلٌ مَدُومٌ عَلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.

وذلك من الأمور التي ينبغي أن يفعل. وإنّما كان كذلك لأنّ الدوام على القليل منها يفيد النفس ملكة الطاعة والخير وصيرورتهما خلقاً بخلاف الكثير المملول منه. ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ هذا الدين متين فأوغل

فيه برفق فإنّ المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى. وقد مرّ هذا الكلام بعينه.

٤١٩ ـ وقال (عليه السلام)

إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَانْتَظِرُوا أَخَوَاتِهَا.

والرائقة: المعجبة: أي إذا كان في الإنسان خلق فاضل فإنّ طبعه مظنّة أن يكون فيه جملة من الأخلاق الفاضلة المناسبة لذلك الخلق ويتوقّع وينتظر منه. كمن يكون من شأنه الصدق فإنّه ينتظر الوفاء وحسن الصحبة وبالعكس، وكمن يكون من شأنه العفّة فإنّه يتوقّع منه الكرم والمسامحة والبذل والصداقة والمحبّة ونحوها، وكمن يكون شجاعا فإنّه يتوقّع منه عظمة الأئمّة والحلم والثبات، وكذلك من كان فيه ضدّ ذلك من الرذائل.

٤٢٠ ـ وقال (عليه السلام)

لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق في كلام دار بينهما: مَا فَعَلَتْ إِبِلُكَ الْكَثِيرَةُ؟ قَالَ: ذَعْذَعَتْهَا الْحُقُوقُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فقال عليه السلام: ذٰلِكَ أَحْمَدُ سُبُلِهَا.

الكلام الذي دار بينهما أنّ غالباً دخل على علي عليه السلام وهو شيخ كبير معه ابنه همام الفرزدق وهو غلام يومئذ فقال له عليه السلام: من الشيخ؟ فقال: أنا غالب بن صعصعة. قال ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: ما فعلت إبلك؟ قال ذعذعتها الحقوق وأذهبتها الحالات والنوائب. فقال: ذاك أحمد سبلها. فقال: من هذا الغلام؟ فقال: هذا ابني همام روّيته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ويوشك ان يكون شاعراً ميداً. قال: أقرأه القرآن فهو خير. فكان الفرزدق يروي هذا الحديث ويقول: ما زالت كلمته في نفسي حتى قيّد نفسه بقيد وآلى أن لا يفكه حتى يحفظ القرآن فما فكه حتى حفظه. وذعذعتها ـ بالذال المعجمة مكرّرة ـ: فرّقتها.

٤٢١ ـ وقال (عليه السلام)

مَنِ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ارْتَطَمَ فِي الرِّبَا.

ارتطم في الوحل ونحوه: وقع فيه فلم يمكنه الخلاص. وهو وصف مستعار لغير الفقيه باعتبار أنّه لا يتمكن من الخلاص من الربا وذلك لكثرة اشتباه مسائل الربا بمسائل البيع حتى لا يفرق بينهما إلّا أكابر الفقهاء مع وقوع الخلاف الشديد بينهم فيها كبيع لحم البقر بالغنم متفاضلاً فجوّزه أبو حنيفة قائلاً إنّهما جنسان مختلفان ومنع منه الشافعي. إلى غيرها من المسائل.

٤٢٢ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ عَظَّمَ صِغَارَ الْمَصَائِبِ ٱبْتَلاَهُ الله بِكِبَارِهَا.

وإنّما لزمه ذلك لاستعداده بتضجّره وتسخّطه من قضاء الله لزيادة البلاء ولو قد حمد الله على بلائه لاستعدّ بذلك لدفعه.

٤٢٣ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ هَانَتْ عَلَيْهِ شَهَوَاتُهُ.

وذلك لكونهما عدوّان فإكرام أحدهما يستلزم إهانة الأخرى فمن كرمت عليه نفسه لزمه حفظها وحمايتها من عذاب الله وذلك مستلزم لهوان شهوته عليه وعدم مراعاته لأنّها تقتضي ضدّ ذلك.

٤٢٤ ـ وقال (عليه السلام)

مَا مَزَحَ ٱمْرُؤٌ مَزْحَةً إلاَّ مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةً.

وذلك لأنّ العقل يقتضي صيانة العرض والبقاء على حدّ توقر معه صاحبه ولا يستخفّ به. والمزاح الذي لا ينبغي يقتضي أضداد ذلك فهو مستلزم لمخالفة العقل وتركه. فاستعار لفظ المجّ لما يطرحه الإنسان من عقله في مزحه أو مزحاته. فكأنّه قد مجّه كما مجّ الماء من فيه ويلقيه.

٤٢٥ ـ وقال (عليه السلام)

زُهْدُكَ فِي رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، وَرَغْبَتُكَ فِي زَاهِدٍ فِيكَ ذُلُّ نَفْسٍ.

أمّا الأوّل فلأنّ من تمام الحظّ كثرة الإخوان للإعانة على صلاح أمر المعاش والمعاد. فالزهد فيهم يستلزم نقصان الحظّ، ولأنّ مجازاة الرغبة بمثلها فضيلة من تمام الحظّ النفسانيّ فعدمها يستلزم نقصانه. وأمّا الثاني فاستلزام الرغبة الزاهد فيك للذلّ والخضوع له ظاهر. والكلمتان صغريا ضمير نفّر به عن الزهد في الراغب فيك والرغبة فيمن يزهدك.

٤٢٦ ـ وقال (عليه السلام)

مَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرِ: أَوَّلُهُ نُطْفَةٌ. وَآخِرُهُ جِيفَةٌ، وَلاَ يَرْزُقُ نَفْسَهُ، وَلاَ يَدْفَعُ حَتْفَهُ.

استفهم تعجّباً من وجه الجمع بين الإنسان والفخر ونبّه على عدم المناسبة بينهما بضمير صغراه قوله: أوّله. إلى آخره. وتقدير الكبرى: وكلّ من كان كذلك فلا مناسبة بينه وبين الفخر. وروي: الفخر ـ منصوباً ـ على المفعول معه.

٤٢٧ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْغِنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى آللهِ.

وأراد الغنى الحقيقي بالثواب، والفقر بعدمه في الآخرة.

٤٢٨ ـ وسئل (عليه السلام)

عن أشعر الشعراء؟ فقال عليه السلام: إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلْبَةٍ تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا؛ فَإِنْ كَانَ وَلاَ بُدَّ فَالْمَلِكُ الضِّلِّيلُ (يريد امرأ القيس).

أراد أنّهم لم يقولوا الشعر على منهاج واحد حتى يفاضل بينهم بل كان لكلّ منهم حالة خاصّة يجيد فيها وتنبعث فيها قريحته. فواحد يجيد في الرغبة، وآخر في الرهبة، وآخر في النشاط والطرب. ولذلك قيل: أشعر العرب امرء القيس إذا ركب، والأعشى إذا رغب، والنابغة إذا رهب. واستعار لفظ الحلبة وهي القطعة من الخيل يقرن للسباق للطريقة الواحدة، ورشّح

بذكر الإجراء والغايـة وقصبتها وذلـك أنّ عادة العـرب أن يضع قصبـة في آخر المدى فمن سبق إليها وأخذها فاز بالسبق والغلب.

وقوله: فإن كان ولا بدّ.

أي من الحكم. وإنما حكم له بذلك باعتبار جودة شعره في اكثر حالاته دون غيره كما روي عنه برواية أخرى ان ابا الاسود سأله عن أشعر العرب. فقال: لو رفعت للقوم غاية علمنا من السابق منهم ولكنٍ إن لم يكن فالذي لم يقل عن رغبة ولا رهبة وهو الملك الضليل. وسمّي ضليلاً لكثرة ضلالته وقوّتها، وقيل: لأنّه تنصّر في آخر عمره. وقيل: لأنه كان كثيـر التهتّك وإعـلان الفسق كمـا في شعره. وروي عن المتنبي: أنّ امـرء القيس استـدرّ النـاقـة وركبهـا، وأخذ طرفة ما طاب من لحمها، وأخذ لبيد بأمعائها وأكبادهـا، وبقيت عظامهـا وأرواثهـا فاقتسمنـاها نحن. قيـل للبيد بن ربيعـة: من أشعر العـرب؟ فقـال: الملك الضليـل. فقيل: ثمّ من؟ قـال: الفتى القليل يعنى طـرفة. فقيـل: ثمّ من؟ فقال: الشيخ أبو عقيل يعني نفسه.

٤٢٩ ـ وقال (عليه السلام)

أَلَا حُرٌّ يَدَعُ هٰذِهِ اللُّمَاظَةَ لأَهْلِهَا؟ إِنَّهُ لَيْسَ لأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ، فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا.

اللماظة: ـ بضم اللام ـ ما يبقى في الفم من الطعام. ولفـظها مستعـار للدنيا باعتبار قلّتها وحقارتها. ودعـا إلى تركهـا ثمّ جذب عنهـا بضمير صغـراه قـوله: فـإنّه. إلى قـوله: الجنّـة. وهـو كقـولـه تعـالى: ﴿**إنّ الله اشتـرى من المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بأنّ لهم الجنّـة**﴾[1] وتقديـر الكبرى: وكلّمـا كان ليس لأنفسكم ثمن إلّا هو فينبغي أن لا تبيعوها إلّا به.

٤٣٠ ـ وقال (عليه السلام)

عَلَامَةُ الإِيمَانِ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُـرُّكَ عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُـكَ

---

(١) ٩ ـ ٣٩.

وَأَنْ لاَ يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ وَأَنْ تَتَّقِيَ آللهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ.

أشار من علامات الايمان إلى ثلاث:

أحدها: أن يؤثر الصدق الضارّ على الكذب النافع محبّة للفضيلة وكراهة للرذيلة.

الثانية: أن لا يكون في حديثه فضل وزيادة عن علمه وهو العدل في القول والاحتراز من رذيلة الكذب.

الثالثة: أن يتّقي الله في حديث غيره فلا يخوض في عرضه بغيبة أو سماعها. وقيل: أراد أن يحتاط في الرواية فيروي عنه حديثه كما هو.

٤٣١ ـ وقال (عليه السلام)

يَغْلِبُ الْمِقْدَارُ عَلَى التَّقْدِيرِ حَتَّى تَكُونَ الآفَةُ فِي التَّدْبِيرِ.

المقدار: القدر. ولمّا كان الإنسان جاهلاً بأسرار القدر كان بناء تقديره وتدبيره لنفسه على أوهام لاثقة بها فجاز فيما دبّره هو لنفسه واعتقده سبباً للمصلحة أن يكون من أسباب مفسدته وهلاكه. وقد مرّ بيان ذلك.

٤٣٢ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ تَوْأَمَانِ يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الْهِمَّةِ.

استعار لهاتين الفضيلتين لفظ التوأمين باعتبار استلزام علوّ الهمّة وصدروهما بواسطتها وذلك أنّ عالي الهمّة يستحقر كلّ ذنب ومذنب في حقّه فيحلم عنه ويتأنّى عن المبادرة إلى مقابلته.

٤٣٣ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْغِيبَةُ جُهْدُ الْعَاجِزِ.

أكثر ما تصدر الغيبة عن الأعداء والحسّاد الذين يعجزون عن بلوغ أغراضهم وشفاء صدورهم فيعدلون الى اظهار معايب اعدائهم لما يجدون فيه

من اللذة. ونفّر عنها بنسبة فاعلها الى العجز، وأنّها غاية جهده ليأنف من ذلك النقصان ولا يرضى به.

٤٣٤ ـ وقال (عليه السلام)

رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ.

وأصل الفتنة: الانصراف: أي ربّ مصروف عن تحصيل الفضيلة والطاعة وإكمالها وبالمدح والاطراء كمن يمدح بكثرة العبادة مثلاً فيقوده ذلك الى الاقتصار على ذلك القدر منها.

وقال السيد ـ رحمه الله ـ: وهذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قطع المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حامدين لله سبحانه على ما منّ به من توفيقنا لضمّ ما انتشر من أطرافه وتقريب ما بعد من أقطاره. وتقرّر العزم كما شرطنا أوّلاً على تفضيل أوراق من البياض في آخر كلّ باب من الأبواب ليكون لاقتناص الشارد واستلحاق الوارد وما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض ويقع إلينا بعد الشذوذ. وما توفيقنا إلاّ بالله عليه توكّلنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أقول: إنّه ـ رضوان الله عليه ـ بلغ في اختيار كلامه عليه السلام إلى هذه الغاية وقطعه عليها. ثمّ كتبت على عهده زيادة من محاسن الكلمات إمّا باختياره هو أو بعض من كان يحضره من أهل العلم وتلك الزيادة تارة توجد خارجة عن المتن وتارة موضوعة فيه ملحقة بمنقطع اختياره، وروي أنّها قرئت عليه وأمر بإلحاقها بالمتن. وأوّلها.

٤٣٥ ـ وقال (عليه السلام)

أَلدُّنْيَا خُلِقَتْ لِغَيْرِهَا، وَلَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِهَا.

وأراد أنّها خلقت للاستعداد فيها وبها لدرك ثواب الله في الآخرة لا ليلتذّ بها الجاهلون.

٤٣٦ ـ وقال (عليه السلام)

إِنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مُرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ، وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ كَادَتْهُمُ الضِّبَاعُ لَغَلَبَتْهُمْ.

قال الرضي: والمرود هنا مفعل من الإرواد، وهو الإمهال والإنظار، وهذا من أفصح الكلام وأغربه، فكأنه عليه السلام شبه المهلة التي هم فيها بالمضمار الذي يجرون فيه إلى الغاية، فإذا بلغوا منقطعها انتقض نظامهم بعدها.

أقول: استعار لفظ المرود لمدّة دولتهم، ووجه المشابهة هو ما ذكره السيّد. والكلام ظاهر الصدق فإنّ دولتهم لم تزل على الاستقامة إلى حين اختلافهم وذلك حين ولي الوليد بن يزيد فخرج عليه يزيد بن الوليد فخرج عليه إبراهيم بن الوليد وقامت حينئذ دعاة بني العباس بخراسان وأقبل مروان بن محمد من الجزيرة يطلب الخلافة فخلع إبراهيم بن الوليد وقتل قوماً من بني أميّة واضطرب أمر دولتهم وكان زوالها على يد أبي مسلم وكان في بدو أمره أضعف خلق الله وأشدّهم فقراً. وفي ذلك تصديق قوله عليه السلام: ثمّ كادتهم الضباع لغلبتهم. ولفظ الضباع قد يستعار للأراذل والضعفاء. وهذا من كراماته.

٤٣٧ ـ وقال (عليه السلام)

في مدح الأنصار: هُمْ وَٱللهِ رَبَّوا ٱلإِسْلَامَ كَمَا يُرَبِّي ٱلْفِلْوُ مَعَ غَنَائِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ السِّبَاطِ وَأَلْسِنَتِهِمُ السِّلَاطِ.

والفلو: المهر. والسباط: السماح، ويقال للحاذق في الطعن: إنّه لسبط اليدين يريد أنّه ثقيف فيه. والسلاط: الحديد الفصيح، وشبّه تربيتهم للإسلام وحمايتهم له بتربية الفلو، ووجه الشبه شدّة عنايتهم به وحسن مراعاته إلى حين كماله.

٤٣٨ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْعَيْنُ وِكَاءُ السَّهُ.

قال الرضي: وهذه من الاستعارات العجيبة، كأنه يشبه السه بالوعاء، والعين بالوكاء، فإذا أطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء، وهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد رواه قوم لأمير المؤمنين عليه السلام، وذكر ذلك المبرد في كتاب «المقتضب» في باب «اللفظ بالحروف» وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بـ«مجازات الآثار النبوية».

وأقول: إنّه استعار لفظ الوكاء وهو رباط القربة للعين باعتبار حفظ الإنسان في يقظته لنفسه من أن يخرج منه ريح ونحوها كمايحفظ الوكاء ما يوكى به، وفي ذلك ملاحظة تشبيه السه بالوعاء كالقربة، ومن تمام الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فإذا نامت العينان استطلق الوكاء.

٤٣٩ ـ وقال (عليه السلام)

في كلام له: وَوَلِيَهُمْ وَالٍ فَأَقَامَ وَٱسْتَقَامَ، حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ.

المنقول: أنّ الوالي هو عمر بن الخطاب. والكلام من خطبة طويلة له عليه السلام في أيّام خلافته يذكر فيها قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختصاصه له وإفضاءه بأسراره إليه إلى أن قال فيها: فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم فقارب وسدّد حسب استطاعته على ضعف وجدّ كانا فيه. ثمّ وليهم بعده وال فأقام واستقام حتى ضرب الدين بجرانه على عسف وعجز كانا فيه. ثمّ استخلفوا ثالثاً لم يكن يملك أمر نفسه شيئاً. ، غلب عليه أهله فقادوه إلى أهوائهم كما يقود الوليدة البعير المحطوم، ولم يزل الأمر بينه وبين الناس يبعد تارة ويقرب أخرى حتى نزوا عليه فقتلوه. ثمّ جاؤا في مدبّ الدبى يريدون بيعتي. في كلام طويل. والجران: مقدّم عنق البعير. وضربه بجرانه كناية بالوصف المستعار عن استقراره وتمكّنه كتمكن البعير البارك من الأرض.

٤٤٠ ـ وقال (عليه السلام)

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ يَعَضُّ الْموسِرُ فِيهِ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِذٰلِكَ، قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ تَنْهَدُ فِيهِ ٱلْأَشْرَارُ وَتُسْتَذَلُّ فِيهِ ٱلْأَخْيَارُ، وَيُبَايِعُ الْمُضْطَرُّونَ وَقَدْ نَهَى رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَنْ بَيْعِ الْمُضْطَرِّينَ.

تنهد: أي ترتفع وتعلو. وذكر للزمان مذاماً:

أحدها: استعار له لفظ العضوض باعتبار شدّته وأذاه كالعضوض من الحيوان. وفعول للمبالغة.

الثانية: يعضّ الموسر فيه على ما في يديه. وهو كناية عن بخله بما يملك. ونبّه على صدق قوله: ولم يؤمر بذلك. بقوله تعالى: **﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾** فإنه يفيد الندب إلى بذل الفضل من المال وذلك ينافي الأمر بالبخل.

الثالثة: أنّه تعلو فيه درجة الأشرار وتستذلّ الأخيار.

الرابعة: ويبايع فيه المضطرّون: أي كرها لأئمّة الجور. ونبّه على قبح ذلك بنهي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٤٤١ ـ وقال (عليه السلام)

يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ مُطْرٍ وَبَاهِتٌ مُفْتَرٍ.

قال الرضي: وهذا مثل قوله: هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ.

فالمحبّ المطري بكثرة المدح كالغلاة هم في طرف الإفراط، والذي يبهته ويفتري عليه بأنّه كافر ومخطىء كالخوارج هم في طرف التفريط. وكلاهما رذيلتان خارجتان عن فضيلة العدل فيه. وقد علمت أنّ الرذائل مهاوي الهلاك الأخروي. وقد سبق مثله.

٤٤٢ - وسئل عن التوحيد والعدل فقال (عليه السلام)

التَّوْحِيدُ أَنْ لاَ تَتَوَهَّمَهُ، وَالْعَدْلُ أَنْ لاَ تَتَّهِمَهُ.

وهاتان الكلمتان على وجازتهما في غاية الشرف، وعليهما مدار العلم الإلهي. والكلمة الأولى أجلّ كلمة ربّى بها على التوحيد والتنزيه، وقد بيّنا مفهومها في أول الخطبة الأولى من الكتاب. وجملة القول فيها هاهنا أنه لما كان الوهم إنّما يدرك المعاني الجزئيّة المتعلّقة بالمحسوس ولا بدّ أن يستعين في إدراكه وضبطه بالقوّة المتخيّلة حتى يصوّره ويلحقه بالأمور المحسوسة وكان الباري تعالى منزّها بمقتضى العقل الصرف عن المحسوسات وما يتعلّق بها لا جرم لم يجز أن يوجّه الوهم في تصوّره تعالى ويجري على ذاته المقدّسة أحكامه. إذ لا يكون في حقّه إلّا كاذبة لاقتضائها كونه محسوساً أو متعلّقاً بالمحسوس الذي من شأنه الكثرة والتركيب المنافيان للوحدة المطلقة. فيكون قد عرّف التوحيد بخاصّة من خواصّه وهي لازم سلبيّ.

وأمّا الكلمة الثانية: فالمراد من العدل اعتقاد جريان العدل في جميع أفعاله تعالى وأقواله ومن لوازم ذلك الخاصّة به أن لا يتّهمه العبد أنّه يجبره على القبيح ثمّ يعاقبه عليه، أو أنّه يكلّفه ما لا يطيقه، ونحو ذلك من مسائل أصول الدين التي اعتمد فيها المعتزلة على ظواهر كلامه تعالى.

٤٤٣ - وقال (عليه السلام)

لاَ خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي الْقَولِ بِالْجَهْلِ.

الصمت عن الحكمة رذيلة تفريط من فضيلة القول. والقول بالجهل رذيلة إفراط ولا خير فيهما بل فيما يتوسّطهما من القول بالحكمة.

٤٤٤ - وقال (عليه السلام)

في دعاء استسقى به: اَللّهُمَّ آسْقِنَا ذُلُلَ السَّحَابِ دُونَ صِعَابِهَا.

قال الرضي: وهذا من الكلام العجيب الفصاحة، وذلك أنه عليه السلام شبه السحاب ذوات الرعود والبوارق والرياح والصواعق بالإبل الصعاب التي

تقمص برحالها وتقص بركبانها، وشبه السحاب خالية من تلك الروائع بالإبل الذلل التي تحتلب طيعة وتقتعد مسمحة.

وأقول: إنّ لفظي الذلل والصعاب مستعاران للسحاب لمكان المشابهة التي ذكرها السيّد. وقصت به راحلته: رمت به وتتوقصّ بركبانها: أي تنزو بهم نزواً يقارب الخطو. والروائع: الأمور المخوفة.

٤٤٥ ـ وقيل له (عليه السلام)

لو غيرت شيبك يا أمير المؤمنين، فقال عليه السلام: أَلْخِضَابُ زِينَةٌ وَنَحْنُ قَوْمٌ فِي مُصِيبَةٍ! (يريد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

وهو ظاهر.

٤٤٦ ـ وقال (عليه السلام)

مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا.

النهم بالفتح: إفراط الشهوة في الطعام، ولفظه مستعار لشدّة طلب المتعلّم وحرصه على العلم وطلب صاحب الدنيا، وكذلك وصف عدم الشبع بهما. والكلمة مرويّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: منهومان لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم

٤٤٧ ـ وقال (عليه السلام)

أَلْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ.

قال الرضي: وقد روى بعضهم هذا الكلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

واستعار لفظ المال للقناعة بوصف عدم النفاد باعتبار أنّ بها الغنى الدائم كالمال الباقي أبداً.

٤٤٨ ـ وقال (عليه السلام)

لزياد بن أبيه ـ وقد استخلفه لعبد الله بن العباس على فارس وأعمالها،

في كلام ـ طويل كان بينهما نهاه فيه عن تقدم الخراج: إِسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ، وَآحْذَرِ الْعَسْفَ وَالْحَيْفَ؛ فَإِنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بِالْجَلاءِ وَالْحَيْفَ يَدْعُو إِلَى السَّيْفِ.

أمره باستعمال العدل وحذّره من حيف الناس وعسفهم وهو حملهم على مكاره. ونفّر عن ذلك بضمير صغراه قوله: فإنّ العسف. إلى آخره: أي يعود بجلاء المعسوف بهم عن أوطانهم، وظاهر أنّ الظلم معدّ لذلك، أو لقيام السيف على الظالم من غيره. وتقدير الكبرى: وكلّما كان كذلك فيجب اجتنابه.

٤٤٩ ـ وقال (عليه السلام)

أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا آسْتَخَفَّ بِهِ صَاحِبُهُ.

وذلك أنه يدوم عليه لاستسهاله إيّاه حتى يصير ملكة وخلقاً لا ينفك عنه بخلاف ما يستصعبه فإنّه يوشك أن يقلع عنه قبل استحكامه. وقد مرّ تفسيره.

٤٥٠ ـ وقال (عليه السلام)

مَا أَخَذَ آللهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا.

لمّا كان التعلّم على الجاهل فريضة ولا يمكن إلّا بمعلّم عالم كان وجوب التعلّم على الجاهل مستلزماً لوجوب التعليم على العالم، وفي الخبر المرفوع: من تعلّم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار. وروى معاذ بن جبل عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله حسنة، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنّه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنّة، والمونس في الوحشة، والمحدّث في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السرّاء، والمعين على الضرّاء، والزين عند الأخلّاء. والسلاح على الأعداء.

٤٥١ ـ وقال (عليه السلام)

شَرُّ الْإِخْوَانِ مَنْ تَكَلِّفَ لَهُ.

أي من أحوج إلى الكلفة له. وذلك أنّ الأخوة الصادقة تستلزم الانبساط بين الإخوان وترك التكلّف من بعضهم لبعض. فكان عدم هذا اللازم ووجود التكلّف مستلزماً لعدم ملزومه وهو صدق الإخاء ومن لا يكون أخ صدق فهو شرّ الإخوان. والكلمة في قوّة صغرى نبّه به على اجتناب أخ كذلك، وتقديرها: من أحوج إلى التكلّف له فهو شرّ الإخوان، وتقدير الكبرى: ومن كان شرّاً لزم مجانبته.

٤٥٢ ـ وقال (عليه السلام)

إِذَا ٱحْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ.

حشمه، أحشمه: بمعنى أغضبه، وقيل: أخجله.

والكلام صغرى ضمير نفّر به عن احتشام الأخ لأخيه، وذلك أنّ احتشامه له على كلى المعنيين يوجب نفرته وعدم أنسه به وهو من دواعي مفارقته وموجباتها وتقدير ما هو في قوّة الكبرى: ومفارقة الأخ لا يجوز فاحتشامه لا يجوز. وبالله التوفيق والعصمة.

هذا آخر ما وجدناه من اختيار السيّد الرضي ـ رضي الله عنه ـ من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وإذ وفّقني الله تعالى لإتمام شرحه فله الحمد سبحانه على ما أعدّ لي له من مننه الجزيلة وأفاضه عليّ من نعمه الجليلة، ومنه أطلب وإليه أرغب أن يجعل ما كتبته حجّة لي لا علي إنّه المنّان ذو الفضل والإحسان. وكتب عبد الله الملتجيء إلى رحمته، المستعيذ من ذنوبه بعفوه وكرمه ميثم بن علي بن ميثم البحراني في منتصف ليلة السبت سادس شهر الله المبارك رمضان ـ عمّت بركته ـ من سنة سبع وسبعين وستمائة. والحمد لله كما هو أهله وصلّى الله على سيّدنا محمد النبي الأمّي وعلى آله الطاهرين الأكرمين وسلّم تسليماً.

فهرس ما في هذا الجزء من الكتب والوصايا والمختار من حكمه (ع)

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

